العصور

مجلة علمية نصف سنوية ، مُحكمة ، تعنى بنشر البحوث التاريخية و الآثارية و الحضارية

المجلد الخامس عشر

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

دار المريخ للنشر

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

العصور

مجلة علمية نصف سنوية، مُحَكَّمة، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الخامس عشر

الجـــزء الأول

ينـايـر 2005م

ذو القعـدة 1425هـ

دار المريخ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

١ – « العصور » مجلة نصف سنوية تتولى نشرها دار المريخ للنشر بالرياض وتصدر عن مكتبها بلندن .
٢ – تقدم البحوث والمقالات والترجمات مطبوعات على الآلة الكاتبة على مسافتين من أصل وصورتين على ورق مقاس ٢١ × ٢٩,٧ سم (A4) وعلى وجه واحد فقط ، ترقم جميع الصفحات شاملة الجداول والصور التوضيحية .
٣ – يراعى ألا يتجاوز عدد صفحات أي بحث أو مقال ٣٠ صفحة (أي في حدود ٧٠٠٠ كلمة) ، أما بالنسبة للكتب المحققة فيراعى ألا يتجاوز عدد صفحاتها ٥٠ صحة (أي في حدود ١٢,٠٠ كلمة) .
٤ – يرفق الباحث ملخصاً لبحثه في حدود ٢٠٠ كلمة (مائتي كلمة) تتصدر البحث باللغتين العربية والأجنبية .
٥ – ترسم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بالحبر الصيني على ورق « كلك » حتى تكون صالحة للطباعة ، أما الصور الفوتوغرافية فيراعى أن تكون مطبوعة على ورق لماع ، وإذا كانت ملونة فلابد من تقديم الشريحة الأصلية .
٦ – يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية ، وكذلك الألفاظ والعبارات التي يراد طبعها ببنط ثقيل ، كما توضع خطوط عادية أسفل عناوين الكتب والدوريات .
٧ – يراعى كتابة علامات الترقيم بعناية (النقطة ، علامة الاستفهام ، علامة التعجب ... الخ) في كتابة البحث وبصفة عامة يتبع أسلوب ال« MLA » في الكتابة .

٨ - الحواشي

تطبع الحواشي على الآلة الكاتبة وعلى مسافتين في صفحات مستقلة في نهاية البحث ولا تقبل قائمة للمراجع كل حاشية تمثل جملة مستقلة ولا تشمل على نقط بداخلها .
ويأخذ الترتيب العام للحاشية الشكل الآتي :
اسم (أسماء) المؤلف (ين) ، عنوان الفصل أو الجزء من الكتاب ، عنوان الكتاب ، أسم (أسماء) المحرر (ين) ، المترجم (ين) ، المعد (ين) ؟ رقم الطبعة المستخدمة ، رقم السلسلة عدد المجلدات ، مدينة النشر ، الناشر ، سنة النشر ، رقم المجلد ، وأرقام الصفحات ، ويتبع في الحواشي النظام الآتي :
البحوث
عبد المحسن مدعج ، علي بن الفضل ودعوته في اليمن (٢٦٨ – ٣٠٣ هـ) . « العصور » مجلد ٣ جزء ١ ، ١٩٨٨ م . ص ص ٨٣ – ١٠٦ .
الكتب
المقريزي . تقي الدين أحمد بن علي النقود القديمة والإسلامية ، تحقيق رأفت محمد النبراوي ، العصور ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ١٩٨٨ م . ص ص ١٤٩ – ١٥٣ .
محمود محمد الروسان ، القبائل الثمودية والصفوية : دراسة مقارنة (الرياض : جامعة الملك السعود ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) . ص ص ٢٥ – ٢٧ .
عاطف وصفي الثقافة والشخصية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧ م) . ص ٧ .
بعد الذكر الأول للحاشية مشتملة على جميع البيانات المرجعية يشار إليها بعد ذلك في الشكل المختصر وهو يشتمل على اسم العائلة للمؤلف يتبعه أرقام الصفحات المطلوب الاشارة إليها .
(١٧) نوصير ، ص ص ٢٧ – ٥٣ .
وفي حالة وجود عمل أو أكثر للمؤلف نفسه في المقال نفسه فإن الشكل المختصر للحاشية يشتمل بالضرورة على مختصر العنوان بعد اسم العائلة للمؤلف مباشرة .
(٢٨) نوصير . مدرسة جركسية ص ص ٢٧ – ٥٣ .
تأخذ الحواشي أرقاماً مسلسلة حتى نهاية البحث دون استخدام نجوم أو أية رموز أخرى وتطبع في المتن في موضع أعلى قليلاً من السطر بعد علامات الترقيم .
في حالة الكتب التي تفتقر إلى بيانات النشر ، يشار إلى أحدها أو أكثر من الاختصارات الآتية :
د . م . = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون اسم ناشر . د .ت = بدون تاريخ النشر ، د . ص = بدون أرقام صفحات .
٩ – أصول البحوث والمقالات وترتيبها داخل العدد لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب .
١١ – لما كانت المجلة تصدر نصف سنوية بصفة دورية ، وتوزع في موعد محدد فإن ذلك يتطلب ضرورة جمع موضوعاتها وتنسيقها وإخراجها وطباعتها في وقت يسبق موعد التوزيع بفترة كافية .
١٢ – لا تقبل المجلة نشر البحوث أو المقالات أو الترجمات التي سبق نشرها . كما لا يجوز إعادة النشر في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في هذه المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئاسة تحرير المجلة .
١٣ – تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية .
١٤ – تأمل رئاسة التحرير من السادة الأساتذة الباحثين والكتاب الذين يرغبون في نشر بحوثهم ومقالاتهم في الاعداد القادمة من المجلة أن يلتزموا بالقواعد هذه . لأن هذا يساعد رئاسة تحرير المجلة على أداء عملها كما يساهم في خدمة أهداف المجلة وسنتعذر عن قبول أي مقالة أو بحث لا يلتزم مؤلفها بتلك التعليمات .
١٥ – يقوم المؤلفون بمراجعة تجارب الطبع الأخيرة بمطابقتها على الأصول ، مع مراعاة عدم إجراء أي تغييرات فيها تختلف عما ورد في الأصول ، سواء بالإضافة أو الحذف ، على أن تعاد تجربة الطبع خلال ٤٨ ساعة فيما او رأت رئاسة التحرير غير ذلك .
١٦ – تمنح إدارة المجلة لمؤلف كل بحث أو مقالة نسخة مجانية من المجلد الذي نشر به البحث أو المقال .
١٧ – توجه جميع المراسلات الخاصة بالمجلة إلى : دار المريخ للنشر – ص ب ١٠٧٢٠ ، الرياض ١١٤٤٣ ، المملكة العربية السعودية .

العصور

مجلة علمية مُحَكّمة، نصف سنوية، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الخامس عشر

الجزء الأول

يناير 2005م

ذو القعدة 1425هـ

دار المريخ

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

العصور

موقع المجلة على الإنترنت
http://alosour.netfirms.com

البريد الإلكتروني للمجلة
al_osour@hotmail.com

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر – ص . ب 10720 الرياض : 11443 – المملكة العربية السعودية.
- دار المريخ للنشر – 4 ش الفرات – مدينة المهندسين – جمهورية مصر العربية.
- هاتف 3376579 فاكس 7609457.
- الدار العربية للنشر والتوزيع – 49 جولد هوك رود، لندن - W128QP المملكة المتحدة.

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (100) ريال سعودي.
- الدول العربية (35) دولاراً أمريكياً أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (40) دولاراً أمريكياً .
- أمريكا وكندا (45) دولاراً أمريكياً .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (50) دولاراً أمريكياً .

* ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها.

المستشارون

العصور، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول، 1- 136، القسم العربي، (2005م).

المحتويــات

القسم العربــي

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، 7 – 28 (2005م)

دراسة تحليلية للمواد الأولية والعناصر الإنشائية والمعمارية لمساكن بلاد الشام في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

د. خالد محمود أبو غنيمة

ملخص البحث:

يتناول البحث دراسة تحليلية لأهم المواد الأولية والعناصر الإنشائية والمعمارية في مساكن المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم في بلاد الشام. وقد أظهر البحث وجود تطور في عملية تشييد المساكن من خلال التنوع والتجديد في العناصر الإنشائية والمعمارية كالأسس، والجدران، والأعمدة، والمداخل، والأرضيات، كذلك إضافته لبعض الملاحق كالمواقد والمخازن وتنوعها نتيجة لتطوره الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في هذه المرحلة. وقد أظهر البحث كذلك التطور التقني للإنسان من خلال اختياره واستغلاله للمواد الأولية المتوفرة في بيئته المحلية حسب احتياجاته.

يجمع علماء الآثار على أن بداية تشييد المساكن في منطقة بلاد الشام ترجع إلى بداية المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (Epipalaeolithic)، وذلك مع قيام إنسان المرحلة الكباريه غير الهندسية (Kebaran Non Geometric) بتشييد أكواخ سكنية له في موقع "اوهالو 2" (Ohalo 2)، وموقع "خربة العاشق 1" (عين جيف 1)(Ain Gev I)◆، حيث تميزت مساكن هذه الفترة بكونها نصف محفورة في خنادق دائرية ذوات جدران مدعمة بحجارة غير مشذبة (الفقل). ومنذ تلك الفترة، كشفت التنقيبات الأثرية عن مساكن احتوت على بقايا وعناصر معمارية في العديد من مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم في بلاد الشام. وتميزت مساكن تلك المرحلة ببساطة التخطيط، حيث تتألف من غرفة دائرية أو بيضوية الشكل، بأرضية طينية. ويرجع سبب بساطة مخطط المسكن في هذه المرحلة لكون اهتمام الإنسان القديم كان منصباً على تأمين مسكن يوفر له الأمان والاستقرار الجزئي أو المؤقت بجانب المزروعات البرية التي كان يجمعها، وعدم وجود الوقت الكافي لديه للاهتمام بجمالية المسكن.

◆ لما كانت بعض المواقع الأثرية في فلسطين تُذكر في الأبحاث المختصة اليوم بأسمائها الأجنبية الحديثة دون أسمائها العربية الأصيلة فأورد أسماء هذه = المواضع العربية أولاً ثم الاسم الأجنبي بحروف اللغة التي جاء بها بعد ذلك تسهيلاً على القارئ في معرفة المواقع المقصودة.

وقد انعكس هذا الأمر على العناصر المعمارية التي استخدمها في البناء والتي تميزت بالعناصر الأساسية وهي المدخل، والجدران، والسقف، وبعض الملاحق الثانوية التي أضافها الإنسان في مساكنه نتيجة للتطور التقني والاقتصادي في حياته. ولا تزال الدراسة التي نشرها " اوليفية اورنش " (O. Aurenche) عام 1981[1] من أهم الدراسات التي عنيت بعمارة الشرق الأدنى بشكل عام وبلاد الشام بشكل خاص، والعناصر المعمارية بها بشكل خاص. وسيتم تناول موضوع البحث عمارة المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم ككل دون الدخول في التقسيمات الفرعية للمرحلة. لكون عمارة فترات المرحلة تتشابه في خصائصها و ميزاتها.

1 - **المواد الأولية:**

من البديهي أن الإنسان القديم لم يكن يملك مهارات تقنية كافية في البناء مما استدعى لجوءه إلى السكن في الكهوف الطبيعية، في الفترات الأولى من حياته، ولكنه لا بد أنه استفاد من ملاحظته للعناصر التي تتألف منها هذه الكهوف وهي المدخل، والجدران، والسقف، عندما اضطر إلى الخروج منها والسكن في الخارج. ومن البديهي أيضاً أن الإنسان القديم استخدم المواد الأولية المتوفرة في بيئته لبناء مساكنه لاحقاً. ومن المعلوم أن المساكن الأولى في بلاد الشام ظهرت في منطقة غور الأردن حيث لا تتوفر بكثرة الحجارة، مما دعاه لاستخدامها في دعم جدران الحفر التي استخدمها كمساكن. ولو قارنا هذه البيئة ببيئة منطقة الفرات، على سبيل المثال لا الحصر، مما دعاه لاستخدام الطين والخشب والقصب في تشييد مساكنه الأولى، بينما تميزت المساكن في شمال بلاد الشام بكونها شيدت بالطين.

1/1 **الحجر:** يعد الحجر من أهم المواد الإنشائية التي استخدمها الإنسان القديم في تشييد مساكنه، وذلك بسبب وجوده بكثرة في مختلف مناطق بلاد الشام. وقد استخدمه الإنسان بكافة أنواعه كالحجر الكلسي، والبازلتي، والرملي حسب احتياجاته، واستخدمه حسب ما يتوفر لديه أو حسب ما يتم استخراجه أي دون تشذيب أو تهذيب. وقد تنوع استخدام الإنسان للحجر، فقد استخدمه كعنصر إنشائي في أساسات المساكن كما أظهرت ذلك المخلفات المعمارية المكتشفة في موقع "عين الملاحة" (عينان)[2]، و"وادي الحمه 27"[3]، كذلك استخدم الحجر الكلسي غير المشذب (الغفل) في بناء الجدران في معظم مواقع (المرحلة اللاحقة للعصر الحجري

(1) Aurenche O., 1981, **La Maison Orientale: L'Architecture du Proche Orient Ancien des Origines au Milieu du Quatrieme Millinaire**. Paris. Librairie Orientaliste Paul Geuthner S. A.

(2) - Perrot J., 1960, Excavations at Eynan (Ein Mallaha): Preliminary Report on the 1959 Season **Israel Exploration Journal**, 10/1: 14-22.
– Perrot J., 1968, **La Prehistoire Palestinienne**. In Supplement au Dictionnaire, VIII, Paris, Letouzy et Ane, 286-446.

(3) Edwards P., 1984, Two Epipalaeolithic Sites in Wadi Hammeh (Area XX). Pp. 56-61. In: McNicoll A., Ball W., Bassett S., Edwards P., Macumber P., Petocz D., Potts T., Randle L., Villiers L. and Watson P., "Preliminary Report on the University of Sydney's Fifth Season of Excavation at Pella in Jordan". **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** 28: 59.

القديم) كما هو الحال في مواقع "اوهالو 2"[4]، و"النبي داود" (نفه دافيد) (Neve David)[5]، و"خربة العاشق 3" (عين جيف 3) (Ain Gev 3)[6]، و"كهف الحمام" (هايونيم) (Hayonim)[7]، و"وادي الفلاح" (نحال اورن) (Nahal Oren)[8]، و"الواد" (El Wad)[9]، و"أريحا" (Jericho)[10]، و"وادي الحمه 27" (Wadi Hammeh 27)[11]، و"خلة العنزي" (Khalet Anzi)[12]، و"عين راحوب" (Ain Rahub)[13]، و"صيدا 2" (Saiide 2)[14].

واستخدمه أيضاً في دعم جدران الحفر (جدران استنادية)، كما هو الحال في موقع "خربة العاشق 1" (عين جيف 1) (Ain Gev 1)[15]، كما استخدم الحجر كذلك في رصف بعض الأرضيات السكنية لأكواخ ومساكن هذه المرحلة كما هو الحال في مواقع "خربة العاشق 1" (عين جيف 1)[16]، و"أريحا"[17]، و"عين الملاحة" (عينان)[18]، و"كهف الحمام" (هايونيم)[19]، و"البيضا" (Beidha)[20]، وفي رصف أرضية المدافن كما هو الحال في مدفن "عرق الأحمر" (Irq al-Ahmar)[21].

---

(4) Nadel D., 1990 Ohalo II, A Preliminary Report. **Mitekufat Haeven** 23: 50-51.

(5) Kaufman D., 1987 Excavations at the Geometric Kebaran Site of Neve David, Israel. A Preliminary Report. **Quartar** 37-38: 189-199.

(6) Martin G. and Bar-Yosef O., 1975-1977 Ein Gev III, (1974-1975). **Paleorient** 3: 285.

(7) - Bar-Yosef O. and Goren N., 1973 Natufian Remains in Hayonim Cave. **Paleorient** 1: 54.

– Hours F., Aurenche O., Cauvin J., Cauvin M., Copeland L. et Sanlaville P., avec la Collaboration de Lombard P., 1993 **Atlas des Sites du Proche-Orient**. P. 164. Travaux de la Maison de l'Orient Mediterraneen no 24. Lyon.

(8) Stekelis M. and Yizraely T., 1963 Excavations at Nahal Oren. Preliminary Report. **Israel Exploration Journal** 13: 12.

– Noy T., 1977 Nahal Oren. **EAEHL** III: 903.

(9) Garrod D. and Bate D., 1937, **The Stone Age of Mount Carmel I**. P. 11. Oxford.

(10) Kenyon K., 1960, Archaeology of the Holy Land. P. 41. New York.

– Kenyon K. and Holland T., 1981 **Excavations at Jericho. Vol. III. The Architecture and Stratigraphy of the Tell**. P. 271-272. British School of Archaeology in Jerusalem.

(11) Edwards P., 1987, **Late Pleistocene Occupation in Wadi al-Hammeh, Jordan Valley**. P. 136-140. Unpublished Ph. D. Theses. University of Sydney.

(12) Betts A., 1991 The Late Epipaleolithic in the Black Desert, Eastern Jordan. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 217-219. International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1.

(13) Gebel H. –G. and Muheisen M., 1985 Note on Ain Rahub, A New Late Natufian Site Near Irbid. **Paleorient** 11/1: 107.

(14) Shroeder B., 1991, Natufian in the Central Beqaa Valley, Lebanon. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 57.

(15) Bar-Yosef O., 1970, **The Epipalaeolithic Cultures of Palestine**. P. 111. Doctoral Thesis. Hebrew University, Jerusalem.

(16) Bar-Yosef O., 1970, Ibid; 1976 En Gev **EAEHL** II: 381.

(17) Kenyon K., 1960, Op. Cit.: 41; 1976 Jericho. EAEHL II: 553.

(18) Bar-Yosef O., 1991, The Archaeology of the Natufian Layer at Hayonim Cave. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 78.

(19) Perrot J., 1993, Enan. **The NewEAEHL** II: 389-393.

(20) Byrd B., 1991, Beidha: an Early Natufian Encampment in Southern Jordan. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 259.

(21) Gilead D., 1977, The Irq el Ahmar Shelter. **EAEHL** II: 662.

2/1 **الطين:** يعد الطين كذلك أحد المواد الأساسية المستخدمة بأشكال عدة في تشييد مساكن "المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم" في بلاد الشام، وذلك بسبب توفره بكثرة في المنطقة وسهولة الحصول عليه، حيث استخدمه الإنسان في صناعة الطوب الطين (Mud Brick) لبناء الجدران، وفي طلاء وتغطية أرضيات وجدران المساكن، وكذلك استخدمه كمادة رابطة للمواد الأولية المتنوعة المستخدمة في إنشاء الجدران.

وعثر على أمثلة تظهر استخدام الطين منفرداً في تشييد جدران من الطوب في مواقع "غور الأردن" ومنطقة الفرات في سوريا. فتشير التقارير الأثرية عن مساكن شيدت من الطوب الطيني في موقع "البيضا"[22]، و"المريبط" (Mureybet)، و"أبو هريرة 1" (Abu Hureyra 1).

أما في حالة استخدامه لتكسية الجدران والأرضيات، فتشير التقارير الأثرية إلى استخدامه بهذا الشكل في معظم مواقع هذه المرحلة كما هو الحال في موقع "كهف الحمام" (هايونيم)[23]، وموقع "عين الملاحة" (عينان) حيث عثر على جدار لأحد المساكن مكسو بالطين ثم بطلاء أبيض قاس يحمل آثار دهان أحمر[24]، وموقع "أريحا"[25].

أما بالنسبة إلى استخدامه كمادة رابطة، فنجد أمثلة على هذا الاستخدام في "مصطبة كهف الحمام" (مصطبة هايونيم)[26]، و"وادي الفلاح" (نحال أورن) إذ استخدم كمادة رابطة في الجدار الدائري المشيد من الحجارة غير المشذبة (الفغل)[27]، و"وادي الحمة 27" من خلال استخدام الملاط الطيني مع الحجارة الكلسية الصغيرة لزيادة تماسك حجارة جدران أحد المساكن مع بعضها البعض[28].

3/1 **الخشب:** يعد الخشب من المواد الأولية والأساسية في عملية البناء. وتتميز بلاد الشام بكثرة أشجارها وتنوع أخشابها، وأهم الأشجار التي لا بد أن دخلت أخشابها في عملية بناء هذه الفترة البطم، والصنوبر، والسنديان، والحور، إلا أنه قليل المقاومة للعوامل البيئية، لا سيما المناطق الرطبة الحارة، إضافة إلى العمق التاريخي لموضوعنا وامتداد فترته كفيلة بتحلل الكثير من الأخشاب التي ربما استعملت في البناء، وفيما

(22) Kirkbride D., 1968, Beidha: Early Neolithic Village, Life South of the Dead Sea. **Antiquity** 42: 264-265.
– Byrd B., 1989, **The Natufian Encampment at Beidha: Late Pleistocene Adaptation in the Southern Levant**. P. *21*. Jutland Archaeological Society Publication vol. 23. Aarhus, Denmark.

(23) Henry D., 1973, **The Natufian of Palestine: Its Material Culture and Ecology**. P. 81. Unpublished Ph. D. Thesis. Southern Methodist University.

(24) Valla F., 1991 Les Natufiens de Mallaha et l'Espace. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 122.

(25) Kenyon K., 1960, Op. Cit.: 41; Kenyon and Holland 1981 Op. Cit: 272.

(26) Henry D., 1976, The Excavation of Hayonim Terrace: an Interim Report. **Journal of Field Archaeology** 3/4: 394.

(27) Hours et al., 1993 Op. Cit: 263.

(28) Edwards P., 1987, Op. Cit: 124-127.

عدا بقايا الفحم، فإن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن أية بقايا خشبية في أي موقع في بلاد الشام، باستثناء البقايا الخشبية المحترقة في موقع "المريبط"[29]. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نستطيع التحدث عن استخدام الإنسان للخشب في نواح عديدة في مختلف المباني من خلال أدلة غير مباشرة عثر عليها في مواقع عديدة. فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن أرضيات تحتوي على حفر صغيرة استخدمت كركيزة لحمل الأعمدة الداعمة للسقف كما هو الحال في مواقع "أوهالو 2"[30]، و"الخرانة 4"[31]، و "عين الملاحة"[32]، و"أريحا"[33]، و"وادي الحمه 27"[34]، و"المريبط"[35]، و"أبو هريرة 1"[36]. ويستدل على ذلك من خلال مجموعة من الحجارة المكدسة فوق أرضية أحد الأكواخ استخدمت كقاعدة لتثبيت أعمدة خشبية في موقع "خربة العاشق 3"(عين جيف 3)[37]. كما يفترض أن يكون تسقيف المساكن كان يتم بواسطة عوارض خشبية. ويحتمل أيضاً بأن الخشب، وأغصان الأشجار قد استخدمت في تغطية أسقف الأكواخ والمساكن ثم تغطى بطبقة من الطين فوقها كما هو الحال في مواقع "أوهالو 2"[38]، و"أريحا"[39]، و"المريبط"، و"أبو هريرة 1"[40]، ويمكننا الافتراض بأن الخشب قد استخدم في صنع أبواب المساكن. وكذلك يمكن القول بأن الإنسان القديم قد استخدمها في صنع السلالم وذلك للصعود والنزول إلى داخل المساكن عبر المدخل العلوي. ونبني افتراضنا هذا بناءً على ما عثر عليه في السوية العائدة للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" في موقع "شاتال هيوك" (Çatal Hüyük) في تركيا[41]. وكذلك فإننا نعتقد بإمكانية استخدام إنسان هذه المرحلة للدرجات الخشبية في عملية الدخول والخروج من مساكنه المشيدة تحت مستوى الأرض بحوالي

(29) Aurenche O., 1980, La Maison XLVII de Tell Mureybet. In: Margueron J. C., (ed.): **Le Moyen Euphrate, Zone de Contacts et d'Echange**: fig. 17-19. Leiden: Brill.
(30) Nadel D., 1990 Op. Cit: 49.
(31) Muheisen M., 1988a, **Le Paleolithique et l'Epipaleolithique en Jordanie**. P. 235-236. Theses de Doctorat d'Etat. Bordeaux.
(32) Perrot J., 1975, Mallaha (Eynan), 1975. **Paleorient** 2/2: 485-486.
(33) Kenyon K. and Holland T., 1981, Op. Cit: 274.
(34) Edwards P., 1991, Wadi Hammeh 27: An Early Natufian Site at Pella, Jordan. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 128.
(35) Cauvin J., 1974, Troisieme Campagne de Fouilles a Tell Mureybet (Syrie), en 1973: Rapport Preliminaire. AAAS 24: 24; Aurenche O., 1980 Op. Cit: 47.
(36) Moore A., Hillman G. and Legge A., 1975 The Excavation of the Abu Hureyra in Syria: A Preliminary Report. **Proceedings of the Prehistoric Society** 41: 50-58.
- Moore A., 1991, Abu Hureyra 1 and the Antecedents of Agriculture on the Middle Euphrate. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 279-283.
(37) Martin G. and Bar-Yosef O., 1975-1977 Op. Cit: 285.
(38) Nadel D., 1993, Ohalo II. **The NewEAEHL** III: 1116.
(39) Kenyon K. and Holland T., 1981, Op. Cit: 272. Pl. 145b.
(40) Moore A 1991 Op. Cit: 279.
(41) Mellaart J., 1963, Excavations at Çatal Hüyük, 1962. Second Preliminary Report. **Anatolian Studies** 13: 75.

"50 سم" وذلك بسبب عدم وجود درج حجري أو أي وسيلة مشابهة في تلك المساكن.

4/1 **القصب**: ينمو القصب غالباً بالقرب من مجاري الأنهار والبحيرات. ومن المعلوم أن المساكن الأولى المشيدة من قبل الإنسان قامت بالقرب من البحيرات ومجاري الأنهار، لذا لابد أن الإنسان قد استفاد من هذه المادة في تشييد مساكنه الأولى، خاصة أنها كانت تحت مستوى الأرض وخفيفة البناء. ويحتمل أن الإنسان في بلاد الشام قد استخدم القصب كهيكل خارجي لمحيط الأكواخ وسقفها، كما تشير بذلك المعطيات المتوفرة لدينا من مواقع مثل "اوهالو 2"[42]، "وعين الملاحة" (عينان) (Wadi Mallah) (Eynan)[43]، و"أبو هريرة 1"[44]، و"الخرانة 4" (Kharaneh IV)[45].

5/1 **الجص**: تشير التقارير الأثرية إلى معرفة إنسان هذه المرحلة بهذه المادة وتصنيعها منذ المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم، إلا أنه لم يستخدمها في عمارته بشكل كبير. فعلى الرغم من أن التنقيبات الأثرية في موقع "كهف الحمام" (هايونيم) قد كشفت عن غرفة أعيد استخدامها كلاسة* بعد بناء فرن كبير بداخلها، إضافة إلى العثور على مدقة حجرية تحمل آثار كلس مسحوق[46]، إلا أن تقارير التنقيبات الأثرية للموقع لا تشير إلى استخدام الجص بأي شكل من الأشكال. ويعد موقع "عين الملاحة" (عينان) هو الوحيد المعروف لدينا الذي يشير إلى استخدام الجص في الموقع خلال (المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم)، إذ عثر على آثار للجص على الجزء الأسفل لجدار المسكن رقم "1"، وحفرة، استخدمت كمخزن، كسيت أرضيتها وجدرانها بطبقة جصية بيضاء سميكة[47]. كما يحمل الجص آثاراً لطلاء باللون الأحمر[48].

2 - العناصر الإنشائية والمعمارية:

يتألف تصميم المسكن من عدة عناصر يجب وضعها في مكانها المناسب أثناء وضع التصميم والبناء، إذ تؤثر هذه العناصر في شكل التصميم وكذلك يؤثر شكل التصميم فيها. وتعد الجدران، والمدخل، والسقف، والأرضيات من أقدم العناصر التي وضعها الإنسان القديم في مخطط مسكنه، وإن لم يظهر أحياناً بعض هذه العناصر في المخلفات المادية المكتشفة في منطقة الدراسة، ومع مرور الزمن ازداد عدد العناصر التي تألف منها مخطط المسكن. وسنتناول في ما يلي أهم العناصر 1- الإنشائية كالأساسات، والأرضيات، والأعمدة، والسقف 2- المعمارية كالمداخل، والنوافذ، والأبواب، 3- الإنشائية-المعمارية كالجدران، التي تألف منها المسكن في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم.

(42) Nadel D., 1990, Op. Cit: 51.

(43) Perrot J., 1960, Op. Cit: 15-16; 1975, Op. Cit: 485.

(44) Moore A., 1991, Op. Cit: 279.

(45) Muheisen M., 1988b, Le Gisement de Kharaneh IV: Note Sommaire sur la Phase D. **Paleorient** 14/2: 265-266.

* كلاسة: اتون لحرق حجر الكلس وتحويله إلى كلس.

(46) Bar-Yosef O., 1991, Op. Cit.: 81-92; 1993 Hayonim Cave. **The NewEAEHL** II: 589-591.

(47) Perrot J., 1960, Op. Cit.: 15.

(48) Perrot J., 1960, Ibid, 18; 1975, Op. Cit.: 485-486; 1993, Op. Cit.: 391.

1/2 العناصر الإنشائية: وهي العناصر التي يعتمد المبنى إنشائياً عليها.

1/1/2 الأساسات: هي عنصر إنشائي يمثل الجزء السفلي من المبنى على تماس مباشر بالتربة. والهدف من عمل الأساسات هو إيجاد قاعدة صلبة ترتكز عليها الجدران بدلاً من أن ترتكز على سطح الأرض مباشرة، وذلك لزيادة قوة تحمل التربة ونقل الأحمال من الجدران إلى التربة بالتساوي. ولا تشير تقارير نتائج التنقيبات الأثرية في مواقع (المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم) إلى الأساليب المتبعة في أساسات عمارة هذه المرحلة. إلا أننا نعتقد بأن الإنسان القديم اتبع عدة أساليب في بناء أساسات مساكنه الأولى، ففي بداية تشييده للمساكن ربما قام ببناء مساكنه مباشرة فوق سطح الأرض، خاصة أن مباني هذه المرحلة كانت في الغالب تقام تحت مستوى سطح الأرض، مما يجعل الحفرة كأساس للكوخ، حيث شيدت الجدران مباشرة فوق الأرض، كما هو واضح في مواقع "اوهالو 2"(49)، و"خربة العاشق 1" (عين جيف 2)(50)، و"وادي الحمه 27"(51). ومع تطور مساكنه واحتياجها لأساس قوي فإنه قام بالبناء فوق أساس يتكون من مدماك أو مدماكين من الحجارة، ثم أكمل بناء الجدار بالطين كما هو الحال في "أريحا"(52)، و"البيضا"(53)، أو ببناء جدار مشيد من الحجارة فوق أساس حجري كما هو الحال في "عين الملاحة" (عينان)(54)، و"وادي الحمه 27"(55).

2/1/2 الأرضيات: اهتم الإنسان القديم بتسوية أرضية المسكن الذي أقام فيه وذلك بسبب رغبته في السكن على أرضية مستوية، ومنتظمة، ومريحة. وعالج الإنسان القديم أرضيات مساكنه بطريقتين: أولهما طريقة الأرضيات الطينية، وتعد هذه الطريقة الأكثر استخداماً في مساكن هذه المرحلة، وتتمثل بوضع طبقة قاسية من الطين المدكوك فوق التراب. وقد عثر على هذا النوع في معظم المواقع مثل "اوهالو 2"(56)، و"الخرانه 4"(57)، و"عين الملاحة" (عينان)(58)، و"كهف الحمام" (هايونيم)(59)، و"وادي الفلاح" (نحال اورن)(60)، و"وادي الحمه 27"(61)، و"عين السرطان-أزرق 18" (Azraq 18)(62)، وخلة العنزي"(63)، والمريبط"(64)،

(49) Nadel D., 1990, Op. Cit.: 50-51.
(50) Bar-Yosef O., 1970, Op. Cit: 111.
(51) Edwards P., 1984, Op. Cit: 59; 1987 Op. Cit: 138.
(52) Kenyon K., 1960 Op. Cit: 41.
(53) Gilead D., 1975, Wadi Beidha. **EAEHL** I: 168-170; Hours et al., 1993, Op. Cit.: 76.
(54) Perrot J., 1960, Op. Cit ; 1968 Op. Cit.
(55) - Edwards P., 1984, Op. Cit: 59.
- كفافي، زيدان 1992 **الأردن في العصور الحجرية.** ص 117. لجنة كتابة تاريخ الأردن. مؤسسة آل البيت. عمان.
(56) Nadel D., 1990, Op. Cit: 49.
(57) Muheisen M., 1988a, Op. Cit: 263.
(58) Valla F., 1991, Op. Cit: 116.
(59) Bar-Yosef O. and Goren N., 1973, Op. Cit.: 54.
(60) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit.: 11.
(61) Edwards P., 1991, Op. Cit: 125.
(62) Garrard A., 1991, Natufian Settlement in the Azraq Basin, Eastern Jordan. In: Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 240.
(63) Betts A., 1991, Op. Cit: 222.
(64) Cauvin J., 1978, **Les Premiers Villages de Syrie-Palestine du IXe au VII Millenaire =**

و"أبـو هريـرة 1"[65]. ويعـد هـذا النـوع مـن الأرضيات الأضعف إنشائياً؛ وذلك بسبب ضعف مقاومتهـا لمـا يحدثـه النشـاط المسـتمر للسـاكن ولعوامل الرطوبة والتعرية وسهولة تأثرهـا بعمل الحيوانـات القارضـة، ممـا يـؤثر عليهـا ويتطلـب ترميمهـا وصـيانتها لمـرات عـدة، حيـث كشـفت التنقيبـات الأثرية عن أكثر من أرضية طينية في المسكن الواحد في مواقع "اوهـالو 2"[66]، جبـل جيلات 6 الأعلى" (Jebel Jilat 6 Upper)[67]، و"عين الملاحة" (عينان)[68]. كما أشارت تقارير التنقيبـات الأثريـة عـن قيـام السـكان في بعـض الحـالات بوضـع رصـفه مـن الحجـارة الصـغيرة والحصى ثم بمد الأرضية الطينية فوقها لإعطائها متانة وصلابة لتحمل الاستعمال اليومي للساكن وعوامل الرطوبة، والقـوارض كمـا هـو الحـال في أرضـية كـوخ "خربـة العاشـق 1" (عـين جيـف 1)[69]، وأرضـية المسـكن رقـم "51" في "عـين الملاحة" (عينان)[70].

والطريقـة الثانيـة هـي الرصـف بالحجـارة، وتتمثل هـذه الطريقـة برصف حجارة صغيرة أو ألواح حجرية، وحصى فوق التراب. وقد عثر على هذا الشكل من الأرضيات في مواقع "خربة العاشق 1" (عـين جيـف 1)[71]، و"عـين الملاحـة" (عينـان)[72]، و"كهـف الحمـام" (هـايونيم)[73]، و"الواد"[74]، وأرضية الساحة الخارجية في "خربة العاشق 3" (عين جيف 3)[75]، و"البيضـا"[76]، و"خلـة العنـزي"[77]، و"أبـو هريـرة 1"[78]، و"صيدا 2"[79]. ويشير منقب موقع "أبو هريرة 1" إلى أرضـية أحـد المسـاكن كانـت مفروشـة بالحصير[80]. كمـا عثر علـى بعـض الأرضيات

= av. J. C. CMO 4, Arch. 3. Lyon and Diffusion de Boccard, Paris. P. 26.

(65) Moore A., Hillman G. and Legge A., 1975, Op. Cit: 56.

(66) Nadel D., 1990, Op. Cit. 94; 1993, Op. Cit.: 1166; 1994, Levantine Upper Palaeolithic Early Epipalaeolithic Burial Customs: Ohalo II as Case Study. **Paleorient** 20/1: 114.

(67) Garrard A., Byrd B. and Betts A., 1986, Prehistoric Environment and Settlement in Azraq Basin: An Interim Report on 1984 Excavation Season. **Levant** 18: 12; Garrard A. and Byrd B., 1992, New Dimensions to Epipaleolithic of the Wadi Jilat in the Central Jordan. **Paleorient**, 18: 49-50.

(68) Valla F., 1988, Aspects du Sol de l'Abri 131 de Mallaha (Eynan). **Paleorient** 14/2: 284.
- Boyd B., 1995, Houses and Hearths, Pits and Burials: Natufian Mortuary Practices at Mallah (Eynan), Upper Jordan Valley. In: Campbell S. and Green A., (eds.): **The Archaeology of Death in the Ancient Near East** : 20.

(69) Bar-Yosef O., 1970, Op. Cit: 111.

(70) Perrot J., 1966, Op. Cit: 444-445.

(71) Bar-Yosef O., 1970, Op. Cit: 111.

(72) Perrot J., 1966, Op. Cit: 444-445.
- Valla F., 1981, Les Etablisements Natoufiens dans le Nord d'Israel. In: Cauvin J. and Sanlaville P., (eds.): **Prehistoire du Levant** I : 412 and 414. Lyon, Ed. Du CNRS, Paris.

(73) Bar-Yosef O., 1991, Op. Cit: 87.

(74) Garrod D. and Bate D., 1937, Op. Cit.: 12 and pl. V., fig. 1.

(75) Martin G., 1978, En Gev III. **Revue Biblique** 86: 110.
- Martin G. and Bar-Yosef O., 1979, Ein Gev III, Israel (1978). **Paleorient** 5: 219.

(76) Byrd B., 1989, Op. Cit: 21; 1991, Op. Cit: 259.

(77) Betts A., 1991, Op. Cit: 219.

(78) Betts A., 1991, Op. Cit: 219.

(79) Moore A., 1991, Op. Cit: 279.

(80) Shroeder B., 1991, Op. Cit: 57.

الطينية المدهونة باللون الأحمر في موقع "جبل جيلات 6 الأعلى"[(81)].

3/1/2 **الأعمدة:** وتعد البقايا الخشبية المحترقة المكتشفة في "المريبط" الدليل الوحيد الذي نملكه على استخدام الخشب في دعم الجدران وحمل السقف، حيث عثر على بقايا محترقة لأخشاب مغروزة داخل جدران أحد المساكن في الموقع[(82)]. وباستثناء ذلك الدليل، فإننا لا نملك أمثلة مباشرة على أنماط الأعمدة المستخدمة في مساكن هذه المرحلة، ولكننا نملك الكثير من الدلائل غير المباشرة على استخدام الأعمدة في دعم السقف، فقد كشفت التنقيبات الأثرية في معظم مواقع هذه المرحلة عن الكثير من حفر صغيرة، قليلة ومتوسطة العمق، وأقطارها تتراوح بين "20 و30 سم" في أرضيات المساكن استخدمت كركيزة للأعمدة الخشبية في مواقع "اوهالو 2"[(83)]، و"الخرانه 4"[(84)]، و"خربة العاشق 3"[(85)]، و"أريحا"[(86)]، و"الخضيرة 1" (Hadera 1)[(87)]، و"عين الملاحة" (عينان)[(88)]، و"وادي الحمه 27"[(89)]، و"أبو هريرة 1"[(90)]. ويلاحظ في بعض الأحيان دعم جوانب الحفر بالحجارة كما هو الحال في موقع "عين الملاحة" (عينان)[(91)] (شكل رقم 1أ). كما استخدمت أكوام من الحجارة لدعم الأعمدة الخشبية الداعمة للسقف كما هو الحال في موقع "خربة العاشق 3" (عين جيف 3)[(92)]، و"مصطبة كهف الحمام" (مصطبة هايونيم) (Hayonim Terrace)[(93)].

4/1/2 **السقف:** في غياب الأدلة المادية يصبح من الصعب التحدث عن شكل التسقيف وطبيعته، إذ إن التنقيبات الأثرية في مواقع هذه المرحلة لم تكشف النقاب عن مسكن مكتمل. ولكننا ومن خلال الأدلة غير المباشرة المكتشفة كأساسات المساكن، وحفر الأعمدة الداعمة للسقف المغروزة في أرضيات المساكن، فإننا نفترض أن التسقيف كان يتم بوضع مواد خفيفة كالأخشاب، وأغصان الأشجار، والقصب، والجلود، والطين. وذلك بمد عوارض خشبية، أو أغصان الأشجار والقصب ثم تغطية العوارض الخشبية بالجلود ثم تغطيتها

(81) Garrard A., Byrd B. and Betts A., 1986 Op. Cit: 12; Garrard A. and Byrd B., 1992 Op. Cit: 49.

(82) Aurenche O., 1980, Op. Cit: figs. 17-19.

(83) Nadel D., 1990, Op. Cit: 49; 1993, Op. Cit: 1116.

(84) Muheisen M., 1988b, Op. Cit: 265-266.

(85) Martin G. and Bar-Yosef O., 1975-1977, Op. Cit: 285.

(86) Kenyon K., 1960, Op. Cit: 41; Kenyon K. and Holland T., 1981, Op. Cit: 272 and 274.

(87) Ronen A. and Kaufman D., 1976, Epipalaeolithic Sites near Nahal Hadera, Central Coastal Plain of Israel. **Tel Aviv** 3: 16-29.

- Fuchs C., Kaufman D. and Ronen A., 1977, Erosion and Artifact Distribution in Open-Air Epipalaeolithic Sites on the Coastal Plain of Israel. **JFA** 4/2: 171-179.

(88) Perrot J., 1975, Op. Cit: 485-486; Valla F., 1991, Op. Cit: 112-119.

(89) Edwards P., 1991, Op. Cit: 128.

(90) Moore A., Hillman G. and Legge A., 1975, Op. Cit: 50-58.

(91) Perrot J., 1966, Op. Cit: 445; 1975, Op. Cit: 485-486.

(92) Martin G. and Bar-Yosef O., 1975-1977, Op. Cit: 285; 1979, Op. Cit: 219.

- Bar-Yosef O., 1976, Op. Cit: 381; Martin G., 1978, Op. Cit: 262-263.

(93) Henry D., 1976, Op. Cit: 394.

بطبقة من الطين، والذي يبدو أنه تم استمرار استخدامه في المراحل اللاحقة كما هو الحال في فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "أ" في موقع "وادي الفلاح" (نحال اورن)، والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" في موقع "شاتال هويوك" في تركيا. ويحتمل أن السقوف في تلك المساكن كانت مستوية أو ذات ميل قليل.

1/3 العناصر الإنشائية - المعمارية: وهي العناصر التي تمزج ما بين الوظيفة الإنشائية والوظيفة الجمالية.

1/1/3 المدخل: يعد المدخل من العناصر المعمارية الأساسية التي صممها الإنسان القديم في مخطط مساكنه الأولى التي شيدها كونه واسطة الدخول والخروج من وإلى المسكن، وذلك لأهمية الوظائف التي يؤديها في توفير الأمان والستر للسكان من ناحية، ولحمايته من عوامل البيئة والمناخ والتقليل من حدتها من ناحية أخرى. وتضافرت عوامل عديدة منها العلاقات الاجتماعية، والظروف الطبيعية، والأمنية في تحديد موقع المدخل بالنسبة للمسكن. وعلى الرغم من أن التنقيبات الأثرية في معظم مواقع هذه المرحلة قد كشفت عن مساكن، إلا أن غالبيتها ليس لها مداخل لكون جدرانها قليلة الارتفاع ولا تتجاوز المدماكين أو الثلاثة في أغلب الأحيان. ولكن من خلال المعطيات المتوفرة لدينا من تقارير التنقيبات الأثرية يمكننا الحديث عن نمطين من المداخل أولهما المدخل العلوي (مدخل السقف) وهو افتراضي، إذ إننا لا نملك أدلة مادية مباشرة عنه، وذلك بسبب ندرة الجدران المرتفعة المكتشفة. وقد أشارت التنقيبات الأثرية أن المساكن الأولى كانت حفرة تنخفض عن منسوب مستوى سطح الأرض بعمق يتراوح بين "50 و70 سم" ولم تكتشف فيها مداخل أرضية، كما هو الحال في مواقع "اوهالو 2"، و"خربة العاشق 1" (عين جيف 1)، و"المريبط"، و"أبو هريرة 1"[(94)]. كما أن هذا النمط من المداخل كان مستخدماً في حفر التخزين الموجودة في بعض المواقع.

ويشير العديد من تقارير التنقيبات الأثرية إلى عدم العثور على مداخل في جدران بعض المساكن والتي يصل ارتفاعها إلى نحو "70 سم" كما هو الحال في "كهف الحمام" (هايونيم)، حيث كشفت التنقيبات الأثرية عن جدران يتراوح ارتفاعها بين "60 و70 سم" ولا تحتوي على مداخل[(95)]، وكذلك "وادي الفلاح" (نحال اورن)[(96)]. وهذا ما يدعونا للافتراض بأن المدخل كان من السقف، ونبني افتراضنا هذا على المكتشفات الأثرية في الفترات التالية لهذه المرحلة كما هو الحال في المجمع البنائي في المنطقة "ب" في موقع "البسطة"، حيث لم تكشف التنقيبات الأثرية عن أية مداخل للغرف الصغيرة باستثناء النوافذ الصغيرة (الفتحات) والتي لا

---

(94) كوفان، جاك، 1995، القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع حتى الألف السابع ق.م.، ص 72 -73. ترجمة الياس مرقص، دار الحصاد. دمشق.

(95) Belfer-Cohen A., 1988, The Natufian Graveyard in Hayonim Cave. **Paleorient** 14/2: 297-308.

(96) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit. 11.

تتسع لدخول الأشخاص(97)، وكذلك مساكن موقع "شاتال هويوك" في تركيا التي لم تكن تحتوي على مداخل جانبية، وإنما كانت مداخلها في السقف(98).

والنمط الثاني من المداخل هو المدخل المباشر ويعد من أقدم أنواع المداخل المكتشفة في مساكن هذه المرحلة. وهو يقع ضمن الجدار نفسه ويرتبط مباشرة مع حجرة المسكن. وعثر على أمثلة لهذا النوع من المداخل في موقع "عين الملاحة" (عينان)، حيث وجدت مداخل المساكن في الجدران المطلة على عين الماء(99). وتشير التقارير الأثرية إلى الاختلاف في الجهة التي يكون عليها، فمدخل المسكن رقم "26" كان في الجهة الشمالية، بينما مدخل المسكن "29" كان في الجهة الجنوبية-الغربية(100). كما عثر في موقع "أبو هريرة 1" على مدخل داخلي كما هو الحال في الحفر ذات الأرقام "469" و"470"(101). وفي الواقع فإنه من الصعوبة بمكان الحديث عن مدى ارتفاع المدخل في غياب الأدلة المادية المباشرة، وذلك بسبب قلة المخلفات المعمارية ذات الارتفاع العالي، إذ إن أكثر المساكن المكتشفة لم يتجاوز ارتفاع جدرانها المتر الواحد.

ويعد الباب الذي يسد فتحة المدخل من العناصر الأساسية التي تشكل جزءاً مهماً من عملية بناء المدخل، وإن كنا كذلك لا نستطيع الحديث عن أنواع وأشكال الأبواب بسبب عدم الكشف عن مخلفات مادية لها. إلا أننا نفترض بأنها كانت تسد بواسطة أبواب مصنوعة من الخشب.

2/1/3 **النوافذ**: تؤدي النافذة في المساكن وظيفتين هما التهوية والإضاءة، إضافة إلى كونها وسيلة اتصال مع المحيط الخارجي للمسكن. وفي الواقع لم تكشف التنقيبات الأثرية في مواقع هذه المرحلة عن وجود أية نوافذ في المساكن المكتشفة فيها، إذ لعبت قلة الجدران المحافظة على ارتفاعها دوراً كبيراً في عدم الكشف عن أية نوافذ في مواقع "المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم". فمعظم الجدران المكتشفة لا يزيد ارتفاعها بمقدار مدماكين إلى أربعة مداميك باستثناء موقع "عين الملاحة" (عينان) الذي حافظت مساكنه على ارتفاع حوالي المتر الواحد، ومع ذلك فإن التقارير الأثرية لحفرية "عين الملاحة" (عينان) لم تشر إلى وجود أية نوافذ في الجدران المكتشفة، مما يدعونا للاعتقاد بأن النوافذ ربما كانت في أعلى الجدار. ونبني افتراضنا بناءً على ما عثر عليه في السوية العائدة للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" في موقع "شاتال هويوك" في تركيا(102).

(97) أبو غنيمة، خالد، 1995، العناصر المعمارية لمساكن العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" في جنوب الأردن (دراسة تحليلية). دراسات تاريخية 51 -52، ص 175، دمشق.

- Nissen H., Muheisen M. and Gebel H. –G., 1987, Report on the First Two Seasons of Excavations at Basta 1986-1987. **ADAJ** 31: 31, fig. 8b.

(98) Mellart J., 1983, Op. Cit: 54.

(99) Perrot J., Op. Cit: 15; 1993, Op. Cit: 391.

(100) Perrot J., 1966, Le Gisement Natoufien de Mallaha. **L'Anthropologie** 70: 455-458, fig. 10, 4.

(101) Moore A., 1991, Op. Cit: 279 and 283.

(102) ميلارت، جيمس، 1990، أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص 108، ترجمة محمد طلب، تدقيق وتقديم سلطان محيسن، دار دمشق، دمشق.

إضافة إلى ضرورة وجود نافذة أو طاقة تساعد في عملية خروج الدخان المتصاعد من المواقد وتهوية الغرفة من جهة ولإدخال الضوء من جهة أخرى، وكما هو الحال في بعض قرى المنطقة في الوقت الحالي.

1/4 العناصر المعمارية: وهي العناصر التي يكون لها دور جمالي ووظيفي.

1/1/4 الجدران: تعد الجدران من أهم العناصر الإنشائية-المعمارية الرئيسية في المساكن والمباني على اختلاف أنواعها، بغض النظر عن نوع المادة المستعملة في البناء، وذلك لكونها تشكل مع السقف الكيان الرئيسي للمسكن(103). ولم تكشف التنقيبات الأثرية سوى عن نوع واحد من الجدران وهي الجدران الحاملة للأثقال (Bearing Walls). وتمثل الجدران الحاملة للأثقال الجزء الرئيس للمسكن والتي يقع عليها ثقل السقف وثقلها، وتساعد الجدران كذلك في مقاومة الضغوط الجانبية المتأتية من الظروف الخارجية والداخلية. تشكلت جدران مساكن هذه المرحلة من صف واحد من الحجارة غير المشذبة أو الطوب، قاعدتها أعرض من الأجزاء العليا فيها. ويتراوح ارتفاع الجدران المكتشفة في المواقع بين "30 إلى 90 سم". وبلغت أقصى سماكة للجدران المشتركة المشيدة من الحجارة غير المشذبة نحو المتر وذلك في "كهف الحمام" (هايونيم)(104) (شكل رقم 2).

(103) السهيري، عاطف، 1991، إنشاء المباني، ص 135 -136، مطبعة كنعان، بغداد.

(104) Bar-Yosef O., 1991, Op. Cit 87, fig. 1.

وتشير دراسة المخلفات المعمارية المكتشفة في المواقع المختلفة في بلاد الشام إلى أن الإنسان القديم قد استخدم مواد أولية عديدة ومتنوعة، وذلك حسب البيئة المحلية. وأهم المواد الأولية المستخدمة في تشييد الجدران هي:

أ-**الحجر:** يعد الحجر من أكثر المواد الأولية استخداماً في تشييد مساكن معظم مواقع بلاد الشام، وذلك لوفرة وجوده وانتشاره في معظم مناطق بلاد الشام، إضافة لصلابته. ويلاحظ أن الإنسان القديم قد استخدم الحجر بمختلف أنواعه سواء الجيري، أو الكلسي، أو الرملي حسب توفره في تشييد المساكن أي دون تهذيب أو تشذيب، وبأحجام مختلفة الكبير، والوسط، والصغير. كما يلاحظ استخدام الإنسان القديم لبعض الأدوات الحجرية البازلتية كالجواريش، والمدقات، والأحواض ... وغيرها في تشييد الجدران كما هو الحال في أريحا"(105) و"وادي الفلاح" (نحال اورن)(106).

ب- **الطوب:** ويعد الطوب المادة الإنشائية الثانية الأكثر استخداماً من قبل الإنسان في تشييد المساكن، وخاصة في مناطق غور الأردن أو في الجزيرة السورية وذلك لتعويض النقص في الحجارة في هذه المناطق. وقد استخدم الطوب المجفف في تشييد الجدران للمساكن كما هو الحال في مواقع "البيضا" حيث تشير المنقبة إلى وجود آثار بقايا لجدار منحني من الطوب الجاف(107).

(105) Kenyon K., 1965, Archaeology in the Holy Land. Thames and Hudson, London. P. 41, pl. 5A.

(106) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit.: 11.

(107) Byrd B., 1989, Op. Cit.: 21; Hours et al., 1993, Op. Cit.: 76.

ج- الأخشاب والقصب: كما تحدثنا سابقاً فإن الأخشاب، وجذوع الأشجار، والقصب سريعة التلف ومعرضة للدمار لأسباب مختلفة. إلا أن بعض المخلفات المادية المكتشفة في بعض المواقع تبين لنا إمكانية استخدام هياكل خشبية كإطار خارجي للأكواخ أو المساكن ثم تغطيتها بالجلود أو أغصان الأشجار كما هو الحال في أرضية السوية "د" في "الخرانه 4"[108] و"وادي الفلاح" (نحال اورن)[109]، و"أبو هريرة 1"[110].

1/5 الملاحق:

1/1/5 المواقد: تعد المواقد من أهم الملاحق التي استمر الإنسان في استخدامها في مساكنه الأولى للاستفادة منها في مجالات الطهي، والتدفئة، والإنارة، وربما استخدمت في الساحات كسلاح لطرد الحيوانات المفترسة، حيث تشير المعلومات إلى أن المواقد كانت موجودة في الكهوف الأولى التي قطنها الإنسان القديم مثل "الطابون" (Tabun)، و"كهف الحمام" (هايونيم)، و"كهف الكبارا" (Kebara)، و"الدردريه" (Derdareya)، و"يبرود 2" (Jabrud)[111]. وكشفت التنقيبات الأثرية عن وجود المواقد في معظم مواقع "المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم" في بلاد الشام كما هو الحال في مواقع "اوهالو 2"، والسوية "4" في "خربة العاشق 1" (عين جيف 1)، و"الخرانه 4"، و"وادي حسبان 2" (Wadi Husban)، و"وادي حسبان 5"، و"وادي حسبان 6"،و"وادي الحمه 26"، و"وادي الحمه 27"، و"وادي الحسا 1065"، و"وادي جيلات 9"، و"النبي داوود" (نفه دافيد)، و"عراق الزيقان" (Iraq Ezziqan)، و"الكوم-التل الرئيسي" (Kowm)، و"عين الملاحه" (عينان)، و"كهف الحمام" (هايونيم)، و"مصطبة كهف الحمام" (مصطبة هايونيم)، و"وادي الفلاح" (نحال اورن)، و"كهف الواد"، و"عرق الأحمر"، و"المريبط"، و"أبو هريرة 1"، و"البيضا"، و"خلة العنزي"، و"الدردريه"، و"النششارينه"(Nachcharini) و"صيدا 2" (Saiide 2).

وتشير المعطيات الأثرية المتوفرة عن تقارير التنقيبات الأثرية إلى وجود موقد أو أكثر في المسكن الواحد في مواقع "اوهالو 2"[112]، و"الخرانه 4"[113]، و"كهف الحمام" (هايونيم)[114]، و"عين الملاحه" (عينان)[115]، ومصطبة "وادي الفلاح" (نحال اورن)[116]، و"البيضا"[117]، و"الدردريه"[118]

(108) Muheisen M., 1988b, Op. Cit.: 265-268.

(109) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit.: fig. 4.

(110) Moore A., 1991, Op. Cit.: 279.

(111) أبو غنيمة، خالد، 2001، نشوء المساكن الدائرية وتطورها في بلاد الشام حتى مطلع العصر الحجري الحديث الفخاري. مجلة أبحاث اليرموك المجلد 1/17، ص 113 -145، جامعة اليرموك، إربد.

(112) Nadel D., 1990, Op. Cit.: 49; 1993, Op. Cit.: 1166; 1994, Op. Cit.: 114, fig. 2.

(113) Muheisen M., 1985, L'Epipaleolithique dans le Gisement de Kharaneh IV. **Paleorient** 11/2: 150; 1988a Op. Cit.: 231 and 236; 1988b Op. Cit.: 258; 1988c The Epipalaeolithic Phases of Kharaneh IV. In: Garrard A. and Gebel H. G., (eds.): **The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986** : 353-367. BAR. I. S., 396.

(114) Bar-Yosef O. and Goren N., 1973, Op. Cit.: 51.

(115) Valla F., 1991, Op. Cit.: 111-112.

(116) Bar-Yosef O., 1970, Op. Cit.: 32. =

(شكل رقم 3)، وإلى تنوع في أشكال المواقد فمنها ما أخذ الشكل الدائري أو البيضوي في مواقع "اوهالو 2"[119]، و"خربة العاشق 1" (عين جيف 1)[120]، و"عين الملاحه" (عينان)[121]، و"كهف الحمام" (هايونيم)[122]، و"وادي الفلاح" (نحال اورن)[123]، و"وادي حسبان 2، 5، 6)[124]، و"البيضا"[125]، و"الواد"[126]، و"المريبط"[127]، و"أبو هريره 1"[128]، أو الشكل المستطيل أو المربع في السوية "ب" بموقع "الخرانه 4"[129]، و"عين الملاحة" (عينان)[130] (شكل رقم 1 ب). أو ما اخذ شكل حدوة الحصان في موقع "المريبط"[131] (شكل رقم 4 أ). كما تنوعت المواد المستخدمة في تشييد المواقد فمنها ما شُيد بإحاطتها كلياً أو جزئياً بالحجارة في مواقع "عين الملاحه" (عينان)[132]، و"كهف الحمام" (هايونيم)[133]، و"وادي الفلاح" (نحال اورن)[134]، و"البيضا"[135]، و"الواد"[136] (شكل رقم 1 أ-ب)، و"وادي حسبا 2، 5، 6)[137]، أو بتشكيلها من الرماد في "الخرانه 4"[138]، و"عين الملاحه" (عينان)[139]، و"المريبط"[140]، أو بالتراب في "عين الملاحه" (عينان)[141]، أو بحفرها داخل الأرضية السكنية في "خربة العاشق 1" (عين جيف 1)[142]، و"عين الملاحه" (عينان)[143]،

= (117) Byrd B., 1988, The Natufian of Beidha: Report on Renewed Field Research. In: Garrard A. and Gebel H.G.,(eds.): **The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986**:180. BAR.I.S., 396.
- Byrd B., 1991, Op. Cit.: 259.

(118) محيسن، سلطان، 1999، حلب في العصور الحجرية، الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد 43، ص 74، دمشق.

(119) Nadel D., 1990, Op. Cit.: 49.

(120) Bar-Yosef O., 1970, Op. Cit.: fig. 89.

(121) Perrot J., 1960, Op. Cit.: 16; 1966, Op. Cit.: 442; 1993 Op. Cit.: 389-393.
– Henry D., 1973, Op. Cit.: 91; Valla F., 1991, Op. Cit.: 114.

(122) Bar-Yosef O., 1991, Op. Cit: 87, fig. 1.

(123) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit.: pl. 3A.

(124) Edwards P., Head M. and Macumber P. G., 1999, An Epipalaeolithic Sequence from Wadi Hisban in the East Jordan Valley. **ADAJ** 43: 30-42, fig. 7.

(125) Gilead D., 1975, Op. Cit.: 168; Byrd 1991 Op. Cit.: 259.

(126) Henry D., 1973, Op. Cit.: 95.

(127) Aurenche O., 1980, Op. Cit.: 51.
- Cauvin M. –C., 1991, Du Natufien au Levant Nord?. Jayroud et Mureybet (Syrie). In Bar- =

= Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 302-303.

(128) Moore A., 1991, Op. Cit.: 279, fig. 4.

(129) Muheisen M., 1985, Op. Cit.: 150, fig. 2; 1988a Op. Cit.: 341.

(130) Perrot J., 1960, Op. Cit.: 15; 1976 Op. Cit.: 389-391; 1993 Op. Cit.: 389-393.

(131) - Cauvin M.-C., 1991, Op. Cit.: 302-303, fig. 9; Hours et al., 1993, Op. Cit.: 247.

(132) Perrot J., 1960, Op. Cit.: 15; 1966, Op. Cit.: 445; 1993, Op. Cit.: 389-393; 1974 Op. Cit.: 385-386; Valla F., Op. Cit.: 116.

(133) Bar-Yosef O., 1991, Op. Cit.: 87; Bar-Yosef O., Vandermeersch B. and Arensburg B., 1997, Op. Cit.: 26.

(134) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit.: 11, pl. 3A; Noy T., 1993, Op. Cit.: 1168.

(135) Gilead D., 1975, Op. Cit.: 168.

(136) Henry D., 1973, Op. Cit.: 95.

(137) Edwards P., Head M. J. and Macumber P. G., 1999, Op. Cit.: 30-42, fig. 7.

(138) Muheisen M., 1985, Op. Cit.: 150; 1988a Op. Cit.: 231 and 236; 1988b, Op. Cit.: 268.

(139) Valla F., 1991, Op. Cit.: 114.

(140) Cauvin J., 1974, Op. Cit.: 47; Hours et al., 1993, Op. Cit.: 264.

(141) Perrot J., 1960, Op. Cit: 16.

(142) Bar-Yosef O., 1970, Op. Cit.: 111. =

و"البيضا"[144]، و"المريبط"[145]، و"أبو هريره 1"[146]، أو في الأرض البكر في "الكوم- التل الرئيسي"[147].

ويلاحظ التنوع في التوزيع المكاني للمواقد فمنها ما وجد في مداخل المساكن، مما يشير إلى الاستفادة منها في الإضاءة، والتدفئة، والحماية، كما هو الحال في "عين الملاحه" (عينان)[148]، ومنها ما وجد في نهاية المسكن، على طرف الجدار، مما يشير إلى استخدامها للطهي والإضاءة كما هو الحال في "عين الملاحه" (عينان)[149]، و"كهف الحمام" (هايونيم)[150]، و"المريبط"[151]، ومنها ما وجد في وسط المسكن كما هو الحال في "النبي داوود" (نفه دافيد)[152]، و"عين الملاحه" (عينان)[153]، كما وجدت المواقد في الساحات الخارجية في "المريبط"[154]. ويوجد في الساحات الخارجية نمط ثانٍ من المواقد والمتمثلة بأماكن الشي وهي أكبر حجماً حيث تصل أقطارها إلى "2،5 م" وتحوي عظام الحيوانات، وكانت قد رصفت حجارة كبيرة داخلها وخارجها. وقد عثر على مثالين لهذا النمط في موقع "البيضا"[155] (شكل رقم 5)، كما عثر على مثال آخر لهذا النمط في موقع "المريبط"[156].

2/1/5 **المخازن**: جاءت حاجة الإنسان إلى إيجاد مكان لخزن الفائض عن حاجته بعد خروجه من مناطق سكناه التقليدية والخروج إلى مناطق نمو النباتات البرية وتشييده لمساكن مؤقتة يقيم فيها في بداية "المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم". وتميزت مخازن هذه المرحلة بكونها بسيطة التصميم، فهي عبارة عن حفرة مغروزة في الأرض ومكسية جوانبها بالطين أو الجص وذلك لحماية المحاصيل من الرطوبة والقوارض، وتتراوح أقطارها بين 1 إلى 5، 1" م، وبعمق حوالي المتر الواحد. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مخازن (Silos) في الساحات الخارجية لمعظم مواقع هذه المرحلة مثل "عين الملاحه" (عينان)[157]، و" كهف الحمام" (هايونيم)[158]، و"مصطبة كهف الحمام" (مصطبة هايونيم)[159]،

= (143) Perrot J., 1966, Op. Cit.: 442.

(144) Kirkbride D., 1968, Op. Cit.: 264; Byrd B., 1989, Op. Cit.: 78; 1991, Op. Cit.: 259.

(145) Aurenche O., 1991, Op. Cit.: 51, fig. 21; Cauvin M. –C., 1991, Op. Cit.: 302-303, fig. 9.

(146) Moore A., Hillman G. and Legge A., 1975, Op. Cit.: 56.

(147) Cauvin L., Coqueugniot E. and Nierle M. C., 1982, Rapport Preliminaire sur la Campagne 1980 d'el Kowm 1. **Cahiers de l'Euphrate** 3: 27-32.

(148) Valla F., 1991, Op. Cit.: 112.

(149) Valla F., 1991, Ibid.: 114.

(150) Bar-Yosef O., 1991, Op. Cit.: 87, fig. 1; Bar-Yosef O., Vandermeersch B. and Arensberg B., 1997, Hayonim Cave. **Excavations and Surveys of Israel** 16: 26.

(151) Aurenche O., 1980, Op. Cit.: fig. 21.

(152) Kaufman D., 1987, Op. Cit.: 189-199.

(153) Valla F., 1991, Op. Cit.: 118; Boyd B., 1995, Op. Cit.: 20, fig. 3.2.

(154) Cauvin M. –C., 1991, Ibid.: 302-303, fig. 3.

(155) Kirkbride D., 1968, Op. Cit.: 264; Byrd B., 1989, Op. Cit.:78-79, fig. 34; 1991, Op. Cit.: 259, fig. 7.

(156) Cauvin M. –C., 1991, Op. Cit.: 309.

(157) Valla F., 1991, Op. Cit.: 116.

(158) Bar-Yosef O. and Goren N., 1973, Op. Cit.: 54; Perrot J., 1994, Op. Cit.: 164.

(159) Valla F., Plisson H. and Buxo I Capdevila R., 1989, Notes preliminaires sur les fouilles en cours sur la terrsse d'Hayonim. **Paleorient** 15/1: 252. =

و"وادي الفـلاح" (نحـال اورن)[160]، و"وادي الحمه 27"[161]، و"أبو هريرة 1"[162]. كما عثر على مخـازن داخل المساكن في مواقـع "عـين الملاحه" (عينان)[163]، و"وادي الفلاح" (نحال اورن)[164].

ويتميـز المخـزن المكتشـف في "عـين الملاحـه" (عينـان) عـن غـيره مـن المخـازن بكـون جدرانـه وأرضـيته مطليـة بـالجص[165]، بينمـا تتميـز مخازن "أبو هريره 1" بكونها نحتت في الصخر.

الخاتمة:

يتضح مما سبق ذكره، أن الإنسـان القـديم في بلاد الشام قد تعامل بذكاء شديد وبمهارة كبيرة مـع بيئتـه مـن خـلال اسـتفادته وبشـكل كبـير مـن المواد الأولية المتوفرة في بيئته والمناطق المجاورة لهـا مـن خـلال اختيـاره واسـتغلاله للمـواد الأوليـة الملائمـة لتشـييد مسـاكنه حسـب المخطـط الـذي صممه. فاختياره للطوب الطيني لتشييد مساكنه في منـاطق غـور الأردن، والفـرات الأوسـط كـان ملائماً جداً؛ وذلك لتعويض النقص في الحجارة غير المتوفرة بكثرة في المنطقة من جهة، وملاءمة الطوب الطيني للجو الحار من جهة أخرى. فمن المعروف أن الطوب الطيني ملائم جداً للبناء في المنـاطق الحـارة، فهـو يحفـظ الحـرارة في الشـتاء ويعطي برودة في الصيف حسب ما أثبتته التجارب الحديثـة[166]، بينمـا شـيد مسـاكنه في المنـاطق المرتفعة والسهول بالحجارة لتوفرها بكثرة. كما أن تخطيطه وتصميمه للمساكن اقتصر في بداية الأمر على تلبية احتياجاته الاجتماعية من خلال تـوفير مكـان مناسـب آمـن بجانـب منـاطق نمـو الحبـوب البريـة ومنـاطق ارتيـاد الحيوانـات البريـة التي كانت تأتي طلباً للماء والكلأ، كما لبت لـه متطلبـات احتياجاتـه الغذائيـة، والـتي كانـت مقتصـرة علـى تـوفير مكـان مناسـب لتخـزين الفائض عن احتياجاته والآلات الحجرية اللازمة، مـن خـلال حفـر أمـاكن للخـزين والـذي يـدل علـى إيجاده لحل عملي لخزن الفائض عن حاجته من الحبـوب البريـة الـتي جمعهـا في الموسـم ليسـتطيع الاسـتفادة منهـا في فـترات لاحقـة. ويتضـح مـن ابتكـاره وتطـويره لـبعض العناصـر الإنشـائية والمعمارية في مساكنه، كتقوية أساسات مساكنه، إلى حـدوث تطـور في تفكـيره ومهارتـه في تقنيـة البنـاء ومحاولـة تقويتـه وإطالـة عمـر مسـكنه مـن خلال تقوية اساساته لتستطيع تحمل ثقله.

= – Valla F., Le Mort F. and Plisson H., 1991, Les Fouilles en cours sur la terrasse d'Hayonim. In Bar-Yosef O. and Valla F., (eds.): **The Natufian Culture in the Levant**: 95-98; Perrot J., Op. Cit.: 164.

(160) Stekelis M. and Yizraely T., 1963, Op. Cit.: 11; Hours et al., 1993, Op. Cit.: 263.

(161) Edwards P., 1991, Op. Cit.: 125.

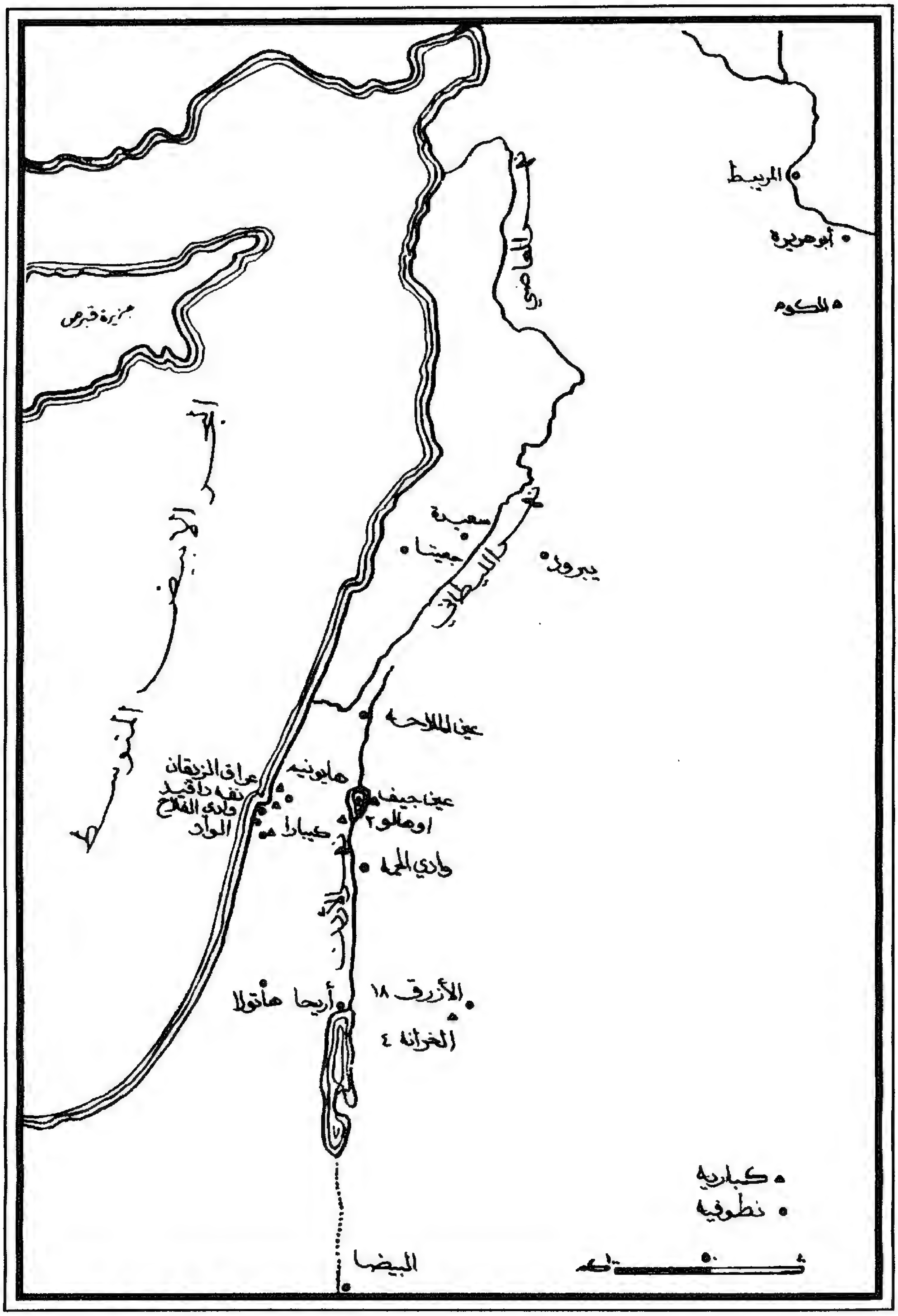
(162) Moore A., 1991, Op. Cit.: 279.

(163) Perrot J., 1966, Op. Cit.: 462 and 480.

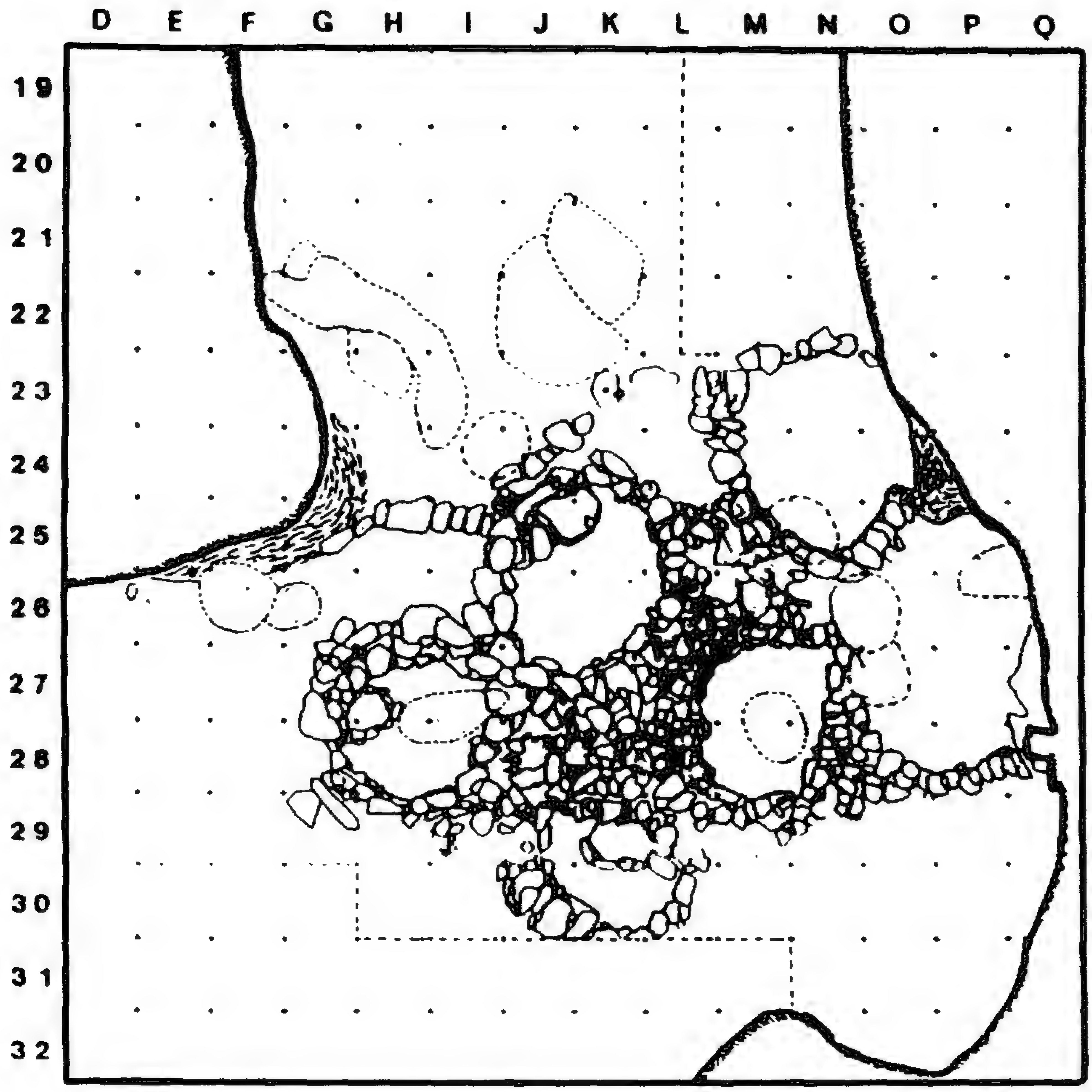
(164) Hours et al., 1993, Op. Cit.: 263.

(165) Perrot J., 1960, Op. Cit.: 15.

(166) فتحي، حسن، 1988، الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.



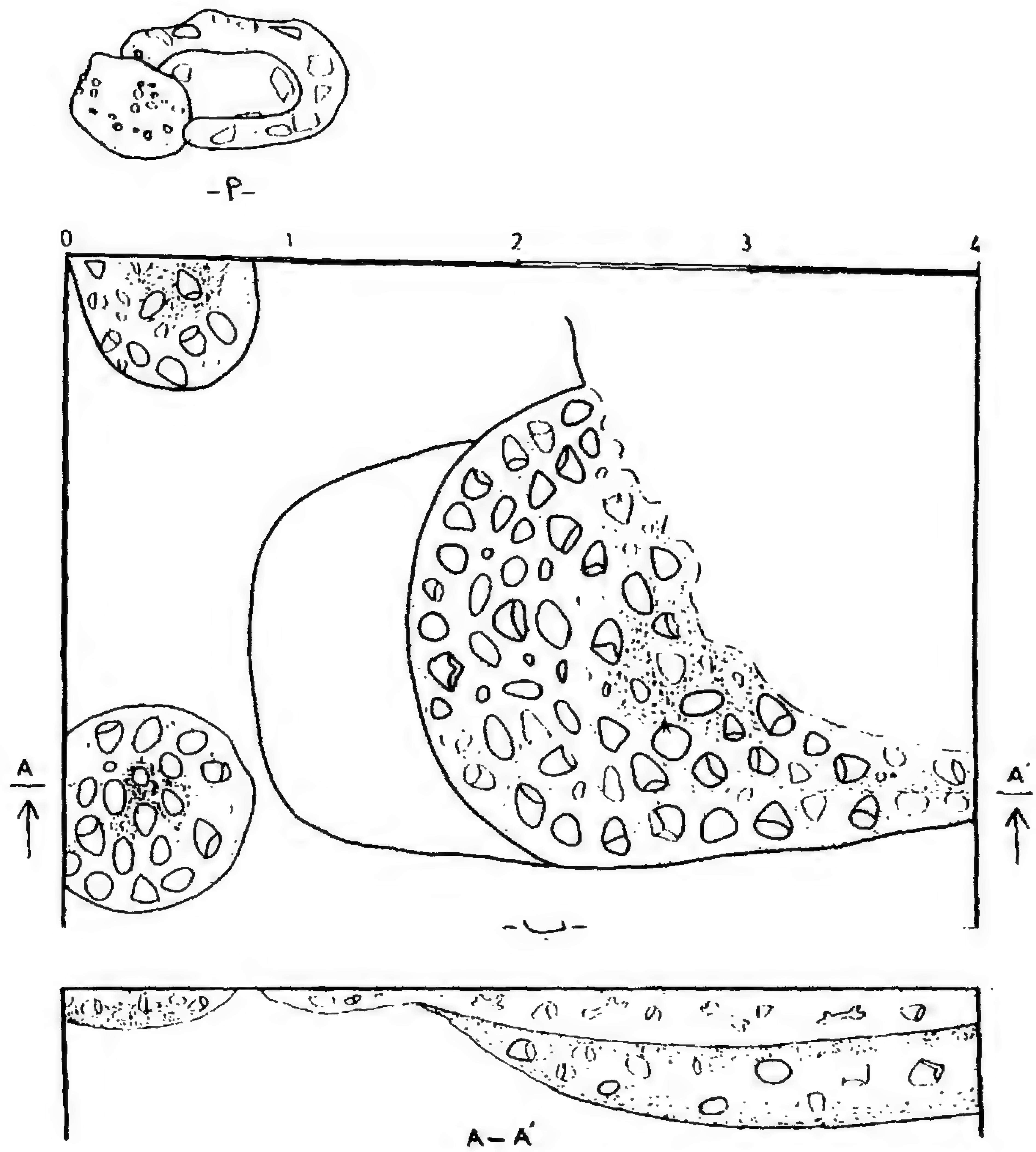
شكل رقم (1): خريطة تمثل مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم في بلاد الشام — الكباريه والنطوفيه.



شكل رقم (2): مخطط يوضح البقايا العمائرية — داخل كهف هايونيم

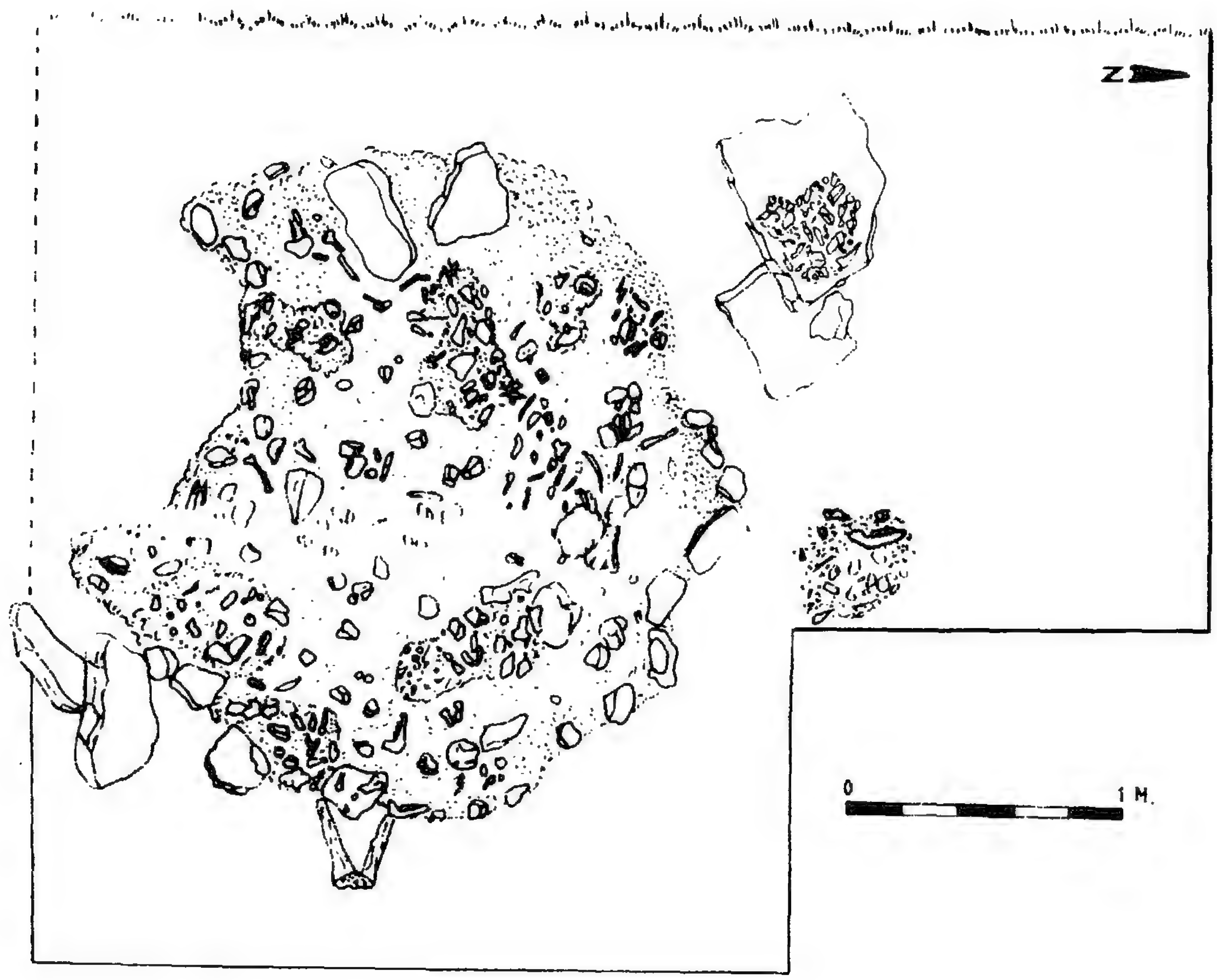


شكل رقم (3): منظر يوضح حفر الركيزة والمواقد في موقع عين الملاحة "عينان".

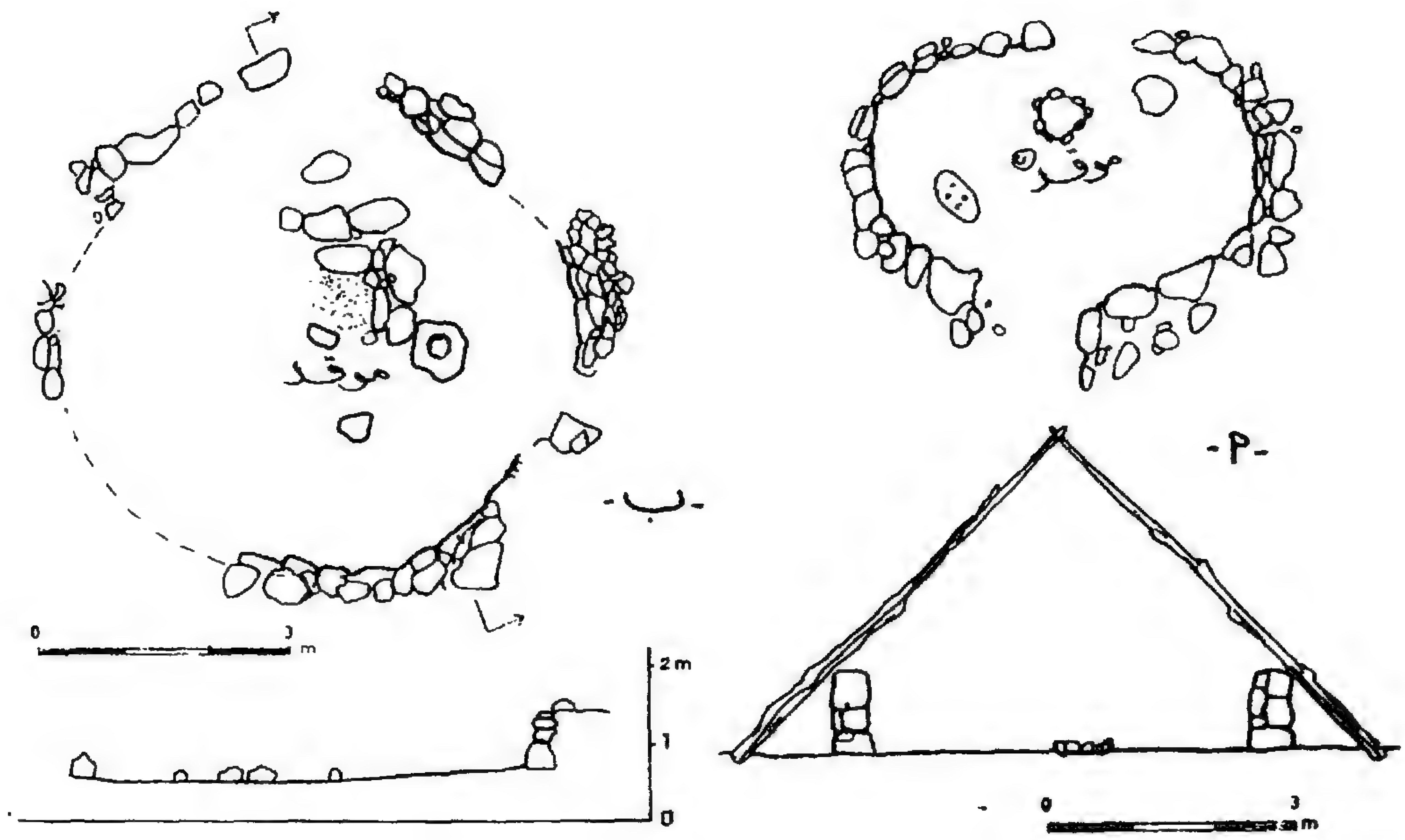


شكل رقم (4) أ: موقد على شكل حدوة حصان من موقع المريبط.

ب: موقع على شكل دائرة من موقع المريبط.



شكل رقم (5): مخطط لمنطقة الشواء في موقع البيضا "نقلاً عن Byrd 1991: 258 Fig. 7"



شكل رقم (6) أ: منظر يوضح موقد محاط بالحجارة في أحد مساكن عين الملاحة "عينان".

ب: منظر يوضح موقد مستطيل الشكل في أحد مساكن عين الملاحة "عينان".

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، 29 – 53 (2005م)

الإقطاع الحربي الإسلامي

جذوره وخصوصيته وضوابطه، مع مقارنة ذلك بما استجد عليه من أمور دخيلة وعلاقتها بالإقطاع الغربي

د. عائشة سعيد أبو الجدايل

ملخص البحث:

هذه الدراسة تسعى إلى إبراز صورة الإقطاع الحربي الإسلامي بصفاته المتميزة منذ عهد الرسول ﷺ وأنه قد عرف قبل الفترة البويهية بقرون، وأن هذا الإقطاع قد قدم كمكافأة وهدية إلى جنود الله المجاهدين لإعلاء كلمة الدين الإسلامي ونشره وليس حافزاً لهم على الدخول في عملية الجهاد. لأن الجهاد في سبيل الله هو هدف الفتوحات وليس الإقطاع الحربي وقد جاء هذا النوع من الإقطاع للفاتحين المسلمين كجائزة كبرى من رب العالمين وذلك كما ورد في الآية الكريمة ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة الأنفال الآية (41)، وأن أربعة أخماس الغنيمة هي مكافأة من الله لجنوده المحاربين من أجل رفع كلمته ونشر دينه. وهذا النوع لا يشبهه أي نظام إقطاعي آخر.

أما الإقطاع بالشكل المتأثر بالدولة البيزنطية فهو ما فعله معاوية بن أبي سفيان عندما شحن المواني في المناطق المفتوحة بالقبائل ومنحهم الإقطاع فيها لحماية الأرض وتكوين جبهة دفاع إسلامية.

وقد انتشرت بعد ذلك أنواع مستحدثة من الإقطاع الحربي وهو إعطاء الإقطاع بدلاً من العطاء وهو بمثابة راتب إقطاعي، وذلك في العهود البويهية والسلجوقية والمملوكية والعثمانية، ولكن عندما منح الإقطاع أعطي حسب الشروط الإسلامية وقد كان بمثابة إقطاع ناتج الأرض وليس رقبة الأرض. لأنه لا يمكن لجنود أن يمتلكوا أرضاً لم يوجفوا عليها بركاب الخيل، أي أنها ليست من مكاسبهم الحربية، لذا لم يمنحوا إلا إنتاج الأرض وذلك لمدة حياتهم مقابل الخدمة العسكرية ولم تورث لذريتهم؛ لأنها أعطيت لهم على أساس رواتب إقطاعية تسترجع عند نهاية الخدمة العسكرية بمعنى إقطاع استغلال وليس إقطاع تمليك. لقد تميز النوع الأول من الإقطاع الحربي الإسلامي بما تميز به النظام الإسلامي وهو مكافأة على الجهاد وليس حافزا له ، النوع الثاني يمكن مقارنته بنظام التيمات البيزنطي، والنوع الثالث أيضاً يمكن مقارنته بنظام البرونويا البيزنطي وليس بالنظام الإقطاعي الغربي.

الإقطاع الحربي يمثل القاسم المشترك الأعظم بين جميع نماذج الإقطاع الذي مزجت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وعلى الرغم من أهمية الموضوع بالنسبة للعالم الإسلامي من حيث انتشار حركة الفتوح الإسلامية ومحاولة ربطها بالهدف الاقتصادي والتعتيم على هدف الجهاد ونشر الإسلام، إلا أن الموضوع لم يحظ بدراسات متخصصة سلطت الضوء عليه بصفة خاصة.

فهناك العديد من الدراسات التي اهتمت بالإقطاع الإسلامي وهي تتحدث عن الإقطاع بصفة عامة منذ عهد الرسول ﷺ مروراً بالخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية. ولكن بعض هذه الدراسات خلطت الإقطاع العام والخاص والعسكري. أو توقفت عند الفترة البويهية والسلجوقية لتؤكد أن الإقطاع العسكري ظهر في تلك الفترة. وتبرير ذلك جاء على لسان أحد الباحثين لقوله: "إن العالم الإسلامي شهد ظاهرة الإقطاع منذ العصور الإسلامية المبكرة، لكنها كانت هشة وهامشية وأنها ترسخت منذ منتصف القرن الخامس الهجري"(1).

وهدف الدراسة إثبات بدايات الإقطاع الحربي منذ بزوغ فجر الإسلام وبيان خصوصيته وتميزه وضوابطه التي لا يوجد لها نظير منذ عهد الرسول ﷺ ثم نموه وتطوره ومقارنة ذلك مع الفترة الإسلامية المتأخرة التي يمكن مقارنتها بالإقطاع الحربي الغربي وبيان أوجه الاختلاف والائتلاف بين تلك الأنظمة.

والإقطاع له تعريفه الخاص في الإسلام فهو في اللغة العربية يؤخذ بمعنيين: معنى العطاء ومعنى الاتفاق. يقال في المعنى الأول أقطع الأمير الجند البلد بمعنى جعل لهم عليه رزقاً وهذا بمعنى العطاء. وأقطع الأجير على كذا وكذا من الأجر يعني اتفق معه على أجر معين.

إذن الإقطاع هو كل لفظ يعطي معنى الهبة، وهو مأخوذ من أقطع يقطع أي أعطي قطعة أو قطيعة أي طائفة من الأرض. واصطلاحاً هو ما يخص به الخليفة أو الإمام بعض الرعية ممن يراه أهلاً لذلك من مال أو أرض. وأكثر ما يستعمل في الإقطاع الأرض وهو إما أن يُملكها له أو أن يجعل له غلتها. وجاء في الشريعة الإسلامية بمعنى توزيع الأرض الموات أو نحوها من الموارد على شخص أو أشخاص بغرض استثمارها أو توزيعها من أجل إنشاء وحدات سكنية(2).

والهدف من الإقطاع هو مصلحة الأمة، وذلك بأن يكون المقطع أهلاً للإقطاع نظراً لأنه قدم للإسلام خدمة فدفع عنه ضرراً أو بهدف تأمين مصدر عيش أو رزق لبعض الأفراد ولإحياء الأراضي المهملة أو الموات وتوفير دخل لبيت مال المسلمين من فرض ضريبة على تلك الأراضي

---

(1) محمود إسماعيل، الإقطاع في العالم الإسلامي، حوليات كلية الآداب. جامعة الكويت الحولية الحادية عشر 1410هـ/1990م، ص9 -23.

(2) عادل محيي الدين الألوسي، قطائع الرسول ﷺ المؤرخ العربي العدد 1407/23هـ/ 1987م.

المقطعة. وقد سجل عدد من كتاب المصادر الإسلامية الإقطاع الإسلامي بشتى صورة وأحكامه الفقهية من مصادر فقهية وتاريخية والدواعي التي كانت وراء كل نوع من أنواع الإقطاع(3).

وهناك اتفاق بين معظم المراجع التي تحدثت عن الإقطاع الإسلامي في عهد الرسول ﷺ على أنه ﷺ أقطع الأراضي وأن إقطاعه كان له عدد من الأهداف:

1- استماله المؤلفة قلوبهم إلى الإسلام.

2- الإقرار على ما باليد من كتاب الدعوة إلى الإسلام.

3- الإقرار على ما باليد لمن دخلوا في الإسلام.

4- منح إقطاعات خارج الجزيرة العربية في بلاد لم تفتح بعد.

5- مكافأة من هم أبطال الإسلام وأعلامه في الجهاد والفتح أمثال أبي بكر وعمر وعلى وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وغيرهم من الصحابة الفاتحين(4).

وما يهمنا في هذا الإقطاع هو ما ضاع بين

---

(3) أهم المصادر الفقهية والتاريخية على سبيل المثال لا الحصر:

1 - القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت182) كتاب الخراج. دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
2 - يحي بن آدم القرشي(ت202) كتاب الخراج - دار المعرفة - بيروت.
3 - الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت 795هـ) الاستخراج لأحكام الخراج، دار المعرفة - بيروت.
4 - أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ) الأموال - ناصر للثقافة - بيروت 1981م.
5 - أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي(ت458هـ) الأحكام السلطانية - دار الكتب العلمية - بيروت.
6 - أبو الحسن علي المصري البغدادي الماوردي (991 -1031) الأحكام السلطانية - طبع في بون 1853م.
7 - أبو الفرج قدامة بن جعفر كتاب الخراج وصنعة الكتاب، طبع في مدينة لندن 1988م

الكتب التاريخية.

1 - أحمد بن يحيي البلاذري(ت279هـ)فتوح البلدان - بيروت 1978م.
2 - محمد بن سعد بن منيع البصري بن سعد (ت30)، الطبقات الكبرى لابن سعد - بيروت.
3 - أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم (ت257هـ) فتوح مصر وأخبارها مكتبة المتنبي البغدادي طبع في لندن 1920م.
4 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت310هـ) تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف مصر 1960م.
5 - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الواحد الشيباني بن الأثير (ت630هـ) الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي ط2.
6 - إبراهيم بن محمد بن أيم العلائي الشهير بابن دقماق، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
7 - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النوري(ت732هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب - دار الكتب والوثائق القاهرة.
8 - تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت 845هـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. مكتبة الثقافة العربية.
9 - ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن محمد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني بيروت 1977م.
10 - أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله المالكي توفي في نهاية القرن الرابع الهجري، رياض النفوس - دار الغرب الإسلامي - بيروت.

(4) إبراهيم طرخان الإقطاع الإسلامي، المجلة التاريخية المصرية. المجلد السادس سنة 1957م.
أيضاً: إبراهيم طرخان النظام الإقطاعي الإسلامي في الجزيرة العربية في العصر النبوي وعصر الخلفاء =

السطور ألا وهو الإقطاع الحربي الذي ظهر منذ عهد الرسول ﷺ وهو إقطاع له طابعه الخاص وسماته الميزة الإسلامية الخالصة المتفردة ألا وهو الإقطاع الذي يوزع بين المحاربين كغنيمة حرب. وقد جرت العادة في مفهوم الإقطاع الحربي توزيع الأرض أولاً ثم تجهيز الجند ثانياً[5]. ولكن الإقطاع الحربي الذي ظهر في صدر الإسلام يفترض توزيع الغنيمة بعد الحرب وليس قبلها. وهذه حكمة أرادها الله - سبحانه وتعالى - ليميز بها الإسلام. حتى لا يقال إن هدف المسلمين من الإقبال على الحرب هو الحصول على الإقطاع الحربي وليس هدفاً جهادياً لنشر دين الله وإعلاء كلمة الحق. فتقديم الروح أولاً واحتمال فقدانها في سبيل الله وفي سبيل الشهادة هو هدف الفاتحين المسلمين.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال في أعراب المسلمين أنه ليس لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فمن لم يجاهد مع المسلمين ولم يك فقيراً... فلا شيء له في الغنيمة والفيء إلا أن تصيبه حاجة فيدخل مع الحاجة[6].

ومعنى هذا أن يجاهد المسلمون أولاً ثم تقدم إليهم المكافأة ثانياً، لا أنهم تقدم لهم المكافأة أولاً لتكون حافزاً لهم على الحرب والجهاد. فالجهاد في سبيل الله كان الحافز الأول وليس الفيء أو الغنيمة.

وقد فتح رسول الله ﷺ خيبر عنوة بعد القتال والانتصار على من فيها. وقام رسول الله ﷺ بتقسيمها بين المحاربين الذين شاركوه في فتحها فأخذ الخمس كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[7].

وعلى هذا فإن أرض الفتوح أو الأرض المفتوحة بعد القتال هي أرض الإقطاع الحربي الذي يوزع بين المحاربين. وهذا هو الأصل في التقسيم كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ

= الراشدين الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية - كلية الآداب جامعة الرياض 1402هـ.
أيضاً: صالح العلي، ملكية الأراضي في زمن الرسول ﷺ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - مؤسسة آل البيت عمان - 1989م.
أيضاً: عيد علي حسن كاظم، الإقطاع الإسلامي في القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير لم تنشر 1974م.
أيضاً: حسن منيمنه - نشوء الإقطاع في الإسلام، الاجتهاد العدد الأول 1988م.
(5) وهو مفهوم المصطلح في الإقطاع الغربي: شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي الذي تكون فيه القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية في أيدي = النبلاء بالوراثة، وأن القوة الاقتصادية للنبلاء تركز بشكل أساسي على امتلاكهم الأراضي الواسعة وعلى شريحة الفلاحين غير المستقلين.
وفي نظام الثيمات. الكلمة مشتقة من الاسم Thesis بمعنى مكان وتعني جيوش المقاطعات والمصطلح يعني منح الأراضي مقابل الخدمة العسكرية، وهو النظام العسكري الذي ساد في الدولة البيزنطية في القرن السابع الميلادي، وذلك لمقابلة خطر الفتوحات الإسلامية.
لمعرفة المزيد انظر: عائشة أبو الجدايل، الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي / الأول الهجري/ ط المفردات الرياض 1415هـ ص 273 وما يليها.
(6) يحيي بن آدم القرشي، الخراج ص18.
(7) سورة الأنفال آية رقم 41.

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(8).

وبناء على ذلك فقد قسمت أراضي الفتوح إلى ثلاثة أقسام ولها ثلاثة أحكام فقهية.

1- أرض أسلم عليها أهلها فهي تبقى في حوزتهم وتقدم زكاتها بمقدار العشر من دخلها. وزكاتها يتسلمها أمام المسلمين وتودع في بيت مال المسلمين لتوزع بينهم كل حسب وظيفته وحاجته.

2- أرض منحت صلحاً على شروط معينة فتبقى ثابتة على شروط معاهدة الفتح. ونموذج على فتح المصالحة صلح أهل فدك فكانت خالصة للرسول ﷺ لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل أو ركاب(9).

3- أرض منحت عنوة، بمعنى أخذت بعد القتال فهذه تخمس وتُقسَّم. فيكون الخمس كما ورد في الآية: لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.. وتقسم الأربعة أخماس الباقية بين المجاهدين المحاربين الذين فتحوها مثال على ذلك . أرض خيبر التي قسمها الرسول ﷺ بين المحاربين وفقاً للآية.

أما الأرض التي يقطعها الأمام إقطاعاً وليست من أراضي الفتوح فلها أحكام أخرى(10).

وقد فتح رسول الله ﷺ مكة عنوة إلا أنه لم يقسمها كغنيمة بين المحاربين مثلما فعل بأرض خيبر. فقد صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه افتتح مكة وأنه منّ على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً. فرأى بعض الناس أن هذا الفعل جائز للأئمة بعده. ولكن ابن سلام يرى أن مكة لا يشبهها شيء من البلاد من جهتين: الأولى: أن الله . جل وعلا . خص الرسول ﷺ بأخذ مقدار من الفيء والغنائم الشيء الذي لا يجوز لغيره. الثانية: أن مكة نفسها لها وضعها الخاص ولها سنن لم تسن لغيرها من البلاد.

وبكلمات أخرى، في رأي ابن سلام أنه لا يجوز تطبيق خصائص الرسول ﷺ على غيره وكذلك مكة لا يمكن أن تقارن بغيرها من البلاد(11).

وقد أورد ابن سلام عدد من الأحاديث لبيان فضل مكة:

1- حديث عائشة . رضي الله عنها . أنها قالت: قلت يا رسول الله: ألا تبني لك بيتاً أو بناء يظلك من الشمس. تعني مكة. فقال: لا إنما هي مناخ من سبق.

(8) سورة الحشر آية رقم 7 -9.
(9) ابن سلام، الأموال ص 35.
(10) ابن سلام، الأموال ص 35.
(11) ابن سلام، الأموال ص 35.

2- حديث أبي معاوية عن مجاهد: قال رسول الله ﷺ " إن مكة حرام، حرّمها الله لا يحل رباعها ولا أجور بيوتها.

3- مكة مناخ، لا تباع رباعها ولا تؤخذ إجارتها ولا تحل ضالتها إلا لمنشد.

4- حديث وكيع عن عبدالله بن مسلم: من أكل من أجور بيوت مكة، يأكل في بطنه نار جهنم(12).

والرأي الفصل في الجدل في اتخاذ مكة نموذجاً لعدم توزيع الأرض كفيء وغنيمة هو رأي ابن سلام حيث يقول: فإذا كانت مكة مناخاً لمن سبق، وأنها لا تباع رباعها ولا يطيب كراء بيوتها وأنها مسجد لجماعة المسلمين فكيف يمكن أن تكون غنيمة؟ فتقسم بين مجموعة يستولون عليها دون الناس؟ أو تكون فيئاً فتكون أرض خراج. وهي أرض العرب الأميين.

وقد أضاف رسول الله ﷺ: "ولا تحل غنائمها"(13). والخلاصة أن مكة لها حرمتها ولها خصائصها وخصوصيتها فلا حجة لمن رغب أن يطبق الحكم على غيرها كما طبق عليها.

ولا تستثنى أي بلد فتحت عنوة من أن تكون غنيمة للمحاربين الفاتحين سوى مكة المكرمة، كما فعل رسول الله ﷺ بأرض خيبر التي قسمها إلى خمسة أقسام أخذ خمساً منها والأربعة أقسام قسمها بين الفاتحين غنيمة(14).

وقضية تقسيم الأرض المفتوحة عنوة بين المحاربين الفاتحين أثارت جدلاً عنيفاً بين الفاتحين في عهد عمر بن الخطاب الذي امتنع عن تقسيم الأراضي المفتوحة عنوة كغنيمة حرب بين الفاتحين الذين طالبوه وبشدة بتقسيم الأرض المفتوحة بينهم اقتداء برسول الله ﷺ عندما قسم خيبر بين المسلمين الفاتحين، أو بكلمات أخرى بين المحاربين. وذلك استناداً إلى رواية هشيم بن كسر عن إبراهيم التيمي "لما فتح المسلمون السواد قالوا لعمر: أقسمه بيننا فإننا افتتحناه عنوة. قال: فأبى وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟ وأضاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه. قال: فأقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الطقس، الخراج، ولم يقسم بينهم. وقول بلال لعمر في القرى التي فتحها عنوة: أقسمها

(12) ابن سلام، الأموال ص 32.

(13) ابن سلام، الأموال ص35.

جعل الأرض غنيمة تم تقسيمها بين المحاربين ولكن رسول الله ﷺ جعل الأرض في أيدي أهلها يزرعونها ويرعونها ويدفعون الخراج إلى المسلمين. اعترافاً منهم بأن الأرض أصبحت ملكاً للمسلمين. أما الأهالي فيدفعون الجزية عن أنفسهم. والغنيمة هي كل ما حصل عليه المسلمون في الحرب الفعلية والفيء هو ما حصلوا عليه بالمعاهدات. وتشمل الغنيمة كل شيء حتى لو كان إبرة ما عدا الأرض. لأن الفقهاء رأوا =

= أن الأرض من حق الإمام يقسمها إلى خمسة أجزاء، فيأخذ الخمس ويعطي الأربعة أخماس إلى المحاربين الذين فتحوا الأرض أو يتركها وقفاً لمصلحة الجماعة الإسلامية. وهناك ملحوظة هامة على الأراضي التي فتحت عنوة لم تصبح ملكاً للمحاربين وإنما تركت في ملك أصحابها الأصليين مقابل دفع ضريبة الخراج والجزية التي جمعتها الدولة الإسلامية ووزعتها على شكل أعطيات للمحاربين.

(14) ابن سلام، الأموال ص 31.

بيننا وخذ خمسها فقال عمر: هذا عين المال ولكن أحبسه فيما يجري عليهم وعلى المسلمين، فقال بلال وأصحابه أقسمها بيننا فقال عمر: اللهم أكفني بلالاً وذويه. قال: فما حال الحول وفيهم عين تطرف[15].

وقد قيل إن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص يوم افتتح العراق: فقد بلغني كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم وما أفاء الله عليهم. فانظر ما أجلبوا به عليك في العسكر من كراع أو مال، وما حازوه وجمعوه من الغنائم المنقولة مثل السلاح والثياب والمال، فأقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإنا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء[16].

وفي فتح الشام، قدم عمر الجابية وأراد أن يقسم الأرض بين المسلمين فقال له معاذ: والله إذن ليكوننّ ما نكره إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام سداً وهم لا يجدون شيئاً فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم[17]. كذلك ورد في فتح مصر أنها فتحت عنوة وأن الزبير بن العوام طلب من عمرو بن العاص أن يقسمها فرفض وقال لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين الذي رفض بدوره التقسيم[18].

إن قضية عدم تقسيم الأرض كغنيمة بين المحاربين تأتي من عدل عمر بن الخطاب وحبه للمساواة بين الناس حاضرهم وغائبهم من جهة وبعد نظره لما سوف يحدث في المستقبل من جهة أخرى فقد فضل أن تكون الأرض وقفاً على المسلمين يرثونه جيلاً بعد جيل ولا أن تؤول إلى فئة المحاربين. ولم يظلم المحاربين بل أجزل لهم العطاء. وهناك وجهة نظر أخرى في هذه النقطة بالذات تقول: كان هدفه أن يعصم الجند الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار، ومن فتن الدعة والاشتغال بالثراء والحطام. لذا أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال[19]. ولا يكون هدفهم تملك الأرض.

نخلص إلى أن بذور الإقطاع الحربي الإسلامي ظهر مع الفتوحات الإسلامية من حيث إن الأرض التي تفتح عنوة تصبح غنيمة يتقاسمها المحاربون الذين شاركوا في فتحها وذلك بنسبة خُمس لولي الأمر و أربعة أخماس للمحاربين. وقد حدث أن طبق ذلك رسول الله ﷺ على خيبر ولكن لم يطبقه على فتح مكة. وقد خالف عمر تلك القاعدة بأن حبس الأرض وقفاً لجميع المسلمين وأعطى المحاربين الأعطيات من بيت مال المسلمين، إذ إنه قام بتأليف أو إنشاء ديوان الجند وخصص فيه الأعطيات ووضع

(15) ابن سلام، الأموال ص 32.
(16) البلاذري، فتتوح البلدان، ص 133.
(17) ابن سلام، الأموال ص 32.

(18) البلاذري، فتوح البلدان ص 215.
(19) عباس محمود العقاد. عبقرية عمر ـ المكتبة المصرية صيدا ـ بيروت ص 116.

حدوداً لعطاء المقاتلة يدعى شرف العطاء. وكان محدوداً بمقدار (2500) درهم وقد قال عمر في ذلك: لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف. ألفاً يجعلها في أهله وألفاً يزودها معه وألفاً يتجهز بها وألفاً يترفق بها، يستقلها[20].

وذكر البلاذري[21]. أنه قتل مع الضحاك في مرج راهط ثمانون من الأشراف كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيعة يقطعونها مع عطائهم.

ولا توجد أي إشارة إلى المحاربين العاديين ولا على معدل العطاء لهم وربما يكون مصطلح شرف العطاء، هو عطاء المحاربين بصفة عامة. ومسؤولية من يأخذ العطاء أن يجهز نفسه بالأسلحة.

وما ذكره البلاذري عن قرن العطاء بالقطائع لم يوضح صورته هل هو أرض موات، أم أرض زراعية ؟ وما نوعية ملكيتها؟

ومن صور الإقطاع الحربي في الإسلام إقطاع المساكن فقد ذكر أن النبي ﷺ أقطع الناس الدور وكذلك عمر انتهج ذلك النهج مع الذين قاموا بالفتوحات في المناطق التي افتتحوها. فعلى سبيل المثال في بناء البصرة عام 14هـ / 635م. أقطع الناس المنازل وكذلك عند بناء الفسطاط في مصر 21هـ/ 641م. أقطع كل واحد منطقة لبناء داره فكانت خطة لمسلمة بن مخلد وخطة لفقيه بن نافع وغيرهم[22].

وبصفة عامة، فقد شجع الخلفاء الأوائل القبائل على الهجرة إلى المدن الجديدة والمراكز المفتوحة للالتحاق بالقوات المقاتلة وجعلوا ذلك شرطاً للعطاء وذلك بالاستناد إلى ابن عساكر[23]. " أعطيت القبائل أراضي ليستقروا عليها وروعي في ذلك توافر المراعي لمواشيهم.

فإذا ما انتقلنا إلى العهد الأموي وبالذات في عهد معاوية بن أبي سفيان (40-60هـ/ 660-680م) نجد أنه قام بتقليد الروم في منح الإقطاع العسكري وعملية نقل السكان. لأنه اعتمد خطة تحصين المدن الساحلية عن طريق إسكان تلك المدن قبائل عربية تقوم بمهمة الدفاع عن تلك المدن ضد غارات الرومان المتكررة، الدولة البيزنطية لذا منح القبائل إقطاعات واسعة من الأراضي مقابل الخدمة العسكرية. وشكلت هذه القبائل[24] خط دفاع أمامياً يدافع عن البلاد الإسلامية. وقد عرفت هذه الإقطاعات في العالم الإسلامي بالرباط، ونظام الرباط نظام دفاعي اعتمد على تعبئة القبائل وربطها بالأرض

---

(20) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 615.

(21) البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق محمد حمد الله - معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية دار المعارف. مصر ص 122.
أيضاً: البلاذري، فتوح البلدان ص 366حيث يردد كلمة شرف العطاء.

(22) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج5 ص 255.
ابن تغري بردي (ت813) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية. 1352.ج1 ص 64.
أيضاً: ابن دقماق: الانتصار. ج4 ص 5 -12.

(23) ابن عساكر ج1 ص 175.

(24) نجده خماش، الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر بدمش 1978 ص 216.

لحمايتها. ويمكن اعتبار نظام الأربطة أساس نظام الإقطاع العسكري الإسلامي[25].

ولم يقتصر نظام الأربطة في العالم الإسلامي على منطقة المشرق الإسلامي، بل امتد ليشمل منطقة المغرب الإسلامي لأن معاوية أراد للأربطة أن تكون حصوناً يتجمع فيها الجند وبالذات في المناطق المعرضة لغارات الأساطيل البيزنطية الرومانية، ولتكون ملجأ يحتمي به الأهالي. وقد خصصت لإنذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر الأسطول البيزنطي في سواحل الشام.[26]

كذلك سار معاوية على سياسة نقل السكان التي ابتدعتها بيزنطة في ذلك العهد[27]. وقد نقل معاوية جماعة من فرس بعلبك وحمص وإنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها سنة 42هـ كما نقل جماعة من أساورة البصرة والكوفة إلى إنطاكية ونقل سنة 49هـ قوماً من زط البصرة والسبانجه إلى إنطاكية. وأسكن جماعة كبيرة من اليهود في طرابلس[28].

وكذلك في الإسكندرية اتبع عمرو بن العاص سياسة شحنها بالجند فوضع ربع الجند فيها ومنحهم المساكن. وقال يزيد بن حبيب في ذلك عن تلك المساكن: إنه لا يحل من كرائها شيء ولا بيعها ولا يورث منها شيء، إنما كانت لهم يسكنونها في رباطهم[29].

ويعتبر المغرب الإسلامي بلد الرباط والمرابطين وكان ساحل المغرب مثل ساحل بلاد الشام معرضاً للغارات البحرية من صقلية وسردينيا وجنوب إيطاليا وحتى القسطنطينية. لذلك اعتبر ثغراً والرباط فيه جهاداً في سبيل الله. ومن هنا كثرت نشأة الأربطة على سواحل أفريقيا و انتقل هذا النظام إلى الأندلس في عهد عبدالرحمن الأوسط[30].

وفي عهد الوليد بن عبدالملك شجع الجند على الإقامة في إنطاكية بأن أقطعهم أرض سلوقية عند الساحل "صير إليهم الفلتر من الأرض بمعنى أقطعهم مساحة من الأرض بمقدار الفدان"[31].

هذا بالإضافة إلى أنهم أقطعوا قادة الجيوش ملكيات واسعة من الأراضي كانت بمثابة رواتب عقارية لهم لضمان حسن أدائهم الوظيفي.

وإذا تساءلنا هل دفع أصحاب الإقطاعات العسكرية ضريبة إلى الدولة، وقد أشار إلى ذلك جعفر بن قدامة لقوله: إن الإقطاع كمصطلح يراد به الهبات المتوارثة التي يستحق عليها العشر[32]. وانفرد ابن خلدون بذكر أن العرب الفاتحين تقاسموا نواحي المغرب أي أن كل

---

(25) نجده خماش، الإدارة ص217.

(26) خماش. الإدارة. ص 216 -217.

(27) والمعلومات أكثر عن سياسة تمليك الأرض مقابل الخدمة العسكرية وسياسة نقل السكان في بيزنطة انظر: عائشة أبو الجدايل، الدولة البيزنطية ص 289 ـ وما يليها. ونقل السكان أيضاً انظر البلاذري، فتوح البلدان ص 366 -369.

(28) البلاذري. فتوح البلدان، ص 124.
أيضاً: المالكي، رياض النفوس ص 25.
نجده خماش ص 217.

(29) البلاذري، فتوح البلدان ص 225.

(30) نجده خماش، الإدارة، ص222.

(31) البلاذري، فتوح البلدان ص 153.

(32) جعفر بن قدامه. ص 84.

جماعة منهم اقتطعت فيه قطعة اعتبرتها خالصة لها . ويورد تأكيداً لذلك أسماء بيوت من العرب. استقرت في نواحي المغرب وتقاسمته[33].

ونخلص إلى أن العهد الأموي تميز بإقطاع الأرض للمحاربين وبشكل خاص إلى المجاهدين المرابطين في الثغور، هذا ولم يرد شيء عن منع العطاء عن المحاربين، إلا أنه ورد أن العطاء في عهد الدولة الأموية كان أقل من عهد الخلفاء الراشدين: كان العطاء محدوداً بمقدار (2500) درهم في عهد عمر ومن تبعه وانخفض في خلافة بني أمية إلى (2000) درهم. هذا مع وجود تميز في العطاء حيث كان عطاء أهل العراق أقل من عطاء أهل الشام[34].

وواصلت الدولة العباسية نفس السياسية فنرى أنه عندما قام أبو جعفر المنصور ببناء ملطية بأطراف آسيا الصغرى عام 140هـ/ 757م. أقطع الجند المزارع حولها[35].

وبصفة عامة فإن الجيش إلى نهاية الفترة الأموية كان مكوناً من العناصر العربية، وكانت الرواتب تدفع لهم من باب الدمج بين الأعطيات والإقطاع كما رأينا. أما في عهد الدولة العباسية وبسبب الصراع على السلطة داخل الأسرة العباسية نفسها، ومع ظهور حاجة الدولة للعناصر المحاربة التي تطلبتها عملية تجهيز الجيوش وإعدادها للحروب الخارجية، هذا بالإضافة إلى استخدامها في الصراعات الداخلية. بدأت تبرز أهمية العنصر العسكري في بناء السلطة السياسية. وكانت غالبية الجند من الموالي، وذلك لأسباب منها سياسة المأمون (786-833م) تجاه الفرس وسياسة المعتصم (833-842م) تجاه الترك. وتحول الصراع في عهد المعتصم على السلطة بين العنصرين الفارسي والتركي حيث تغلغل الأتراك في الجيش وسيطروا على الجهاز العسكري. في نفس الوقت شهدت هذه المرحلة تدهوراً ملحوظاً في قيمة العائدات الخراجية، الأمر الذي أوقع الخزينة العباسية في حالة من العجز الشديد. لذا فقد قام المعتصم بإعطاء جنده الأتراك الإقطاع ولكن كان إقطاعاً من أراضي الصوافي فقط لا غير[36]. وحتما ضاق أهالي بغداد بالجنود الأتراك فانتقل المعتصم بهم إلى العاصمة الجديدة سامراء التي حاز الأتراك بها إقطاعات واسعة.

ولمواجهة الأزمة التي رافقت تحكم الجند الأتراك فقد قامت الدولة ببيع الضياع السلطانية وأعطت أراضي السواد بالضمان، ومن الممكن أن يكون الضامن تاجراً أو موظفاً أو أحد القواد العسكريين[37].

---

(33) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج6 ص 212.

(34) البلاذري فتوح البلدان، ص 435.

(35) البلاذري، فتوح البلدان ص 191.

(36) عبدالهادي المهدي عبدالهادي المصري، أرض الصوافي، دار أم القرى. الأردن ص 152.
أيضاً: أحمد عبدالباقي، سامرا عاصمة الدولة في =

= عهد العباسيين بغداد 1989م ص 52 -53.
علي حبيبة، العباسيون في التاريخ. مكتبة الشباب القاهرة بدون تاريخ ص 143.
سيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسي الأول الإسكندرية ج3ص 283.

(37) عبدالعزيز الدوري، نشأة الإقطاع الإسلامية الاجتهاد، العدد 33. السنة الثامنة 1417هـ، ص 258.

وإلى هذا الوقت كان مبدأ اعتبار الأرض الخراجية فيئاً للمسلمين وقفاً واعتبار الخراج إيجاراً لها كان ساري المفعول. ومع أن الدولة أعطت الأرض بالضمان حتى أرض السواد التي كانت تعتبر أرضاً خراجية إلا أنها لم تذهب إلى منح إقطاعات لدفع رواتب الموظفين والجند(38).

وقد استمرت هذه الأوضاع حتى دخل البويهيون بغداد سنة (334هـ-945م) وقبل أن ينتهي العام قام معز الدولة(39) بتطبيق سياسة الإقطاع العسكري بمعنى منح الأرض بدل العطاء. وكانت تلك الأراضي من الضياع المصادرة وكذلك من أراضي الخراج وشملت هذه الإقطاعات معظم السواد. كما أعطى معز الدولة إقطاعات لوزرائه وكبار موظفيه وأما الباقي فأعطى بالضمان لأكابر القواد والجند(40).

وبالرغم من وضوح فكرة جذور الإقطاع الحربي في الإسلام إلا أن بعض الباحثين قد اختلفوا حول ظهوره فترى من يقول: إن الإقطاع العسكري يبدأ بفكرة بيع الأملاك الخاصة وتطور في العهد البويهي(41). ويرى بولياك Poliak، كما نقل رأيه الدوري، أن بداية الإقطاع العسكري يبدأ مع محمود الغزنوي (967هـ-1030م) ثم انتقل إلى السلاجقة. أما الرأي الذي يناقضه فهو رأي الباحث بوزورث Bosworth الذي مال إلى أن الغزنويين دفعوا أعطيات للجند نقداً(42). وترى لامبتون Lambton أن أصول الإقطاع العسكري يعود إلى العصر البويهي(43). بينما يرى كلود كاهن أن جذور الإقطاع تعود إلى ما قبل البويهيين(44). بينما يتفق الدوري مع لامبتون على أن الإقطاع العسكري ابتدأ مع البويهيين(45). ويرى مراد(46) أن بروز الإقطاع العسكري يتزامن مع نفوذ الوزير السلجوقي نظام الملك. ومحمود إسماعيل يؤكد أن ظاهرة سيادة الإقطاع العسكري بدأت مع العهد السلجوقي(47).

ويؤكد منيمنة أن الإقطاع العسكري بدأ بالظهور عملياً عندما أعطى معز الدولة الإقطاعات لقادته وللجند كبديل عن الرواتب. وفي بعض الحالات أعطيت مناطق للجند ليأخذوا عطاءهم من إنتاجها فاستأثروا بالوارد وامتلكوا الأراضي عن طريق الإلجاء ليتوسع نطاق الإقطاع

(38) الدوري، نشأة الإقطاع، ص 259.

(39) معز الدولة بن بويه من أسرة فارسية أسسها أبو شجاع بن بويه ـ أبناؤه علي وحسن وأحمد استولوا على أصفهان وكازرون وشيراز وكرمان وبغداد سنة 945. ولقبوا بلقب معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة، وعلى عهدهم غدا أمير المؤمنين العون في يدهم أي أن عليهم طغرل السلجوق 1055م.

(40) الدوري، نشأة الإقطاع ، ص 59.

(41) فؤاد خليل الإقطاع الشرقي بين علاقات الملكية ونظام التوزيع ـ دار المعجل العربي ـ (بيروت 1996م) ص 299.

(42) الدوري، نشأة الإقطاع ص 256.

(43) لا متبون، نظرات في الإقطاع الاجتهاد العدد الأول 1988م ص 281.

(44) كلود كاهن، تطور الإقطاع الإسلامي ما بين القرنين التاسع والثالث عشر إسهام للتاريخ المقارن للمجتمعات في العصور الوسطى، الاجتهاد العدد الأول 1988م ص 228.

(45) الدوري، نشأة الإقطاع ص 256.

(46) محمد مراد، الأرض والسلطة ص 69.

(47) محمود إسماعيل، الإقطاع في العالم الإسلامي، ص 21.

العسكري بعد ذلك[48]. والالتجاء هو الحماية في النظام الإقطاعي، ونظام الحماية نظام قديم عرفته الإمبراطورية الرومانية وينقسم إلى قسمين الحماية الشخصية Patrocinium وحماية الأرض Precinium والإلجاء في الإسلام يتشابه مع حماية الأرض الرومانية لأنها إلجاء إلى اسم وجاه وسلطان. وقد وصفه البلاذري[49]. بأنه "وسيله للتعزز والحقارة".

وهناك إشارات إلى وجود الإلجاء منذ أواسط العهد الأموي. وقد أخذت به بعض القرى طلباً للحماية أو للتعزز بجاه أمير كما حدث في أرض السواد عندما لجأ المزارعون إلى مسلمة بن عبدالملك ومروان بن محمد[50].

وتوسع نطاق الإقطاع العسكري بعد ذلك حتى إن الأراضي الزراعية حول بغداد منحت بالإقطاع زمن جلال الدولة.

من الناحية المبدئية عندما منحت الإقطاعات للجند من أرض الخراج كان الإقطاع لوارد الأرض فقط فهذه الإقطاعات لا تورث ولا تدوم مدى الحياة ولا تعتبر ملكاً لصاحبها لأن الأمير البويهي له الحق في إلغاء المنحة الإقطاعية متى أراد[51].

ولكن في الواقع فإن الجند نادراً ما كانوا يدفعون ضرائب للدولة من الأرض التي أخذوها كإقطاع، كما أنهم منعوا الإدارة المركزية من ممارسة أي نفوذ إداري في إقطاعاتهم التي أداروها بواسطة وكلاء. ولم يحتفظوا بأي سجل للواردات والصادرات وتحكموا في زراعتها كما يشاءون وكثر التجاوز والمصادرة وأكثر من ذلك فقد كان الجند يردونها ويعتاضون عنها بإقطاع أكثر وارداً. وامتد الإقطاع العسكري ليشمل كل أنواع الأراضي فكلما ازداد ضعف الأمير توسعت إقطاعات الجند. وبالرغم من ارتباط هذا الإقطاع بالعسكر البويهي إلا أنه اقتصر فقط على أصحاب الرتب العليا ولم يشمل كل عناصر الجند[52].

والجدير بالملاحظة أن القائد الذي يعطي إقطاعاً غير مسؤول عن عطاء جنده بل كان جنده يأخذون إقطاعات أو عطاء من الدولة[53].

والإقطاع العسكري البويهي بالرغم من منح جميع أنواع الأرض إلا أن المنح كان إقطاع ناتج الأرض وليس الأرض نفسها ولم يكن نظاماً وراثياً، والأساس يعطي الإقطاع بدل العطاء مقابل خدمة المقطع العسكرية، ولكن لا يشترك القائد العسكري المقطع في السلطة للدولة. ولم يكن مطالباً بتهيئة غيره من الجنود.

وحيث إن الماوردي قد عاصر تلك الفترة فقد قام بإيراد بعض الفتاوى والأحكام في قضية الإقطاع الحربي الذي يجوز الإقطاع الحربي بقوله: أن يكونوا من أهل فرض أهل الديوان وهم الجيش فهم أحق الناس بجواز الإقطاع[54].

---

(48) حسن منيمنة، نشوء الإقطاع في الإسلام ص 302.
(49) البلاذري، فتوح البلدان ص 324.
(50) البلاذري، فتوح البلدان 271 -274.
(51) منيمنة، نشوء الإقطاع 303.
(52) منيمنة، نشوء الإقطاع 303.
(53) الدوري، نشأة الإقطاع ص 262.
(54) الماوردي، الأحكام السلطانية ص 233.

وأجاز استعمال الخراج في الأجرة، وأن يكون مقدار الوقت معلوماً "كإقطاعه عشر سنين "وجاء ذلك تحت مسمى إقطاع الاستغلال(55). لا إقطاع تمليك؛ لأن أرض الخراج في نظر الماوردي وقف للمسلمين(56).

إن إقطاع الاستغلال الذي أجازه الماوردي، من حيث المبدأ، ليس وراثياً، ولا يستمر مدى الحياة ولكن قد يجوز أن يحتفظ الجندي المسن بالإقطاع حتى وفاته. وكان من الممكن إعادة توزيع الإقطاع. أما أولاد الجندي المتوفى ليس لهم الحق في وراثة الإقطاع بل يأخذون تعويضاً عنه. وما ينطبق على الإقطاع لا ينطبق على التلاجئ ولا على الأملاك التي يكتسبها الجندي في مناطق إقطاعه. فالعهد البويهي كان الوسيلة التي سرعت عملية تفتيت أملاك صغار الملاك من الفلاحين. لذا فإن ملكية الفلاحين أخذت في الانقراض لتفسح المجال أمام بروز الأرستقراطية العسكرية. لأن الجنود تمكنوا من الحصول على إقطاعات أكبر مما كان يحق لهم عن طريق الرشوة، لكن انحلال الأسرة البويهية في بداية القرن الخامس الهجري جمد اتساع الاستغلال العسكري للأراضي(57).

وعن التطورات التي صاحبت نظام الإقطاع العسكري البويهي هو وجوب القيام بالخدمات العسكرية مقابل الإقطاع، وكان ذلك يتم تحت نظام دقيق من المراقبة والضابط يتحمل مسؤولية دفع الرواتب لرجاله الذين يتلقون ذلك من الدولة لا منه شخصياً. وربما كان عليه فقط متابعة وصول الرواتب إليهم. كذلك الفلاح استمر في دفع ما كان يتوجب عليه من ضريبة الأرض. وهناك إشارة إلى فرض أحد العسكريين ضرائب على فلاحي إقطاعه لا قبل لهم بدفعها ثم لجوئه لضمهم لملكيته الخاصة(58). ومن التطورات التي حدثت ضم وظيفة الإدارة المالية والإدارة المدنية والقيادة العسكرية، في يد القائد العسكري الذي تولى ضمان الضرائب بحيث حل القائد العسكري محل الموظف المدني. وبذلك تعزز وضع العسكر بالانتفاع في أملاكهم الواسعة وتمتعوا بشبه استقلال عن السلطة المركزية التي كانوا يرسلون إليها الضرائب التي يريدونها هم دون أن تتمكن السلطة من محاسبتهم أو عزلهم. وبذلك يكون الوالي هو المقطع ويقوم بتأمين النفقات المدنية والعسكرية في الإقليم من موارد الضرائب ولا يرسل للحاكم إلا ما تبقى. وأحياناً لا يدفع للحاكم أي مقابل باستثناء ما يتوجب عليه من تجهيز فرقة عسكرية في حالات الحرب. هذا بالإضافة إلى تقديم فروض الولاء والطاعة والدعاء للحاكم في خطبة الجمعة وسك اسمه على العملة(59). وفي هذه الحالة فقط يكون مشابهاً للإقطاع الغربي من حيث الاستقلالية عن السلطة المركزية ومن حيث الالتزام العسكري وتقديم فروض الولاء والطاعة بمعنى التبعية للحاكم.

---

(55) الماوردي، الأحكام السلطانية ص 233.

(56) الماوردي، الأحكام السلطانية ص 147.

(57) كلود كاهن، تطوير الإقطاع ص 209.

(58) كلود كاهن، تطوير الإقطاع ص 210.

(59) كلود كاهن، تطوير الإقطاع ص 211 -213.
أيضاً: أن لا مبتون، نظرات في الإقطاع ص 281 -282.

ومن المميزات التي ميزت الإدارة البويهية هي شدة الرقابة العسكرية وبروز دور ديوان الجند في دفع الأرزاق للجند وكل ما يمس الإقطاع العسكري، وهذا يعني أن على ديوان الجند الاطلاع على القيمة التقديرية للضرائب وتنظيم هبة الأراضي، من حيث مراعاة حسن التوزيع وإعادة توزيع الإقطاع وتحديد الخدمات المترتبة على الجنود ومراقبة مدى تنفيذهم لها. وهكذا أصبح ديوان الجند إدارة مالية إلى جانب كونه إدارة عسكرية.

ولم يكن الإقطاع العسكري من حيث المبدأ يعني إنهاء السلطة المركزية أو إضعافها، وأن علاقة المقطع العسكري بالحاكم كانت علاقة المولى والسيد.

كذلك لم يوجد تنظيماً إقطاعياً بين المقطع ومن يتبعه من الفلاحين" إقطاع من الباطن".

وتأتي الفترة السلجوقية(60). التي غالباً ما ينسب إليها إدخال النظام الإقطاعي الحربي إلى العالم الإسلامي، وذلك بالاستناد إلى ما كتبه المقريزي وهذا نصه:" أعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن تجبى أموال الخراج ثم تفرّق من الديوان في الأمراء أو العمال والأجناد على قدرتهم وبحسب مقاديرهم، وكان يقال لذلك في صدر الإسلام العطاء، ومازال الأمر كذلك إلى أن كانت دولة العجم فغير هذا الاسم وفرّقت الأراضي إقطاعات على الجند. وأول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق بن العباس الطوسي وزير البرشلان ابن داودين ميكال بن سلجوق ثم وزراؤه ملكشاه بن البرشلان. وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه، لأنه رأى أن في تسليم الأراضي إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعها بأمرها بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد فإن الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد. ففعل نظام الملك ذلك وعمرت به البلاد وكثرت به الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضعة وثمانين وأربعمائة إلى يومنا هذا(61).

وعلل البنداري، مؤرخ السلاجقة ما قام به نظام الملك بقولة:" رأى نظام الملك أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها، ولا يصح منها ارتفاع إلى إيراد أو دخل لاعتلالها ففرقها على الجنود إقطاعات وجعلها لهم حاصلاً وارتفاعاً فتوفرت دواعيهم على عمارتها"(62).

---

(60) السلاجقة: ينتمون إلى سلجوق وهو زعيم تركماني ظهر في النصف الثاني من القرن العاشر إليه ينتسب السلاجقة وهم ثلاثة فروع: إيران، وكرمان، وآسيا الصغرى. تغلغلوا في مصاف الجيش الإسلامي وخدموا الخلفاء العباسيين في آسيا الصغرى وناصروا أهل السنة على الشيعة ثم قبضوا على زمام الأمر وكان زعيمهم طغرل بك من الفرع الإيراني. =

= وقد أبلوا بلاءً حسنا في الحروب الصليبية، انقرضت دولتهم في إيران عند ظهور الدولة الخوارزمية وسقطت في بلاد كرمان تحت وطأة المغول.

(61) المقريزي، الخطط ج1 ص 95.

(62) الفتح بن على بن محمد البنداري الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة بيروت ص 55.

على أن نظام الملك لم يرد أن يكون نظامه الجديد صورة من النظام البويهي، بل أراد أن يحقق الأغراض التي من أجلها أقامه وربما أدرك ببعد نظره خطورة هذا النظام على الحكومة المركزية وسلطتها فاتخذ إجراءً وقائياً بأن فرق إقطاع الجندي الواحد في بلاد مختلفة، حتى لا يقوى الجندي المقطع: أن يكون خطراً على كيان الدولة(63). وفي ذلك يقول البنداري:" وربما قرر - أي نظام الملك - لواحد من الجند ألف دينار في السنة، فوجه نصفه على بلد من الروم - أي في الأملاك السلجوقية بآسيا الصغرى - ونصفه في أقصى خراسان(64). وكان الإقطاع العسكري في العهد السلجوقي استمراراً للنموذج البويهي، وكان يشبه الإقطاع الإداري إلى درجة يصعب التمييز بينهما. وكان بمثابة هبة للعائدات(65).

إن وزير السلاجقة نظام الملك هو الذي أعطى النظام الإقطاعي شكله النهائي وأقامه في مناطق لم يوجد فيها من قبل. وأخباره في الحوليات الشرقية ليست واضحة ولكن يمكن أخذ القواعد التي سار عليها من كتابه" سياسة نامه". ومن المرجح أنه دمج الإقطاع وذلك بربط إيرادات بعض الضياع مع إدارة نفس المنطقة وهذه هي الخطوة النهائية نحو إقامة النظام الإقطاعي ولكن لم تصبح كل الإقطاعات وحدات إدارية(66).

وبالنسبة للإقطاع العسكري فقد خصص نظام الملك للفرسان إقطاعات مؤلفة من الضياع في مناطق مختلفة، كما أن الدولة لم تتخل عن الإشراف الإداري على تلك الإقطاعات، ولكن الإقطاعات الكبرى منحت مقابل التعهد بتقديم عدد معين من الفرسان. ويوضح نظام الملك سياسته الإقطاعية في كتابه"سياسة نامه" أن الإقطاعات يجب أن تبدل كل سنتين أو ثلاث سنوات حتى لا يتمكن الإقطاعيون من الاستقرار ويبدؤون بإثارة الشغب"(67).

وعلى الرغم من توصيات نظام الملك فإن الإقطاعات الكبرى أصبحت وراثية في الدولة السلجوقية والدول التي جاءت بعدها. وهذا يعلل نصوص بعض المؤلفين الذين قالوا إن النظام الذي أوجده نظام الملك جلب الازدهار للزراعة. والضياع التي أهملت لفترة طويلة أصبح مردودها جيداً لأن الإقطاعيين عملوا على تحسين الزراعة. هذا بالإضافة إلى أن العلاقة بين الإقطاعيين وأتباعهم من جهة وبين السلطان من جهة أخرى في الدولة السلجوقية تشبه إلى حد كبير الهرم الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى وكبار الإقطاعيين منحوا إقطاعات لفرسانهم الذين يدينون لهم بالولاء. كما أنهم أصبحوا وسطاء بين السلطان وبين صغار الإقطاعيين. وفي عهود

(63) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق ص 55 وما يليها.

(64) طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، النظم الإقطاعية ، دار الكتب العربية القاهرة 1968م ص 24 -25.

(65) آن لامبتون، نظرات في الإقطاع ص 287.

(66) آشور التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عيله، دار قتيبة ص 275 -276.

(67) آشور، التاريخ الاقتصادي ص 276.

الأمراء الضعفاء أصبح الإقطاعيون الكبار شبه مستقلين(68).

ولقد انتقل النظام الإقطاعي الحربي كاملاً إلى الدول التي نبتت وتفرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثتها وهي الدولة الزنكية والدولة الأيوبية ثم دولة المماليك(69).

وطبيعة الإقطاع في العصر السلجوقي أن حق المقطع يتعلق بخراج الأرض لا بالأرض ذاتها، وليست له سيطرة على المستغلين لها، كما أنه يخضع لسلطة الحكومة، وعليه أن لا يسيء استعمال إقطاعه كما يجوز نزع الإقطاع من المقطع إذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه. وكان الإقطاع محدود الأمد.

وأهداف نظام الملك من تقييم الإقطاع هي الأمور التالية:

1- تخفيف بعض المتاعب الإدارية والحربية عن الحكومة المركزية، إذ أصبحت بعض الإقطاعيات، والتي عرفت باسم الاتابكيات، مستقلة بتنظيم أحوالها المدنية والعسكرية.

2- أدرك نظام الملك أن معظم الجيش السلجوقي هو من القبائل المختلفة العناصر فأراد أن يجعل تلك الجماعات تعيش في أراضٍ تقطع لها لترتبط بالأرض وتشعر بشعور المواطنة.

3- استقرار تلك الجماعات في أراضٍ محددة يمكن السيطرة عليها.

4- إن استقرار القبائل في المناطق الزراعية يجعلها تندفع إلى استصلاح الأراضي وزراعتها والاستفادة من خبراتها(70).

على أن الإقطاع الحربي الإسلامي لم يصبح عاماً بجميع الدول الإسلامية حتى القرن الحادي عشر الميلادي، فلم تعممه الدولة الفاطمية، مع ما هو معروف عنها من كثرة الإقطاعات لجنودها وأمرائها. كما اختلفت طرق الإنفاق على الجنود في الأندلس، فجرت أولاً على إقطاع الأرض ثم تغيرت إلى العطاء والرواتب ثم عادت إلى الإقطاع وهكذا بحسب ما كان يرى ولي الأمر. وجاء التطور الأخير على أثر دخول المرابطين لبلاد الأندلس تحت قيادة زعيمهم يوسف بن تاشفين المتوفى سنة 448هـ/ 1056م. وفي مراكش على عهد بني مريرة، المعاصرين للأيوبيين والمماليك، عرف الإقطاع الحربي كذلك(71).

أما الدول التي قامت، كما ذكرنا في أحضان السلاجقة، وعلى أنقاضها فهي الزنكية ثم الأيوبية فالمملوكية فانتقل إليها الإقطاع الحربي كاملاً؛ وإذا كان العراق النموذج الأمثل للإقطاع الحربي البويهي والسلجوقي فإن أرض مصر هي

---

(68) آشور، التاريخ الاقتصادي ص 276.
أيضاً: آن لامبتون، نظرات في الإقطاع، ص ص 287 -288.
أيضاً: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة بنية أمين فارس ومنير البعلبكي ط4 دار العلم للملايين بيروت 1965م، ص 280.

(69) طرخان، النظم الإقطاعية ص 30.

(70) السيد شمس الدين الحيدري، تاريخ العراق في العصر السلجوقي. مطبعة الإرشاد (1965) ص ص 206 -210.

(71) طرخان، الإقطاع الإسلامي، المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس 1957م ص 74.

النموذج الأمثل للإقطاع الحربي الأيوبي ثم المملوكي، حيث يذكر المقريزي في خططه" منذ كانت أيام صلاح الدين بن يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده"(72).

ومنذ ذلك الحين استقر النظام الإقطاعي الحربي في مصر بأركانه الأساسية منذ أيام صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بني أيوب. وأهم هذه الأركان كانت الخدمة العسكرية الواجبة على المقطع للسلطان. فإذا أخل المقطع بهذا الركن وعجز عن النهوض بواجب الخدمة الحربية، حرمه السلطان من إقطاعه مثلما فعل صلاح الدين مع بعض أتباعه الذين تقاعسوا عن النهوض بواجبهم الحربي سنة 1177م/573هـ وسنة 1191م/ 587هـ(73).

وعلينا أن نميز في مصر الأيوبية بين إقطاع الولاية المخصص عادة للأمراء من أقارب الدم بالنسبة للسلطان أو للأمراء الكبار والذين نجد في دائرة اختصاصهم أملاكاً خاصة وإقطاعات لجنود عاديين. ويذكر ابن العامد عدد الفرسان الذين يجب توفرهم مع الإقطاعات، ففي سنة 627هـ ذكر إقطاعاً عليه تقديم 350 فارساً وعام 656هـ إقطاعاً في بيت جبرين ونابلس بالشام عليه تقديم 120 فارساً. وإقطاعات مصر تشير إلى حالة فخر الدين عثمان أستاذ السلطان الكامل والذي أعطي عطاء بالفيوم من عام 619/1222م حتى وفاته عام 636/ 1238هـ(74).

وبصفة عامة فإن الإقطاع الحربي الأيوبي خضع لنفس القواعد التي خضع لها النظام البويهي والسلجوقي: وهي الرقابة الدقيقة، وغياب الإقطاع المتوارث، وندرة وجود إقطاع لمدى الحياة وعدم استقلالية المقطع في إقطاعه، ومراقبة الخدمات والدقة في تحديد الفرسان الذين يتوجب على الإقطاع تجهيزهم والتي تراوحت ما بين الخمسين والثلاثمائة وخمسين فارساً(75).

لقد اعتبر عهد المماليك (1250-1517م) العصر الذي اكتملت فيه النظم الإقطاعية الحربية في منطقة الشرق الأدنى، فقد نشأ المماليك في هذا النظام زمن الأيوبيين وأقاموا دولتهم الإقطاعية الكبرى على أنقاض دولة أساتذتهم من الأيوبيين واعتبرت الأرض ملكاً للسلطان وجنوده(76).

وأصول الحكم المملوكي تعود إلى أن السلاطين من بني أيوب اصطفوا طوائف من الأجناد المماليك ووضعوا لأعدادهم والترقي بهم وتوليتهم المناصب نظماً دقيقة خاصة وأقطعوهم الأراضي

---

(72) المقريزي، الخطط ص ص 139 -140.
(73) عبد الفتاح سعيد عاشور، بحوث في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية 1977م ص 145.
(74) ابن العامد، مخطوط بلالة لي في اسطنبول رقم 2002 مؤرخ عام 619هـ.
(75) ابن العامد، مخطوط بلاله لي في اسطنبول رقم 2002مؤرخ عام 619هـ.
(76) كلود كاهن، تطور الإقطاع الإسلامي، ص ص 230 -231.

حتى تولى المماليك الحكم، فذهبوا في تطبيق نظام الإقطاع الحربي وربطوا بين نظام الأراضي والإدارة العسكرية على نحو لم تعرفه الدولة الإسلامية من قبل حتى أصبحت الأرض وكأن لا وظيفة لها إلا "إعاشة الجند" وأصبح المماليك الذين تولوا السلطة يشكلون طبقة حاكمة منظمة تشكل جيوشاً إقطاعية تتشكل من عناصر أجنبية الأصل، ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان أغلبهم من القبائل التترية في منطقة روسيا الشرقية. وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان معظمهم من القوقازيين والجراكسة بشكل خاص[77].

ووفقاً للمقريزي فقد قسمت مصر إلى سبعة أقسام كالتالي:

1- قسم بحري في ديوان السلطان.
2- القسم الثاني إقطاعية السلطان للأمراء والجند.
3- وقسم ثالث وقف على الجوامع والمدارس.
4- أرض الأحباس.
5- ملك يباع ويشترى ويورث.
6- قسم لا يزرع للعجز عن زراعته.
7- قسم لا يصله ماء النيل فهو قفر[78].

وما يهمنا هو القسم الثاني الخاص بإقطاع الجند والإقطاعية في العهد المملوكي عرفت بالخبز أو المثال[79]. تمنحها الدولة للأمراء والفرسان وتعتبر ملكاً مؤقتاً لهم يستغلونه حسبما يشاؤون، وتراعي الدولة أن يكون دخل الإقطاعية كافياً لسد حاجتهم، لذا كانت الدولة تفرض على آخذي معظم الإقطاعات الصالحة للزراعة رسماً أو ضريبة تدفع من دخلها في بدء كل عام للحكومة الرئيسية، كذلك فإن الإقطاعات لم تقتصر على مختلف أنواع الأراضي بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة، وهذا ما يؤكده القلقشندي حيث يقول: " صارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال من خراج الأرض والجزية وزكاة المواشي والمعادن و العشر وغير ذلك[80].

(77) محمد رجائي ريان، الإقطاع العسكري في العهدين المملوكي والعثماني الدارة العدد الثاني سنة 14 - 1409هـ 1988م ص 19.
وللدقة في تقسيم الإقطاع لجأ المماليك إلى عملية مسح للأراضي المصرية التي تعرضت للمسح خمس مرات في العصور الإسلامية الأولى في خلافة الوليد بن عبدالملك وأخيه سليمان سنة 97هـ/715م، والثانية في خلافة هشام بن عبدالملك سنة 210/ 829م والثالثة في خلافة المعتز بالله العباسي حوالي 253هـ / 867م والمرة الرابعة في العصر الفاطمي سنة 501هـ 1107م. والمرة الخامسة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي 572هـ/ 1176م وأطلق على ذلك الروك الصلاح. والروك هو مسح الأرض الزراعية والمسح السادس أطلق عليه اسم =

= الروك الخامس في عهد المماليك. والسبب في ذلك يعود إلى أن الأمراء كانوا يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء ويحتمي بها قطاع الطرق وتقوم بها الثورات والفتن. لتفاصيل أكثر انظر: علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية مكتبة النهضة المصرية ـ ط3 1967 ص 334ـ 335.
(78) المقريزي، الخطط ج3، ص 156 -157.
(79) جرت العادة من توزيع الإقطاعات أن يأمر السلطان ناظر الجيش بالكتابة للمستحق للإقطاع فيحرر بذلك ورقة تسمى المنال مضمونها" خبز فلان كذا" انظر المقريزي، الخطط ج3 ص 353.
(80) القلقشندي : صبح الأعشى ج4 ص 50.

وتركزت غالبية الإقطاعات في العهد المملوكي في رجال السيف، نعني السلطان وأمراءه وأجناده، وتألف الجيش المملوكي من ثلاثة أقسام رئيسية وهي كالتالي:

1- المماليك السلطانية.

2- أجناد الحلقة.

3- أجناد الأمراء.

فالمماليك السلطانية: أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة(81).

أجناد الحلقة: كانوا يعتبرون قلب الجيش المملوكي، ويأتون في المرتبة الثانية بعد مماليك الأمراء، وكانت تصرف لهم مرتبات من ديوان الجيش.

أجناد الأمراء: وهم الجنود الذين يتبعون أمراءهم مباشرة. وهؤلاء تدفع لهم مرتبات سنوية نقدية أو إقطاعات(82).

ومن الجدير بالملاحظة أن مرتبات الأمراء والأجناد غير ثابتة، وإنما كانت متغيرة تبعاً لوضعية الإقطاعات التي تتأثر بعملية مسح الأراضي بين الحين والآخر وهو ما عرف بروك الأراضي. والأراضي كانت تنقسم إلى أربعة وعشرين قسماً أو قيراطاً وكانت موزعة كالتالي:

أربعة قراريط للسلطان - عشرة قراريط للأمراء وعشرة قراريط للأجناد.

وعندما تسلط الأمراء على الجنود يأخذون إقطاعاتهم فلا يصل إلى الأجناد منها شيء. قام السلطان المنصور لاجين 696هـ/1296م بتقسيم الأرض تقسيماً جديداً جعل بمقتضاه للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطاً وزع عشرة منها وأبقى القيراط الحادي عشر لزيادة إقطاع من يتضح فيما بعد بأنه ظلم وجعل للسلطان أربعة قراريط وخصصت القراريط التسعة الباقية ليكون لها فرق جديدة في الجيش. ويبدو أن هذا التقسيم لم يرض الأمراء ولا الأجناد مما أدى بهم إلى الفتك بالسلطان لاجين وقتل نائبه فكوتمر(83).

وأعيد التقسيم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 700هـ كالتالي أربعة عشر قيراطاً للأمراء والأجناد والعشرة قراريط الباقية للسلطان ومماليكه(84).

ونستطيع أن نستعرض بعض الواجبات والحقوق في الإقطاع الحربي المملوكي في الآتي:

أولاً: يمين الولاء حيث يستطيع السلطان أن يأخذ اليمين لا لنفسه بل لولي عهده كذلك.

ثانياً: أداء الخدمة العسكرية وهي الأساس في حيازة الإقطاع، وإذا عجز الأمير المملوكي عن

(81) أحمد محمد عدوان، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي عالم الكتب الرياض 1405/ 1985/ ص 33.

(82) أحمد محمد عدوان، العسكرية ص 35.

(83) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج7 ص 477.

(84) أحمد عدوان، العسكرية، ص 39.

أداء جنده الخدمة أقام بدلاً عنه . وإذا لم يستطع إقامة بديل عليه أن يدفع فوراً من المال.

ثالثاً: أن يسهم في تسهيل وسائل الاتصال بين أطراف المملكة لتقديم خيول البريد.

رابعاً: تقديم الالتزامات المالية المتعلقة بإقطاعهم، حيث إن المقطع ملزم بدفع الخراج المقرر على الإقطاعات وهو من أهم مصادر بيت المال. ويجبى الخراج عيناً أو غلة. وأغلب خراج الوجه القبلي غلة.

خامساً: المساهمة في الأعمال العامة: القائمون بها هم المقطعون سواء كانوا من أصحاب الوظائف أم لا، وسواء كانت أعمالاً خاصة بالسلطان أو أعمالاً عامة. من الأعمال العامة: القيام بجمع المحصول وحفر الخلجان وعمارة الجسور ونحوها. ومن الأعمال الخاصة ما فعل السلطان الناصر سنة 738هـ / 1337م حين قرر إنشاء حوض للضأن فرتب على كل أمير تقديم مائة رجل ومائة دابة لنقل التراب(85).

وموضوع الواجبات العسكرية المشار إليها هي التي أعطت التطور الإقطاعي المظهر أو السمة العسكرية، ولذلك يقال: تقدمت مرتبة أرباب السيوف على رتبة أرباب الأقلام، ولذلك كانت الخدمة العسكرية هي الأساس الأول لحيازة الإقطاع. ومن التزاماتها أن يلبي المقطع نداء ولي الأمر في وقت الحرب مع أتباعه من الفرسان المجهزين في أي وقت ولأي فترة. أما الحقوق فإلى جانب حيازة الأرض تخلع عليهم الألقاب مثل سيف الدين وعز الدين وركن الدين. هذا إلى جانب بعض المنح والمخصصات المالية(86).

وهناك ظاهرة ميزت الإقطاع المملوكي وينفرد بها دون باقي الأنظمة وهي ظاهرة المناقلات الإقطاعية وهي انتقال الإقطاع الواحد من يد إلى أخرى حسبما يرى السلطان. كما كانت هناك ظاهرة أخرى وهي عدم إقامة الأمير المقطع في إقطاعه لرعاية شؤونه بل أقام في العاصمة في قصوره، وتبرير ذلك أن الإقطاع غير ثابت وغير مضمون البقاء في يد صاحبه. أما الأجناد فقد بقوا في الإقطاعات لأن كان عليهم أداء خدمات في الإقطاع. الملحوظة الثانية هي خضوع الإقطاع لتدخل السلطان شخصياً.

كما قاموا بإبطال الإقطاع الوراثي لأنه في بداية الدولة المملوكية كانت الإقطاعات وراثية بغية مساعدتهم على إتمام الواجب العسكري كفرسان لامعين ولكن بمرور الزمن زالت طبقة الإقطاعات الوراثية. كما سادت عادة بيع الإقطاعات " الإفراغ" أو التنازل عنها. كذلك سمح لبعض الأمراء أن يرسلوا إلى الحرب من ينوب عنهم وبناء عليه انحلت الرابطة بين الأرض والخدمة العسكرية وذلك المعول الذي هدم الإقطاع الحربي المملوكي وبالتالي انهيار الدولة المملوكية نفسها(87).

وأخيراً، نأتي إلى الدولة العثمانية التي كانت

---

(85) طرخان، النظم الإقطاعية، ص 201.

(86) رجائي، الإقطاع العسكري ص 25.

(87) رجائي، الإقطاع العسكري ص 26 -27.

قائمة على طبيعة عسكرية حيث تميز الحكم العثماني بأنه حكم عسكري. ومعنى ذلك أن الجيش هو أداة الحكم وهو أداة الحرب في نفس الوقت. ومن هذا المنطلق نظمت الدولة العثمانية حكومتها على أساس إقطاعي عسكري، لأنهم بهذا النظام يوفرون أسباب العيش للجند بدلاً من الإنفاق عليهم وقد يضمن منح أراض للمحاربين مقابل الخدمة العسكرية ومقابل تجهيز أنفسهم بالخيل والسلاح، وكذلك لعدد من الأتباع وهذا العدد يعتمد على مساحة الأرض الممنوحة. وسيطر على الدولة العثمانية منذ فجر تاريخها فئة المحاربين المسلمين أحرار الذين أطلق عليهم اسم "السباهيون" والذين يؤلفون خيالة أو فرساناً في المقاطعات وخصصت لهم ملكيات عقارية عرفت باسم ديريلكات "جمع ديريلك" بمعنى رزق[88].

وكانت الإقطاعات تسمى ثيمارات ومفردها ثيمار وزعامات وتؤخذ أصلها من أراضي الدولة "الميري" وهي أكثر أنواع الإقطاعات انتشاراً.

وكان السباهيون يشكلون العمود الفقري في النظام الإقطاعي العسكري العثماني. وبالطبع كان عليهم واجبات ولهم حقوق. ومن أهم واجباتهم الخروج إلى الحرب متى دعوا إلى ذلك وفي التاريخ المتأخر كان من الممكن أن يقدموا بديلاً للخروج إلى الحرب ولكن بصرف النظر فإن الواجب الأساسي لهم هو الخدمة العسكرية[89].

ومن حقوقهم جمع ضرائب معينة على الأرض ومنحوا أيضاً حقوق الإشراف على استعمال الأرض وتحويلها. ومنح الإقطاعية يعني تفويضه فقط حق جباية الأعشار وسائر الرسوم والضرائب المترتبة عليها. وكانت الأراضي والقرى والمزارع تبقى تحت تصرف مالكها على أن يدفعوا الضرائب التي تفرض عليهم إلى صاحب المقاطعة أو من يتوكل عنه. وبالتالي لم يمارسوا أي سيادة أو سلطة إقطاعية على الفلاحين الذين كانوا يعملون في إقطاعاتهم. ولم يكن الثيمارات قابلة للتوريث وعند قيام كل سلطان جديد يجري تغيير الحائزين على الإقطاع بصدره منظمة لمنع تحصنهم. ومن الحقوق الثابتة له تمتعه بالإقطاع مدى الحياة ما دام يؤدي الخدمة العسكرية. ولكن الإقطاع لا يورث ويعود إلى الدولة في حالة وفاة صاحبه[90].

والجدير بالذكر أن النظام الإقطاعي العسكري العثماني لم يكن عاماً في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية بل كان خاصاً في منطقة الأناضول والأجزاء الأوروبية من الإمبراطورية. وبكلمات أخرى فقد طبقت الدولة العثمانية نظام الإقطاع العسكري فقط في منطقتي آسيا الصغرى وفي شبة جزيرة البلقان. أما في العالم العربي فقد

(88) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية. بيروت، 1960، ص 29.

(89) بيري اندرسون، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة = بديع عمر نظمي. بيروت 1983/ ص 18.

(90) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون (دمشق 1972) ص 46.

قسمته إلى مقاطعات أو ولايات مقابل دفع مبلغ للسلطان وقدر محدود من الضرائب للخزينة[91].

ويمكن أن يعود ذلك إلى الأصول التاريخية والجغرافية للمنطقة، حيث لا تحتاج إلى سلاح الفرسان بعكس الوضع على الحدود المسيحية وفي داخل الأراضي التركية لذلك وضعت فيها حاميات الانكشارية المكونة من الجند المسيحيين[92].

وربما يعود هذا الوضع إلى سياسة الدولة التي وضعت الجيش المسلم على الحدود المسيحية والجيش المسيحي على الحدود الإسلامية العربية لكي يكون هناك تنافر بين القوات العسكرية وبين المدنيين من أهالي المنطقة، وبالتالي لا يشعر الجند بأي تعاطف مع الأهالي المدنيين الذين تريد الدولة العثمانية قمعهم.

وفي القرن التاسع عشر وبالذات في عام 1826م أمر السلطان محمود الثاني بتأليف نظام الانكشارية وتوحيد الإقطاعات مع أراضي الدولة[93]. ومن ثم إلغاء وحدات السباهية الإقطاعية وجرى إلغاء نظام الثيمارات رسمياً في عام 1831م[94].

وبهذا تكون قد طويت صفحة الإقطاع الحربي من العالم الإسلامي.

الخاتمة:

لقد أثبتت الدراسة أعلاه وجود إقطاع حربي إسلامي منذ عهد الرسول ﷺ المتمثل في الأراضي التي فتحت عنوة وهو ما أفاء الله به على جنود ورجال الفتح والجهاد الإسلامي. وذلك مكافأة لهم على ما قاموا به من جهاد خالص لوجه الله سبحانه وتعالى وليس حافزاً لهم على الدخول في عملية الجهاد حتى لا يتهم المسلمون بأن هدفهم هو هدف مادي من حيث التقدم للجهاد للحصول على الإقطاع وليس الجهاد بنفسه وروحه في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الحق ونشر دين الله. وحينما يأتي الإقطاع الحربي كمكافأة له على إنجازه الرائع في سبيل نشر الدفاع فهذه جائزة كبرى من رب العالمين. وذلك كما ورد في الآية الكريمة ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ... ﴾ (41 سورة الأنفال) فـ $\frac{4}{5}$ من الغنيمة هي مكافأة من الله لجنوده المجاهدين من أجل رفع كلمته ونشر دينه.

وقد رأينا في تقسيم الأرض العنوة حكمين: الأول هو تقسيم الأرض بين المحاربين كما فعل الرسول ﷺ بأرض خيبر وكيف أنه لم يكن لدى الرسول ﷺ عمال زراعيون يقومون بزراعتها فأبقاهم في يد اليهود ليقوموا بالعمل الزراعي فيها. وكيف أن هذه قسمت بين المحاربين أو

(91) حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث" القاهرة 1938، ص 332 -333.
أيضاً: محمد رجائي، الإقطاع العسكري ص 32.

(92) مصطلح انكشارية بمعنى القوات الجديدة وقد تكونت من مسيحيي أوروبا الذين كانوا يتقاضون مرتباتهم نقداً من خزانة السلطان. لتفاصيل أكثر =

= عن الانكشارية انظر: أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني " بيروت 1982م.

(93) أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني ص 191.

(94) محمد رجائي، الإقطاع العسكري ص 35.

ورثتهم بعد إجلاء اليهود من أرض خيبر، فقد قام عمر بتوزيع أرض خيبر وخير زوجات الرسول ﷺ أن يقطع لهن الأرض والماء أو يعطي لهن نتاج الأرض من التمور كما كان يفعل رسول الله ﷺ فمنهن من اخترن الأرض والماء ومنهن من اخترن الوسق(95).

وهنا حول عمر ملكية الأرض التي فتحت عنوة إلى ملكية خاصة للفاتحين. وهو الأصل في الحكم الفقهي.

أما الأراضي الكبرى الغنية الخصبة الصالحة لأن تكون مورداً اقتصادياً للدولة وهي أرض السواد بالعراق، وأرض الشام، ومصر فقد أراد له عمر بن الخطاب أن تبقى لتكون ملكية عامة للمسلمين لا تباع ولا تشترى، لأنها فتحت عنوة ولم تقسم فهي لجميع المسلمين. وفي اعتقادنا أن عمر ـ رضي الله عنه ـ اعتبر المجاهدين الأوائل رموزاً للأمة الإسلامية كلها واعتبر الأرض التي اكتسبوها غنيمة تبقى من بعدهم لتكون مورداً مالياً للدولة ولتكون مصدراً للدخل القومي للأمة الإسلامية ككل في الأزمان القادمة. وقد تقبل الفاتحون ذلك حتى من جادل، عاد وعدل عن رغبته في التقسيم.

الميزة الثانية أنه أراد نشر الإسلام بأسلوب آخر، وهو إبقاء الأرض في أيدي السكان الأصليين ودفع الخراج والجزية، ومن أراد أن يسلم يرفع عنه الجزية ويتحول الخراج إلى عشر وهذا نوع من تأليف القلوب للإسلام من جهة واعتراف السكان وإقرارهم بملكية الدولة الإسلامية للأراضي من جهة أخرى، وبالتالي تبعية السكان الأصليين للدولة الإسلامية. إذن تضحية عمر بن الخطاب بتوزيع الأرض كإقطاع حربي بين المسلمين لم يعطل حقاً أو فريضة إسلامية بنص قرآني إلا بهدف أكبر من ذلك وهو امتداد الملكية العامة للمسلمين وتأليف القلوب للدخول في دين الله، وجعل الأرض وقفاً لجميع المسلمين المتقدمين منهم والمتأخرين. هذا بالإضافة إلى عدم شغل المجاهدين بالأرض وترك الجهاد.

النوع الثاني من الإقطاع الذي شهده صدر الإسلام هو الذي قام به معاوية بن أبي سفيان عندما شحن الموانى الجديدة بالقبائل وجعلها مناطق للرباط والجهاد، ومنح فيها المساكن والإقطاع. هذا التقليد استمده من استحداث الدولة البيزنطية أو الرومانية الشرقية لنظام التيمات، وهو نظام قام على منح الأرض مقابل الخدمة العسكرية لربط الجندي بالأرض لكي تكون خط دفاع دائماً عن الأرض لا يتحرك منها هذا مع ربط ذلك بعملية نقل السكان. ودفع العشر كضريبة أرض كما دفع جنود التيمات البويهيون ضريبة الأرض للدولة البيزنطية ونشر الملكيات الصغيرة.

النوع الثالث: من الإقطاع هو الراتب الإقطاعي الذي أتى به البويهيون والسلاجقة

(95) مصطفى الهمشري، النظام الاقتصادي في الإسلام دار العلوم 1405هـ ص 184.

والأيوبيون والمماليك والعثمانيون تباعاً وأدخلوه كنظام إقطاعي حربي كنظام دخيل على النظام الإسلامي. لكن الإقطاع هنا خضع للشروط الإسلامية ومكان إقطاع استغلال، وليس إقطاع تمليك، بمعنى إقطاع ناتج الأرض وليس رقبة الأرض، لأنه لا يمكن لهؤلاء الجنود أن يمتلكوا أرضاً لم يوجفوا عليها بركاب الخيل. أي أنها ليست من مكاسبهم الحربية وأنها وقف للأمة الإسلامية، لذا لم يمنحوا الأرض ولم يورثوها لذريتهم من بعدهم وأعطيت لهم فقط على أساس رواتب إقطاعية، تسترجع عند نهاية الخدمة العسكرية.

وبناء عليه فإن النوع الأول من الإقطاع الحربي كمكافأة بعد الفتح تميز به النظام الإسلامي منفرداً دون غيره من أنظمة الإقطاع الحربي.

أما النوع الثاني فهو صورة من نظام التيمات البيزنطي، أما النوع الثالث فهو يشبه نظام البرونويا Pronoia البيزنطي المتأخر الذي حل محل نظام التيمات. وكانت منحة البرونويا تعطى للمنوح طوال مدة حياته بمعنى أنها لا تورث واختلفت في حجمها فتراوحت ما بين قرية بأكملها أو أرض كبيرة المساحة أو أرض ضيقة تكفي لعيش أسرة عليها. وللخزانة الحق في استردادها متى شاءت . مثلها مثل الإقطاع الحربي البويهي أو السلجوقي أو المملوكي أو العثماني، ويخدم صاحب البرونويا كضابط في الجيش وكان الممنوح ينتمي إلى طبقة الفرسان وتسلمهم أراضي الإقطاع بمن عليها من الفلاحين العاملين عليها(96).

ومن قوانين منح البرونويا أن الأرض الممنوحة عن طريق الإمبراطور لا يمكن للشخص الممنوح أن يقتسمها مع الآخرين والشخص الممنوح للبروتويا يدين بالولاء بشكل مباشر للإمبراطور وبالتالي لا يوجد وسيط بين صاحب البرونويا والسلطة العليا. كما أنه لا يوجد بأنظمة البرونويا يمين ولاء ولا تقليد.

وربما يكون يمين الولاء تسرب إلى نظام الإقطاع المملوكي من نظام الإقطاع الغربي الذي نقله الصليبيون إلى الشرق في ذلك الوقت.

ومع ذلك فإن الإقطاع المملوكي والعثماني لا يمكن تشبيههم بالإقطاع الغربي لأنه لم تتوفر في أي منهما قوانين نظام الإقطاع الغربي القائم على ثلاثة أسس:

1- العلاقة بين السيد والأتباع Lordship + Vassalage.
2- الأرض المقطعة Fief أو Benefits
3- الحكومة اللامركزية.

إن نظام الإقطاع المعقد في الغرب الأوربي لم يطبق حتى بنموذج واحد في الغرب نفسه، وان النموذج الذي يمكن اتباعه كنموذج إقطاعي هو الذي طبقه الصليبيون في منطقة الشرق الأدنى في ذلك الوقت. ولكن بنموذج مخالف للإقطاع

(96) لتفاصيل أكثر عن نظام البرونويا ومقارنته بالإقطاع الغربي انظر: عائشة أبو الجدايل، الانصهار والاندماج في الإقطاع الحربي في كل من الامبراطورية الرومانية = المتأخرة والدولة البيزنطية والغرب الأوروبي . مقالة مقبولة للنشر في حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية في عدد سنة 204.

الذي طبق في البلاد الإسلامية والذي لم يكتب له النجاح والاستمرار[97].

وهناك من يرى أن الأرض المفتوحة عنوة يجب أن يكون ملكاً للدولة وليست ملكاً عاماً ولا توزع على المقاتلين واستدل على ذلك بدليلين.

1- ما جاء في سورة الحشر ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ... ﴾ الآية (6).

2- المصلحة حتى لا يترك الأجيال القادمة فقراء فجعلها وقفاً مملوكاً للدولة. وحتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء.

وملكية الدولة هي الملكية العامة ولا فرق بينهما في المصطلح العام للملكية، وهي ملكية بيت مال المسلمين الذي أغناه الله بالأرض بما أفاء عليه من مجهوده وجهاده في سبيل نشر كلمة الله ونشر دينه.

(97) لتفاصيل أكثر عن أنظمة الإقطاع الغربي انظر: عائشة أبو الجدايل: الإقطاع الحربي.

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، 55 – 66 (2005م)

مراقبة الأسواق الإفريقية وتنظيمها وطرق التعامل المختلفة بها خلال العصر الاغلبي 184هـ/800م - 297هـ/909م

د. جمال أحمد طه

ملخص البحث:

من الثابت أن حركة النشاط التجاري في المدن الإسلامية في العصر الإسلامي دارت حول الأسواق والمصانع، وكانت الأسواق تقع غالباً حول الجامع الكبير للمدينة[1]، لذلك نالت الأسواق اهتماماً كبيراً من الخلفاء والأمراء، ومما يجدر ذكره هنا أن أول من نظر في تنظيم أسواق التجارة والصناعة في المدن الإسلامية الكبرى وأمر بترتيبها هو الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك (105- 125هـ/727- 742م). وكان من ضمن هذه المدن التي شملها هذا التنظيم مدينة القيروان عاصمة إفريقية، فتذكر المصادر التاريخية أن سماط[2] مدينة القيروان كان متصلاً فيه جميع المتاجر والصناعات، وكان هذا التنظيم بأمر الخليفة هشام بن عبدالملك في حدود عام 120هـ/738م[3]، ويذكر البكري أن هذا السوق كان قبل نقله إلى مدينة المنصورية[4]. متصلاً من القبلة إلى الجوف طوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان إلا ثلثاً، ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل[5].

وفي العصر العباسي قام الأمير يزيد بن حاتم المهلبي الذي تولى إمارة إفريقية عام 156هـ/773هـ، بترتيب أسواق القيروان، وأمر بأن يكون لكل أهل صناعة مكان[6] ومن ذلك الحين، وعلى أساس النظامين المتقدمين، نظمت أسواق المدن الإفريقية التي أحدثها العرب في البلاد، لا سيما في عهد الدولة الأغلبية[7].

---

(1) عبدالوهاب، حسن حسني: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس، مكتبة المنار، 1966، ج2، ص 69.

(2) السماط: مقصود به سوق القيروان، ودكاكينه المتلاصقة.

(3) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر، 1911، ص 25، 26.

(4) المنصورية: بناها إسماعيل العبيدي الفاطمي عام 337هـ/938 م، وكانت منزلاً للولاة حتى خرابها، نقل إليها معد بن إسماعيل أسواق القيروان كلها، وجميع الصناعات، وتقع على ثلاثة أميال فيها قصور مدينة رقادة، كما أطلق عليها مدينة صبرة وظلت قائمة لمدة مائة عام وخمسة أعوام أي إلى سنة 442 هـ. انظر: الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، مطابع هيدليوغ، الطبعة الثانية 1984م، ص 354.

(5) البكري، المصدر السابق، ص ص 25 - 26، باغي، عبدالرحمن، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، بيروت، دار الثقافة، 1961م، ص 64.

(6) ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1988م، ص ص 48 – 49.

(7) عبدالوهاب، حسن حسني، المرجع السابق، ج2، ص 69.

ويتبين لنا من المصادر الجغرافية والتاريخية أن أسواق المدن الإفريقية كانت عامرة رائجة، فيذكر ابن حوقل النصيبي الذي زار تونس وكان بمدينة القيروان عام 366هـ/ 974م، والتي نالت بعض النظم التجارية اهتمامه، فذكر الأسواق وأنواعها والعاملين بالتجارة، وكذلك الضرائب المفروضة على التجارة، ولم ينس التطرق إلى طرق التعامل التجاري والأسعار والموازين والمكاييل، فجاءت معلوماته عن النشاط التجاري غاية في التفصيل والشمول، فضلاً عن دقتها لأنه سبر غورها بالمشاهدة والمعرفة الشخصية[8] أن "القيروان أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجاراً وأموالاً وأحسنها أسواقاً"[9]، كما أنه وصف أسواق مدينتي سفاقس وسوسة بأنها عامرة وحسنة[10] "وأسواق مجانة صالحة"[11]، و"أسواق قابس عامرة"[12].

وأكد الجغرافي البكري بعد ذلك ما جاء على لسان ابن حوقل بقوله إن: "أسواق مدينة سوسة كثيرة مخصوصة بكثرة الأمتعة والثمر ورخص الأسعار"[13]، و"أسواق مدينة تونس كثيرة ومتاجرها عجيبة"[14]. كما كان لمدينة طبتة سماط يشق المدينة من الباب إلى الباب وبها أسواق كثيرة عبر السماط المذكور[15]، ومدينة القصر القديم التي أسسها إبراهيم بن الأغلب ابن سالم عام 184هـ/ 800م على ثلاثة أميال جنوب القيروان، والتي أصبحت داراً لبني الأغلب، كانت بها أسواق جمة[16].

وعرفت المدن الإفريقية نوعين من الأسواق التجارية: أسواق ثابتة دائمة تكاد نجدها في كل مدينة، وأخرى أسواق أسبوعية أو شهرية، وقد أشار ابن حوقل إلى واحدة منها عند ذكره لمدينة باشو (وهي من إقليم الجزيرة قرب سوسة) حيث كانت أسواقها "تحضر في كل شهر لأيام معلومة".[17] كما ذكر القفطي أحد الأسواق الأسبوعية وهو سوق الأحد[18] والذي كان يعرض فيه المنسوجات الصوفية[19] وسوق الدجاج الذي

(8) إبراهيم، صباح، النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، دراسة من خلال كتاب "صورة الارض" لابن حوقل، الجزائر، مجلة التاريخ العربي، العدد السادس، 1998م، ص ص 28 - 29.

(9) ابن حوقل/ النصيبي: صورة الارض، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1979م، ص 94.

(10) المصدر نفسه، ص ص 73 - 74.

(11) المصدر نفسه، ص 84.

(12) المصدر نفسه، ص 72.

(13) البكري، المصدر السابق، ص 34.

(14) البكري: المصدر السابق، ص 40.

(15) البكري: المصدر السابق، ص 51.

(16) ابن عمر، يحيى، أحكام السوق، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، وفرحات الدشرواي، تونس، 1975، ص ص 47 - 48، البكري، المصدر السابق، ص 28.

(17) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 75.

(18) القفطي، انباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1950، الجزء الثاني، ص 210.

(19) عبدالوهاب، حسني حسني، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تونس، مكتبة المنار، الطبعة الثانية، 1970م، ص 16.

كان يعقد كل خميس بمدينة القيروان، حيث كانت النساء يخرجن إليه يحملن الفراخ والدجاج[20].

أما الأسواق الثابتة، فقد عرف بداخلها العديد من الأسواق المنسوبة إلى المهن والتجارات، منها: سماط العطارين بالقيروان[21]. وسوق الجمال الذي كان بباب مسلم[22] وسوق الصرف[23]. والمظنون أنه كان معداً للعمليات المالية[24]، وسوق الطعام الذي كان يباع فيه القمح[25]، وسوق الرهادنة أو الرهادرة[26] وهم باعة الأمتعة القديمة[27]، وسوق البزازين وسوق الكتانين[28] وسوق الخيل، الذي كان يسمى بموقف الخيل[29]، وسوق النخاسين الذي كان يباع فيه الأبقار والأغنام[30]. وسوق البركة الذي كان يباع فيه الخدم والغلمان والعبيد[31]، وسوق الغزل الذي كان يعقد بعد الظهر حيث تخرج إليه النساء بالخصلات المغزولة لبيعها وشراء الكتان بها[32]، وكانت أسواق الخشابين بتونس مما يلي باب المدينة[33]، هذا إلى جانب بعض الأسواق التي نسبت إلى إحدى الفئات أو أحد الأشخاص، مثل سوق اليهود الذي كان موقعه بالقيروان في درب ابن الطفيل[34]، وسوق ابن هشام الذي كان في وسط مدينة صبرة في ناحية القيروان يتسوق منه العامة ويتزاحمون فيه على الزيت والحنطة[35]، وسوق إسماعيل تاجر الله الذي يقع بالقرب من المسجد الكبير الذي بناه ذلك التابعي[36].

على أن هناك أسواقاً أخرى ثانوية للخزف،

(20) المالكي، رياض النفوس، الجزء الثاني، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 146. الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي، 1972، ص 343.

(21) الخشني، قضاة قرطبة وعلماء افريقية، نشرة السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي، 1372هـ، ص 229.

(22) المصدر نفسه، ص 238.

(23) المصدر نفسه، ص 286، القفطي، المصدر السابق، ج2، ص 210.

(24) عبدالوهاب، حسن حسني، بساط العقيق، ص 16.

(25) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1984م، ص 231.

(26) الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص 37.

(27) الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص 37، محمد الطالبي، تراجم أغلبية، مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تونس، 1968م، ص 218.

(28) القيرواني، أبو العرب تميم، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص 121، المالكي: المصدر السابق، ج1، ص 327، الدباغ: المصدر السابق، ج2، ص 37.

(29) الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص 324.

(30) المالكي، المصدر السابق، ج1، ص 124.

(31) عياض، القاضي، ترتيب المدارك وتعريب المالك، تحقيق د. أحمد بكير محمود، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، ج3، ص 20، محمد الطالبي: المرجع السابق، ص 16.

(32) المالكي، المصدر السابق، ج2، ص 146، الدباغ: المصدر السابق، ص 343.

(33) الدباغ، المصدر السابق، ج2، ص 75.

(34) الخشني، المصدر السابق، ص 229.

(35) القيرواني، الحسن بن رشيق، شعراء القيروان من أنموذج الزمان، تونس، دار المغرب العربي، 1951م، هامش ص 111.

(36) المالكي، المصدر السابق، ج1، ص 407.

وسوق السراجين، وسوق الوراقين التي كان يجد فيها الكاتب والمتعلم كل ما يحتاج إليه من المواد الضرورية لتقيد العلم، ولا يستبعد أن هذا السوق كان بمقربة من الجامع الكبير "جامع عقبة بن نافع" هذا إلى غير ذلك من محلات البيع والشراء والتعامل(37) وهكذا شاعت الأسواق المتخصصة(38).

وتنقسم الأسواق بطبيعة الأمر إلى قسمين هما:

القسم الأول: يتمثل هذا القسم في معامل للصناعات اليدوية، ويشتغل فيها أربابها بتحويل المواد الأولية إلى منسوجات صناعية.

القسم الثاني: يشمل أسواق البيع المعدة لعرض المصنوعات المحلية أو المجلوبة من داخل القطر أو خارجه، ويتركب هذا القسم من دكاكين متلاصقة ومتقابلة يفصل بينها ممر معقود السقف بالآجر أو بالحجارة الخفيفة، وأمام صف الدكاكين توجد مصطبة قصيرة تمتد على كل ناحيتي السوق، كان يجلس عليها الشاري(39).

وكانت دكاكين القسم الأول المخصصة للتصنيع هي أفسح رقعة من دكاكين البيع، لأن الشغل فيها يتطلب التوسعة لنصب أنوال النسيج، ونشر المواد الأولية بعد صبغها وتجفيفها(40).

وهناك قسم آخر من الأسواق معد للصناعة، كان متعارفاً منتشراً في جميع مدن المغرب والمشرق، وهو المعروف بالقيسارية اقتبسه المسلمون من النظام البيزنطي، وهي دكاكين تقوم الحكومة ببنائها على نفقتها في محل مربع الشكل يحيط به سور من كل الجهات، ويدخل إليه من باب واحد، فينتصب فيه أرباب الصناعة، ويؤدون مقابل ذلك كراء مناسباً في كل شهر أو في السنة حسب الاتفاق.. وكان المقصود الأصلي من هذا الترتيب هو مراقبة أصحاب الصناعات مباشرة تحت رعاية أمناء مشرفين على سير الأعمال، ومنع تسرب الغش للمصنوعات، ومن جانب آخر فإن هذا النظام يسمح بمورد مهم للحكومة، إذ إنه لا يرخص لغير الحاكم إقامة مثل هذه القيساريات(41).

وفي العصر الأغلبي تم بناء الحوانيت الجدد بمدينة القيروان في أقصى الجانب الشرقي من سوق الرهادنة، وفي آخر سوق الكتانين وهي عبارة عن دور قديمة تم تحويلها إلى دكاكين أطلق عليها اسم الحوانيت الجدد، وقد نقل إليها الناس من أسواقهم، وانتصبوا في الحوانيت التي أذن الأمير ببنائها(42). وكان الأمراء والسلاطين يستردون الحوانيت من أربابها، وكانوا يمنعونهم من الاتجار فيها حيث لا يدفع لهم كراءها، وقد كلف الإمام حماس بن مروان المتوفى عام 304هـ/916هـ بالكشف عن ذلك فما وجد أحداً

(37) عبدالوهاب، حسن حسني، بساط العقيق، ص 16.
(38) إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1980، ج1، ص 98.
(39) عبدالوهاب، حسن حسني، ورقات عن الحضارة = العربية بإفريقية، ج2، ص 71.
(40) المرجع نفسه، ص ص 71 - 72.
(41) المرجع نفسه، ج2، ص 73.
(42) المالكي، رياض النفوس، ج1، ص ص 195 - 156، الدباغ: معالم الايمان، ج1، ص 37

أدى الكراء لأصحابها إلا رجلين[43].

هكذا تضافرت جهود الدولة والتجار في إنشاء الأسواق وعمارتها، ففي بعض الأسواق كان للدولة قيساريتها ودكاكينها التي تؤجرها للتجار، وبالمثل كان للتجار متاجرهم الخاصة، كما أقامت الدولة أسواقاً بأكملها خضعت لإشرافها[44].

وقد خضعت أسواق المدن الإفريقية في عصر الدولة الأغلبية لنظر الولاة[45] "فكان السوق يخضع لنظر الوالي"[46] ينظر فيها بنفسه مباشرة أو ينيب عنه شخصاً[47]، وعندما تولى الإمام سحنون بن سعيد التنوخي قضاء القيروان عام 234هـ/848م كان أول قاض ينظر في الأسواق فيما يصلح فيها من المعايش، وما يغش من السلع، وجعل لكل سوق أمين يؤدب على الغش، ويقوم بنفي كل من يستحق من السوق، وكان من تنظيماته أن يعين أمناء في البادية يكتب إليهم فيما يتعلق بشؤون حياتهم[48].

أما في العاصمة فقد أحدث ولاية المظالم وعين عليها حبيب بن نصر التميمي[49] أول صاحب مظالم وذلك في سنة 236هـ/850م وحدد له وظيفته بالحكم بين الناس فيما يحدث لهم في الأسواق[50]. ولما ولى عيسى بن مسكين القضاء في عام 280هـ/893م عين أبا الربيع سليمان بن سالم الكندي، والياً على المظالم وأذن له أن ينظر في مائة دينار[51] ثم أسند هذه الولاية لإبراهيم بن الخشاب[52].

وبعد الإمام سحنون وعيسى بن مسكين تجاذب منصب والي المظالم كل من الأمير والقاضي، وتخلل عهدي سحنون وابن مسكين "عهد رجعت فيه ولاية المظالم بالنظر للوالي" [53] فقد عين الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي حكم في الفترة من 242- 244هـ/856-858م محمد بن أحمد بن خالد القيسي المعروف بالطرزي والياً للمظالم" وراجعه صاحب الخطة بأن فيه حياء ولين جانب وقلة فقه، فأجابه: أما الحياء واللين فإذا أمرت ونهيت زالا عنك، وأما

(43) الطالبي، محمد، تراجم أغلبية، ص ص 348 - 349، وحماس بن مروان ابن سماك الهمذاني، من صغار تلاميذ الإمام سحنون، مولده بالقيروان، عام 222هـ تفقه على يد ابن عبدوس ومحمد بن سحنون، رحل إلى المشرق، وعاد إلى القيروان، وتولى القضاء بها عام 290هـ في عهد الأمير زيادة الله الثالث آخر أمراء بني الأغلب، كان عدلاً في أحكامه صلباً في قضائه لا يهاب سلطاناً في حق، لكنه ترك القضاء عام 294هـ قبل انقراض الدولة الأغلبية، لما رأى من تغير الأحوال، وتوفى عام 304هـ. انظر: الخشني، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، ص 153.

(44) إسماعيل، محمود، المرجع السابق، ج2، ص 167.

(45) عياض، القاضي، المصدر السابق، ج2، ص 600.

(46) المراكشي، ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ج.س كولان، وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، الطبعة الثانية، 1980، ص 109.

(47) ابن عمر، يحيى، أحكام السوق، انظر مقدمة المحقق، ص 22.

(48) المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص 276 - 277، عياض، القاضي، المصدر السابق، ج2، ص 600.

(49) الخشني، المصدر السابق، ص 192.

(50) الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص 132.

(51) نفس المصدر السابق، ج1، ص 132.

(52) الخشني، المصدر السابق، ص 230.

(53) ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص 125.

قلة الفقه فشاور الفقهاء في أحكامك"[54]، فكان شديداً في تغير المنكر، لم يل أسواق القيران قبله أضبط منه[55]. حيث "كان صارماً منفذاً محموداً في أموره"[56] وهكذا ظهرت هذه الوظيفة الجديدة للتحقيق في الشكايات بين الرعية وجهاز الإدارة. وهي وظيفة يغلب عليها الطابع الاقتصادي[57].

وهكذا يتضح لنا أن الإمام سحنون هو أول من فكر جدياً في العناية بالأسواق، فجعل لها قاضياً خاصا بشؤونها، وما يحدث فيها، وحدد نظره مدنياً بما لا يتجاوز المبالغ التي يتعامل بها الأفراد عادة في الأسواق، إذ هي تتبع الحالة الاجتماعية للسكان، فالإمام سحنون قد مهد بذلك السبيل لتتابع الأنظمة، بما يفيد المجموعة السكانية، من حيث أنها مجتمع ووحدة متكاملة[58] فأتى من بعده عبدالله بن طالب فسار على نهجه، ومن تنظيماته أنه أجبر من يحترف الصيرفة دراسة الأحكام المتعلقة بحرفتهم[59]. وقد ولى عبدالله بن طالب المتوفي عام 275هـ/ 988م عبدالله بن الوليد أسواق القيروان وموازينها[60] وكان أمر سوق جادو لأبي القاسم النفرسي، يأذن فيه لمن يشاء أن يبيع، ويمنع من في حالة شبهة[61].

ونالت الأسواق اهتماماً خاصاً، فيذكر يحيى ابن عمر صاحب أحكام السوق أن "للوالي النظر في أسواق الرعية، ويأمر أوثق من يعرف ببلده أن يشاهد السوق، ويغير عليهم صنجهم وموازينهم ومكاييلهم كلها، فمن وجده غير من ذلك شيئاً عاقبه وأخرجه من السوق حتى تظهر منه التوبة والإنابة إلى الخير، ويجب على الناظر في السوق أن يشتد على من يظهر في الأسواق من الدراهم المبهرجة المخلوطة بالنحاس[62].

وينقل لنا ابن أبي زيد القيرواني صاحب النوادر عن الواضحة أن الإمام كان يدخل السوق، ويتردد إليه، ويمنع من كثر الشراء منه، ويدع من يشتري الفوت، وكان يخرج منه من يشتري فضول الطعام، ويعز فيه الجلاب، ويمنع الجلابين من بيع الطعام في غير سوقه، وكان يأمر من يبيعون الطعام في الدور بأن يخرجوه إلى البزار حتى لو باعوا بسعر السوق[63].

ويكشف الإمام في كل حين عن الشراء من التجار فلا يكون تسعيرهم إلا عن رضا الناس به، ومن يحط من التجار عن السعر عاوده في

(54) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، انظر مقدمة المحقق، ص 24. نقلا عن ابن عذارى المراكشي.
(55) القيرواني، أبو العرب تيم، طبقات علماء إفريقية، ص 251.
(56) الخشني، المصدر السابق، ص 217.
(57) إسماعيل، محمود، المرجع السابق، ج1، ص 98.
(58) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، انظر مقدمة المحقق، ص ص 24 - 25.
(59) الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص 137.
(60) الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص 317.
(61) الشماخي، كتاب السير، الجزائر، مطبعة قسنطينة، بدون تاريخ، ص 334.
(62) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 39.
(63) القيرواني، ابن ابي زيد، النوادر والزيادات على ما في المدونة من زيادات مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة. ميكروفيلم رقم 40 فقه مالك، الجزء الثامن، ورقة 156.

التسعير، ولا يسعر على جلاب شيء ما لم يزد بأرفع من السعر الذي رضي به أهل الحوانيت فليس لهم الزيادة فيه[64]، هذا بالإضافة إلى ضبط أمور السوق كلها، فقد نهى يحيى بن عمر صانعي الحرير وبائعيه بزقاق الروم بالقيروان من رفع أصواتهم، والتكبير أيام العشر[65]. كما منع الإمام سحنون أهل الحوانيت التي في شرق الجامع والتي كانت من الجانبين ويعلوها سقائف على أعمدة لاصقة بالطريق، منعهم من قطع الطريق بالبناء في هذه السقائف، وأمر أن تبقى على حالها القديم، كما منع أهل البادية أن يدخلوا بدوابهم تحت تلك السقائف لضرر الدور وأربابها[66]. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه إلى الاهتمام بنظافة شوارع الأسواق وأزقتها، فيحيى بن عمر يأمر أهل الحوانيت بكنس الطين المتجمع في وسط السوق حتى لا يضر بالمارة[67]، وبذلك تحولت الحسبة من مهمتها الأخلاقية إلى الاهتمام أساساً بمراقبة الأسواق، وهكذا تطورت هذه المؤسسات التجارية ليغلب الطابع الاقتصادي على المدينة[68].

المكاييل والموازين:

إن دراسة حركة النشاط التجاري وتنظيمها داخل الأسواق يتطلب التعرض للمكاييل والموازين التي يستخدمها أهالي المدن والقرى الأفريقية في تعاملهم اليومي، وفي شراء بضائعهم ومستلزماتهم، فكانت وحدة الوزن كما أشار إلى ذلك صاحب أحكام السوق يحيى بن عمر، هي الأوقية، وهي أربعون درهماً بدراهم الكيل، ووزن الدنانير كل عشرة دراهم كيلاً، سبعة دنانير مثاقيل، أو أن تكون الأوقية عشرة دراهم كيلاً، أو اثني عشر درهماً وزناً[69].

أما وحدة الكيل فكانت عبارة عن الأوبية[70] والأقفزة، وهي تملأ عن طريق الكيل الذي فرضه الرسول ﷺ وهو الوسق والصاع، وكان الوسق ستون صاعاً، والصاع أربعة أمداد بمد النبي ﷺ[71] وقد أورد الرحالة المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم الذي كتبه عام 375هـ/985م إشارة إلى وحدة كيل الحبوب بمدينة القيروان، حيث ذكر أن "قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمناً، والثمن ستة أمد بمد النبي ﷺ"[72] إذاً القفيز يساوي ثمان ويبات، وبما أن الويبة تساوي أربعة أثمان، والثمنة تساوي ستة أمداد، فإن القفيز القيرواني كان يشتمل على 32 ثمنة و192 مداً

(64) المصدر نفسه، ج8، ص 155.
(65) المالكي، المصدر السابق، ج1، ص 401.
(66) القيرواني، ابن أبي زيد، المصدر السابق، ج 14، ورقه 172.
(67) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 38.
(68) إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج1 ص 98.
(69) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 37.
(70) أفاد المقدسي إفادة هامة تخص الويبة التي تتخذ من خشب وتسمى الدوار حيث يقال: وقد ألجم رأسها (أي الويبة) بعارض من حديد، وأقيم عمود في قاعها إلى العارضة فوقه جديد يدور على رأسي الويبة، فإذا افرغها أدار الحديدة فمسحت فم الويبة وصح الكيل. انظر: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، 1906، ص 240.
(71) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 37.
(72) المقدسي، المصدر السابق، ص 240.

قيروانياً[73]، كما أن البكري أورد في كتابه ذكر إفريقية والمغرب الذي صنفه في حدود عام 463هـ/1070م إشارة إلى هذه الوحدة في العصر الذي نحن بصدد الحديث عنه حيث نقلها من كتاب محمد بن إسحاق الوراق المتوفي عام 296هـ/908م وكتب غيره، وجاء نصه متوافقاً مع النص السابق حيث يذكر أن "القفيز بالقيروان وأعمالها ثمان ويبات، والويبة، أربعة أثمان، والثمن ستة أمداد، ومقدار تلك الزيادة في القفيز كله اثنى عشر مداً بمد النبي ﷺ[74].

هذا وقد مثلت المكاييل والموازين إحدى الركائز المهمة في حركتي البيع والشراء داخل الأسواق، حيث كان كل أهل بلد يتفقون على مكاييل وموازين معلومة، وكانت مهمة ذلك مكلفاً بإحداثها الوالي، فيحوط أهل السوق في الموازين والمكاييل والقناطير والأرطال والأوابي والأقفزة حتى تكون معروفة كلها، ويقوم على الرعية على أن لا يغيروا شيئاً منها[75].

ولكن على الرغم من ذلك كان أصحاب الحوانيت يبيعون القمح والشعير بمكاييل مختلفة يحدثونها ليست مما أمر به الوالي أو السلطان فعند هذا صغيرة، وعند ذاك كبيرة، ويسلم الناس فيما بينهم بهذه المعايير[76]. كما كان بعض من التجار يتخذ مكيالاً لنفسه إما صاعاً أو ميزاناً دون كيل البلد وميزانه، يبيع به ويشتري لنفسه[77] وكان البعض الآخر من التجار يمتلكون مكاييل أخرى غير مكيال البلد المعلوم يكيل به عند الشراء من غيره، وقد منع المحتسبون والفقهاء مثل هؤلاء التجار من البيع والشراء إلا بالمكيال والميزان المعروف لأهل البلد والمجتمع عليه[78] واستوجبوا عقوبة من يغير منها شيئاً بإخراجه من السوق حتى تظهر منه التوبة[79].

وعلى الرغم من أن الكيل السليم هو ملء الصاع من غير ردم ولا تحريك[80] إلا أن بعض التجار لا سيما من فئة الحناطين، كانوا يطففون في الكيل، فيمسح رأس الويبة ويردمها حتى يلصقها بالأرض، ويرد فيها القمح بيده وهي لاصقة بالأرض ويقوم بهزها، ويفعل ذلك بكل ويبة فيزداد له بذلك من الدنانير في الكيل الربع أو الثمن، أما إذا جاء أحد يشتري منه لم يمكنه الحناط أن يكيل له مثلما اكتال لنفسه هذا الكيل، وكان الكيالون معروفين أنهم يفعلون هذا الفعل[81].

وقد وجد بأسواق المدن الإفريقية أمناء على الكيل بالحق والعدل، وذلك لأن عمليات الكيل والميزان مثلت في بعض الأحيان مشاحنات بين الباعة والمشترين، فكانوا يتنازعون حول من يكون

(73) إدريس، الهادي روجيه، الدولة الصنهاجية، نقله للعربية حماد الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص 295.
(74) البكري، المغرب، ص ص 26 - 27.
(75) ابن عمر، يحيى، أحكام السوق، ص ص 36 - 37.
(76) المصدر نفسه، ص 36.

(77) ابن سحنون، محمد، الاجوبة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 1202ب، ميكروفيلم رقم 20703، ورقة 79.
(78) المصدر نفسه، والورقة نفسها.
(79) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 38.
(80) المصدر نفسه، ص 108.
(81) المصدر نفسه، ص 105.

أولى بالكيل البائع أم المبتاع[82]. وكان هذا الأمر مدعاة لظهور حرفة الكيال كوسيط بين الطرفين، على أن يقوم البائع بدفع أجره، وكانت طريقة الكيل هي ملء الصاع حتى يصير واقفاً ما عليه[83].

هذا وقد اختلفت أيضاً وحدة مكيال القفيز حسب المناطق التي تستعمله، فكان منها القروي نسبة إلى مدينة القيروان، ومنها الجربي نسبة إلى مدينة جربة[84]. وكما يرى الدكتور محمود إسماعيل أن هناك شواهد تشير إلى استمرار ظاهرة التبادل العيني في الأسواق خلال هذه الفترة[85].

وشهدت الأسواق عدداً من أنواع البيوع، فكان يباع ويشترى على التصديق (بمعنى أن لا يكون أحد الطرفين موجوداً حين الكيل أو الوزن) ولكن كان كثيرا ما يوجد الشيء المكتال أو الموزون ناقصاً في مثل هذه الحالة[86]. وكان بعض التجار يشتري الأشياء وهو غائب، لكنه كان يوضع الثمن لذلك[87]. وعرفت الأسواق الإفريقية البيع بالجزاف ومن السلع التي كانت تباع بهذه الطريقة الأترج والبطيخ والرومان وإن اختلف في الكبير والصغير منها[88]، لكن كان يحدث أحياناً في بيوع الجزاف أن يوجد أسفل الطعام أو العروض مخالفاً لأولها، فيقوم المبتاع برده على البائع حتى يستلم حصته سالمة[89]، ولقد رفعت أقضية مثل هذه البيوع إلى الفقهاء ليتولوا الرد على ما كان يقع فيها من مخالفات[90].

أما عن طرق التعامل المادي في البيع والشراء، فقد شهدت الأسواق عمليات البيع بالنقد وبالدين والأجل، ومثل البيع بالنقد التعامل بالدنانير والتي على ما يبدو أنها لم تخضع لأي تزييف، ولا ريب أنه لم يقع التجاسر على ذلك، لحماية المقياس الذهبي الذي كانت تقام عليه جميع المبادلات. كما عرفت الأسواق الإفريقية في عهد

(82) ابن سحنون، محمد، المصدر السابق، ورقة 27، الرسالة السحنونية، مخطوط بدار الكتب العربية بالقاهرة، ميكروفيلم رقم 81/ 631. ورقة 135.

(83) المصدر نفسه، ورقة 27، ورقة 135.

(84) ابن ابي بكر، أبو زكريا يحيى، سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1982، ص 200، وجربه جزيرة بالبحر المتوسط تقع في خليج قابس، طولها من الشرق إلى الغرب 36 ميلاً، وعرضها من الشمال إلى الجنوب قرابة 16 ميلاً وتبلغ مساحتها 224 ميلاً مربعاً، ويفصل بينها وبين البر مضيق يبلغ اتساعه 40 ميلاً، وتمتاز جربة باعتدال مناخها وقريتها الخصبة وأشجارها الوفيرة، انظر الحميري: الروض المعطار، ص 158.

(85) إسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج1، ص 98.

(86) القيرواني، ابن ابي زيد، المصدر السابق، ج7، ورقه 168.

(87) نفسه، ورقه 109.

(88) الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عند فتاوى علماء إفريقية والاندلس، والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف د. محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م، ج6، ص 293.

(89) القيرواني، ابن ابي زيد، المصدر السابق، ج8، ورقة 78.

(90) نفس المصدر والورقة، رفع إلى الإمام سحنون في قضية التين والعنب والحوت الماب عند فتاوى علماء إفريقية والاندلس، والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف د. محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م، ج6، ص 293.

القيرواني، ابن ابي زيد، المصدر السابق، ج8، ورقة 78.

نفس المصدر والورقة، رفع إلى الإمام سحنون في قضية التين والعنب والحوت مثل هذه الاشياء.

الدولة الأغلبية عدة أنواع من الدراهم، منها الدراهم الصحاح، وهي المسكوكة قبل عام 242هـ/ 856 م، والقطع وهي دراهم خضعت لعمليات الغش والتزييف، لذا تم التعامل في الأسواق الإفريقية مدة كبيرة بنقد لم يكن جيداً لدرجة توقف فيها ضرب سك العملة في العصر الأغلبي، وبما أن النقد الرديء يطرد النقد الجيد فلم تكن توجد بالأسواق إلا الدراهم الذائفة، وجميع أنواع القطع، التي يتبين أنها خضعت لجميع أصناف التغيرات.[91] ولذا قرر الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني الذي حكم في الفترة من 261 - 289هـ /874 - 902 م في عام 275هـ/ 888 - 889 م تطهير العملة الفضية التي كانت كثيرة التدهور... فقرر سحب الدراهم الذائفة وجميع القطع التي لا قيمة لها والتي غزت المعاملات، وتقرر ضرب الدراهم الجيدة من جديد، وقد سميت بالدراهم العاشرية نظراً للعلاقة العشرية التي كانت تربطها بالدينار (أي أن كل عشرة دراهم منها تساوي ديناراً) فقامت بذلك مقام المقياس الذهبي القارة قيمته.[92]

ومثل البيع بالدين أو الأجل نوعاً من الزيادة في أسعار السلع أو البضائع المبتاعة، فربما تباع سلعة ما بخمسة دنانير نقداً، وبثمانية عن طريق الدين، وبعشرة عن طريق الأجل[93]. وكانت بيوع الأجل مشروطة في بعض الأحيان، فربما يندم البائع ويقبل، أو يستقيل المبتاع على أن يزيده في السلعة إلى أجل، وهو ما عرف في الفقه الإسلامي ببيوع الإقالة[94]. وكان بعض الناس يشتري السلع بالأجل، ولكن كان يتعسر عليهم السداد نقداً، فيعوضون سداد هذه الديون عن طريق الغلال أو الحبوب، وأجاز الفقهاء لهم ذلك لتعسر وجود الدراهم والدنانير في أيدي الناس، وضرورتهم لذلك[95] وعرفت الأسواق الإفريقية أيضاً عمليات البيع عن طريق السلف[96] كما عرف البيع بالتقاضي، فكان الرقيق والثياب والدور والبز وشبهه من التجارات تباع على التقاضي أو الآجال[97] كما عرفت عمليات بيوع الخيار، وكثيراً ما شاع بيع الخيار في الحيوانات والعبيد والجواري، فقد يشتري الرجل الدابة على أساس الخيار مدة ثلاثة أيام أو أسبوع أو اكثر من ذلك حسب الاتفاق، على أن يتم البيع ويقبض البائع النقد، أو يتم البيع ولا يقبض البائع نقده إلا بعد مرور مدة الخيار[98]. وربما كان بعض المبتاعين بالخيار يقومون ببيع ما اشتروه في مدة

---

(91) المصدر نفسه، ج7، ورقه 177، ج8، ورقه 99.

(92) Muhammad abu Ifarag al ush: Monnaies Aglabides, Damas, 1982, p. 25.

الطالبي، محمد، الدولة الأغلبية، نقله إلى العربية د. المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 302.

(93) الطالبي، محمد، المرجع السابق، ص ص 302 – 304.

(94) ابن عبدالرفيع، معين الحكام على القضايا والاحكام، جزءان، تحقيق د. محمد بن قاسم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989م، ج2، ص 416. والإقالة هي لغة الرفع والإزالة، وفي البيع رفع عقده، انظر: ج2، هامش ص 419.

(95) ابن سحنون، محمد، الأجوبة، ورقة 75.

(96) القيرواني، ابن ابي زيد، النوادر، ج8، ورقة 100.

(97) المصدر نفسه، ج8، ورقة 135.

(98) المصدر نفسه، ج8، ورقة 119 - 120.

الخيار، وذلك لأنه يريد أن يختبر ثمنها ليعرف رخصها من غلوها، أو لأنه يريد الربح، وكان في هذه الحال يحلف أنه باع بعد أن اختار[99].

ومن السلع التي كانت تباع عن طريق الخيار الأثواب[100]. وكان البيع بالخيار ينعقد بالتراضي قبل الشراء وتحديد الثمن، والمصيبة إذا وقعت في بيع الخيار فهي من البائع، وكان الأمد الذي يجوز في الرقيق الجمعة ونحوها، وفي الدواب اليوم ونحوه، وفي الثوب اليوم واليومان[101] وتسبب البيع بالخيار في وجود العديد من المشاكل بين البائعين والمشترين، لا سيما في بيوع الجواري، فقد رفع العديد من النوازل الخاصة بمثل هذه الأمور إلى الفقهاء[102].

أما بالنسبة للسلع، فكانت لا تسعر في أسواق المدن الإفريقية، بل تباع تبعاً لحالة الأسواق من الرخاء أو الغلاء، لكن في حالة الغلاء الشديد كان يأمر أن تسعر بعض الأشياء مما يحتاج إليه الناس الحاجة الضرورية مثل الزيت والسمن والعسل واللحم والبقول والقمح والشعير وشبهه، بينما كان لا يسعر البز والقطن وشبهه، وفي مثل هذه الأحوال كان صاحب السوق يجمع وجوه أهل سوق تلك الأشياء وبحضور غيرهم لكي يكونوا شهداء عليهم، فيبين لهم كيف يشترون وكيف يبيعون، وإذا رأى شططاً أزالهم، وللعامة سعر حتى يرضوا به ويتعاهدهم على ذلك، فمن يزيد في الأسعار بعد ذلك يخير بين أن يبيع بسعر الناس أو يخرج من السوق، أما من يبيع بأرخص لم يمنع إذا كانوا قلة، أما أن كثروا فيحمل الباقي على ذلك أو يخرجوا من السوق[103].

على أن بعض التجار في وقت الغلاء كانوا يخزنون السلع، فيكثر احتياج الناس إليها، وخلال وقوع مثل هذه الأزمات، كان الإمام يأمر بإخراج هذا المخزون وإظهاره للناس، على أن بعض التجار كانوا يستغلون مثل هذه الأحوال فيبيعون للناس بما لا يحتملوا من الثمن، لأنه في هذه الأحوال كانت السلع لا تسعر[104].

وكان للفقهاء موقفهم الإيجابي خلال هذه الأزمات، فيذكر أن البهلول بن راشد المتوفى عام 183هـ/798م كان عنده طعام، فغلا السعر، فباعه، ثم أمر أن يشتري له ربع نصف قفيز، فعوتب في ذلك، فقال: "نفرح إذا فرح الناس، ونحزن إذا حزنوا"[105]. وعندما أصاب الناس سفه وغلا السعر جداً، أمر الفقيه محمد بن عيسى بن عبدالواحد المعافري المتوفى عام 222هـ/837م منادياً ينادي في الناس: "من أحب أن يبتاع طعاماً بسعر يومه، ويتأخر عام،

(99) المصدر نفسه، ج8، ورقة 125 - 126، والخيار في اللغة بمعنى طلب خير الأمرين، يقال أنت بالخيار، أي اختر ما شئت.

(100) المصدر نفسه، ج8، ورقة 123.

(101) ابن عبدالرفيع، المصدر السابق، ج2، ص 113.

(102) الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص ص 182 - 183. وعلى سبيل المثال في بيوع الجواري =

= كان الرجل يشتري جارية من البائع بالخيار ثلاثة أيام فيطؤها في أيام الخيار فتحمل منه.

(103) القيرواني، ابن ابي زيد، المصدر السابق، ج8، ورقة 154.

(104) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص ص 111 - 112.

(105) عياض، القاضي، المصدر السابق، ج3، ص 90.

فليأت وكيل محمد بن عيسى، الذي كان قد أخبره بذلك، فبادر الناس فأخذوا منه حتى أوقف الهرى الذي أباحه لذلك"(106).

وعلى ما يبدو أن أصحاب الحوانيت كانوا يزيدون في الأسعار في غير أوقات الشدة، وقد رفعت نازلة بذلك إلى يحيى بن عمر صاحب أحكام السوق، تطلب منه توضيح القيمة التي تقام على الخبازين وغيرهم من أصحاب الحوانيت الذين يبيعون السمن والعسل والزيت والشحم فإنهم إن تركوا دون تسعير أهلكوا العامة، وذلك لخفة السلطان وضعفه، ويظهر أن هذا الأمر أزعج الناس كثيراً حتى قالوا في شكواهم هذه ليحيى بن عمر ما كتبنا إليك إلا بما غمنا وخفى عنا(107).

ولوضع حد لاستغلال التجار واحتكارهم لبعض السلع لا سيما الغذائية منها، رأى صاحب أحكام السوق أن تباع سلع هؤلاء المحتكرين عن طريق غيرهم ولا يعطوا إلا رؤوس أموالهم، ويؤخذ ربح تجاراتهم ويتصدق به أدباً لهم، وأن ينهوا عن ذلك، فإذا عادوا كان الضرب والطواف والسجن لهم"(108).

هذا وظهرت بأسواق المدن الإفريقية عمليات المساومة في البيع، والشراء، فتذكر المصادر أن أبا السرى واصل العابد اللخمي المتوفى عام 252هـ/866م قبل أن يتعبد، كان يتاجر في حانوت بما يوزن ويكال، فجاءته امرأة فساومته في شيء فخالفها فيه(109).

---

(106) نفس المصدر، ج4، ص 115، والهرى بضم الهاء بيت كبير يجمع فيه القمح وغيره والجمع هراء.

(107) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 40، 47، =

= الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص 408.

(108) ابن عمر، يحيى، المصدر السابق، ص 113.

(109) عياض، القاضي، المصدر السابق، ج3، ص 101.

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، 67 – 86 (2005م)

موقف المؤرخ ابن الأثير من الخليفة الناصر لدين الله (553 -622هـ/1158 -1225م)

د. محمد عبدالله القدحات

ملخص البحث:

شهدت خلافة الناصر لدين الله (575-622هـ) محاولة جادة من قبل الخليفة للنهوض بالخلافة العباسية. بذل الناصر لدين الله جهوداً واضحة لتحقيق هذه الغاية. كانت هذه الجهود مثاراً للخلاف بين المؤرخين، مدحها وأثنى عليها أغلب المؤرخين المعاصرين، في حين وقف ابن الأثير موقفاً مغايراً ووجه عدة تهم للخليفة الناصر لدين الله، نقلها عنه دون تمحيص عدد من المؤرخين المتأخرين أمثال ابن الوردي والمقريزي. وقد حددنا هذه التهم بأربع ستكون موضوع هذه الدراسة.

الخليفة الناصر: اسمه ونسبه ونشأته:

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي عبدالله بن المستظهر بالله أبي العباس بن المظفر يوسف بن المقتفي أبي العباس محمد بن المقتدر، وينتهي نسبه بالعباس ابن عبد المطلب[1].

أمه أم ولد[2] تدعى زمرد خاتون[3]، وكانت ولادته في رجب سنة (553هـ[4]/1158م). خطب له بولاية العهد قبل موت والده بقليل. ويعود سبب تأخر توليته ولاية العهد عائد إلى الصراع والتنافس غير المعلن في بلاط الخلافة.

فقد كان هناك تنافس بين ولدي المستضيء أبي العباس وأبي منصور، كما أن رجال الدولة كانوا ينقسمون إلى فريقين: فريق يؤيد أبا

---

(1) أبي الكرم، عز الدين أبو الحسن علي (ت 630هـ/1233م) الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج10، ص 97. الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد بن (ت 697هـ/1297م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970، ص 242.

(2) اصطلاح يطلق على نساء الخلفاء من الجواري والإماء، اللواتي حررن بعد إنجابهن من الخلفاء، وأصبحن = يعرفن بأمهات الأولاد.

(3) جارية تركية، جلبت من بلاد الترك الشرقية، واستقر بها المقام في دار الخلافة حتى غدت إحدى حظايا الخليفة المستضيء الذي أعتقها وتزوجها، وعاشت في خلافة ولدها الناصر حتى عام (599هـ/1202م). ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 284، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 354.

(4) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 635.

العباس وفريق يؤيد أخاه أبا منصور، يظهر ذلك واضحاً في رواية الذهبي حيث يقول: "كان المستضيء قد تخوف من ولده أبي العباس أحمد، فاعتقله ومال إلى أخيه أبي منصور، وكان ابن العطار[5]، وأكثر الدولة مع أبي منصور وحظيّة المستضيء بنفشا والمجد بن الصاحب[6] ونفر يسير مع أبي العباس[7]، فإذا علمنا أن ابن العطار كان سنياً حنبلياً[8]، وأن ابن الصاحب كان شيعياً[9]، علمنا أن التنافس في الحقيقة كان بين السنة والشيعة داخل القصر، حيث كان السنة يؤيدون أبا منصور، بينما كان الشيعة يؤيدون أبا العباس.

بويع الناصر لدين الله البيعة الخاصة صبيحة ليلة وفاة والده المستضيء، في مستهل ذي القعدة سنة (575هـ[10]/1179م). وكانت البيعة العامة في اليوم الثالث من وفاة والده[11]. وكان المتولي لأخذ البيعة له أستاذ الدار[12] هبة الله ابن الصاحب وصاحب المخزن[13] ظهير الدين ابن العطار. وكان أول من بايع له من الأمراء العباسيين أخاه الأمير أبي منصور هاشم، ثم الأمراء من أبناء عمومته، ثم كبار رجال الدولة[14].

وبعد أن استقر الأمر له في بغداد، بعث برسله

(5) ظهير الدين أبو بكر منصور بن العطار، ولي للمستضيء عدة ولايات منها الوزارة، وكان متحكماً في الأمور، يولي من يشاء ويعزل من يشاء، وكان شديداً على الشيعة، توفي سنة 575هـ. الذهبي، سير، ج21، ص 84.

(6) هو مجد الدين هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب، كان شيعياً، ولي حجابة الباب في أيام المستنجد، وولاه المستضيء المنصب نفسه، وأقره الناصر في منصبه، ارتفعت مكانته في أوائل أيام الناصر حتى خطب له على المنابر بعده، بقي على ذلك إلى أن تخلص الخليفة منه سنة (583هـ) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 164.

(7) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1347م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981، ط63، ص 67.

(8) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1201م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج18، ص 197.

(9) ابن أبي عذيبة، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (ت 856هـ/1452م)، إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، مخطوطة المجمع العلمي العراقي، رقم 1083، ورقة 70.

(10) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق1، ص 354.

(11) ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن أبي علي (ت 633هـ/1235م)، النبراس في تاريخ بني العباس، صححه وعلق عليه عباس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد، 1946، ص 165.

(12) أستاذ الدار: منصب إداري من مناصب دار الخلافة العباسية، يتولى صاحبه رعاية شؤون دار الخلافة وإعمارها وتوفير ما يلزمها، ويعد صاحب هذا المنصب في جملة كبار رجال الدولة. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطابع كوستا تسوماس، القاهرة، د.ت، ج5، ص 457. ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت 674هـ/1275م) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ج9، (مقدمة المحقق).

(13) صاحبه مسئول عن المخزن الذي هو في الأصل تابع لديوان بيت المال، وهو يتكون من عدة خزائن تضم جميع دخل الحكومة، مثل خزانة الملابس وخزانة النقود. يضبط أمر جميع مفردات الدخل للدولة وجميع نفقاتها. انظر: فهد، بدري محمد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (552 -656هـ)، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1973، ص 285.

(14) أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (ت 665هـ/1266م)، ذيل الروضتين، باعتناء محمد زاهد الكوثراني، (د.م)، 1947، ص 15.

إلى ملوك الأطراف مبشرين بخلافته، وطالباً البيعة منهم[15]. وكان صلاح الدين الأيوبي أول من استجاب له. فقد أرسل الشيخ شهاب الدين الشهرزوري[16] رسولاً إلى بغداد، فاتفق وصوله مع وفاة الخليفة المستضيء، وبعد أن قدم العزاء حضر إلى الديوان وبايع للخليفة الجديد[17]. وبادر صلاح الدين بعد علمه بخبر خلافة الناصر بالخطبة له في جميع بلاده[18]. كما أرسل الناصر رسلاً إلى همذان[19] والموصل[20] للغاية نفسها.

وكان من عادة الخلفاء اتخاذ نقش على الخاتم، فجعل الناصر لدين الله نقش خاتمه "رجائي من الله عفوه"[21].

حكم الناصر مدة سبع وأربعين سنة إلا 36 يوماً[22]، وهو بذلك أطول خلفاء بني العباس حكماً. وكان خلال هذه المدة متحكماً في أمور الخلافة، ويتولى الأمور بنفسه[23]. واستمر على ذلك إلى أن توفي ليلة الأحد بداية شوال من سنة 622هـ[24]. وكان الناصر قد مرض قبل وفاته مرضاً شديداً بقي به مدة ستة أشهر، لم يشعر أحد من الرعية بحاله حتى خفي على الوزير وعلى أهل الدار[25].

وكان سبب وفاة الخليفة الناصر لدين الله حصىً تكون في المثانة أحدث له عسراً في البول، وقد حاول الأطباء استخراج الحصى عدة مرات، فمات بسبب ذلك[26].

ويذكر ابن العبري أن الناصر في آخر أيامه قد ضعف بصره، ولما عجز عن النظر في الكتب

---

(15) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 15.

(16) محمد بن محمد بن عبدالله الشهرزوري، فقيه تولى قضاء الموصل، وكان رسول السلطان صلاح الدين إلى دار الخلافة (ت 586هـ) الإسنوي، جمال الدين عبدالرحيم (ت 772هـ) طبقات الشافعية، تحقيق عبدالله الجبوري، بغداد، 1390هـ، ج 2، ص 110.

(17) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج 8، ق 1، ص 355.

(18) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/1297م)، مفرج الكروب في أخبار بن أيوب، نشره جمال الدين الشيال، القاهرة (1953- 1960)، ج2، ص 90.

(19) الغساني، أبو العباس إسماعيل بن العباس (ت 803هـ/1400م)، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر عبدالمنعم، ط1، دار البيان، بغداد، 1975، ص 175.

(20) الغساني، العسجد المسبوك، ص 175.

(21) ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 243، محمد ابن شاكر الكتبي (ت 764هـ/1362م) فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار = صادر، بيروت، 1973، ج1، ص 66.

(22) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج 8، ق 2، ص 635، ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 247، الإربلي، عبدالرحمن بن سنبط قنيتو (ت717هـ/1317)، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، وقف على طبعه وتصحيحه مكي جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، 1964، ص 282.

(23) الذهبي، العبر في أخبار من غبر، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ج 3، ص 186.

(24) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج 8، ق 2، ص 635، ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص 247.

(25) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 635.

(26) شاهنشاه، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي ابن محمود بن عمر (ت 732هـ/1331م)، التاريخ، علق عليه محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج2، ص 232، ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر المعروف (ت 749هـ/1348م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ج2، ص 144.

المرفوعة إليه استحضر امرأة بغدادية تعرف بست نسيم، وجعلها قريبة منه، فصارت تكتب في الأجوبة. واستغلت المرأة هذه المكانة فصارت تكتب في الأجوبة ما تريد، وقد لاحظ الوزير مؤيد الدين بن القمي خللاً في الأجوبة لم يعتده في أجوبة الخليفة. فاستدعى الوزير طبيب الخليفة صاعد بن توما النصراني فأعلمه الخبر(27).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه ا لدراسة ستركز على جزئية من حياة الخليفة الناصر لدين الله وهي المتعلقة بالاتهامات التي وجهها المؤرخ ابن الأثير إلى الخليفة، وليس التأريخ لعهد الخليفة الناصر الذي استغرق نحواً من سبع وأربعين سنة.

موقف ابن الأثير من الخليفة الناصر لدين الله:

وقف المؤرخ ابن الأثير (ت 630هـ/1232م) موقفاً سلبياً من الخليفة الناصر لدين الله. فأورد عدة اتهامات في مواضع عدة من كتابه (الكامل في التاريخ) أظهر فيها الناصر خليفةً متناقضاً في أفعاله وتصرفاته، والتي دفعته إلى ارتكاب أخطاء في مسيرة حكمه، التي استمرت ما يقارب سبعة وأربعين عاماً. والأخطر من هذا هو قيام عدد من المؤرخين في نقل تلك الروايات دون تمحيص، فصور الناصر بالخليفة الظالم المتعدي على حقوق الرعية.

يقول ابن الأثير عند حديثه عن وفاة الخليفة الناصر لدين الله "ولم يطلق في مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة، ثم أعادها وجعل جُلَّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور. وإن كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم(28).

إذاً فالتهم التي وجهها ابن الأثير للخليفة الناصر لدين الله، وتابعه فيها كثير من المؤرخين نرتبها حسب الأهمية:

1- اتهامه بمراسلة المغول وإطماعهم في أملاك الخلافة العباسية.

2- اهتمامه بالفتوة وانشغاله بها عن مصالح الأمة.

3- عدم اتباعه سياسة واحدة، والتضارب بالأفعال.

4- خاب العراق في عهده وظلمه لشعبه، وفرض الضرائب الجائرة على الناس. وستكون هذه

(27) ابو الفرج غريغورس بن أهرون الملطي المعروف بابن العبري (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، = بيروت، 1997، ص 211.

(28) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص ص 452 -453.

التهم المحاور الأساسية التي بنيت عليها هذه الدراسة. ونبدأ بالتهمة الأخطر التي اتهم بها ابن الأثير الخليفة الناصر لدين الله التي كانت برأيه السبب وراء الارتداد السريع للخوارزميين عن قصدهم بغداد. يقول ابن الأثير: "وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم"[29].

وكان ابن الأثير قد ألمح إلى ذلك في أحداث سنة (617هـ) فعند حديثه عن خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر يقول: "وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر.

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر[30]

جاء عدد من المؤرخين القدامى ورددوا هذه التهمة دون تمحيص أو تحقيق، أو مقارنة بين الأعمال التي قام بها الناصر لدين الله لأجل توحيد الجبهة الإسلامية، وهذه التهمة الخطيرة التي تهدم -إن صحت- كل ما قام به الخليفة على ذلك الصعيد. ولكن يلاحظ أن بعضهم أوردها مشككاً دون أن يؤكدها أو ينفيها. وملاحظة أخرى أن الذين رددوا هذه التهمة ليسوا معاصرين للأحداث، وإنما عاشوا بعد الحدث بأكثر من قرن من الزمان. فأبو الفداء (ت 732هـ/1331م) ينقل الرواية حرفياً عن ابن الأثير[31]. أما ابن الوردي (ت 749هـ/1348م) فإنه يوردها مشككاً بها بقوله: "وقيل إنه هو الذي كاتب التتر"[32]. وكذلك أوردها ابن كثير: "قال ابن الأثير"[33] وأوردها الغساني (ت 804هـ/1404م) نقلاً حرفياً عن ابن الأثير[34]. يقول محقق العسجد في دراسته للكتاب: "لما لم نعثر على نسخة ثانية للعسجد، ونظراً للتشابه الكبير بين حوادث الكتابين، فقد اعتبرنا الكامل بمثابة نسخة ثانية للعسجد لغرض المقابلة والتوثق من الحوادث في القسم الذي حققناه من العسجد حتى سنة 628هـ"[35].

ويأتي المقريزي (ت 845هـ/1404م) بعد قرنين من الزمان ليؤكد التهمة "وفي خلافته- الناصر لدين الله- ضرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان، وكان هو السبب في ذلك، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه"[36].

---

(29) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 402.

(30) أبو الفرج غريغورس بن أهرون الملطي المعروف بابن العبري (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 211.

(31) أبو الفداء، تاريخ، ج2، ص 232.

(32) ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص 144.

(33) الغساني، العسجد المسبوك، ص 408.

(34) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ إسماعيل (ت 774هـ/ 1372م)، البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق أحمد أبو ملحم، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج13، ص 125.

(35) الغساني، العسجد المسبوك، ص 114 (مقدمة المحقق).

(36) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م) الخطط المقريزية، مطبعة النيل، مصر، 1376هـ، ج1، ق1، ص 218.

والغريب أن هذه التهمة كان يرددها السلطان جلال الدين منكبرتي آخر حكام الخوارزميين "كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد، ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع"(37).

وقد أيد عدد من المؤرخين المحدثين هذه التهمة منهم عباس العزاوي(38)، ثم حافظ حمدي الذي اعتمد آراء المستشرقين ولم يمحص الرواية في بطون مصادرها الأولى "وقد جاءت هذه الرواية في بطون كثير من الكتب الأوروبية التي عالجت هذا الموضوع، فأيدها كل من: دوسون، وهورث، وبارون، وجبرينار"(39).

وقبل الخوض في هذه الرواية لا بد من استعراض الجهود العسكرية التي قام بها الخليفة لأجل إعادة وحدة الخلافة الإسلامية، بعدما وصلت إلى حالة من الضعف أطمع الأصدقاء قبل الأعداء.

بذل الخليفة الناصر جهوداً لإعادة اللحمة إلى العالم الإسلامي فلم يتردد الخليفة الناصر من إقامة علاقة دبلوماسية مع حكام الحشاشين في الموت، تشير المصادر إلى أنه في عام (608هـ/ 1212م) تمت عودة الإمام الإسماعيلي حسن الثالث إلى الجماعة الإسلامية، واضعاً الحد للكراهية التي اتسعت بين المسلمين، فدعا من فوق منابرها للخليفة العباسي الناصر لدين الله(40).

كما حرص الخليفة الناصر على إدامة علاقة الود والتعاون بين الخلافة العباسية والأيوبيين في مصر والشام خاصة بعد قيام نور الدين زنكي سنة (567هـ/ 1171م) بالقضاء على الدولة الفاطمية بمصر وإعادة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء. فتم للخلافة العباسية الهيمنة الروحية على مصر. وقد تبادلت الخلافة ببغداد مع مصر والشام الوفود والبشائر، وكانت الهدايا والخلع تحمل بين الحكام والأمراء والولاة(41).

ومع الأيام تزداد العلاقة متانة ما بين الشام ومصر من جهة وبغداد من جهة أخرى، وأبرز صورة لهذه العلاقة نراها تتم بعد أن يعتلي الناصر لدين الله الخلافة.

من المعروف أن المصادر لم تذكر عن أمر مساعدات عسكرية من الخليفة إلى حكام الشام ومصر لتقوية جهادهم ضد الغزاة الصليبيين، ولعل ذلك عائد إلى الأسباب التالية:

أولاً: أن الخليفة العباسي كان هو نفسه بحاجة إلى المساعدات المالية لإعادة بناء دولة الخلافة ومؤسساتها، الأمر الذي دفعه إلى فرض ضرائب

(37) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 624، أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 144، العبود، نافع توفيق، الدولة الخوارزمية نشأتها وعلاقاتها مع الدول الإسلامية (490 -628هـ)، مطبعة الجامعة، بغداد، 1978، ص 102.

(38) العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد، بغداد، 1935، ج1، ص 96.

(39) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، بيروت (د. ت)، ص 53.

(40) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 555.

(41) حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (553 -622هـ/1158 -1225م)، بحث ضمن مجموعة دراسات مهداة إلى عبدالكريم غرايبة، عمان، 1988، ص 145.

جديدة - كما سنبينه- على الناس.

ثانياً: كان بحاجة إلى المساعدات العسكرية والمالية لمقاومة الطامعين في السيطرة على الخلافة من بقايا السلاجقة والخوارزميين.

ثالثاً: أن حكام الشام ومصر ربما كان لديهم شيء من التخوف من أن يقعوا تحت سيطرة الخلافة الكاملة، فاكتفوا بالعلاقة الودية والدعم المعنوي والتأييد الروحي، والمساهمة في فض المنازعات الناشئة بينهم، والتحكيم لرأي الخلافة عند الأزمات[42].

وتستمر هذه العلاقة الطيبة بين الخلافة والدولة الأيوبية بعد وفاة مؤسسها صلاح الدين، حيث نرى أولاده وورثته يسارعون إلى إعلان الولاء للخلافة وطلب التقليد والتأييد من الخليفة، بل إن الخلافات التي نشبت بين ورثة السلطان صلاح الدين قد أعطت الفرصة لتغلغل نفوذ الخلافة العباسية أكثر وأكثر، حتى إن السيوطي يقول: "وكان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا جرى ذكره "الناصر لدين الله" في خلوتهم خفضوا أصواتهم هيبة وإجلالاً"[43].

على الرغم من تخلص الخليفة المقتفي لأمر الله سنة (552هـ/1157م) من السيطرة السلجوقية على العراق، إلا أن الطموح في استعادة نفوذهم من جديد بقي حلماً يراود سلاطينهم في إيران، وعندما اعتلى السلطان طغرلبك الثالث ابن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلطنة سنة (583هـ/1187م) عاود المحاولة فأرسل إلى الخليفة الناصر يطلب منه تعمير دار السلطنة ليسكنها، وهي الدار التي كان ينزل بها سلاطين السلاجقة عند ورودهم إلى بغداد[44]. إلا أن رد الخليفة كان قاسياً حيث أمر بتسوية دار السلطنة بالأرض[45].

لم يكتف الخليفة الناصر بذلك، بل قام بمحالفة أعداء طغرل بك من الخوارزميين، فأرسل إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يطلب منه قتال السلاجقة مقابل تفويضه حكم البلاد التي فتحها. لم يتأخر علاء الدين تكش عن الاستجابة لطلب الخليفة حيث اعتبر تلك الرسالة بمثابة الاعتراف بهم وشرعية وجودهم فسار للقاء طغرل والتقيا بالري سنة (590هـ/1194م) وانتهت المعركة بمقتل طغرل[46]، وانتهاء دولة سلاجقة العراق.

لكن علاء الدين تكش راودته أحلام طغرل في السيطرة على بغداد، فعندما أرسل إليه الخليفة الخلع، لم يستقبل رسول الخليفة ورفض لبس خلعة الخلافة وكان ذلك إشارة للعصيان والتمرد[47].

كان رد الخليفة حاسماً فأرسل جيشاً سنة (591هـ/1194م) استطاع به استرداد أصفهان ثم خوزستان وهمذان والري[48].

---

(42) حمارنة، وقفة عند الخليفة الناصر، ص 147.

(43) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء، عني بتحقيقه إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، 1997، ص 532.

(44) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 163.

(45) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 164.

(46) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 232.

(47) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 233.

(48) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص ص 235- 236.

والواقع أن رواياتنا التاريخية تؤيد ما ذهبنا إليه ولا تذكر ما أشار إليه ابن الأثير، فحين عاود السلطان الجديد علاء الدين محمد تكش سنة (596هـ/1199م) تهديد الخليفة، والطلب منه إعادة بناء دار السلطنة السلجوقية تمهيداً لقدومه إلى بغداد وأن يكون الخليفة تحت تصرفه، كما كان أجداده تحت نفوذ السلاجقة.هذا الموقف أغضب الناصر، فرد رسوله بدون جواب(49). ولم يكتف الخليفة بذلك، بل استغل سوء العلاقة بين الخوارزميين والغوريين، فراسل سلطان غزنة غياث الدين الغوري لمهاجمة الخوارزميين منعاً لهم من التوجه نحو بغداد، فأرسل غياث الدين إلى سلطان الخوارزميين يتهدده بقصد بلاده وأخذها(50).

عندما وجد علاء الدين تكش الموقف لغير صالحه، أرسل سفارة إلى الخليفة الناصر معتذراً عن تهديده. ولتأكيد حسن النوايا، أرسل علاء الدين أخاه إلى بغداد إظهاراً للطاعة واعتذاراً عن طلبه الخطبة(51). فلا نستبعد اتصال الناصر بأعداء الخوارزميين من قبائل الغوريين وحثهم على التعرض لأقاليم الإمارات الخوارزمية، وذلك لإشغال خوارزم شاه بهم عن خططه بالهجوم على بغداد، وأنه أي ابن الأثير نفسه غير متأكد منها ويذكرها بلهجة فيها شك وريبة واستفهام(52).

لم يدم صفو العلاقة بين الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية، فحاول السلطان علاء الدين محمد ابن السلطان علاء الدين تكش سنة (614هـ/1217م) من جديد السيطرة على الخلافة العباسية، فأرسل رسالة شبيهة برسالة والده(53). وأعلن خلع الخليفة العباسي، وتنصيب خليفة علوي يدعى علاء الملك الترمذي(54). ثم جهز جيشاً لغزو بغداد، ولكن الفشل كان حليفاً لتلك الحملة. فما أن انطلقت الحملة حتى اضطربت الأمور في بلاده(55).

كما أن الخليفة الناصر اتخذ جملة من الاستعدادات لحماية بغداد "ففرق السلاح، وصرف الأموال، وأقام المتاريس حولها"(56). كما لعبت الظروف المناخية دوراً في إفشال الهجوم، حيث هبت عواصف ثلجية استمرت ثلاثة أيام أدت إلى هلاك معظم دوابه وتعطيل حركة جيشه، مما اضطره إلى العودة من حيث أتى(57).

استطاع بذلك الخليفة الناصر لدين الله استكمال جهود الخليفة المقتفي لأمر الله

(49) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 8.

(50) الذهبي، العبر، ج3، ص 105.

(51) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 19.

(52) عمر، فاروق، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية الأخيرة، منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1989، ص 186.

(53) النسوي، محمد بن أحمد (ت 732هـ/1332م)، سيرة جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، مكتبة الاتحاد، القاهرة، 1953، ص 52.

(54) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 582، أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 10.

(55) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 10.

(56) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 453.

(57) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 582، Mohammed Rashad, The Abbasid Caliphate (275-656H) University of London, 1963, P. 65.

لاستقلال الخلافة العباسية من السيطرة الأجنبية، وإعادة وحدة العراق من جديد، فأصبحت أملاك الخلافة في عهده تمتد من تكريت في الشمال إلى عبدان على الخليج العربي في الجنوب، ومن الري وأصفهان في الشرق إلى حديثة عانة في الغرب. يقول ابن واصل: "وفي أيام الناصر لدين الله عظمت حشمة الخلافة جداً وقوي شأنها، واستولى مع العراق على إقليم خوزستان وغيرها من الأطراف، وملك همذان وأصفهان"[58].

وأول الحقائق التي يجب إيرادها، أن هذه التهمة لم ترد في المصادر المعاصرة والقريبة من الحدث أمثال ابن الدبيثي وابن النجار وأبو شامة وابن شداد وسبط بن الجوزي، وابن الساعي والصفد والمكتبي. بل إن مؤرخ الدولة الخوارزمية النسوي واضع (سيرة جلال الدين متكبرتي) لم يورد هذه الرواية والذي كان الأحرى به أن يوردها.

ويلاحظ على رواية ابن الأثير عدم الثقة بها حيث بدأها بقوله: "وإن كان" وينسب ابن الأثير مصدر الرواية إلى العجم (إلى الخوارزميين) فكيف يمكن الوثوق برواية مصدرها الأعداء. علاوة على ذلك فإن حكام الخوارزميين دأبوا على اتهام الخلافة العباسية بمعاداتهم فحاول السلطان علاء الدين محمد كسب الرأي العام - كما أشرنا- وإثارته على الخلافة فقام بدعاية واسعة للتشهير بها، عندما أعلن أنه عثر على وثيقة في غرنه تثبت تحريض الخليفة للغوريين على مهاجمته، واتخذ من ذلك ذريعة للتشكيك في شرعية حكم الخليفة العباسي[59]. بل قام بقطع الخطبة للخليفة العباسي، ونصب علوي من ترمذ، راغباً في كسب ولاء الشيعة في المشرق والعراق.

يضاف إلى ذلك أن علاقة علاء الدين محمد خوارزم شاه كانت قائمة بالمغول من قبل أن يتوجه إلى بغداد، حيث كان قد عقد معهم حلفاً للتخلص من غارات قبائل الخطا على بلاده، وبعد القضاء على دولة الخطا والتي كانت تمثل حاجزاً بينه وبين المغول، صار الاحتكاك معهم محتماً، خاصة إذا علمنا أن الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي كان اجتياحاً شاملاً. ولم يكن المغول بحاجة إلى تحريض الخليفة ليغيروا على بلاده أو يغزوها، ذلك أن البيئة القاسية التي عاشوا فيها كانت دائماً تدفعهم إلى الغزو التماساً للرزق، ومهرباً من قسوة الحياة[60]. لذا فهم مستعدون لإزالة أية قوة تواجههم سواء كانت دولة الخوارزميين أو الخلافة العباسية وهذا ما كان.

وإذا افترضنا مراسلة الناصر للمغول، واستندنا إلى أن مثل هذه الجريمة تكررت في التاريخ، إذ إن كثيراً ما قتل الأخ أخاه، والابن والده من أجل الملك والسلطان، وافترضنا أيضاً

(58) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 170.

(59)القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير (512- 656 هـ) مطبعة = القضاء، النجف، 1971، ص 227.

(60) القزاز، الحياة السياسية، ص 232.

أن الخليفة الناصر قد وضع في تقديره بعد المسافة بينه وبين المغول، فإن ذلك وحده لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يقدم لنا تفسيراً مقنعاً عن قيام الغزو المغولي، بل إن هناك أموراً أخرى ينبغي أخذها بعين الاعتبار، فقد أشار ابن الأثير الذي اتهم الخليفة بهذه التهمة إلى أن غزو المغول لبلاد خوارزم كان بسبب سوء التفاهم الذي وقع لتجارهم في مدينة أوترار الإسلامية، وقتلهم بإيعاز من خوارزم شاه علاء الدين محمد.(61)

وبإمكاننا أن نسأل: ما هي العلاقة بين الخليفة الناصر باعتباره خليفة للمسلمين، وبين جنكيز خان زعيم المغول الوثنيين حتى يسارع الأخير إلى مهاجمة الخوارزميين لمجرد طلب الخليفة منه ذلك؟ وإذا صح أن الخليفة قد راسلهم لكان ذلك بموجب اتفاق يقضي على الأقل بحفظ دولته التي بات يهددها الخطر المغولي منذ سنة 618هـ/ 1221م

ومما يضعف هذه التهمة هو موقف الخليفة المعادي للمغول، فعندما وصلت الأخبار إلى بغداد بتقدم المغول من قاعدتهم مراغه نحو إربل، كتب الخليفة إلى صاحب الموصل وصاحب إربل يأمرهما بالاجتماع بعساكره في دقوقا، فلما علم جيش المغول باجتماع جيوشهم، رجعوا عن متابعة مسيرهم(62).

لكل ذلك، فإن اتهام الخليفة الناصر بمراسلة المغول وإطماعهم بالخلافة، تهمة باطلة نصاً ومضموناً فهي لا تتفق مع سياسة الخليفة الناصر للنهوض بالخلافة العباسية، التي كان من أهم أركانها ترسيخ مفهوم قدسية الخلافة في نفوس الناس من خلال أعمال قام بها كالاهتمام بالعلوم الدينية وخاصة الحديث. إضافة إلى كسب ولاء حكام الأطراف، فلا يعقل لخليفة يتبع مثل هذه السياسة أن يقوم بمراسلة أعداء الإسلام والخلافة لحمايته من الخوارزميين المسلمين.

ونأتي إلى التهمة الثانية التي وجهها ابن الأثير إلى الخليفة الناصر لدين الله "وجعل جُلّ همه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه".

إن الباحث في خلافة الناصر لا يمكن أن ينكر اهتمامه بالفتوة. والسؤال الذي يجب الإجابة عنه هل كان اهتمام الناصر بالفتوة نوعاً من اللهو والتسلية أم كان جزءاً من السياسة التي رسمها الخليفة للنهوض بالخلافة العباسية؟

بعد أن تولى الخليفة الناصر الحكم بثلاث سنين (578هـ/1182م) انتظم في منظمة الفتوة التي كان يرأسها الشيخ عبدالجبار بن يوسف بن صالح البغدادي. واشتهر الخليفة بها حتى عرفت باسمه وأضيفت إليه فقيل (الفتوة الناصرية).

لم يكن الخليفة الناصر مبتدعاً لتنظيم الفتوة، بل هي قديمة أعادها ابن المعمار إلى عهد

---

(61) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 401، نافع توفيق العبود، الدولة الخوارزمية، نشاتها. علاقاتها مع = الدول الإسلامية، مطبعة الجامعة، بغداد، 1978، ص 104.

(62) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 401.

الرسول صلى الله عليه وسلم. أوضح النقاش وضع الفتوة واختلافها إلى بيوت وأحزاب، ثم بين دور الخليفة الناصر في تنظيمها قائلاً[63]: "وبعد فإن أحزاب الفتوة كانوا تائهين، وعن الحق زائغين، تأولوا الفتن والابتداع، تجلت عليهم الشقاوة، وتحكمت في بواطنهم الضلالة، إلى أن شرف الله تعالى الفتوة وكرمها، وأعلى منائرها وعظمها بسيدنا ومولانا الشجرة الإمامية، وهو بهذا يعكس النقد الموجه إلى تصرفاتهم وأوضاعهم، ليبرز دور الناصر في توحيدهم وفي وضع أسس أمتن لحركتهم، راجين نيل طاعتها، خصوصاً حين أحيا سننها ومعالمها سيدنا ومولانا أبو العباس أحمد الناصر لدين الله".

استمرت الفتوة على تلك الحالة من الأهمية والاشتهار والانتشار لاتصال الخليفة الناصر بها، إلا أن الفتيان لاختلاف بيوتهم[64] وفروعهم وأحزابهم[65] ومذاهبهم الدينية، كانوا يحدثون شغباً في المجتمع، ويؤدي بهم النزاع إلى الاقتتال وارتكاب المحرمات في الشرع من النهب والهتك.

هذه الفتن كانت تشير إلى نوع من العصبية أخذت تظهر بين الفتيان ببغداد بحيث أصبح فتيان كل محلة يشكلون جماعة واحدة، ويتعصبون لمحلتهم، هذا عدا أن الفتوة أصلاً لم تكن جماعة واحدة، فقد كانت جماعات متعددة، وأشار إلى ذلك صراحة ابن المعمار بعد ذكر سند الفتوة:" ولم تزل الفتوة تنتقل هلمَّ جرًّا إلى عصرنا هذا، حتى تفرعت وصارت بيوتاً وأحزاباً وقبائل: كالرهاصية، والشحنية، والخليلية، والمولدية، والبنوية"[66]. فأدى هذا الاختلاف في جماعات الفتوة إلى ظهور الفتن فيما بينها، التي أدت إلى مقتل العديد من الناس.

رأى الناصر أن الفتوة لا تزال تتعرض للجرائر والاضطراب، فقام بإلغاء الفتوة القديمة، وأمر أن تجدد فتوة الفتيان الذين لم يأخذوا التفتي عنه، وصار بذلك المرجع لجميع الفتيان، والقبلة الجديدة في التفتية التي تستوجب التجديد، والتي هي انتماء جديد.

رافق تجديد الفتوة إصدار منشور على رؤوس الفتيان، من إنشاء مكين الدين أبي الحسن محمد ابن محمد المقدادي القمي كاتب ديوان الإنشاء يومئذ، وقد حدد هذا المنشور أحكام الفتوة العامة وآدابها[67]، ورد نص المنشور كاملاً عند البصري[68]، وابن الساعي[69]، وفي هذا المنشور تظهر عدة ملاحظات:

---

(63) النقاش، أحمد بن إلياس، فتوة النقاش، نقلاً عن مصطفى جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص 54.

(64) البيت: من تنظيمات الفتوة، وهو اسم لطائفة تميزت بصفة تخصها ورأي تفردت به، كما قيل بيت الرهاص، وبيت الشحنية. انظر: ابن المعمار، أبو عبدالله محمد ابن أبي المكارم (ت 642هـ/1244م)، الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرين، مطبعة شفيق، بغداد، 1958، ص 191.

(65) الحزب: اسم يطلق على الأشخاص المنسوبين إلى شخص واحد. ابن المعمار، الفتوة، ص 191.

(66) ابن المعمار، الفتوة، ص 145.

(67) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 221. مصطفى جواد، مقدمة كتاب الفتوة، ص 63.

(68) البصري، علي بن أبي الفرج (عاش في القرن السابع الهجري)، المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية، صورة عن المخطوط على مايكروفلم محفوظة في مكتبة جامعة بغداد المركزية الثانية، رقم 225، عن مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس، رقم 6144، ورقة 138.

(69) الجامع المختصر، ج9، ص ص 223- 5.

1- ابتدأ بالحديث عن علي بن أبي طالب، وأنه هو أصل الفتوة في الإسلام، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها، وإليه دون غيره تنتسب الأحزاب. وكون الإمام علي هو أصل الفتوة، فإن ذلك يرضي كلاً من السنة والشيعة، لأن شخصية الإمام محبوبة ومقبولة عند الطرفين، ولذلك فقد انتظم في فتوة الناصر فتيان السنة والشيعة(70).

2- يذكر المنشور بعد ذلك الأوامر والتعليمات التي يريد الخليفة الناصر أن يوصلها لرؤساء أحزاب الفتوة، وتتلخص هذه التعليمات بالتشديد والتهديد والوعيد لكل من يرتكب جريمة القتل بحق رفقائه من الفتيان، وأن من يقتل رفيقاً له يعتبر خارقاً بذلك دائرة الفتوة، وساقطاً من عداد الرفقة(71).

لم يكتف الخليفة الناصر، بعد أن وحد تنظيمات الفتوة في تنظيم واحد، وجعل نفسه قبلة أهل الفتوة، وربط جميع الفتيان بشخصه، بل أراد أن ينشر الفتوة خارج بغداد لدى ملوك الأطراف والأقاليم الإسلامية(72). ولعله كان يريد من ذلك دعم مركزه الديني لدى ملوك الأطراف، وكان قد اتخذ هذه الخطوة بعد ثلاث سنوات من إهدار الفتوة القديمة أي سنة (607هـ/1210م)، فأرسل إلى ملوك الأطراف طالباً منهم أن يُلبسوا له سراويل الفتوة، وينتموا إليه في رمي البندق، وأنفذ إليهم من يفتيهم نيابة عنه بالوكالة، فشربوا له كأس الفتوة ولبسوا سراويلها(73)، كما أمرهم أن يلبسوا رعيتهم السراويل، ويسقونهم كأس الفتوة، فقبلوا دعوته، وامتثلوا أمره، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها، وألبس كلاً منهم وسقاه كأس الفتوة(74).

وكان ممن لبس سراويل الفتوة للخليفة الناصر السلطان شهاب الدين الغوري سلطان الهند وغزنه(ت 602هـ/1205م)، وأتابك سعد صاحب شيراز، كما لبسها صاحب جزيرة كيش، والملك الظاهر صاحب حلب(75) وأرسل الناصر لباس الفتوة إلى عز الدين أبي المظفر كيكاوس السلجوقي، وإلى الملك الأشرف(76)، أبي الفتح موسى بن الملك العادل صاحب دمشق(77).

---

(70) عبدالهادي، يحيى، الفتوة في العصر العباسي الأخير، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1994، ص 127.

(71) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 224.

(72) كان الناصر قد أرسل سراويل الفتوة إلى السلطان العادل الأيوبي سنة 599هـ، وكان بذلك أول من ارتبط بفتوة الناصر من ملوك الأطراف، انظر: أبو شامة، الذيل، ص 33، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ق2، ص 513، ابن كثير، البداية، ج13، ص 38.

(73) جي، سعيد الديوه، الفتوة في الإسلام، المطبعة الكلدانية، الموصل، 1950، ص 48.

(74) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 206، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 272. ابن الوردي،= تاريخ، ج3، ص 183، ابن الفرات، تاريخ، ج1، ص 113. جي، الديوه، الفتوة، ص 48.

(75) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت 745هـ/1347م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، تحقيق بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988، ط63، ص 76.

(76) هو الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى بن الملك العادل الأيوبي، صاحب دمشق، من ملوك الدولة الأيوبية، ملك الرها وحران وسنجار، توفي سنة 635هـ. الذهبي، سير، ج22، ص ص 122 -127.

(77) مجهول، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الفرات، بغداد، 1958، ص 106.

تركزت نشاطات الناصر في الفترة (578-599هـ/1182-1201م)، على الرياضات التي يجب أن يمارسها الفتى ويتقنها، ليدخل منظمة الفتوة، وعلى رأسها رياضة الرمي بالبندق[78].

ورغم ما جلبته هذه الاهتمامات من النقد للخليفة الناصر من قبل بعض المؤرخين، إلا أنه كان يهدف من خلالها إلى جملة من الأمور: فهي رياضات جمعت بين التسلية والمتعة والانبساط وتربية الأجسام تربية رياضية، كما استخدم هذه الرياضات لتحقيق سياسته التي يمارسها، فرياضة السعي توفر له سعاة قادرين على نقل الأخبار والمعلومات والبريد بسرعة خاصة إذا علمنا أنه كان مهتماً بجمع الأخبار وله من أجل ذلك أصحاب أخبار منتشرون في داخل بغداد وخارجها[79].

أمام اندفاع الخليفة الناصر في الاهتمام بالفتوة وتنظيم حركتها يطرح سؤال: لماذا اهتم الناصر بالفتوة؟

اعتبر ابن خلدون اهتمام الناصر بالفتوة دليلاً على هرم الدولة العباسية وضعفها، وكان الناصر كثيراً ما يشتغل برمي البندق، واللعب بالحمام المناسيب، ويلبس سراويل الفتوة، شأن العيارين من أهل بغداد، وكان كله دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك من أهلها بذهاب ملكها منهم"[80].

حاول مجموعة من الباحثين الإجابة عن هذا السؤال وأول من تصدى لهذه المهمة المستشرق (بول فتك P. Wittek) إذ قال[81]: إن الناصر حرص على إقامة خط دفاعي يقي البلاد من الزحف الصليبي على المسلمين، وأنه أراد أن يوحد جميع المجاهدين الجدد تحت لوائه، وأن يربطهم بشخصه برباط جديد".

أما سالنجر (G.Salinger) فيرى أن غرض الناصر كان مراقبة النقابات الشاذة التي أثارت في بغداد قبل حكمه فتناً وقلاقل استمرت سنين وأرهبت الناس[82].

ومن الباحثين العرب الذين حاولوا تقديم إجابة عن ذلك الدكتور مصطفى جواد حيث قال[83]: "رأى الناصر أن العالم الإسلامي في خطر، فالقسم الشامي ما بين مستعمر ومهدد من

(78) البندق: عبارة عن كرات تصنع من الطين بعد أن يعجن جيداً، وترمى بواسطة الأقواس والنبال، عبد الوهاب، أحمد (732 هـ/1332م). النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، منشورات الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1993، ج10، ص ص 324- 325، زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، راجعه وعلق عليه حسين مؤنس، دار الهلال، بيروت 1953- 1957، ج5، ص ص 153- 154.

(79)عبدالهادي، يحيى، الفتوة، ص 121.

(80) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت 808هـ/1283م) تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج3، ص 649.

(81) تشنز "الفتوة والخليفة الناصر"، مقال ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين، ترجمة صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1955، ص 200.

(82)سالنجر، جيرالد، "الفتوة هل هي الفروسية الشرقية"، بحث منشور في كتاب دراسات إسلامية، بأقلام مجموعة من المستشرقين، أشرف على الترجمة إلى العربية نقولا زيادة، دار الأندلس، بيروت، 1960، ص 227، تشنز، الفتوة، ص 200.

(83) الفتوة والخليفة الناصر، ص 193، ويؤيده في ذلك صلاح الدين المنجد في كتابه، الحركات التقدمية في العراق حتى الغزو المغولي، دار العلم للملايين، بيروت، 1962.

الفرنج، ومصر مطمع أنظار الغزاة، وشمال أفريقيا بأيدي بني عبد المؤمن وهم يدعون الخلافة، والأندلس في قرارة الأخطار، والعراق مقر الخلافة مستهدف لمطامع الدولة السلجوقية الكبرى بغربي إيران، فأراد أن يجدد شباب الأمة الإسلامية، ويوحدها في الداخل والخارج، ويجعل بغداد المركز العالمي للسياسة ولجميع بلاد الإسلام كما كانت في بعض العصور الماضية".

أمام هذه التعليلات التي قدمها نخبة من الباحثين، لا بد من توضيح جملة من الحقائق التي كانت وراء فتوة الناصر.

حرص الناصر على إضفاء الشرعية على فتوته بإسنادها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق علي بن أبي طالب، ورغم أن هذا السند لا يصمد أمام الدراسة والنقد إلا أن له دلالاته:

أولاً: فهو يعطي الناصر السند والسلطة الأدبية والروحية، زيادة على سلطة الخلافة، وذلك لأنه رئيس تنظيم يرجع في أصوله إلى الإمام علي بن أبي طالب، ومن هنا حرص الناصر على إدخال ملوك الأطراف في فتوته وربطهم به شخصياً لتأكيد هذه السلطة.

ثانياً: إن إسناد الفتوة إلى الإمام علي فيه تقرب من الشيعة، وذلك لأن شخصية الإمام علي مقبولة لدى السنة والشيعة، وهذا فيه دلالة على أن فتوة الناصر ليست لمذهب دون آخر، وإنما هي وسيلة لجميع المسلمين: سنة وشيعة، قيادة واحدة، وبذلك يتغلب على أكبر عقبة تواجهه ألا وهي العصبية المذهبية[84].

كما أن فتوة الناصر كانت حركة تربوية للأمة يتربى فيها الفرد تربية متكاملة، فقد بنى الناصر فتوته على أساس خلقي ينبع من أوامر الشرع، وأن نظرة سريعة إلى الفصل التاسع من كتاب الفتوة لابن المعمار ترينا ما هي الخصال التي يجب على الفتى فعلها، وما هي الخصال التي يؤمر باجتنابها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن فتوة الناصر اهتمت بالتربية من الناحيتين الروحية والبدنية. أما من الناحية الروحية، فإننا لاحظنا الجانب الصوفي فيها، فقد أخذ الناصر الفتوة عن الشيخ عبدالجبار وهو شيخ من مشايخ الصوفية، ولذلك كان الناصر شديد الاهتمام بالصوفية والمتصوفة، ويتردد عليهم ويلبس زيهم[85]، أما من الناحية البدنية فنلاحظ ذلك من خلال الاهتمام الكبير الذي أولاه للرياضة وبناء الأجسام من ممارسة رياضة الصيد والسعي وغيرها من الرياضات[86].

ومما سبق نلاحظ أن الفتوة بعد الناصر لدين الله أخذت تتراجع عن الأهداف التي من أجلها سعى الناصر لتبني الفتوة، وبلغ هذا التراجع أوجه في عهد المستعصم، حيث غلب على الفتوة في زمنه الاهتمام بالنواحي الترفيهية واللعب، أكثر من الاهتمام بالنواحي التربوية التي حرص على تحقيقها، حيث ظهرت الفتن من جديد بين

(84) مقدمة كتاب الفتوة، ص ص 55 -56.

(85) عبدالهادي، يحيى، الفتوة، ص 137.

(86) عبدالهادي، يحيى، الفتوة، ص 139.

أهل المحال [87]، وكان سببها صيد السباع، ثم ظهور ظاهرة العيارين والشطار من جديد، بعد أن توارى ذكرهم طيلة حكم الناصر والظاهر والمستنصر.

إن الخليفة الناصر بدهائه أراد أن يستغل هذا التنظيم الاجتماعي لمصلحة الدولة العباسية السياسية، فقد أدرك أن المجتمع بحاجة إلى قوة تبعث فيه روحاً جديدة قادرة على الثبات أمام المحن والأزمات المحيطة به سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية.

وبمعنى آخر فإن الناصر أراد أن ينتشل الأمة من كبوتها بأن يبعث في شبابها خاصة روحاً تستند إلى تعاليم الإسلام، وأن ينظمهم في تنظيم خاص يوحدهم بغض النظر عن أقاليمهم وطوائفهم، وبذلك يحقق وحدة المجتمع ويقضي على أسباب التفرقة والتفكك، ومن أجل أن يضمن سلامته وقوته جعل قيادته بيده شخصياً.

والتهمة الثالثة التي وجهها ابن الأثير إلى الخليفة الناصر اتهامه إياه بعدم ثبات سياسته والتناقض في أفعاله: "وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة ثم أبطلها"[88].

قبل بحث موضوع دور الضيافة، لا بد من الإشارة إلى أن الناصر لدين الله، وجد أن محاولة الإصلاح لا يمكن أن يكتب لها النجاح، إذا لم يخلق جبهة داخلية متماسكة من جميع فئات الشعب، تذوب فيها الخلافات والنزاعات المذهبية، واضعاً نصب عينيه أنه خليفة لجميع المسلمين، سنة وشيعة حنابل وحنفية وشوافع.

لذا فقد كان جزءاً من سياسته للنهوض بالخلافة التقرب من جميع فئات الشعب والاهتمام بها، فقد كان للإحباطات التي كانت تعيشها تلك الفئات أثر سيئ على الوضع الداخلي، تمثل في العنف والاقتتال بين فئات المجتمع، الذي كان في ظاهره ناتجاً عن خلافات ولكنه في الحقيقة إعلان عن موقف سياسي ناجم عن تدهور الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار وارتفاع الضرائب، وكانت حركات الفتيان وتمردهم خير ممثل لهذه الاحتجاجات. إضافة إلى ما كان قد شاهده قبل توليه الخلافة من حالة الانقسام والتنافس بين كبار رجال الدولة والذي كان في حقيقته يمثل صراعاً وتنافساً بين السنة والشيعة، لذا وضع لنفسه سياسة تقوم على التوفيق بين عناصر المجتمع، على أساس أنه خليفة للمسلمين جميعاً، فقرب الجميع. وهذه السياسة دفعت بعض المؤرخين إلى اتهامه باتباع سياسات متناقضة، بل إن الذهبي [89] وابن الطقطقا [90] اتهماه بالتشيع.

استغل الخليفة الناصر لدين الله مختلف المناسبات الدينية لمختلف فئات المجتمع لأجل المشاركة فيها، ففي رمضان كان يأمر بإحصاء

(87) حول هذه الفتن انظر: مجهول، الحوادث، ص 314، ص 302، الغساني، العسجد المسبوك، ص 621.
(88) ابن الإثير، الكامل، ج10، ص 453.

(89) الذهبي، تاريخ، حوادث (621- 630)، ص 84.
(90) ابن الطقطقا، الفخري، ص 322.

الفقراء في محلات بغداد، فكان في كل محلة ما يقارب الخمسمائة فقير، فخصص لكل منهم حاجته من الطعام والشراب طوال الشهر(91).

وفي خطوة أكثر تنظيماً للغاية نفسها، أمر في عام (604هـ/1207م) ببناء دور في جميع محلات بغداد عرفت بدور الضيافة، يقدم فيها الإفطار لجميع الفقراء في تلك المحلة، وعين لكل دار مشرفاً يتولى أمرها(92). وقد حدد سبط بن الجوزي عدد من كان يفطر في تلك الدور بعشرة آلاف شخص، حيث قال: "رتب الخليفة في رمضان دور المضيف ببغداد من الجانبين عشرين داراً، في كل دار في كل ليلة خمسمائة قدح وألف رطل من المطبخ الخاص، والخبز النقي والحلوى، وغير ذلك مستمر في كل رمضان(93).

ولما كانت مخصصات الفرد الواحد على ما ذكره ابن الساعي(94) قدحاً من الطبيخ ورطلين من الخبز، يظهر أن عدد الفقراء عشرة آلاف شخص.

وموسم الحج كان مناسبة أخرى للتقرب من العامة، فأمر في العام التالي (605هـ/1208م) بإنشاء دور مشابهة للدور الرمضانية)، فإنشاء دور ضيافة الحجاج القادمين من مختلف الأقطار إلى بغداد جهزت تلك الدور بما تحتاجه من الأطعمة والأشربة لأجل تقديم الطعام للحجاج الوافدين، وأوعز للمشرفين على الدور بتفقد الفقراء من الحجاج وتقديم الكسوة وما يكفيهم في سفرهم من الطعام، إضافة إلى دينار لكل حاج فقير(95).

وحظيت الطرق الصوفية بدعم ورعاية الخليفة الناصر لدين الله. فهدف الصوفية العزلة والاعتكاف للقيام بعبادة الله سبحانه وتعالى حتى لا يشغلهم عن ذلك شاغل، وتأثيرهم على العامة من أفراد المجتمع الذين ينظرون إليهم نظرة قدسية، فيحترمونهم ويقدرونهم، وسرعان ما يتحركون استجابة لأي نداء من كبارهم، فأراد الخليفة من العناية بهم محاولة تسخير هذه القوة لمصلحته، فبنى لهم الربط، وأنفق عليهم الموارد الكثيرة، حتى غدت الأربطة مناخاً للبطالة والكسل.

حرص الخليفة الناصر لدين الله على إنشاء الأربطة في أماكن مختلفة من بغداد، ووقفها على المتصوفة، منها: رباط الأخلاطية(96)، بمشرعة الكرخ مجاور مشهد عون ومعين(97)، وأنشأ إلى جانبه تربة ورباط الحريم الطاهري(98)، ورباط

(91) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 229
(92) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 344.
(93) ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ص 2، ص 534.
(94) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 229.
(95) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 64.
(96) ويسمى رباط الخلاطية، بناه الخليفة الناصر لزوجته سلجوقة خاتون سنة 584هـ، وبجواره بنى تربة لها، ويقع هذا الرباط على شاطئ دجلة بمشرعة الكرخ من الجانب الغربي من بغداد. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 179. الإربلي، خلاصة الذهب، ص 282، =

= جواد، "الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية"، مجلة سومر، مج10، ج2، 1954، ص 234.
(97) يقول ابن جبير في وصف هذا المشهد: "وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان، داخله قبر متسع السنام، عليه مكتوب: هذا قبر عون ومعين، من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الرحلة، مكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص ص 180 -181.
(98) انشاه سنة 589هـ في محلة الحريم الطاهري وأسكنه الصوفية وخصص لهم الجرايات من الطعام. ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان، ج8، ق1، =

المرزبانية.[99] علل بعض المؤرخين إنشاء الخليفة الناصر لهذا الرباط، بأنه عزم على (أن ينقطع فيه ويترك الخلافة زاهداً بالدنيا)، وكتب في ذلك كتباً بليغة لتقرأ على الناس، ولكنه تراجع عن هذه الخطوة ولم يعرف السبب[100].

ومن جوانب اهتمام الخليفة الناصر لدين الله بالمتصوفة تقريبه لهم، وجعل بعضهم من حاشيته ومعاونيه ورسله إلى ملوك الأطراف، فكان الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي رسولاً بين الخليفة الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين بالشام، فلما طلب صاحب الموصل سنة (579هـ/1183م) مساعدة الخليفة بالتدخل لمنع صلاح الدين من الاستمرار بحصار الموصل، أرسله الخليفة في وساطة لتحقيق الصلح[101].

ومن مظاهر الاهتمام بالصوفية تكريمه لكبار شيوخهم، فإذا قدم أحدهم إلى بغداد أو عاد من سفر خرج موكب الديوان للقائه، فلما عاد عبدالواحد بن عبدالوهاب المعروف بابن سكينة، خرج موكب الديوان للقائه. وبعدها أرسل من قبل الديوان رسولاً إلى كيش[102]، فتوفي في الطريق سنة (608هـ/1211م)[103].

ولإعطاء الإجراءات التي قام بها صفة الشرعية تجعلها أكثر قبولاً من الناس اتجه الناصر إلى تقريب العلماء والفقهاء وإلى الاشتغال بالعلم، فكان أن اقتحم باب التأليف والرواية، فصنف كتاب (روح العارفين) الذي شمل سبعين حديثاً[104]، أجازه لجماعة من أهل العلم على رأسهم كبار علماء المذاهب الأربعة، فقد سلم إجازة الحنفية إلى ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازه الشافعية إلى عبدالوهاب بن سكينة، وإجازة المالكية إلى علي بن جابر المغربي، وإجازة أصحاب الإمام أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبدالرزاق الجيلي[105].

حرص الناصر لدين الله على نشر الكتاب في جميع الأمصار، فقرئ في بغداد في أكثر من مائة مسجد[106]، وأجازه للملك العادل وأبنائه[107]،

= ص 422، الإربلي، خلاصة الذهب، ص 282، جواد، الربط البغدادية، ص 242.

(99) يقع هذا الرباط على نهر عيسى بالجانب الغربي من بغداد. مجهول، الحوادث، ص 74

(100) الإربلي، خلاصة الذهب، ص 282، الذهبي، تاريخ، ط63، ص 86.

(101) ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر (ت 617هـ/ 1220م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، 1968، ص 132.

(102) جزيرة في البحر من أعمال عُمان. ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979، ج4، ص 497.

(103) ابن النجار، محيي الدين أبو عبدالله محمد بن محمود (ت 643هـ/1245م)، ذيل تاريخ بغداد، تحقيق = بشار عواد، مطبعة الحرية، بغداد، 1971-1973، ج1، ص 56.

(104) ابن واصل، ج3، ص 32، الأربلي، ص 281. لم يكن الناصر أول خليفة يتصدى للتأليف، بل سبقه الخليفة القادر بالله، الذي صنف كتاباً في الأصول، وذكر فيه فضل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وكان الكتاب يقرأ كل جمعة بجامع المهدي. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ/1070م)، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997، ج4، ص 257.

(105) ابن الكازروني، ص 245، ابن واصل، ج4، ص 165، الذهبي، سير، ج22،ص 198.

(106) الذهبي، سير، ج22، ص 197، الإربلي، ص 281.

(107) الذهبي، سير، ج22، ص 197.

ولجماعة من أهل العراق والشام ومصر، ورواه ابن النجار عنه بالإجازة في الحرمين ودمشق وحلب والقدس ونيسابور ومرو وهمذان(108).

وقد ظهر لهذا الكتاب شرح، وضعه سبط بن الجوزي بناء على طلب الملك الأشراف بعد أن "عجز العلماء عن شرحه" سماه شرح روح العارفين(109).

كما ألقى الخليفة الناصر لدين الله دروساً في شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل، وأجاز فيه عدداً من علماء الحنابلة، وسمح لهم في شرح مسند أحمد، وأذن لهم بروايته عنه، وأجاز لعلي ابن جابر المغربي الموطأ الإمام مالك، ورواه عنه بجامع القصر ببغداد(110).

يظهر أن الخليفة الناصر كان يرمي من وراء ذلك كله اكتساب احترام الفقهاء والعلماء ودعمهم، إلى جانب محاولته الحد من الخلافات المذهبية التي كانت تثار بين أصحاب المذهبين: السني والشيعي(111)، كذلك لأجل تثبيت شرعية الخلافة في نفوس الناس وفي نفوس ملوك الأطراف.

وكانت التهمة الرابعة موجهة إلى سياسته تجاه الشعب وخراب العراق في عهده "وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً، أخذ أموالهم وأملاكهم بغير وجه شرعي، فخرب العراق في أيامه"(112).

إن السياسة المالية التي اتبعها الخليفة الناصر كانت جزءاً من السياسة العامة للنهوض بالخلافة ؛ فالنهوض بحاجة إلى الأموال للقيام بالإصلاحات الداخلية، وبحاجة إلى جيش قوي مجهز، لذا فقد كان الناصر حريصاً على جمع الأموال، وقد دفعه ذلك إلى مضاعفة بعض الضرائب وزيادة نسبة الخراج على بعض المناطق كما حدث في قرية بعقوبا والتي كانت تدفع عشرة آلاف دينار في السنة، فجعله ثمانين ألفاً(113). ولكن هذا الإجراء لم يكن السمة العامة لعهده. فالباحث يلاحظ محاولات الناصر لتخفيف من عبء الضرائب ولهذا " استبشر الباعة وعامة الناس خيرا " فكثر الدعاء لأمير المؤمنين " (114).

إن الضائقة المالية ما لبثت أن خفت حيث كثرت الخيرات والزروع، ورخصت الأسعار، فكانت أيامه على حد قول ابن جبير الذي زار بغداد عام (581هـ/1186م) فقال في وصف أيام الناصر: "يحب الظهور للعامة، ويؤثر التحبب لهم، وهو ميمون النقيبة عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داع له(115).

ويضيف ابن جبير — شاهد العيان — كثرت المزارع وغابات النخيل، وما لفت انتباهه من توفر الأمن في العراق، فيقول مثلاً عن الطريق بين الحلة وبغداد "والطريق من الحلة إلى بغداد

(108) المنذري، ج3، ص 161. وانظر: الصفدي، الوافي، ج6، ص 316.
(109) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص 93.
(110) ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج17، ص 159.
(111) Rashad, The Abbasid Caliphate, P 125.
(112) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 453.
(113) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 453، الصفدي، نكت الهميان، ص 238.
(114) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص227.
(115) ابن جبير، الرحلة، ص182.

أحسن طريق، في بسائط من الأرض وعمائر، تتصل بها القرى يميناً وشمالاً، ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها. فحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه، فللعين في هذا الطريق مسرح انشراح، والأمن فيها متصل "[116]. والغساني الذي نقل اتهام الخليفة الناصر عن ابن الأثير، نجده يشيد بسياسة الخليفة وعدله، ففي أحداث سنة 604هـ يقول: "أطلق الخليفة جميع حق البيع، وما يؤخذ من المكوس في المبيعات وكان مبلغاً كبيراً"[117].

كما أن مصادرنا التاريخية والتي حفلت بالروايات التي تتحدث عن المصادرات التي كانت تؤخذ من كبار رجال الدولة والأعيان والتجار، لم تشر إلى أي حالة مصادرة في عهد الخليفة الناصر، بل على العكس من ذلك فإنه لما عزل الوزير نصير الدين بن ناصر العلوي، عثر لديه على ما يزيد على خمسمائة ألف دينار، سأل أن يؤخذ منه جميعها ويفرج عنه، أجابه الخليفة: "إننا ما أنعمنا عليك بشيءٍ فنوينا استعادته منك، ولو كان ملء الأرض ذهباً، ونفسك في أمان الله "[118].

من كل هذا نلاحظ أن أحوال الناس المعيشية لم تكن متدهورة كما صورتها رواية ابن الأثير، ويظهر ذلك من استعراض أسعار بعض السلع الأساسية في عهده وفي عهود من جاءوا بعده التي تظهر حقيقة جلية، بأن الناس في معظم سني حكمه قد عاشوا في بحبوحة من العيش ورخص الأسعار.

السنة	المادة الغذائية	السعر	ملاحظات المصدر
596هـ	كُرّ[119] الحنطة	15 ديناراً	رخص[120]
596هـ	كُرّ الشعير	6 دنانير	رخص[121]
605هـ	كُرّ الحنطة	10دنانير	رخص[122]
605هـ	كُرّ الشعير	3 دنانير	رخص شديد[123]

وقارن هذا بالأسعار في عهود لاحقة:

السنة	المادة الغذائية	السعر	ملاحظات المصدر
630هـ	كُرّ الحنطة	83 ديناراً	غلاء شديد[124]
630هـ	كُرّ الحنطة	90 ديناراً	غلاء شديد[125]
646هـ	كُرّ الحنطة	100 ديناراً	غلاء شديد[126]
646هـ	كُرّ السمسم	38 ديناراً	غلاء[127]

وفي ختام الحديث عن تفاصيل التهم التي وجهها ابن الأثير للخليفة الناصر لدين الله لا بد من أن يطرح سؤال، ما هو السبب في اتخاذ ابن الأثير هذا الموقف السلبي من الخليفة الناصر ؟

(116) ابن جبير، الرحلة، ص170.
(117) الغساني، العسجد، ص 322.
(118) الغساني، العسجد، ص 322.
(119) الكُرّ: مكيال، بابلي الأصل، يعادل 2700 كغم. فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970، ص 69.
(120) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 18.
(121) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 18.
(122) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 269.
(123) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص 269.
(124) الذهبي، تاريخ الإسلام، ط64، ص 235.
(125) الغساني، العسجد المسبوك، ص 426.
(126) مجهول، الحوادث، ص 226.
(127) مجهول، الحوادث، ص 426.

يجيب الدكتور فاروق عمر عن سبب تحامل ابن الأثير على الخليفة الناصر بأنه عائد لميوله تجاه أتابكية الموصل - بقايا الزنكيين - بصفة خاصة، وذلك بحكم نشأته في الموصل موطن الزنكيين، الذين كان يتحيز لهم، وإحجامه عن ذكر فضائل غيرهم، فهو يغمز ويلمز حين يذكر الخليفة الناصر وصلاح الدين الأيوبي [(128)].

ويؤكد الغامدي [(129)] في تعليله سبب تحامل ابن الأثير على صلاح الدين الأيوبي في كتابه الكامل ميله الواضح إلى البيت الزنكي، فكثيراً ما صب اللوم على صلاح الدين الذي اشتهر بتسامحه في معاملة الصليبيين. ويرى ابن الأثير أنه كان من الأفضل أن لا يفعل صلاح الدين ذلك، وأن ذلك التسامح كان السبب الأكبر الذي سبب المتاعب للمسلمين بعد ذلك في صراعهم مع الصليبيين. ويظهر ذلك فيما ذكره عند حديثه عن حصار صلاح الدين لمدينة صور سنة 583 هـ [(130)]، وكذلك عند حديثه عن حصار عكا سنة 585 هـ [(131)].

الخلاصة:

وصلت الخلافة إلى الناصر لدين الله وهي تعاني الأخطار على المستويين الخارجي والداخلي. فعيون السلاجقة ترنو إلى بغداد على أمل العودة إليها، لتكون مقراً لحكمهم، كما كانت في عهد أجدادهم، ثم محاولات الخوارزمية تحقيق الغاية عينها. أما على الصعيد الداخلي فكان المجتمع يعاني تناقضات كثيرة، أهمها الصراع المذهبي بين السنة والشيعة، وما جره ذلك من ويلات الاقتتال والفتن، بحيث صار الاقتتال عنواناً وطقساً لشوارع بغداد.

أمام هذا الواقع، كانت الخلافة بحاجة إلى شخص يستطيع لمّ شعث المجتمع وتوحيده في جبهة متماسكة قادرة على مواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بالخلافة. فأعاد توحيد منظمات الفتوة في منظمة واحدة متماسكة تحت إشرافه ؛ ذابت فيها التيارات الدينية والسياسية، بحيث يعترفون بالناصر خليفةً لجميع المسلمين. ولأجل الغاية نفسها قرب العلماء وكبار رجال الصوفية لما لهؤلاء من تأثير على العامة.

أما سياسته المالية فقد اهتم بجمع الأموال لما لها من تأثير واضح في إعادة البناء والإعمار وتقوية الجيش. ورغم ذلك فإن عصره كان عصر رخاء، والدليل على ذلك انخفاض الأسعار في عهده إذا ما قورنت في عهود من قبله أو من جاء بعده.

ومراسلته للمغول ما هي إلا محض افتراء، لا تنسجم مع سياسته القائمة على النهوض بالخلافة فكيف لخليفة يريد ذلك أن يستدعي الأعداء (المغول) لغزو بلاده.

---

(128) عمر، النهوض العربي، ص 186.

(129) الغامدي، عبدالله، صلاح الدين والصليبيين، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، 1405 هـ، ص 17.

(130) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 160.

(131) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص ص 188 -189.

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، 87 – 116 (2005م)

تطبيق أحكام الذميين على اليهود في الأندلس بين الالتزام والتفريط

د. خالد يونس الخالدي

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على مدى التزام حكام المسلمين في الأندلس بتطبيق الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة في تعاملهم مع يهود الأندلس، وإلى معرفة نتائج الالتزام أو التفريط بهذه الأحكام على كل من اليهود والمسلمين. وقد توصل الباحث إلى أن أفضل حقبة عاشها اليهود في الأندلس كانت خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإسلامي لها، وهي التي شهدت التزاماً أكبر بهذه الأحكام، وأن أسوأ حقبة عاشوها في الأندلس كانت في عهد الطوائف، حيث شهدت تفريطاً أكبر بالمنهج الإسلامي في التعامل مع اليهود، وتبين للباحث أن عدم تطبيق هذا المنهج في بعض الأحيان جعل اليهود يتطاولون على المسلمين في الأندلس ويذلونهم، وأدى إلى ردود فعل عنيفة من قبل المسلمين ضد اليهود، وأن الالتزام بذلك المنهج حقق السعادة والحياة الطيبة لكل من المسلمين واليهود، وأن البعد عنه سبب لهم التعاسة والشقاء.

المقدمة:

قامت الأحكام والقوانين الخاصة بيهود الذمة في الأندلس على أساس الشريعة الإسلامية، لكن تطبيق حكام الأندلس لهذه القوانين اختلف من عصر إلى آخر، وتراوح بين الالتزام والتفريط.

وأثرت درجة الالتزام بأحكام أهل الذمة التي بيّنتها الشريعة الإسلامية تأثيراً كبيراً في حياة المسلمين واليهود في الأندلس، وفي مقدار سعادتهم أو شقائهم، وفي نوع وطبيعة العلاقة بينهم.

وكان أفضل تطبيق والتزام بتلك الأحكام هو ما شهدته دولة الإسلام الأولى في عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين من بعده. ولذلك فإن السياسة التي وضعها الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون للتعامل مع أهل الذمة، وكذلك تطبيقاتهم العملية لتلك السياسة تمثل المنهاج الحقيقي الذي أراده الإسلام في التعامل مع اليهود وغيرهم من الذميين، وتعد المقياس الأمثل لدرجة الالتزام أو التفريط في تطبيق هذه الأحكام في أي عصر من العصور.

وتأتي أهمية هذه الدراسة كونها:

- تبين مدى التزام الحكام المسلمين أو تفريطهم في المنهج الإسلامي في التعامل مع اليهود في الأندلس في مختلف العهود.
- تظهر أثر الالتزام أو التفريط في تطبيق أحكام أهل الذمة على حياة المسلمين وغير المسلمين الذين يعيشون تحت حكمهم، وفي ذمتهم.
- تقدم تفسيراً علمياً مستنداً على أدلة شرعية وتاريخية لأسباب الحياة الهانئة التي عاشها اليهود قروناً عديدة تحت حكم المسلمين في الأندلس، وأسباب الشقاء والتردي في علاقتهم بالمسلمين في بعض الأحيان.
- تسهم في رسم السياسة السليمة القائمة على التجارب التاريخية الواجب اتباعها في التعامل مع اليهود، عندما يتحقق وعد الله، ويعودون من جديد أهل ذمة في ظل الحكم الإسلامي.

وقد بدأت الدراسة ببيان حقوق الذميين وواجباتهم في الشريعة الإسلامية، ثم بشرحٍ عن أوضاع اليهود في الأندلس عندما التزم حكامها بتطبيق أحكام الذميين عليهم، وأوضاعهم عندما حدث تفريط في تطبيق تلك الأحكام، وكيف انعكس ذلك على أوضاع المسلمين وعلاقتهم باليهود.

ثم تناولت موقف فقهاء الأندلس من انحراف بعض الحكام عن المنهج الإسلامي في التعامل مع يهود الذمة، وبينت المنهج الإسلامي الصحيح في التعامل مع اليهود وغيرهم من الذميين، وردت على انتقاد بعض المؤرخين المعاصرين لموقف فقهاء الأندلس من اليهود.

ثم انتهت بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث وقائمة بالمصادر التي أفاد منها.

وقد اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

منحت الشريعة الإسلامية اليهود وغيرهم من الذميين حقوقاً وفرضت عليهم واجبات إذا ما رغبوا بالعيش تحت حكم المسلمين. وأهم حقوقهم هي:

1 - حق الحماية:

أعطى الإسلام اليهود حق الحماية من كل عدوان خارجي، ومن كل ظلم داخلي، وكذلك حق حماية دمائهم وأبدانهم وأموالهم وأعراضهم.

فأما الحماية من الاعتداء الخارجي، فيوضحها الفقيه الأندلسي ابن حزم بقوله: "إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة".[1] ويؤكد ذلك الفقية

(1) القرافي، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن، الفروق، جـ3، مطبعة دار إحياء = الكتب العربية، ط1، 1346هـ، الفرق التاسع عشر والمائة، ص 14.

المالكي شهاب الدين القرافي في تعليقه على قول ابن حزم بقوله: " فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم ".(2) وقد التزم المسلمون بهذا المبدأ في جميع أقطارهم، ومن الأمثلة على ذلك أن ابن تيمية توجه إلى قائد التتار عندما تغلبوا على الشام، ليكلمه في إطلاق الأسرى، فوافق القائد التتري على إطلاق الأسرى المسلمين، فقال ابن تيمية: لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً، لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له. (3)

أما حق الحماية من الظلم الداخلي فيبينه قول الرسول ﷺ : "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة"(4)، وقوله: "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"(5). وتؤكده ممارسات الخلفاء الراشدين، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان دائم السؤال عن أحوال أهل الذمة، ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أنه قال لوفد البصرة: " لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى، فقالوا، ما نعلم إلا وفاء... " (6)

ودأب الفقهاء في مختلف العصور على التذكير بعدم التعرض لأهل الذمة بأي ظلم، ومن ذلك ما كتبه أبو يوسف إلى هارون الرشيد يوصيه برعايتهم وتفقد أحوالهم حتى " لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم " (7)، وكتب الإمام الأوزاعي إلى الوالي العباسي صالح بن علي بن عبدالله بن عباس ينكر عليه قيامه بإجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ويقول: " فإنهم ليسوا بعبيد فتكون من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة" (8)، وقد عمل بمذهب الأوزاعي في الأندلس بعد الفتح الإسلامي وحتى عهد الأمير هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام (172-180هـ = 788-796م). (9)

وأما حماية دمائهم وأبدانهم فقد كفلها الإسلام، إذ قال الرسول ﷺ: "من قتل معاهداً

---

(2) م.ن، جـ3، ص ص 14 -15.

(3) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 10.

(4) أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، ج3، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ص 170.

(5) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الجامع الصغير من حديث البشير النذير، جـ2، ط4، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1373هـ، ص 473.

(6) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، جـ4، دار الفكر للطباعة والنشر، 1399هـ/1979م، ص 128.

(7) أبو يوسف، يعقوب بن محمد، الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية، ط4، 1392هـ/1972م، ص ص 124 -125؛ البلاذري، أبو بكر علي بن أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود البغدادي، فتوح البلدان، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1958م، ص 222.

(8) الباجي، سليمان بن خلف الأندلسي، فصول الأحكام، تحقيق: محمد أبو الأجفان، ط1، الدار العربية للكتاب، 1985م، ص 96.

(9) لمزيد من التفاصيل حول مذهب الأوزاعي في الأندلس، ينظر: الكبيسي، خليل إبراهيم، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، 1980م، ص ص 20 -26.

لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً" (10).

وروي أن علياً أتي برجلٍ من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة، فقامت عليه البينة، فأمر بقتله، فجاء أخوه فقال: إني قد عفوت، قال: فلعلهم هددوك وفرقوك، قال لا، ولكن قتله لا يردّ عليَّ أخي، وعوضوا لي، ورضيت، قال: أنت أعلم من كانت له ذمتنا، فدمه كدمنا، وديته كديتنا.(11) وصح عن عمر بن عبدالعزيز، أنه كتب إلى بعض أمرائه في مسلم قتل ذمياً، فأمره أن يدفعه إلى وليه، فإن شاء قتله وإن شاء عفا عنه، فدفع إليه فضرب عنقه.(12) وقال الفقيه المالكي ابن فرحون: " ولا يُراعى في القتل بالحرابة تكافؤ الدماء، فيقتل المسلم بالذمي، والحر بالعبد، لأنه ليس بقتل قصاص، وإنما هو حق الله تعالى "(13). ونهى الإسلام عن تعذيب أهل الذمة أو حبسهم وضربهم، فقال الرسول ﷺ "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا"(14). وجيء إلى عمر بن الخطاب بمالٍ كثيرٍ من الجزية فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا، والله ما أخذنا إلا عفواً صفواً، قال: بلا سوطٍ ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني.(15)

أما أموالهم فقد أوجب الإسلام حمايتها، إذ جاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: "ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير" (16). " فمن سرق مال ذمي قطعت يده، ومن غصبه عزر، وأعيد المال إلى صاحبه، ومن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه، فإن مطله وهو غني حبسه الحاكم حتى يؤدي ما عليه" (17).

أما حماية أعراضهم فيبينها القرافي بقوله " إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، ودين الإسلام فمن اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام"(18). وذكر الماورؤي، أن من وجائب المحتسب أن يمنع المسلمين من التعرض لهم بسب أو أذى، ويؤدب

---

(10) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح أبي عبدالله البخاري بشرح الكرماني، ج13، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ص 132.
(11) البيهقي، أحمد بن الحسين، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1414هـ/1999م، ج8، ص 34.
(12) الصنعاني، عبدالرزاق بن همام ، مصنف عبدالرزاق، ج5، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403هـ، ص ص 101 -102.
(13) ابن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم، ج2، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج = الأحكام، طبع بالمطبعة البهية بمصر، 1302هـ، ص 200.
(14) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ج4، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص 2018.
(15) الجوزية، ابن قيم ، أحكام أهل الذمة، ق1، ص 35.
(16) أبو يوسف، الخراج، ص 72.
(17) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 15.
(18) القرافي، الفروق، ج3، ص 14، الفرق التاسع عشر والمائة.

من يفعل هذا بهم،[19] وعد بعض الفقهاء أن غيبة الذمي محرمة كغيبة المسلم[20].

2 - الحرية الشخصية:

يعطي القانون الإسلامي أهل الذمة يهوداً ونصارى وغيرهم، الحرية الشخصية في مجالات كثيرة، فلهم أن يتجولوا في البلد الذي يقيمون فيه[21]، ولهم أن يخرجوا منه إلى أي بلد إسلامي متى أرادوا[22]، إذ إن جميع البلدان المحكومة للمسلمين، تعد دار إسلام[23]، ومن حق الذمي الذي يعيش في دار الإسلام أن يتنقل بين بلدانها، وسوف تحترم ذمته، باعتباره من أهل دار الإسلام، أو من حملة الجنسية الإسلامية حسب التعبير المعاصر[24]. ولهم أن يسكنوا في أحياء المسلمين، أو في أحياء خاصة بهم[25]، وجعل لمساكنهم حرمة كحرمة مساكن المسلمين، فلا يجوز لأحد أن يعتدي عليها أو يدخلها بدون إذنهم.[26] ولهم حق التملك ومباشرة جميع التصرفات القانونية لكسب الأموال سواء أكانت منقولة أم غير منقولة، وسواء باشروا هذه التصرفات مع المسلمين أم الذميين.[27] ولهم الحق في الزواج وإنشاء أسرة، والتمتع بجميع حقوق الأسرة من نفقة وارث وغير ذلك"[28]. ولهم حرية الاجتماع وإبداء الرأي فيما يخص شؤونهم وفيما لا علاقة له بالأمور الإسلامية في حدود القانون الإسلامي والنظام العام للدولة الإسلامية. فلا يجوز لهم مثلاً الطعن في العقيدة الإسلامية بحجة حرية الرأي.[29] ولهم حرية التعليم، فمن حقهم أن يعلموا أولادهم وفق ديانتهم وأن ينشئوا مدارس خاصة بهم[30]، ومما يدل على ذلك أن المسلمين بعد فتح خيبر وانتصارهم على اليهود جمعوا الغنائم، وكان فيها نسخ من التوارة فأمر النبي ﷺ بردها إلى اليهود.[31]

---

(19) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بغداد، 1409هـ/1989م، ص 385.

(20) ينظر: القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 16.

(21) زيدان، أحكام الذميين، ص 91.

(22) م. ن. ص 93.

(23) ينظر: م. ن، ص ص 18 -19.

(24) ينظر: م. ن، ص 65؛ القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 7.

(25) هناك إشارات كثيرة على أنهم سكنوا في أحياء المسلمين، وللاطلاع على ذلك، ينظر: الونشريسي، المعيار المعرب، جـ5، ص 208؛ ج8، ص ص 433 -434، 437؛ ابن عاصم الغرناطي، أبي يحيى محمد، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق: صلاح جرار، دار البشير، عمان، 1410هـ/1989م، ص ص 243 -244؛ ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح =

= الأندلس، تحقيق: إبراهيم الابياري، ط1، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1402هـ/1982م، ص ص 70 -72.

(26) ابن بلقين، الأمير عبدالله بن باديس، التبيان، حققه ونشره إ. ليفي بروفنسال، تحت عنوان: مذكرات الأمير عبدالله آخر أمراء بني زيري بغرناطة، القاهرة، دار المعارف، 1955م، ص 130.

(27) زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ص 131.

(28) زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ص 131.

(29) م. ن، ص 101.

(30) م. ن، ص 101.

(31) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1941م، ص 323.

3 - حرية العقيدة:

وقد حصلوا على هذا الحق بناءً على قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [32] وقوله سبحانه ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [33]، وقد التزم المسلمون بهذا المبدأ، وبغيره من المبادئ السالفة، في عقود الذمة التي أبرموها مع اليهود والنصارى في المدن المفتوحة، يستدل على ذلك من خلال الوثيقة المبرمة بين القائد عبدالعزيز بن موسى ابن نصير وتدمير، عند فتح مدينة تدمير، إذ جاء فيها: "هذا كتاب من عبدالعزيز بن موسى لتدمير بن عندريس إذ نزل على الصلح، أن لهم عهد الله وميثاقه، وما بعث به أنبياءه ورسله، أن له ذمة الله عز وجل، وذمة محمد ﷺ، ألا يقدم له وألا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء، وأن لا يسبون، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم، ولا يكرهون على دينهم" [34]، وبالرغم من أنه لم تصل إلينا وثائق مبرمة بين المسلمين واليهود في الأندلس، إلا أنه من المؤكد أن عدداً منها قد أبرم، وأنها احتوت على الحقوق نفسها، لأن أحكام اليهود والنصارى واحدة في القانون الإسلامي.[35]

4 - حرية العمل والكسب:

يحق لليهود مزاولة ما يختارون من المهن، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين، ولكن يمنعون من التعامل بالربا، ومن بيع الخمر والخنزير في أمصار المسلمين[36]، لقول الرسول ﷺ إلى مجوس هجر: " إما أن تذروا الربا، أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله "[37]، وقد لاحظ ذلك آدم ميتز، فقال: "ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع، وأطباء. "[38]

5 - حق التأمين عند العجز والشيخوخة والفقر:

ويؤكد هذا الحق لهم ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مر بباب قوم وعليه سائل يهودي يقول: شيخ كبير ضرير البصر، فقال له عمر: ما ألجأك إلى هذا؟ قال: الحاجة والجزية، فأخذ عمر بيده، وذهب إلى منزله، وأعطاه شيئاً ثم أرسل إلى خازن بيت المال، وقال

---

(32) سورة البقرة، آية 256.

(33) سورة يونس، آية 99.

(34) العذري، أحمد بن عمر بن أنس، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبدالعزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1965م، ص 524.

(35) مالك بن أنس، الإمام، المدونة الكبرى، م5، ج12، مطبعة السعادة، مصر، 1323هـ، ص 135.

(36) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ص 21 -22.

(37) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، جـ1، طبعة الأوقاف الإسلامية في دار الخلافة العلية بالآستانة، 1335هـ، ص ص 461 -462.

(38) ميتز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ1، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريده، ط4، ص 86.

له: انظر هذا وأمثاله: فو الله ما أنصفناه، إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم، وقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وقال: والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.(39) وما روي عنه أيضاً أنه لما قدم الجابية من أرض دمشق، مر في طريقه بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن يجرى عليهم القوت(40). وكذلك ما جاء في عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق، ووافق عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه "وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين"(41). وما جاء في كتاب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى عدي بن أرطأة واليه على البصرة: "ثم انظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق".(42)

أما الواجبات التي فرضتها الشريعة عليهم، وعدّت من يفرط فيها ناقضاً لعهده ومسقطاً لحقوقه، فهي:(43)

1 - أداء الجزية والخراج والضريبة التجارية:

أما الجزية فهي ضريبة سنوية على الرؤوس، تتمثل في مقدار زهيد من المال، يفرض على الرجال البالغين القادرين على حسب ثرواتهم، أما الفقراء "فمعفون منها تماما".(44) وليس للجزية حد معين، وإنما ترجع إلى تقدير الإمام الذي عليه أن يراعي طاقات الدافعين ولا يرهقهم، كما عليه أن يراعي المصلحة العامة للأمة(45) وقد شرعت الجزية في السنة التاسعة للهجرة،(46) عندما نزل

(39) أبو يوسف، الخراج، ص 144.

(40) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق: د. محمد حيدر الله، دار المعارف، القاهرة، 1959م، ص 177.

(41) أبو يوسف، الخراج، ص 144.

(42) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق1، ص 38.

(43) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 230؛ أبو يعلى الفراء، محمد بن حسين، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ص 158 - 162؛ ابن سلام، أبو عبيد القاسم، كتاب الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر، القاهرة، 1395هـ/1975م، ص ص 235 - 236؛ ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، المعارف، بغداد، 1968م، ص 208.

(44) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 225، 228؛ ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة، ص 208؛ ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق1، ص ص 49 - 50؛ أبو علي الفراء، الأحكام السلطانية، ص ص 153 - 160؛ زيدان، أحكام الذميين، ص 138؛ القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 31.

(45) لمزيد من التفاصيل، ينظر: الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ص ص 49 - 55؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص 153، 155؛ أبو عبيد، الأموال، ص 51.

(46) الجصاص، أحكام القرآن، جـ1، ص 142؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ3، ص 347؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 225.

قول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (47). وثبت أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس البحرين،(48) وأن عمر بن الخطاب أخذها من أهل الذمة في الشام ومصر والعراق(49).

أما الخراج فهو ضريبة مالية تفرض على رقبة الأرض الباقية في أيدي أهل الذمة ويرجع تقديره إلى الإمام أيضاً فله أن يقاسمهم بنسبة معينة مما يخرج من الأرض، كالثلث أو الربع مثلاً، أو أن يفرض عليهم مقداراً محدداً مكيلاً أو موزوناً، بحسب ما تطيقه الأرض، كما صنع عمر في سواد العراق، وقد يُقوّم ذلك بالنقود.(50) والفرق بين الجزية والخراج أن الجزية تسقط بالإسلام، والخراج لا يسقط به، فالذمي إذا أسلم لا يعفيه إسلامه من أداء الخراج، بل يظل عليه أيضاً، ويزيد على الذمي الباقي على ديانته الأصلية أنه يدفع عن غلة الأرض الزكاة وهي العشر أو نصف العشر حسب طبيعة سقيها، إضافة إلى دفع الخراج من رقبتها(51).

أما الضريبة التجارية فقد فرضها عمر بن الخطاب على أهل الذمة بمقدار نصف العشر، في المال الذي يتجرون فيه مرة في السنة، إذا انتقلوا من بلد إلى آخر،(52) إذ روي أن عمر كان يأخذ من تجار المسلمين ربع العشر، ومن تجار أهل الذمة مثلي ما يأخذ من تجار المسلمين، أي نصف العشر، ومن تجار أهل الحرب العشر.(53)

2 - التزام أحكام القانون الإسلامي:

يوجب عقد الذمة على اليهود الذين يعيشون في الدولة الإسلامية، أن يلتزموا أحكام الإسلام في الأمور المدنية، كالمعاملات والعقوبات، لأنهم صاروا بموجب هذا العقد، من أهل دار الإسلام أو من حملة الجنسية الإسلامية، وتجري عليهم القوانين نفسها التي تطبق على المسلمين، فكل ما جاز من بيوع المسلمين وعقودهم، جاز من بيوع اليهود وعقودهم، وما يفسد منها عند المسلمين يفسد عندهم، إلا الخمر فقد استثناه عنهم كثير

(47) سورة التوبة، آية 29.

(48) الجصاص، أحكام القرآن، ج3، ص ص 92 -93.

(49) أبو عبيد، الأموال، ص ص 49 -50.

(50) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 32؛ زيدان، أحكام الذميين، ص ص 158 - 163. ولمزيد من التفاصيل ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية؛ أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص ص 231 -238.

(51) مالك بن أنس، المدونة، م1، ج2، ص ص 283 - 284؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 225؛ =

= القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 32. لمزيد من التفاصيل عن الخراج، ينظر: الكبيسي، حمدان عبدالمجيد، الخراج أحكامه ومقاديره، بغداد، 1991م، ص ص 71 -246.

(52) الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ق1، ص 149، ص ص 160 -161؛ القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 36؛ زيدان، أحكام الذميين، ص ص 176 -177.

(53) أبو عبيد، الأموال، ص 640.

من الفقهاء، لاعتقاد اليهود والنصارى بعدم حرمته[54].

وكل من يرتكب جريمة من اليهود تطبق عليه الأحكام نفسها التي تطبق على المسلم لو ارتكب تلك الجريمة مع مسلم، فالقاتل اليهودي يقتل سواء كان المقتول مسلماً أم ذمياً، والسارق تقطع يده سواء كان المسروق منه مسلماً أم ذمياً، والزاني يحد سواء كان الزنا مع مسلمة أم ذمية، وهكذا في بقية الجرائم، باستثناء شرب الخمر فلا حد عليهم[55]، لأنهم كما أسلفنا لا يعتقدون حرمته.

أما أحكام الإسلام الخاصة بالتكاليف التعبدية، أو التي لها صيغة تعبدية كالزكاة والجهاد فإنهم معفون منها، وكذلك يعفون من التزام أحكام الإسلام في قضايا الأحوال الشخصية، فلهم أن يتزوجوا أو يطلقوا حسب تعاليم دينهم، ولهم أن يمارسوا ما يعتقدون حله في هذه القضايا كزواج اليهودي من ابنة أخيه اليهودية عند بعض الطوائف اليهودية.[56]

3 - كف ألسنتهم وأيديهم عن كل ما يؤذي المسلمين:

توجب الشريعة الإسلامية على اليهود الذين يعيشون في دولة الإسلام أن يكفوا ألسنتهم وأيديهم عن كل ما يمكن أن يسبب أذى للمسلمين، وصدرت فتاوى كثيرة عن فقهاء المسلمين حول ذلك، ومن تلك الفتاوى قول الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية: "ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحق ومستحب. أما المستحق فستة شروطٍ أحدها: أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

والثاني: أن لا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

والثالث: أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه.

والرابع: أن لا يصيبوا مسلمة بزناً، ولا باسم نكاح.

والخامس: أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يتعرضوا لماله ولا دينه.

والسادس: أن لا يعينوا أهل الحرب، ولا يودوا أغنياءهم.

فهذه الستة حقوق مُلْتَزَمَةٌ فتلزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم، ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم.

وأما المستحب فستة أشياء أحدها تغيير هيئاتهم بلبس الغيار، وشد الزنار.

---

(54) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ص 39 - 40.

(55) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ص 39 - 40. ينظر: أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص 161؛ زيدان، أحكام الذميين، =

= ص ص 248 - 250، 307 -309، 327.

(56) ابن فرحون، تبصرة الحكام، ج2، ص 219؛ القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 19.

والثاني: أن لا يعلو على المسلمين في الأبنية ويكون إن لم يُنْقِضَوا مساويين لهم.

والثالث: أن لا يُسمِعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزير والمسيح.

والرابع: أن لا يُجاهروهم بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

والخامس: أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.

والسادس: أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقاً وهجاناً، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير، وهذه الستة المستحبة، لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم، لكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون عليها زجراً، ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم".(57)

ويقول أبو يعلى الحنبلي:" ويلزم الذمي ترك ما فيه ضرر على المسلمين وآحادهم: في مال، أو نفس، وهي ثمانية أشياء: الاجتماع على قتال المسلمين. وأن لا يزني بمسلمة، ولا يصيبها باسم نكاح ولا يفتن مسلماً عن دينه، ولا يقطع عليه الطريق، ولا يؤوي للمشركين عيناً، أو جاسوساً، ولا يعاون على المسلمين بدلالة، أعني لا يكاتب المشركين بأخبار المسلمين، ولا يقتل مسلماً ولا مسلمة. وكذلك يلزم ترك ما فيه غضاضة ونقض على الإسلام، وهي ثلاثة أشياء، ذكر الله تعالى، وكتابه ودينه، ورسوله، بما لا ينبغي، فهذه الأشياء يلزمهم تركها، سواء شرط ذلك الإمام عليهم أو لم يشرط".(58) وهناك العديد من الروايات والفتاوى التي تبين متى يعد اليهودي ناقضاً لعهده، وحكم من ينقض عهده من اليهود. فقد ذكر أبو عبيد في كتابه الأموال رواية تبين أن يهودياً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قدم إلى الشام، فقال: يا أمير المؤمنين إن رجلاً من المسلمين صنع لي ما ترى وكان مشجوجاً مضروباً، فغضب عمر غضباً شديداً، وأمر بإحضار من ضربه، فجيء إليه بعوف بن مالك، فقال له عمر: مالك ولهذا؟ قال: يا أمير المؤمنين. رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار، فنخس بها لتصرع فلم تصرع، فدفعها فصرعت فغشيها، وأكب عليها. فقال: ائتني بالمرأة فلتصدق ما قلت، وعندما تأكد من صدقه أمر باليهودي فصلب، وقال: ما على هذا صالحناكم، ثم قال: يا أيهاالناس، اتقوا الله في ذمة محمد ﷺ، فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له، وقد علق الراوي على الرواية بقوله: فذلك اليهودي أول مصلوب رأيته صلب في الإسلام.(59) وذكر أبو عبيد أيضاً " أن رجلاً كانت له أم ولد، وكانت تكثر الوقوع في رسول الله ﷺ والشتم له فينهاها فلا تنتهي، فقتلها، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فأهدر دمها".(60)

وروي عن ابن عمر أنه قال: في راهب سب

(57) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 229.
(58) الفراء، أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص 158.
(59) أبو عبيد، الأموال، ص ص 235 -236.
(60) م. ن، ص 233.

النبي ﷺ، لو سمعته لقتلته[61]، وأفتى الإمام مالك بقتل من يشتم الرسول ﷺ من أهل الذمة إلا أن يسلم[62]، وحتى المسلم الذي يشتم رسول الله ﷺ، عقابه القتل، فقد سئل ابن رشد عن رجلٍ شهد عليه أنه شتم النبي ﷺ بشتم قبيح وهو سكران. فقال: "إذا ثبت على هذا الملعون بشهادة شاهدين عدلين أنه سب النبي ﷺ وأذاه بكلمة واحدة فما فوقها، فالانتقام منه لله تعالى ولرسوله ﷺ بالقتل من غير استتابة واجب". [63] وذكر الماوردي أنه: " إذا تظاهر أهل العهد والذمة بقتال المسلمين كانوا حرباً لذمتهم، فيقتل مقاتلهم، ويعتبر حال ما عدا المقاتلة بالرضى والإنكار. وإذا امتنع أهل الذمة من أداء الجزية كان نقضاً لعهدهم"[64]. وذكر أبو يعلى عن بعض أهل العلم أن الذمي إذا منع الجزية ضربت عنقه، وإذا زنا بمسلمة قتل، وذلك لأنه عقد الذمة على أن يكف عنا ونكف عنه، فإذا نقض العهد عاد بمعناه الأول، فكأنه وجد لص حربي في دار الإسلام[65]. وقال ابن بسام المحتسب: "فإن امتنع الذمي من لزوم الأحكام أو قاتل المسلمين، أو زنا بمسلمة، أو آوى المشركين، أو دلهم على عورات المسلمين، أو قتل مسلماً، انتقضت ذمته، وقتل في الحال، وغنم ماله في أصح القولين، لأن أهل الذمة قد اشترط عليهم الكف عن جميع ذلك". [66]

وقال ابن القاسم: "ثمانية تنقض عهد الذميين هي، أن يجمعوا على قتال المسلمين، أو يزني أحدهم بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح، أو يفتن مسلماً عن دينه، أو يقطع على المسلم الطريق، أو يؤوي للمشركين جاسوساً، أو يعين على المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين، أو يقتل مسلماً أو مسلمة عمداً". [67]

ويلاحظ الباحث في تاريخ اليهود في الأندلس أن أفضل العصور التي عاشوها هناك، هي العصور التي غلب عليها الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، وأن أسوأها عليهم وعلى المسلمين أيضاً، هي تلك التي كثر فيها الانحراف عن هذه الأحكام. فعلى مدى القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإسلامي للأندلس، والتي شهدت أفضل تطبيق لأحكام الشريعة في تلك البلاد،[68] ساد

---

(61) ابن سلمون الكناني، أبو محمد عبدالله بن علي، العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام، طبع في هامش كتاب، ابن فرحون، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ج2، المطبعة البهية، مصر، 1302هـ، ص 277.

(62) م. ن، ج2، ص 277

(63) م. ن، ج2، ص 276، "بتصرف"

(64) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 230. ينظر: أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، ص 161.

(65) الفراء، أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص 161.

(66) ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة، ص 208.

(67) الشعراني، كتاب الميزان، ج2، ص 162.

(68) مما يدل على التزام مسلمي الأندلس حكاماً ومحكومين بأحكام الشريعة الإسلامية، السلطة التي تمتع بها الفقهاء في تلك الحقبة، فقد كانوا جريئين حتى على الحكام، ولم يسمحوا لهم بالمخالفات الشرعية. ينظر: ابن حيان، أبو مروان، حيان بن خلف، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي مكي، بيروت، 1973م، ص 67؛ الخشني، محمد بن الحارث بن أسد، قضاة قرطبة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط2، 1989م، ص 159. لمزيد من التفاصيل حول سلطة الفقهاء في الأندلس، ينظر: الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس في عصري الإمارة والخلافة، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، 1980.

الوئام بوجه عام بين المسلمين واليهود[69]، ولم تحدث انتهاكات خطيرة من اليهود لعهودهم، ولا ردود فعل عنيفة من المسلمين ضد اليهود، كتلك التي حدثت خلال عصر الطوائف[70]، (400-484هـ/1009-1091م)، وهو العصر الذي كثر فيه الانحراف عن أحكام الشريعة، وخصوصاً من قبل العديد من حكامه[71]، الذين سمحوا لليهود بالوصول إلى مناصب مهمة في دولهم، وجعلوا منهم الوزراء والمستشارين وكبار الموظفين وجباة الضرائب، وتركوهم يفرطون في الواجبات التي فرضتها عليهم الشريعة، فتسلطوا على المسلمين وأهانوهم وسخروا من دينهم[72]، وكانت ردود الفعل من قبل المسلمين في بعض الأحيان عنيفة[73] كدرت صفو الحياة الآمنة التي عاشها اليهود قبل عصر الطوائف، ومنذ الفتح الإسلامي للأندلس، في ظل الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية. وقد عبر عدد من شعراء الأندلس عن هذا الانحراف الذي جعل اليهود يتحكمون في شؤون المسلمين في الأندلس، فقال الحسن بن الجد:

تحكمت اليهود على الفروج
وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأنذال فينا
وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال هذا
زمانك إن عزمت على الخروج[74]

وقال أبو حفص العروضي الزكرمي، وقد طولب بمكس كان يتولاه يهودي:

يا أهل دانية لقد خالفتم
حكم الشريعة والمروة فينا
مالي أراكم تأمرون بضد ما
أمرت به ترى نسخ الإله الدنيا
كنا نطالب لليهود بجزية
وأرى اليهود بجزية طلبونا
ما إن سمعنا مالكاً أفتى بذا
لا لا ولا من بعده سحنونا

---

(69) الشواهد الدالة على ذلك الوئام كثيرة، و يمكن الاطلاع على بعضها عند الونشريسي، المعيار، ج10، ص ص 128 -130؛ عبدالواحد المراكشي: عبدالواحد بن علي محيي الدين، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تعليق: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، 1950م، ص 14؛ عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج4، تحقيق: أحمد بكير محمود، بيروت، 1968م، ص 431؛ ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الأندلس، ط1، 1402هـ/1982م، ص ص 70 -72.

(70) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص 767؛ ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلي المغرب، ص 114 رقم 426؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 231، 275 -276؛ ج4، ص 93؛ ابن الخطيب، أعمال = الأعلام، ص ص 230 -232.

(71) الشنتريني، الذخيرة، ق4، ج1، ص ص 114 - 115؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص 272؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، تحقيق، ج.س كولان، ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص 275،231 -276.

(72) الأندلسي، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص 114، رقم 426؛ الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص 767؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 232؛ المقري، نفح الطيب، م4، ص 322؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص 272.

(73) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 231، 275 - 276؛ ج4، ص 93؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 233.

(74) ابن بسام، الذخيرة، ق2، م2، ص 562.

هــذا ولــو أن الأئـمـة كلهــم
حاشاهــم بالمكـس قد طلبونـا
ما واجب مثلي يمكس عدلـه
لـو كان يعـدل وزنــه قاعـونـا
ولقد رجونا أن ننـال بمدحكم
رفداً يكون على الزمان معينـا
فالآن نقنع بالسـلامة منكم
لا تأخذوا منا ولا تعطـونا(75)

وفي غرناطة أقدم حاكمها باديس بن حبوس على تسليم اليهودي إسماعيل بن نغريلة إدارة الدولة، وعكف هو على شرب الخمر، فكان لا يكاد يصحو من السكر، وكانت النتيجة أن هـذا اليهودي سهل لليهود استلام كثير من المناصب المهمة، وجعلهم جباة للضرائب، فتسلطوا على المسلمين، وأذلوهم، وصار المسلمون يحكمون لليهود مع أنهم يعيشون في بلد إسلامي، وتحت حكم إسلامي.(76) وتطاول اليهودي ابن نغريلة على القرآن الكريم، مستخفاً بمشاعر المسلمين، وأقسم أن ينظم جميع آياته في أشعار وموشحات يغنى بها(77)، وكان مما قاله:

نقشت في الخد سطراً
من كتاب الله موزون
لـن تنـالوا البـر حتى
تنفقوا مما تحبـون(78)

كما جادل فقهاء المسلمين، وتطاول على دينهم، إذ يقول ابن بسام الشنتريني: إن إسماعيل بن نغريلة، " ألف كتاباً في الرد على الفقيه أبي محمد بن حزم، وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام، فما دفع عن ذلك بتأنيب، ولا أستطيع تغييره عليه إلا بالقلوب"(79). وبلغت سلطة ابن نغزيلة، وسطوته حداً، جعل الطائفة اليهودية نفسها، "تتشاءم باسمه، وتتظلم من جور حكمه، على ما كان قد رضخ لهم من الحطام، ووطأ لهم من مراكب العظام، وهو مع ذلك متماد في غلوائه، غافل عن عادة الله في نظرائه، ففصب يهود أحكامها، وذلل أعلامها"(80)، وجعل الضعفاء والجبناء من المسلمين ينافقونه، ويسعون إلى نيل رضاه، "فكان يغسل يده من كثرة القبل، ويتمدح بالطعن على الملل". (81) ومن أولئك المنافقين(82) لابن نغزيلة،

---

(75) السلفي، أحمد بن محمد بن سلف صدر الدين، أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السنة للسلفي، م3، إعداد وتحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م، ص 33، 38؛ ياقوت، معجم البلدان، م3، ص ص 145 -146؛ ياقوت، معجم الأدباء، م5، ج10، ص ص 218 -219.

(76) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص ص 766 - 767، ق2، م2، ص 562؛ ابن سعيد، المغرب، ص 114، رقم 426؛ المقري، نفح الطيب، م4، ص 322؛ ابن خلدون، ج4، ص ص 160 -161.

(77) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص 767.

(78) ابن سعيد، المغرب، ص 114، رقم 426.

(79) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص 767.

(80) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص 767.

(81) م.ن، ق1، م2، ص 767.

(82) ومن هـؤلاء المنافقين لابن نغدلة أيضاً شاعر يدعى ابن الفراء الأخفش بن ميمون من حصن القبذاق من أعمال قلعة بني سعيد، تأدب في قرطبة ثم عاد إلى حضرة غرناطة، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي. وقال في مدحه:

صابح محياه تلق النجح في الأمل
وانظر بناديه حسن الشمس في الحمل

ينظر: المقري، نفح الطيب، ج3، ص 387، 388.
وقال أيضاً:

أهـوى الذي تيمني حبه   وما درى أني أهـواه
أكاد أفنى من غرام بـه   لا سيما ساعة ألقاه =

ابن خيرة القرطبي المشهور بالمنفتل، الذي مدحه في قصائد عدة منها قوله:

قرن الفضائل والفواضل
فشأى الأواخر والأوائل
سقطوا بدفعة فضله
كالشمس في شرف المناقل
هذا ابن يوسف الذي
ورث الفضائل عن فواضل
شرف الزمان بمثله
شرف الأسنة بالعوامل
من لم يلذ بجنابه
لم يأمن الدهر المخاتل(83)

وقوله في قصيدة أخرى يمدح فيها ابن نغزيلة، وذوي المناصب من اليهود في غرناطة:

بدور ولكنا أمنا سرارها
بحور ولكن لا نرى لها برا
غيوث إذا ما المحل شب ببلدة
كهوف إذا جاءت بنا أرضه كبرى
يخالون من فرط الحياء أذلة
وترتج أحشاء الملوك لهم ذعرا
ومن لم يكن للنظم والنثر محسنا
فإن نداهم علم النظم والنثرا(84)

ويعقب ابن بسام الشنتريني على هذه الأبيات بعد أن يوردها بقوله: " وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصّل، وقبحه وقبح ما أمل"(85). ويورد أيضاً أبياتاً لابن خيرة من قصيدة أخرى، ويعلق عليها قبل أن يذكرها بقوله " وله في هذه القصيدة من الغلو في القول ما نبرأ منه إلى ذي القوة والحول(86)":

وهذه الأبيات هي:

ومن يك موسى منهم ثم صنوه
فقل فيه ماشئت لن تبلغ العشرا
فكم لهم في الأرض من آية ترى
وكم لهم في الناس من نعمة تترى
أجامع شمل المجد وهو مشتت
ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى
فضلت كرام الناس شرقاً ومغرباً
كما فضل العقيان بالخطر القطرا
ولو فرقوا بين الضلالة والهدى
لما قبلوا إلا أناملك العشرا
ولا استلموا كفيك كالركن زلفة
فيمناك لليمنى ويسراك لليسرا
فقد فزتُ بالدنيا ونلتُ بك المنى
وأطمعُ أن ألقى بك الفوز في الأخرى
أدين بدين السبت جهراً لديكم
وإن كنت في قومي أدين به سراً
وقد كان موسى خائفاً مترقباً
فقيراً، وأمّنتَ المخافة والفقرا(87)

= والله ما يذكرني ساعة ولا وحق الله أنساه
ينظر: ابن سعيد، المغرب، ص 182.
(83) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص ص 762 -763.
(84) ابن بسام، الذخيرة، ق1 ، م2، ص 764.
(85) م. ن، ق1 ، م2، ص 764.
(86) م. ن، ق1 ، م2، ص 765.
(87) م. ن، ق1 ، م2، ص 765.

ومات إسماعيل بن نغزيلة، فخلفه على منصب الوزارة في غرناطة، ولده يوسف، الذي كان أبوه قد هيأه لذلك، فسار يوسف على طريقة أبيه، وعاث في غرناطة فساداً وإفساداً، حيث دس لبلقين بن باديس السم، وأوهم والده بأن غلمانه وجواريه وبني عمه هم الذين قتلوه، فأكثر باديس فيهم القتل إلى أن فروا عنه، ثم أقبل على شرابه ليتسلى به عن مصابه(88)، " وصارت لليهود صولة على المسلمين في دولته إلى أن حدثته نفسه الفاجرة بأشياء أخرجته لضرب رقبته وقتل جملة عظيمة من أهل ملته. وذلك أن هذا اللعين طلب أن يقيم لليهود دولة فدس إلى ابن صمادح صاحب المرية في السر أن يدخله غرناطة ويكون اليهودي في المرية، فنما هذا التدبير إلى صنهاجة، فدخلوا إلى دار اليهودي مع جملة من العامة، فاختفى في بيت فحم وسود وجهه وتنكر فعرفوه، وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، وقتل في هذا اليوم من اليهود جملة عظيمة، ونهبت دورهم، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة للهجرة"(89).

وكان الفقيه أبو إسحاق الألبيري أحد المحرضين على الثورة على ظلم اليهود وتجاوزاتهم، حيث كتب قصيدة انتشرت بسرعة في غرناطة، ومما جاء فيها:

ألا قل لصنهاجة أجمعين
بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق
يعد النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيدكم زلة
تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً
و لو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا
وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى
وقد جاز ذاك وما يشعرون
فكم مسلم راهب راغب
لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم
ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدي فيهم بالألي
من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون
وردهم أسفل السافلين(90)

لقد كان رد فعل مسلمي غرناطة عنيفاً يتناسب مع مقدار انحراف اليهود عن الواجبات التي رضوا بالالتزام بها في عقد الذمة، ومع حجم تجاوزاتهم التي وصلت إلى حد إراقة دماء المسلمين، وإعلان الاستهزاء بهم وبدينهم، إذ قدر عدد من لقي مصرعه من يهود غرناطة بعد ثورة المسلمين عليهم، بنحو ثلاثة آلاف يهودي(91).

(88) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص ص 264 -266؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص 272.
(89) ابن عذارى، البيان المغرب، ج3، ص ص 264 -266.
(90) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ص 231 -233؛ المقري، نفح الطيب، م2، ص 322.
(91) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 231؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص ص 132 -133.=

ومثلما أذل الانحراف عن الشريعة المسلمين في عقر دراهم، وفي ظل سيادتهم، أذل أيضاً اليهود، وسبب لهم أول وأكبر نكبة لهم منذ الفتح الإسلامي للأندلس، إضافة إلى ما سبق أن عانوه على أيدي زعمائهم المنحرفين عن أحكام الشريعة من ظلم وذل. والعجيب أن باديس لم يستفد من تجربته السيئة، وأصر على مواصلة الانحراف، ووقع في الخطأ نفسه، فاستوزر نصرانياً يدعى أبو الربيع بعد مقتل يوسف بن إسماعيل بن نغزيلة، فضاق الناس[92] وتذمروا، لأنهم رأوا النتائج السيئة التي تسببت بها هذه المخالفة الشرعية، وقد عبر عن سخطهم الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الليبيري المعروف بالسميسير، حيث نظم ثلاثة أبيات من الشعر، وكتب منها نسخاً عدة، ورماها في طرقات وشوارع غرناطة، وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بالمعتصم بن صمادح، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس، ولما وقف باديس عليها، أرسل وراءه أصحاب الخيل، ففاتهم ولم يلحقوه[93] والأبيات هي:

كل يوم إلى ورا بدل البول بالخرا
فزماناً تهوداً وزماناً تنصرا
وسيصبو إلى المجوس إن الشيخ عُمِّرا[94]

إن ما أصاب مسلمي الأندلس من ذل وهوان على أيدي اليهود، وما حل باليهود أنفسهم في غرناطة وغيرهم من قتل وتشريد، كان نتيجة طبيعية للانحراف عن أحكام الشريعة الإسلامية التي شرعها الله سبحانه وتعالى لتحقق للملتزمين بأحكامها من المسلمين السعادة والحياة الفاضلة، ولمن رضي بالعيش تحت حكمها من غير المسلمين، وعمل بأحكامها العدل والأمن والتسامح، ولن يجني المنحرفون عنها إلا التعاسة والشقاء والخسران المبين ﴿ ... فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[95]

ولم تقتصر النتائج السيئة للانحراف عن الأحكام الشرعية على مسلمي ويهود الأندلس، بل شملت كل مكان وزمان حدث فيه ذلك الانحراف.[96]

ففي مصر مثلاً، وصل اليهود في زمن الخليفة الفاطمي العزيز بالله إلى مناصب مرموقة في الدولة، وصارت مصائر المسلمين في أيديهم، يتحكمون فيها كيفما يشاؤون، فتذمر الناس[97]، وظهر ذلك على لسان أحد شعراء مصر، الذي كتب يقول:

= ترجمة رقم 144: المقري، نفح الطيب، م4، ص 322؛ ابن خلدون، العبر، جـ4، ص ص 160 - 161.

(92) الأمير عبد الله، التبيان، ص 66.

(93) السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص 83.

(94) م.ن، ص 84.

(95) سورة طه، آية 123، 124.

(96) ينظر: الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ق1، ص ص 214 -227، 227 -236؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ4، ص 175.

(97) القيرواني، ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، ط3، المكتبة العتيقة، 1967م، ص 67؛ ينظر أيضاً: الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ق1، ص ص 226 -236.

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم، وقد ملكوا
المجد فيهم، والمال عندهمُ
ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني قد نصحت لكم
تهودوا قد تهود الفلك[98]

وقد لاحظ ابن عتبة الأشبيلي تسلط اليهود والنصارى في مصر على المسلمين، وكان قد هاجر إليها من سرقسطة بالأندلس بعد أن كثر فيها الانحراف في عهد الطوائف، وأصبح فيها اليهودي أبو الفضل حسداي وزيراً لحاكمها ابن هود[99]، وعندما سئل عن حاله في مصر قال:

أصبحت في مصر مستضاماً
أرقص في دولة القرود
واضيعة العمر في أخير
مع النصارى أو اليهود
بالجد رزق الأنام فيهم
لا بذوات ولا جدود
أود من لؤمهم رجوعاً
للغرب في دولة ابن هود[100]

وعبر المصريون عن احتجاجهم على ما وصل إليه اليهود في الدولة الفاطمية من عز وسلطة، وما أصاب المسلمين من ذل وهوانٍ في ديارهم، وتحت حكم خليفتهم المنحرف عن قواعد الشرع، فكتبوا قُصَّة ووضعوها في يد تمثال من قراطيس، وأرسلوها إليه. وقد جاء فيها: " بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى، وأذل المسلمين بك ألا كشفت ظلامتي، فلما قرأها علم ما أريد منها، فقبض عليهما، وأخذ من ابن نسطور ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهود شيئاً كثيراً"[101].

وحتى المؤرخ الغربي آدم ميتز، عجب من إعطاء أهل الذمة في الدولة الإسلامية ما ليس لهم، فقال: " من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين شكوى قديمة"[102].

وحاول الفقهاء في الأندلس أن يصححوا الانحراف الذي شجع اليهود على الخيانة ونقض

---

(98) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جـ2، ط1، مصر، 1968م، ص 201.
(99) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م2، ص 905.
(100) المقري، نفح الطيب، م2، ص ص 663 -664.
(101) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 67.
ذكر ابن إياس هذه الرواية بتفاصيل أكثر، حيث بين أن اليهودي اسمه منشا وأن العزيز جعله عاملاً على سائر جهات دمشق وأن النصرانيِ اسمه عيسى بن نسطروس، وقد عينه العزيز عاملاً على مصر، وأنه حصل للمسلمين منهما غاية الظلم والأذى، =

= وأن العزيز عندما قرأ القصة الموضوعة في يد التمثال الذي صنعه أحد المسلمين في مصر غضب غضباً شديداً وأمر بشنق ابن نسطروس على باب القصر، وشنق منشا على أحد أبواب دمشق، ومصادرة أموالهما.
ابن إياس، محمد بن أحمد، كتاب تاريخ مصر، المشهور، ببدائع الزهور في وقائع الدهور، ج1، ط1، مصر، 1311هـ، ص ص 48 -49.
(102) ميتز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج1، ص 105.

العهود، وجعلهم في بعض الأحيان هم الأعز في دار الإسلام.

فدعوا الحكام إلى التعامل مع اليهود، وفق الشروط التي نصت عليها عقود الذمة من غير زيادة أو نقص. ونظراً للتجارب المريرة التي لاحظ الفقهاء أن المسلمين في جميع أقطارهم قد عانوا منها نتيجة للمبالغة في التساهل مع اليهود، أصدروا فتاوى تطالب بإلزام اليهود حتى بالأمور التي أفتى فقهاء السياسة الشرعية بأنَّ إلزام أهل الذمة بها مستحب وليس واجباً(103). وتعبر هذه الفتاوى عن واقع اليهود في الأندلس خلال العصر الذي صدرت فيه وهو عصر دول الطوائف، وهي تظهر بوضوح تكبر اليهود، وعدم احترامهم لمشاعر المسلمين. وقد جاءت عبارات الفقهاء شديدة على أهل الذمة، لأنها صدرت في عصر تجاوزوا فيه حدودهم، ولم يلتزموا بواجباتهم، واستباحوا حرمات المسلمين، لكن فتاواهم لم تخرج مطلقاً عن منهج الإسلام في التعامل مع أهل الذمة، والذي سيتبين لاحقاً.

ومن هذه الفتاوى قول الجرسيقي في كتاب الحسبة:" ويمنع أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم، والتكشيف عليهم، ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، ومن ركوب الخيل بالسروج، والزي بما هو من زيٍ المسلمين، أو بما هو من أبهة، وينصب عليهم علماً يمتازون به عن المسلمين، كالشكلة في حق الرجال، والجلجل في حق النساء، ويمنع المسلمون أن يزاولوا لهم كل ما فيه خساسة أو إذلال للمسلمين كطرح الكناسة، ونقل آلات الخمر ورعاية الخنازير، وشبه ذلك، لما فيه من علو الكفر على الإسلام، ويؤدب من فعل ذلك"(104). وقول ابن عبدون في رسالته في القضاء والحسبة: " يجب ألا يحك مسلم اليهودي ولا النصراني، ولا يرمي زبله، ولا ينقي كنيفه، فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذه الصنع، لأنها صنع الأرذلين، لا يخدم مسلم دابة يهودي، ولا نصراني، ولا يستزمل له، ولا يضبط بركابه، وإن عرف هذا أنكر على فاعله "(105). وقول ابن عبدون أيضاً: "يجب أن لا يترك أحد من المتقبلين، ولا من الشُرَط، ولا من اليهود، ولا من النصارى بزي كبار الناس، ولا بزي فقيه، ولا بزي رجل خيِّر، بل يجب أن يمقتوا، ويهجروا، ولا يسلم عليهم، لأنهم استحوذ عليهم الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون، يجب أن تكون لهم علامة يعرفون بها على سبيل الخزي لهم." (106). وسئل يحيى

(103) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 229.

(104) الجرسيقي، عمر بن عثمان بن العباس، رسالة الجرسيقي في الحسبة، نشره ليفي بروفنسال تحت عنوان، " ثلاث رسال أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب "، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955م، ص 122.

(105) ابن عبدون، محمد بن أحمد، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، نشره ليفي بروفنسال تحت عنوان: " ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب"، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955م، ص 48.

(106) ابن عبدون، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص 51.

ابن عمر عن يهودي يوجد وقد تشبه بالمسلمين وليس عليه رقاع ولا زنار فأجاب: أرى أن يعاقب بالضرب والسجن ويطاف به في موضع اليهود والنصارى ليكون ذلك زجراً لهم، ولمن رآه منهم" .(107)

ولم ينفرد فقهاء الأندلس وحدهم بمطالبة حكامهم بعدم التساهل في تطبيق أحكام أهل الذمة على اليهود والنصارى، بل شاركهم أيضاً إخوانهم الفقهاء في المشرق، فطالبوا هم أيضاً حكامهم بذلك، وقد سبق الإشارة إلى بعض فتاواهم، ويلاحظ أن مطالبهم قد تركزت على إبعاد أهل الذمة عن المناصب العليا، وذلك بعد أن رأوا كيف أدى التساهل معهم في هذا المجال إلى تطاولهم على الإسلام والمسلمين، فقد روي أن أهل الذمة في زمان الخليفة العباسي المهدي (158-169هـ/775-785م)، قد قويت شوكتهم، فطلب الناس من أحد الصالحين أن ينصحه، فذهب إليه، وذكر له أن الناس مجتمعون ببابه يشكون ظلم أهل الذمة، ثم أنشد:

بأبي وأمي ضاعت الأحلام
أم ضاعت الأذهان والأفهام؟
من صد عن دين النبي محمد
أله بأمر المسلمين قيام؟!
إلا تكن أسيافهم مشهورة
فينا فتلك سيوفهم أقلام(108)

وكثرت الشكاية من أهل الذمة في زمان الخليفة العباسي الراضي بالله (322-329هـ/934-940م)، فكتب إليه مسعود بن الحسين الشريف البياضي:

يا ابن الخلائف من قريش والأولى
طهرت أصولهم من الأدناس
قلّدت أمر المسلمين عدوهم
ما هكذا فعلت بنو العباس
حاشاك من قول الرعية: إنه
ناس لقاء الله أو متناس
ما العذر إن قالوا غداً: هذا الذي
ولى اليهود على رقاب الناس
لا تذكرن إحصاءهم، ما وفروا
ظلماً، وتنسى محصي الأنفاس
وخف الإله غداً إذا وُفّيتَ ما
كسبت يداك اليوم بالقسطاس(109)

وقام الخليفة الراضي بالله بصرف ابن فضلان اليهودي عن منصبه وولى ابن مالك النصراني، فكتب إليه الشريف البياضي أيضاً:

أبعد ابن فضلان تولي ابن مالك
بماذا غداً تحتج عند سؤالكا؟
خف الله وانظر في صحيفتك التي
حوت كل ما قَدَّمْتَهُ من فعالكا!
وقد خط فيها الكاتبون فأكثروا
ولم يبق إلا أن يقولوا: فذلكا

(107) المجيدلي، أحمد سعيد، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م، ص ص 78 -79؛ ينظر، الونشريسي،= المعيار، ج6، ص 69.

(108) الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ق1، ص ص 215 -216.

(109) م.ن، ق1، ص 225.

فو الله ما تــدري إذا مــا لقيتهــا
أتوضع في يمناك أم في شمــالكا(110)

واسـتجاب بعـض حكـام المسـلمين لنصـائح الفقهـاء، فـأمروا بـإلزام أهـل الذمـة بالواجبـات الــتي قررتهــا لهــم الشــريعة، وأبعــدوهم عــن المناصب العليـا،(111) لكـن عـدداً مـن الحكـام لم يستجيبوا إلـى تلك النصـائح، ولم يلتزمـوا بفتـاوى الفقهـاء، وخصوصـاً في عصـر دول الطوائــف في الأنــدلس، وظلـوا يقربـون اليهـود، ويولـونهم علـى رقــاب المســلمين، ويتركــونهم يعيشــون في الــبلاد فسـاداً، فانتقـدهم بعـض فقهـاء الأنـدلس نقـداً لاذعاً، ومن ذلك قول ابن حزم فيهم: "لـو وجدوا في اعتنــاق النصــرانية وسـيلة لتحقيــق أهــوائهم ومصـالحهم لمـا ترددوا"(112)، ويقـول أيضـاً: " إن كل مـدبر مدينـة أو حصـن في شـيء مـن أندلسـنا هذه، أولها عن آخرها محـارب لله تعالى ورسوله، وسـاع في الأرض بفسـاد، والـذي ترونـه عيانـاً مـن شـنهم الغـارات علـى أمـوال المسـلمين، وضـربهم المكوس والجزيـة علـى رقـاب المسـلمين وتسليطهم اليهود لتحصيلها، كل ذلك بموافقة رجال من أهل الفقــه والــدين المنــافقين الــذين لا يهمهــم إلا مصـلحتهم الشخصـية، ليـدل دلالـة مؤكـدة علـى ضرورة التخلص من هؤلاء الحكام "(113).

ويبدو أن ابن حزم كان معذوراً في نقده الـلاذع لهـم، إذ روي أن فردنانـد ملـك ليـون أغـار علـى بطليوس في الأندلس، ودمرهـا، و استباح حريمهـا، وفعـل بهــا الأفاعيــل، وورد الخـبر علــى المــأمون صاحب طليطلة، ولما دخل عليه وزيره ابن مثنى، وجده شديد الإطراق والضيق، فأخذ يفرج عنه، معتقداً أن ذلك لما سمعه مما أصاب المسلمين في بطليوس، لكن ابن مثنى ذهل، عندما التفت إليه المـأمون، وقـال لـه: ألا تـرى هـذا الصـانع الحقـير، الـذي يتـولى بنيـان قصـرى، إنـه لا يمتثل لأمـري، وينغص عليّ لذتي، ويستخف بأمري.(114)

كمـا روي أنـه عنـدما سـقطت طليطلـة في يـد الملك الأسباني ألفونسو، ذهـب ابن رزيـن حسـام الدولـة، صـاحب شنتمرية لتهنئته علـى انتصـاره، حاملاً إليـه الهـدايا النفيسـة فجـازاه ألفونسـو بـأن أعطـاه قـرداً احتقـاراً لـه، لكـن حسـام الدولـة عـد ذلـك مفخـرة لـه(115)، وووصـف ابـن الكردبـوس هـؤلاء الحكـام بقولـه:" وضعـف بعضهـم عـن بعـض إلا بمعونـة الـروم، فبـذلوا للفـنش مـا يحبـه مـن الأموال، ليعينهم علـى منـاوئيهم بأنجـاد الرجـال، واللعين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسـرور، وهـم مـع ذلـك مشـتغلون بشـرب الخمـور، واقتنـاء القيـان وركـوب المعاصـي، وسمـاع العيـدان، وكـل

(110) الجوزيـة، ابـن قـيم، أحكـام أهـل الذمـة، ق1، ص 226.
(111) م.ن، ق1، ص 216، 225.
(112) يراجـع: عنـان، محمـد عبـدالله، دول الطوائـف، القـاهرة، مطبعـة لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر، ط1، 1380هـ/1960م، ص 406.
(113) ينظر: ابن حزم، الـرد علـى ابـن النغريلة اليهـودي، ص 173: ابن بلقين، الأمير عبـد الله بن باديس = بـن زيـري، التبيـان، حققـة ونشـره: ليفـي بروفنسـال، تحـت عنـوان: مـذكرات الأمـير عبدالله، آخـر أمـراء بني زيري بغرناطة، القـاهرة دار المعارف، 1955م، ص 120، 210.
(114) الشـنتريني، الـذخيرة، ق4، جـ1، ص ص 114 - 115.
(115) ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص 288.

واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق كي يوجهها إلى ألفنش هدية ليتقرب بها إليه"(116).

إن هذا النوع من الحكام الذين انحرفوا عن مبادئ دينهم وتعاليمه، وعصوا الله ورسوله، هم الذين مكنوا اليهود من رقاب المسلمين، وتركوهم يعيثون فساداً في ديارهم، وعدوا غيرة الفقهاء على حرمات المسلمين وأعراضهم تعصباً.

ومن ضيع دينه لا يهمه أعراض للمسلمين تنتهك، ولا حرمات لهم تدنس، ولا يهتم إلا بشهواته الرخيصة فقط " ووكلوا أمور المسلمين إلى اليهود، فعاثوا فيهم عيث الأسود، وجعلوهم حجاباً ووزراء وكتاباً"(117).

وتعرض الفقهاء لنقمة هذا النوع من الحكام، وظلمهم، ومثال ذلك ما حدث لابن حزم، الذي أحرقت كتبه، وعاش في الأندلس مغضوباً عليه من حكامها.(118)

وتشبه معاناة فقهاء الأندلس، معاناة الفقهاء في عصر الفقيه ابن عابدين الذي عبر عنها بقوله:

أحبابنا نوب الزمان مريرة
وأمر منها رفعة السفهاء
فمتى يفيق الدهر من سكراته
وأرى اليهود بذلة الفقهاء(119)

وظلم هؤلاء الفقهاء أيضاً من بعض الكتاب في عصرنا(120)، إذ اتهموهم بالتعصب وعدوا مطالبتهم الحكام بعدم إعطاء الذميين أكثر من الحقوق التي فرضتها لهم الشريعة تشدداً، وسموا دعوتهم إلى إلزام اليهود بما تضمنته عقود الذمة من واجبات تعصباً، ونسوا أن الانحراف عن تلك العقود، وعن أحكام الشريعة الخاصة بأهل الذمة، قد أدى في مواطن عديدة، وفي عصور مختلفة إلى إذلال المسلمين وإهانة دينهم، وإلى ردود فعل عنيفة ضد اليهود، لم تكن لتحدث لولا ما حصل من زيغ عن القوانين التي شرعت من لدن حكيم خبير.

وشارك الأستاذ حسين مؤنس في انتقاد فقهاء الأندلس، وبالغ في ظلمهم، فاتهمهم بالتلاعب في التشريع، تزلفاً للحكام، أو تحقيقاً للمكانة والجاه عند جماهير المسلمين في الأندلس، الذين يرضيهم حسب رأيه التشدد مع أهل الذمة،(121) واتهمهم بالتعصب والكذب والتزوير والتقول على

(116) م. ن، ص ص 77 -78.

(117) ابن الكردبوس، الاكتفاء، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م13، 1965 - 1966م، ص ص 77 -78.

(118) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص 171.

(119) ابن عابدين، محمد أمين، حاشية رد المختار على الدر المختار، ج3، د ت، ص 379.

(120) ينظر: حركات، إبراهيم، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، د ت، ص 129؛ = حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج1، ط2، الدار البيضاء، دار الإرشاد الحديثة، ص 217؛ بوتشيش، إبراهيم القادري، المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، مجلة دراسات أندلسية، ع 11، تونس، 1414هـ/ 1991م، ص 23.

(121) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الأموية، ط1، القاهرة، 1959م، ص 445.

ألسنة الخلفاء والقادة[122]، إذ يقول عن الوثيقة المعروفة بعهد عمر " والحقيقة أن هذا "العهد" من وضع فقهاء العصور المتأخره "[123]، ويقول في موضع آخر، "وربما ابتكروا وثائق ونسبوها إلى رجال الدولة الإسلامية الأولى، كما رأينا في الوثيقة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب، وكما سنرى في الوثيقة المنسوبة إلى عبدالرحمن الداخل وغير ذلك كثير "[124]، وذلك للاستناد إليها في سن تشريعات أشد على أهل الذمة[125] كما تحامل على تلاميذ مالك ومذهبه، وقال إنهم "حملوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار فجمد التشريع، ولم يعد له سبيل إلى التطور، وأخذ باب الرأي يضيق شيئاً فشيئاً، حتى أصبح رأي مالك فقط "[126].

والحقيقة أن هذه الاتهامات جد خطيرة، وخصوصاً أنها صادرة عن متخصص قدير في الدراسات الأندلسية، ولا بد من التوقف عندها ومناقشتها، وهي في تصوري باطلة من وجوه عدة:

أولاً: لا يملك أحد أن يتلاعب في التشريع الإسلامي، فيضيف إليه أو يحذف منه ما يوافق هواه، لأن أصول هذا التشريع ونصوصه واضحة وثابتة ومحفوظة من منزل هذه الشريعة الذي يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.[127]

ثانياً: الفقهاء المسلمون أبعد الناس عن التلاعب في الشريعة الإسلامية، وأنأهم عن الكذب والتزوير والتقول على ألسنة الخلفاء والصحابة، وهذه من الحقائق التي لا يجهلها من له أدنى اطلاع على سير هؤلاء الفقهاء[128]، وعلى جهودهم العظيمة في علم الحديث وعلم الجرح والتعديل، الذي وضع من أجل كشف أي دس أو تزوير أو تقول على رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام، فكيف يتهم أصحاب هذه الجهود بأنهم ابتكروا الكثير من الوثائق؟! وإذا كان من غير المقبول أن يقوم فقيه بالكذب والتزوير، فكيف سيقبل أن يجتمع فقهاء الأندلس على الكذب والتزوير ويشرعوا بناءً عليه؟!

رابعاً: ليس كسب الجاه والحصول على رضا السلاطين هدفاً سعى إليه فقهاء الأندلس، أو غاية تساوي عندهم أن يبيعوا دينهم من أجلها، وتاريخهم مع الحكام يشهد على جرأتهم عليهم، وأن كثيراً منهم ضحى بعلاقته الحسنة مع الحاكم من أجل موقف وقفه ضده بسبب مخالفة شرعية قام بها هذا الحاكم أو ذاك[129]، وكثيراً منهم كانوا يهربون من المناصب ورعاً وخوفاً من الوقوع في الظلم، وقد أفرد الخشني في كتابه "قضاة قرطبة" فصلاً عن الفقهاء الذين عرض

(122) مؤنس، فجر الأندلس، ص 439، 443، 445، 454.
(123) م. ن، ص 443.
(124) م. ن، ص 445.
(125) م. ن، ص 439، 445.
(126) م. ن، ص 454.
(127) سورة الحجر آية 9.
(128) للتعرف على حقيقة هؤلاء الفقهاء، وحرصهم على الحق وإحقاقه ينظر، الكبيسي، دور الفقهاء في = الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، 1980م.
(129) المراكشي، عبدالواحد، المعجب، ص 20؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص 43؛ الخشني، قضاة قرطبة، ص 24؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 78؛ عياض، ترتيب، ج4، ص ص 431 - 432؛ ينظر، الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية، ص ص 83 -149.

عليهم منصب رئاسة القضاء في قرطبة ورفضوه.[130]

خامساً: يشهد التاريخ على أن الفقهاء لم يظلموا أهل الذمة، بل كانوا محامين عنهم يردون أي ظلم يتعرضون له من الحكام أو من عامة المسلمين، وقد ذكرنا آنفاً بعضاً من مواقف الفقهاء وأقوالهم، وتوصياتهم المنصفة لأهل الذمة، وهي أكثر من أن تحصى[131]، لذلك كان اليهود يلجأون إليهم ليشكوا المسلمين إذا شعروا بالظلم من أحدهم، وهم متيقنون أنهم سينصفونهم[132]، حتى لو كان خصمهم الأمير نفسه، ففي مارده تظلم تاجر يهودي من واليها الأمير محمد بن عبدالرحمن، وذلك لحبسه جارية اليهودي بقصره دون أن يسدد ثمنها، فهدده القاضي سليمان بن أسود، بإبلاغ والده عبدالرحمن الأوسط، إذا لم يرد الجارية إلى صاحبها، فقام بردها لليهودي.[133] وكثيراً ما ترك اليهود في الأندلس محاكمهم الخاصة بهم، ولجأوا إلى قضاة المسلمين ليحكموا بينهم، اقتناعاً منهم بأن الفقهاء المسلمين لن يظلموهم[134]، بل إن بعض يهود الأندلس كانوا يوصون بوقف أملاكهم على فقراء المسلمين، أو على مساجدهم[135]، ثقة منهم بالفقهاء الذين سيتولون حفظها، كما أن منهم من كان يفضل أن يضع أمانته عند فقهاء المسلمين فيحفظونها، ولا يفشون سرها حتى وإن تعرضت حياتهم بسببها للخطر[136]، كما عرض يهودي من قرطبة حياته للخطر عندما أخفى في بيته لمدة سنة الفقيه طالوت بن عبدالجبار، الذي كان أحد رؤوس الثائرين على الحكم في ثورة الربض[137]. فإذا وجد من اليهود المعاصرين لفقهاء الأندلس من يثق بعدلهم وتسامحهم، ويفضلهم على قضاتهم، ويعرض حياته للخطر من أجلهم، فهل يصح أن يتهمهم اليوم مسلم بالتعصب ضد أهل الذمة، وتزوير الوثائق من أجل التضييق عليهم؟!

سادساً: إن تقويم اعوجاج الراعي والرعية في الدولة الإسلامية هي مهمة الفقهاء، وكثيراً ما وقفوا في وجه الحكام لدفع الظلم عن أهل الذمة،

---

(130) الخشني، قضاه قرطبة.

(131) ينظر، الخشني، قضاة قرطبة، ص ص 76 -77؛ عياض، ترتيب المدارك، جـ4، ص 645؛ ابن سعيد، المغرب، جـ1، ص 151، الونشريسي، ج8، ص ص 433 -434؛ القرافي، الفروق، ج3، ص ص 14 -15.

(132) الونشريسي، المعيار، جـ7، ص ص 438 -439؛ جـ8، ص 349؛ خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص ص 225 -227.

(133) ابن سعيد، المغرب، جـ1، ص 151؛ النباهي، المرقبة، ص ص 56 -57.

(134) الونشريسي، المعيار، ج10، ص 56؛ ص ص 128 -130.

(135) لكن الفقهاء المسلمين لم يجيزوا قبول مثل هذه الأوقاف، ينظر: الونشريسي، المعيار، جـ7، ص ص 59 -60، 65 -66؛ خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص ص 594 -595.

(136) الخشني، قضاة قرطبة، ص ص 76 -77.

(137) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ص 70 -72؛ المراكشي، محيي الدين عبدالواحد ابن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، ط1، القاهرة، 1949م، ص ص 21 -22؛ ابن عاصم الغرناطي، أبو يحيى محمد، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق: صلاح جرار، ص ص 242 -243.

وكثيراً ما ذكروا المسلمين باحترام العهود التي تضمنتها عقود الذمة[138]، فقد منعوا مثلاً القائد المنصور محمد بن أبي عامر من شراء أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة، إذ رأوا في ذلك ظلماً لهم[139]، وفي أشبيلية شارك الفقهاء في منع وقوع مذبحة ضد اليهود بعد أن سب يهودي الشريعة، وهيج مشاعر المسلمين ضدهم، وذلك أثناء حكم ابن عباد لأشبيلية[140]، وحتى في معاهدة تسليم غرناطة للأسبان، لم ينس فقهاء المسلمين الذين صاغوا شروط تسليم المدينة، أن يضعوا شرطاً يطالب الأسبان بإعطاء اليهود الحقوق نفسها التي طلبوها للمسلمين[141]، باعتبارهم أهل ذمتهم، وذلك على الرغم من ظروف المسلمين الصعبة التي كتبت فيها هذه الشروط، وبالرغم من التاريخ الطويل ليهود الأندلس في الخيانة ونقض العهود، والذي لا تغيب تفصيلاته عن هؤلاء الفقهاء.

ومن واجب هؤلاء الفقهاء أيضاً أن يمنعوا أهل الذمة من ظلم المسلمين، وقد حاولوا أن يقوموا بهذا الواجب عندما كثر ظلم اليهود للمسلمين أثناء عصر الطوائف في الأندلس، فأعلنوا عن الشروط التي تضمنتها عقود الذمة معهم، وطالبوا بإلزام اليهود بها، بعد أن أدى إهمالها إلى تطاول اليهود على المسلمين وعلى دينهم، وبعد أن صار المسلمون مستضعفين في دار الإسلام.

فهل يصح أن يتهم الفقهاء بالتعصب لأنهم يمنعون اليهود من ظلم المسلمين، وقد سبق أن ناضلوا كثيراً من أجل منع وقوع أي ظلم عليهم من قبل المسلمين؟!

سابعاً: لم يقدم الأستاذ مؤنس أي دليل على اتهامه للفقهاء بابتكار الوثائق الكثيرة التي رمى الفقهاء بوضعها[142]، أما وثيقة عهد عمر بن الخطاب إلى نصارى إحدى مناطق الشام، فقد قدم دليلين لإثبات أنها موضوعة، حيث قال: " وهي وثيقة ظاهرة الوضع، إذ إنها تشير إلى إلزام النصارى بملابس خاصة، منها " القلنسوة" و"العمامة"، وهي ملابس لم يعرفها المسلمون في أيام عمر رضي الله عنه، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما إلى ذلك، ولم يعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك"[143].

ويظهر التحقيق بطلان هذين الدليلين، إذ إن القلنسوة والعمامة كانتا من الملابس المعروفة حتى في زمان الرسول ﷺ، إذ يروي البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رجلاً قال يا رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب، فقال الرسول ﷺ: " لا تلبسوا القمص ولا العمائم ولا

(138) ينظر ذلك في، القرافي، الفروق، ج3، ص 14، الفرق التاسع عشر والمائة: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 385.

(139) خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص ص 543 -586.

(140) الشنتريني، الذخيرة، ق1، ج1، ص 418: خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص 416.

(141) Encyclopedia judaica ,vol 15 ، p226.

(142) مؤنس، فجر الأندلس، ص 445.

(143) م.ن، ص 443.

السراويلات...."(144) وذكر البلاذري رواية تبين أن رسول الله ﷺ قاتل يوم خيبر على بغلته الشهباء وعليه عمامة، وعلى العمامة قلنسوة(145)، كما ذكر رواية أخرى عن ابن عباس تبين أنه كانت لرسول الله ﷺ قلنسوة أسماط(146)، وليس صحيحاً القول بأن عمر رضي الله عنه لم ينه النصارى عن ركوب الخيل وما إلى ذلك، إذ ذكر أبو عبيد رواية(147) تبين أن عمر بن الخطاب أمر في أهل الذمة: أن تجزّ نواصيهم، وأن يركبوا على الأكف(148)، وأن يركبوا عرضاً، وأن لا يركبوا كما يركب المسلمون، وأن يوثقوا المناطق(149).

ولم ينفرد فقهاء الأندلس وحدهم بذكر وثيقة عهد عمر والاعتماد عليها في إصدار الفتاوى الخاصة بأهل الذمة، بل قام بذلك أيضاً فقهاء المشرق، أمثال ابن قيم الجوزية وابن كثير، الذي سجل نص الوثيقة في تفسيره لآية الجزية مبيناً أنها " مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبدالرحمن بن غنم الأشعري" (150).

ولا يعقل أن يجتمع فقهاء المشرق والمغرب على توثيق وثيقة والاعتماد عليها في كتبهم إلا إذا تأكد لديهم صحتها، وهذا ما جعل ابن كثير يسجلها في تفسيره، ويؤكد أنها مما رواه الأئمة الحفاظ. كما أن ابن عساكر لم يهمل في كتابه تاريخ مدينة دمشق هذه الوثيقة، بل ذكرها في أكثر من موضع(151)، وذكرها كذلك الأبشيهي في كتابه المستطرف(152).

ثامناً: يبدو أن الأستاذ مؤنس قد تأثر في اتهاماته للفقهاء المسلمين برينهارت دوزي وأمثاله من المستشرقين العلمانيين الذين اعتادوا مهاجمة رجال دينهم وكذلك فقهاء المسلمين(153)، فإذا كان هؤلاء الغربيون معذورين في مهاجمة رجال دينهم بسبب وقوفهم في وجه العلم والتطور، فأي عذر لمسلم أن يقلدهم ويتهم فقهاء الإسلام بالتعصب والكذب والتزوير، وتاريخ فقهاء الأندلس معروف في مجال العلم والسياسة والجهاد، والأمانة والورع(154).

---

(144) البخاري، صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج21، ص 64.

(145) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج1، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، مصر د.ت، ص 508.

(146) م.ن، ج1، ص 507.

(147) أبو عبيد، الأموال، ص ص 66 -67.

(148) الأكف: جمع أكاف بضم الهمزة، وهي البرذعة التي توضع على ظهر الحمار. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، م3، ص 118؛ أبو عبيد، الأموال، ص 66.

(149) أن يوثقوا المناطق: أن يشدوا الزنانير على أوساطهم، أبو عبيد، الأموال، ص 67.

(150) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ2، عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت، ص 746.

(151) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج1، تهذيب وترتيب: عبدالقادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ص 150 -151، 179.

(152) الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح، المستطرف في كل فن مستظرف، جـ1، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، د.ت، ص ص 110 -111.

(153) مؤنس، فجر الأندلس، ص 470؛ ترتون، أ.س، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار الفكر العربي، مصر، 1949م، ص ص 14 -15، ص 201.

(154) لمزيد من التفاصيل ينظر: الكبيسي، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، 1980م.

تاسعاً: من الواضح أن الذي حمل الأستاذ مؤنس على الشك في هذه الوثائق، هو أنها تلزم أهل الذمة بشروط مهينة لهم(155)، وأن الإسلام حسب تصوره، لا يقبل لهم الإهانة.

ومن الضروري التأكيد على أن هذا الفهم خطأ شائع وقع فيه كثير من المعاصرين الذين تناولوا دراسة أحكام أهل الذمة، وتاريخهم في الدولة الإسلامية، وقد وقع في هذا الخطأ، حتى بعض الفقهاء المعاصرين الذين أجادوا البحث في أحكام أهل الذمة(156)، حيث استبعدوا من كتبهم معظم النصوص الشرعية التي تحمل إهانة أو تشديداً على أهل الذمة، سواء كانت هذه النصوص آيات قرانية أو أحاديث نبوية أو أقوالاً للصحابة والفقهاء، وحشدوا في كتبهم فقط كل ما يدعو إلى الرفق بهم والإحسان إليهم، وفسروا النصوص المهينة لهم، والتي كان لا بد من ذكرها تفسيراً يخالف ظاهرها ولا يتفق مع اللغة ولا مع إجماع المفسرين والفقهاء، وذلك كتفسيرهم لكلمة "صاغرون" التي ذكرت في آية الجزية بتفسيرات(157)، تجنبوا فيها ما أجمع عليه جمهور المفسرين الذين قالوا إنها تعني أن يؤدوا الجزية وهم ذليلون حقيرون مهانون.(158).

وقالوا إن الجزية التي يأخذها المسلمون من أهل الذمة ليست لإهانتهم أو تصغيرهم وإنما أجرة يؤدونها للمسلمين بدل حمايتهم لهم من الاعتداء الخارجي ونظير إعفائهم من الخدمة العسكرية(159)، وبذلك نفوا عنهم الإهانة وألصقوها بالمسلمين، فجعلوا منهم حراساً لأهل الذمة يتقاضون عن حراستهم لهم أجراً، وكأن أهل الذمة هم الأسياد في دار الإسلام، والمسلمون حراس لهم، وقد كفانا التفصيل في الرد على هؤلاء ابن قيم الجوزية، الذي فصل في ذلك وأجاد(160).

وبالرغم من حسن نية هؤلاء المعاصرين الذين يقصدون من وراء ذلك إبعاد تهمة التعصب عن الإسلام التي رماه بها المستشرقون إلا أنهم جانبوا الصواب للأسباب الآتية:

أ- لأن المنهج العلمي يقتضي أن تذكر الحقيقة كاملة، بغض النظر عن كون هذه الحقيقة مقبولة لدى الآخرين أو غير مقبولة.

ب- لأن إظهار الجانب المقبول من التشريع الإسلامي لدى الغربيين وغيرهم من النصارى واليهود، وإخفاء الجانب الآخر

(155) ينظر نص الوثيقة عند ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج1، ص 150 -151، 179.

(156) من هؤلاء الفقهاء والمعاصرين الأستاذ عبدالكريم زيدان، صاحب البحث القيم، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، والأستاذ يوسف القرضاوي صاحب كتاب غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، وقد أشير إلى الكتابين من قبل.

(157) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص 32؛ زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين، ص ص 146 -147

(158) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج2، عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت، ص 746؛ الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، م2، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص 184.

(159) زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين، ص ص 143 -147؛ القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ص 32 -33.

(160) ابن قيم الجوزية، ق1، ص ص 25 -26.

المرفوض لدى هؤلاء، يعد تلاعباً في التشريع، ويدل على الضعف وعدم الثقة بمنهج الإسلام الذي يجب أن يصرح به بقوة دون أدنى استحياء.

ج- لم يقع في هذا الخطأ فقهاؤنا الأوائل، بل كانوا في منتهى الوضوح وهم يقدمون منهج الإسلام في التعامل مع أهل الذمة، إذ عرضوا النصوص الشرعية المنصفة لهم والتي تدعو إلى برهم، ولم يتحرجوا من ذكر النصوص التي تدعو إلى تصغيرهم وإهانتهم، ونجد ذلك واضحاً عند قراءة جميع كتبهم الفقهية.[161]

ويبدو أن سبب ذلك الوضوح عند هؤلاء الأوائل يرجع إلى أنه لم يصبهم ما أصاب بعض فقهاء هذا العصر، نتيجة للتفوق المادي والتكنولوجي لدول الكفر في عصرنا والتراجع والضعف الكبير الذي حل ببلاد المسلمين.

د- لأن قضية التسامح الإسلامي مع أهل الذمة قضية جلية وواضحة، يثبتها التشريع الإسلامي، والتاريخ الطويل للمسلمين في التعامل معهم، ويشهد عليها أهل الذمة أنفسهم، وحتى كثير من الغربيين المعاصرين الذين درسوا التاريخ الإسلامي، ولا نحتاج من أجل إثباتها أن نخفي نصوصاً شرعية، أو نحملها ما لا تحتمل من التفسير.

ه- لا ينفي حقيقة التسامح الإسلامي مع أهل الذمة فتاوى فقهاء المسلمين التي ذكر بعضها آنفاً، وتحمل تشديداً عليهم، ولا القول بأن عليهم أن يؤدوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون أذلاء، لأن الصغار والذل والخزي عقوبة معجلة لهم في الدنيا، لم يقررها المسلمون من تلقاء أنفسهم، ولا يملكون أن يفعلوا ذلك، بل قررها رب العالمين، جزاء على إصرارهم على كفرهم بعد أن تبين لهم الرشد من الغي، ورجاء أن يكون ذلك دافعاً لهم نحو الإيمان[162].

وأعتقد أن الشارع الحكيم أراد من إهانتهم وتصغيرهم، كسر كبرهم والحد من تعاليهم على غيرهم، إذ يعتقدون أنهم سادة البشر وأن الله خلق غير اليهود ليكونوا عبيداً لهم، وكان يهود الأندلس من ضمن اليهود الذين يعتقدون بذلك، إذ يقول موسى بن ميمون الذي ولد وتعلم في الأندلس ويعده اليهود أكبر مفكر يهودي في العصور الوسطى: " إن لليهود الحق في اغتصاب النساء غير المؤمنات، أي غير اليهوديات، فهن في

(161) ينظر على سبيل المثال، الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة؛ الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية؛ أبو عبيد، الأموال؛ أبو يوسف، الخراج؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية؛ القرافي، الفروق، ج3 ؛ابن عابدين، حاشية ابن عابدين، ج3، ص ص 343 -387؛ ابن رشد، أبي الوليد محمد بن أحمد، المقدمات الممهدات، ج1 -2،ط1، مر، د.ت، ص ص 278 -286.

(162) الآيات الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها قول الله تعالى في اليهود، ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ سورة آل عمران، آية 112.

نظر التلموذ وشراحه من الحاخامات كالبهائم لأنهن غير اليهوديات.[163] ويقول السموءل بن يحيى الأندلسي الذي كان يهودياً وأسلم عن النفسية اليهودية كما عرفها: " ولأنهم ينظرون إلى الناس بعين النقص والازدراء إلى أبعد غاية[164].

إن المنهج الإسلامي في التعامل مع أهل الذمة، يتلخص في وجوب أن يشعروا دائماً بالصغار، وأنهم بسبب كفرهم أقل مكانة من المسلمين، هذا مع وجوب عدم ظلمهم، بل برهم والإحسان إليهم، والوفاء بالعهود المقطوعة لهم.

وإذا كنا حسب ميزاننا البشري الناقص نرى في ذلك ظلماً، فيكفي به عدلاً أن الذي شرعه هو صاحب العدل المطلق الذي يعلم المنهج الأنفع والأصلح لهم، وللمسلمين عندما يحكمونهم. وهذا المنهج الذي ذكرناه، تؤكده النصوص الشرعية وتطبيقاتها في أكثر العصور الإسلامية التزاماً وعدلاً وتسامحاً، وكذلك تؤكده أفعال وأقوال كبار الصحابة، التي قامت على أساس الفهم السليم لحقيقة الإسلام ونصوصه الشرعية، وتشهد على صحته النتائج السيئة على المسلمين وعلى اليهود التي نتجت عن الانحراف عنه. ونذكر من هذه النصوص والأقوال على سبيل المثال، قول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[165]، والصغار عند جميع المفسرين، القهر والإذلال[166]، وقول الرسول ﷺ: " لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه"[167].

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله"[168]، وقوله: "سموهم ولا تكنوهم، وأذلوهم ولا تظلموهم، وإذا جمعتكم وإياهم طريق فألجئوهم إلى أضيقها"[169] وقوله لأحد عماله الذي بعث إليه يستأذنه بالاستعانة بالأعاجم: "إنهم أعداء الله، وإنهم لغششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله"[170]، وقول عمر بن عبد العزيز ﷺ في كتاب إلى عماله بخصوص أهل الذمة: "وأنزلوهم منزلتهم التي خصهم الله بها من الذل والصغار، وآمر أن يمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج إلا على الأكف، وليكتب كل منكم بما فعله من عمله.[171]

وهذه النصوص والوصايا والأقوال، غير متناقضة أبداً مع تلك التي توصي بإنصافهم والإحسان إليهم، وحفظ عهودهم، والتي ذكرت

(163) الكواتي، اليهود في المغرب، ص 129.
(164) السموءل بن يحيى، بذل المجهود، ص ص 59 -60.
(165) سورة التوبة، آية 29.
(166) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ2، ص 746؛ الزمخشري، الكشاف، م2، ص 184؛ مخلوف، صفوة البيان، ص 184.
(167) مسلم، صحيح مسلم، ج4، ص 1707.
(168) الأبشيهي، المستطرف، ج1، ص 111.
(169) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج1، ص 180.
(170) الأبشيهي، المستطرف، ج1، ص 111.
(171) الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ق1، ص ص 212 -213.

من قبل في هذا البحث، لأن تلك النصوص وهذه تُكَوِّنُ جميعها المنهج الذي شرعه الإسلام في التعامل معهم، والذي تبين أنه يتلخص في الصغار مع العدل والإحسان.

ولا مجال إذاً لرفض وثيقة عمر أو غيرها من الوثائق الكثيرة التي رفضها الأستاذ مؤنس، لأن ما اشتملت عليه من شروط مهينة لليهود والنصارى، لا يخالف منهج الإسلام في التعامل معهم، ولا يصح أيضاً اتهام الفقهاء بالتعصب، لأنهم لا يطالبون بأكثر من تطبيق المنهج الإسلامي على اليهود و النصارى، ولا يدعون إلا إلى إلزامهم بما رضوا به وألزموا به أنفسهم في عقود الذمة، وقد نشط الفقهاء في هذا المجال، وأكدوا عليه في فتاواهم بعد أن رأوا النتائج الخطيرة التي أدى إليها تساهل المسلمين معهم في تنفيذ ما قررته لهم الشريعة من شروط وأحكام.

وقد وصف اليهودي حاييم الزعفراني الوضع القانوني لليهود في دار الإسلام في كتابه "ألف سنة من حياة اليهود في المغرب"، وكان وصفه دقيقاً إلى حد كبير، حيث يقول: " لقد عرف يهود دار الإسلام وضع الذمة الذي فرضه الإسلام، وهو وضع دوني مؤقت في غالب الأحيان، ولكنه على أي حال، وضع قانوني متسامح"(172)، فعلى الرغم من قوله إن وضعهم كان دونياً، إلا أنه اعترف بأنه وضع قانوني متسامح، وهذا ما قصده التشريع الإسلامي وهو يشرع للتعامل مع أهل الذمة، " أذلوهم ولا تظلموهم...". أما قوله:" وضع دوني مؤقت في غالب الأحيان"، فهو تعبير دقيق أيضاً، ومعبر عن الواقع الذي عاشه اليهود في دولة الإسلام، إذ إن القوانين التي تجعلهم في وضع دوني كإلزامهم بزي خاص، ومنعهم من مظاهر العظمة، لم تطبق في غالب الأحيان، وذلك تساهلاً من المسلمين معهم، إلا أن هذا التساهل كان يصل أحياناً إلى حد تكريمهم وتسليمهم المناصب العليا، وقد مر بنا كيف عانى المسلمون واليهود من نتائج هذا التساهل، الذي هو انحراف عن الشريعة التي قررها العليم الخبير بطبائع اليهود، وما يناسبها من تشريعات.

الخاتمة ونتائج البحث:

تم بعون الله تعالى وفضله الانتهاء من هذه الدراسة، وقد توصل الباحث من خلالها إلى العديد من النتائج وأهمها:

- أن الشريعة الإسلامية قد منحت لليهود وغيرهم من أهل الذمة حقوقاً كثيرة تضمن لهم حياة طيبة هانئة تحت حكم المسلمين.
- أن على اليهود وغيرهم من الذميين واجبات سهلة وممكنة، وقد فرضتها عليهم الشريعة ضماناً لحقوق المسلمين وكرامتهم.
- أن الالتزام بإعطاء الحقوق للذميين واجب على المسلمين وحكامهم، لكن حقوقهم تسقط

(172) الزعفراني، حاييم، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ ثقافة، دين، ترجمة: أحمد = شعلان، وعبدالغني أبو العزم، مطبعة دار قرطبة، الدار البيضاء، 1987م، ص 12.

وذمتهم تنتهي إذا نقضوا عهودهم ولم يلتزموا بواجباتهم.

- أن أفضل حقبة عاشها اليهود في الأندلس كانت في القرون الثلاثة الأولى من الحكم الإسلامي لها، وهي التي شهدت التزاماً أكبر بالمنهج الإسلامي في التعامل مع أهل الذمة.

- أنّ أسوأ حقبة عاشها اليهود في الأندلس كانت في عهد الطوائف، حيث شهدت تفريطاً أكبر بالمنهج الإسلامي في التعامل مع اليهود.

- أن عدم تطبيق المنهج الإسلامي في التعامل مع يهود الذمة في بعض الأحيان جعل اليهود يتطاولون على المسلمين في الأندلس ويذلونهم، وأدى إلى ردود فعل عنيفة من قبل المسلمين ضد اليهود.

- أنّ الالتزام بالمنهج الإسلامي في التعامل مع اليهود حقق السعادة والحياة الطيبة لكل من المسلمين و اليهود، وأن البعد عنه سبب لهم التعاسة والشقاء.

- أن المنهج الإسلامي الصحيح في التعامل مع اليهود يتلخص في وجوب إشعارهم بالصغار بسبب كفرهم مع عدم ظلمهم، بل برهم والإحسان إليهم، والوفاء بالعهود المقطوعة لهم.

- أن فقهاء الأندلس بريئون من تهمة التعصب ضد اليهود وغيرهم من الذميين،إذ كانوا يدعون إلى التعامل معهم وفق المنهج الإسلامي الصحيح.

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الأول، 117 – 136 (2005م)

العلاقة بين الزعامتين الدينية والسياسية في الرياض والدرعية قبل ضم الدولة السعودية الأولى للرياض

د. عبدالرحمن بن علي العريني

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيتناول هذا البحث الجذور الأولى لعلاقة دهام بن دواس وسليمان بن سحيم بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية الأولى، هذه العلاقة العدائية التي تطورت إلى ضم الرياض وسهلت ضم بقية بلدان نجد وقبائلها، وتعود أهمية الحديث عن هذه العلاقة الأولى بين الزعامتين الدينية والسياسية في كل من الدرعية والرياض إلى أن قادة هذه الدولة كانوا مدركين الأهمية القصوى لضم هذه البلدة المجاورة لقاعدة الدولة "الدرعية " خاصة بعد تكوين النواة الأولى للدولة التي أخذت من القادة السعوديين مدة سنتين بعد بيعة الدرعية أي من 1157هـ إلى 1159هـ / 1744م إلى 1746م، بل يبدو أن هؤلاء القادة كانوا متطلعين إلى أن تشكل الرياض مع الدرعية والبلدان المجاورة النواة الأولى لهذه الدولة، ولا شك أنهم كانوا يستندون في ذلك إلى العلاقة الطيبة نوعاً ما بين محمد بن سعود ودهام بن دواس قبل بيعة الدرعية، وإلى كون الرياض إحدى بلدان العارض.

إن إدراك قادة الدولة السعودية الأولى لأهمية الإسراع بضم الرياض جعلهم يبدأون بها المحاولات الأولى لتوحيد نجد، خاصة بعد أن تيقنوا من مناوأة دهام للدعوة وعدائه للدولة واعتدائه على أهل منفوحة بسبب انضمامهم للدولة وعلى بعض أهل الرياض بسبب تبعيتهم للدعوة كما سيأتي بيانه.

ومن هنا يمكن القول إن أولى معارك الدولة ضد دهام كانت رداً على هجومه على أهل منفوحة[1] ومضايقته أتباع الدولة والدعوة في

(1) أبو علية، عبدالفتاح حسن، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، دار المريخ، الرياض. 1403هـ/ 1983م، ص 27.

الرياض، وتزعمه المبكر للمناوأة المحلية ضد الدعوة والدولة واشتراكه في الأحلاف الداخلية والخارجية ضد القادة السعوديين.

ويبدو أن منطلق دهام بن دواس في مناوأته المبكرة للدولة السعودية خوفه من فقدان إمارته على الرياض، وجعله تابعاً لحكومة مركزية وربط الرياض إدارياً بالدرعية وهو الذي يعتقد أن الرياض مثلها مثل البلدان النجدية الأخرى ينبغي أن تحافظ على استقلالها وتفردها.

ومن هنا فإن العامل السياسي والإداري يعد عاملاً مهماً في تحديد مواقف المؤيدين والمناوئين للدولة في بدء قيامها؛ فإذا كان بعض المؤيدين يعتقدون بأن الدولة ستبقيهم على إماراتهم وربما ضمت لهم بلداناً أخرى في إطار التقسيم الإداري للدولة، فإن بعض المناوئين من أمراء البلدان كانوا على خوف واضح من فقدان سلطاتهم المطلقة على بلدانهم ومن أبرز هؤلاء دهام بن دواس وزيد بن زامل أمير الدلم، وهذا ما يفهم معه سبب تأخر توحيد نجد أكثر من أربعين سنة في أن أمراء البلدان النجدية وزعماء القبائل فيها قد تعمق في نفوسهم نزعة استقلالية بسبب ما عاشوه من قرون الفرقة والتشتت والاختلاف فيما عرف بعهد الإمارات المتناحرة الذي ظن معه هؤلاء الأمراء وزعماء القبائل أن هذا الوضع هو الأنسب لمنطقة نجد التي عانت من قرون الإهمال من الدول الإسلامية المتعاقبة، وهذا ما ولد لديهم شعوراً سلبياً بل مبغضاً وكارهاً لأي محاولة للتوحيد السياسي والإداري. ومن هنا يمكن القول إن خوف البعض من أمراء البلدان النجدية على نفوذهم وسلطانهم كان من أبرز أسباب نفورهم عن جهود الدولة السعودية لتوحيد نجد، كما كان عاملاً مهماً من عوامل التفافهم وتحزبهم حول بعضهم أو حول القوى المناوئة خارج نجد، وإقامة المواثيق بينهم للقضاء على نفوذ الدولة السعودية الأولى الذي بدأت تبسطه تدريجياً على البلدان والقبائل النجدية(2).

ومما لا ريب فيه أن هذه الرؤية تنطبق تمام الانطباق على دهام بن دواس في مطاولته للدولة السعودية الأولى سبعاً وعشرين سنة أي ما يعادل ثلاثة أرباع الفترة التي استغرقتها الدولة في توحيد نجد تقريباً؛ فيبدو أنه كان يبث في أعوانه وحلفائه من بعض الأمراء النجديين كأمير الدلم وثرمداء وغيرهم ضرورة عدم التخلي عن النزعة الاستقلالية، ومجابهة جهود الدولة في التوحيد، فضلاً عما يلقاه ذلك الشعور العدائي ضد محاولة الدولة التوحيدية من دعم من بعض القوى السياسية المجاورة لنجد وأبرزها قوة بني خالد في الأحساء.

ولئن كان العامل السياسي والإداري مهماً في تحديد هذه المواقف فإن العامل الديني كذلك من أقوى العوامل في تحديد مواقف العلماء المؤيدين أو المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب،

---

(2) العثيمين، عبدالله الصالح، تاريخ المملكة العربية السعودية، الطبعة السابعة، مكتبة العبيكان. الرياض 1417هـ/1997 ج1، ص 94. محمد الفهد العيسى، = مدينة الدرعية القاعدة الأولى للدولة السعودية بحث منشور في مجلة العرب السنة الأولى، ج7، محرم 1387هـ، ص 614.

وخاصة لدى سليمان بن سحيم قاضي الرياض وإمامها وخطيبها إبان حكم دهام بن دواس، فقد كان الاقتناع بصحة ما يدعو إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب وضرورة ذلك وحاجة المنطقة الماسة إلى هذه الدعوة كان هذا سبباً في زيادة عدد المؤيدين لها في أوساط العلماء وأئمة المساجد في نجد، لكن عدم الاقتناع بصحة هذه الدعوة، أو أنها لم تأت بجديد، أو الاعتقاد بصحة هذه الدعوة مع عدم الاقتناع بالحاجة الماسة إليها كما يزعم المناوئون لهذه الدعوة... هذا كله كان سبباً في زيادة عدد المناوئين، وكثرة شبههم حول الدعوة عامة، وبعض مسائلها التفصيلية بصفة خاصة.

ويأتي على رأس هؤلاء العلماء الشيخ سليمان ابن سحيم الذي ساهم بموقفه المناوئ والمعاند لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الدعم والتبرير الشرعي المزعوم لمناوأة دهام بن دواس للدولة السعودية الأولى، مما جعل هذين الزعيمين ابن سحيم وابن دواس قطبي الرحى للمناوأة العلمية والدينية والسياسية والإدارية في نجد كما سيأتي.

وسيحوي هذا البحث قراءة في بدايات ضم الرياض، وتعريفاً بشخصي دهام بن دواس والشيخ سليمان بن سحيم مع عرض لأسباب هذا الضم وبدايات أحداثه إلى بدء المراحل التفصيلية للنزاع بين الدولة السعودية الأولى وخصومها السياسيين والدينيين على حد سواء، ولهذا فهو نزاع ديني سياسي كان دافع دهام فيه كغيره من أمراء البلدان النجدية المناوئين الاحتفاظ بسيطرتهم وسلطانهم في بلدانهم كما كان دافع سليمان بن سحيم - الحليف الديني لدهام - الاحتفاظ بمكانته العلمية والاجتماعية والخوف من فقدانها[3].

ومن المهم في إطار البحث عن جذور هذه العلاقة الحديث عن زعيمي المناوأة الدينية والسياسية في نجد ضد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية الأولى، وهما سليمان بن سحيم ودهام بن دواس انطلاقاً من أن هذين الزعيمين هما أشد خصوم الدعوة والدولة، بحيث إن المناوئين الآخرين كانوا يلتفون حولهما، ويعتمدون على قوة خصومتهما: الأول بإثارة الشبهات العلمية والدينية ضد الدعوة وهي شبهات لم يقتصر أثرها على نجد بل تجاوزها إلى خارج شبه الجزيرة العربية أحياناً، والثاني بالتحزب السياسي ضد الدولة سواء مع خصومها في نجد أو خارجها كذلك.

---

(3) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن، الدولة السعودية الأولى الطبعة الثانية، دار نافع للطباعة. القاهرة 1976م، ص 61، 62 وقد أشار إلى أن هذا النزاع إنما هو من أجل السلطة وفي هذا نظر. فمن الثابت أن مناوأة سليمان بن سحيم في مجالها العلمي ضد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا تقل عن مناوأة دهام في المجال السياسي للدولة السعودية الأولى، بل إنها تدعمها وتذكيها إدراكاً من هذين الرجلين للتلازم = الوثيق والارتباط القوي بين دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية. فكأنهم بذلك قد أرادوا أن يجابهوا هذه الدعوة والدولة بمثل هذا التلازم والارتباط بين المناوأة الدينية والسياسية. مما وضح في الرياض أكثر من غيرها، وانظر: العثيمين، الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره، نشر دار العلوم، الرياض، ص 52، 53 .

أثر مناوأة سليمان بن سحيم على صمود دهام بن دواس:

يعد سليمان بن سحيم من أسبق المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي قامت الدولة السعودية على أساسها، ولذا فالبدء بالحديث عن مناوأته للدعوة ينسجم مع الترتيب التاريخي الذي سلكه مؤرخو الدولة السعودية في الحديث عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قبل الحديث عن الدولة السعودية، والذي يبدو من تتبع مراحل الدعوة وأحداث النزاع بين دهام والدولة السعودية الأولى أن خصومة سليمان بن سحيم للدعوة وإثارة الشبهات حولها كانت أسبق من خصومة دهام بن دواس، إذ إن ذلك كان والدعوة في العيينة، كما أن مناوأة سليمان بن سحيم كانت عاملاً قوياً جداً في صمود دهام وإطالة أمد نزاعه بما كان يقوم به سليمان بن سحيم من إضفاء الصفة الشرعية المزعومة منه لدعم مناوأة دهام للدولة السعودية وما أثاره من شبهات ضد الدعوة، وحرصه على استمالة العلماء والحكام في نجد وخارجها ضد الشيخ والزعماء السعوديين، وهذا بحد ذاته يعد دعماً قوياً لدهام وإذكاءً لنزاعه وإطالة لحروبه ضد الدولة السعودية[4].

ومما يؤكد ذلك الرسالة التي أرسلها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وهو في العيينة إلى قاضي الدرعية الشيخ عبدالله بن عيسى وابنه عبدالوهاب وفيها تعريض بسليمان بن سحيم وشدة مناوأته للدعوة، وتأكيد على خطورته وإيضاح لمعاندته ومكابرته[5].

ولد الشيخ سليمان بن محمد بن أحمد بن سحيم سنة 1130هـ / 1718م ووالده محمد بن سحيم من المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقد ذكر الشيخ محمد ذلك في رسالة لابن سحيم، كما ورد أن له رداً على الشيخ محمد ودعوته مما يبدو معه أن سليمان بن سحيم قد أثر عليه والده في سلوك سبيل المناوأة وإثارة الشبهات ضد الدعوة، وقد تلقى مزيداً من العلم بعد والده على عدد من العلماء حتى أدرك وانتقل إلى الرياض فأصبح قاضيها ومفتيها ومدرسها وإمامها وخطيبها إبان إمارة دهام بن دواس[6]، ويبدو أن دهام وجد ضالته في سليمان ابن سحيم، كما أن سليمان كذلك أراد أن يستفيد من منازعة دهام للدولة السعودية الأولى.

وتشير الروايات إلى أن الشيخ محمد كان يطمح في بدء دعوته إلى انضمام سليمان إليها؛

---

(4) العثيمين، موقف سليمان بن سحيم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض (الملك سعود حالياً)، المجلد الخامس 1977 / 1978م، ص 14، 15، 16.

(5) ابن عبدالوهاب، الشيخ محمد، الرسائل الشخصية. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص 315، ابن غنام، حسين، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، الطبعة الأولى. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة. = = نشر المكتبة الأهلية. الرياض 1368هـ/1949م. ج1، ص 157، ومما قاله الشيخ عن ابن سحيم أنه أفتى بحل الرشوة، كما أفتى الشيخ بجواز محاربة ابن سحيم.

(6) البسام، عبدالله بن عبدالرحمن، علماء نجد خلال ثمانية قرون ط2، نشر دار العاصمة، الرياض 1419هـ، ج2، ص 381، وقد ذكر الشيخ محمد في رسالته لابن سحيم (ابن غنام ج1، ص 138، 139) أنه وأباه مصرحان بعداء الدعوة، وعدم معرفة ما جاءت به.

فقد أرسل له رسالة لطيفة فيها من اللين واللطف والتقدير ما أمل الشيخ منها أن تؤثر عليه فيؤيد الدعوة[7]، ويبدو أن ذلك حينما أحس الشيخ ببوادر قبول من سليمان لدعوته؛ فقد وردت إشارات إلى اعتراف من سليمان بصحة هذه الدعوة وصدق إمامها، وكانت أولى هذه الإشارات ما ذكره الشيخ محمد في رسالته لابن سحيم حينما قال: " أنتم تقرون أن الذي يأتيكم من عندنا هو الحق وأنت تشهد به ليلاً ونهاراً "[8] لكن الشيخ محمداً يؤكد في الرسالة نفسها تغير موقف ابن سحيم من التصديق بالدعوة والاستمرار على ذلك عدة سنين إلى مناوأتها بعد ذلك مما جعله يحيك لها المؤامرات ويلفق الشبهات[9].

وكان من أهم ما أثاره سليمان بن سحيم ضد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ما ذكره في رسالته التي شنع فيها على الشيخ محمد ودعوته وأراد منها أن يثير العلماء خارج نجد ويؤلبهم ضد الدعوة عسى أن يؤلبوا الحكام والولاة الذين يستطيعون الضغط على من يؤوي الشيخ ويدعم دعوته كما حصل مع زعيم بني خالد في ضغطه على ابن معمر لإخراج الشيخ والتخلي عن نصرة دعوته بعد ذلك التأييد والتطبيق الأولي للدعوة في العيينة. وليس هنا مجال التفصيل في عرض هذه الرسالة ولا ما أثاره سليمان بن سحيم من الشبهات ضد الدعوة فهي مبثوثة في تاريخ ابن غنام وقام بعرضها ودراستها وتحليلها بعض المؤرخين والباحثين[10].

وإذا كان من الثابت أن مناوأة الشيخ سليمان ابن سحيم للدعوة كانت مبكرة حينما كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العيينة[11]، فإن المصادر تشح علينا بالمعلومات عن درجة نشاطه العدائي ضد الدعوة بعد انتقال الشيخ محمد من العيينة إلى الدرعية وقيام الدولة السعودية الأولى، إذ من المرجح أن نشاطه العدائي لم يتوقف، لكن برز رأيان في تقدير درجة ذلك النشاط:

الرأي الأول: يقول إن نشاطه بعد قيام الدولة السعودية الأولى وفي أثناء حروبها مع دهام بن دواس كان أضعف مما كان عليه الحال قبل رحيل الشيخ محمد إلى الدرعية[12].

الرأي الثاني: يشير إلى أن معاداة سليمان بن سحيم للدعوة بدأت بعد رحيل الشيخ محمد إلى الدرعية حينما أرسل رسالة لسليمان فيها من

(7) ابن غنام، ج1، ص 138.

(8) الشيخ محمد، الرسائل، ص 226، 227، ابن غنام ج1، ص 138، 139.

(9) الشيخ محمد، الرسائل، ص 63، ابن غنام ج1، ص 114، ومما قاله الشيخ في هذا: " وعندنا كتب يده - أي ابن سحيم - في رسائل متعددة أن هذا - أي ما جاء به الشيخ - هو الحق وأقام على ذلك سنين لكن أنكر آخر الأمر لأسباب أعظمها البغي أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده".

(10) لمزيد من التفصيل عن هذه الرسالة وموقف سليمان ابن سحيم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والشبهات التي أثارها حولها انظر: العثيمين، البحث السابق بأكمله، عبدالعزيز بن محمد العبداللطيف، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ط1، دار الوطن، ص 32، 33، 39، 40.

(11) العثيمين، موقف سليمان بن سحيم، ص 15.

(12) المرجع نفسه، ص 16.

اللطف والتقدير واللين ما أمل الشيخ معها أن ينضم إلى ركب الدعوة، لكن سليمان أظهر العداء والبغضاء وصار يهاجم الشيخ محمداً ودعوته ويشوهها أمام الناس[13]، ورغم أن هذا الرأي يصطدم بالحقيقة السابقة في أن معاداة ابن سحيم للشيخ ودعوته بدأت منذ مرحلة الدعوة في العيينة إلا أنه يفهم من هذا الرأي كذلك أن النشاط العدائي لابن سحيم بعد قيام الدولة السعودية الأولى لا يقل قوة وخطورة عما كان عليه الحال قبل رحيل الشيخ محمد من العيينة إلى الدرعية، وأن من أقوى القرائن التي تدعم ذلك ما يفهم من دور بارز وقوي له في تشجيع دهام بن دواس على زيادة معاداته للدولة السعودية الأولى وعدم الانضمام إليها على أساس أنها قامت على مبادئ دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب الذي يعد من أقوى المناوئين العلميين لها[14]، وكان تشجيع ابن سحيم يتمثل في إيجاد المبررات والذرائع الشرعية المزعومة التي كانت فيما يبدو أسباباً أطالت أمد هذا النزاع.

وقد ورد اسم سليمان بن سحيم ضمن عدد من الأشخاص الذين أشار ابن غنام إلى مغادرتهم الرياض إلى منفوحة ومنها إلى الدرعية وكان ذلك سنة 1168هـ/1755م وذلك بعد بدء المرحلة الثانية من حروب دهام ضد الدولة السعودية الأولى حينما نقض الهدنة التي عقدها مع القادة السعوديين سنة 1167هـ/1754م، وكان بدء هذه المرحلة ازدياد مضايقته لأتباع الدعوة والدولة في الرياض، وليس من الواضح ما إذا كان هذا الرجل هو سليمان بن محمد بن سحيم المقصود هنا أم شخص يشبهه في الاسم[15]؛ فإذا كان هناك احتمال بأنه هو فإن ما قد يسنده أن دهام طلب الهدنة والصلح وأجيب إليها في تلك السنة ثم بدأ حربه في مرحلتها الثانية بعد ذلك بسنة؛ فلعل تلك الهدنة ثم نقضها قد أقنع الكثيرين ومنهم سليمان بن سحيم بضعف المناوأة المحلية لدعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب، كما يمكن القول إن هؤلاء أو بعضهم قد نقموا على دهام نقضه لتلك الهدنة أو أنهم من أتباع الدعوة أصلاً في الرياض وخافوا على أنفسهم من دهام نتيجة مضايقته لهم كما مر، كما أن هناك احتمالاً بأن الشخص الذي ورد ضمن الذين خرجوا من الرياض إلى منفوحة فالدرعية ليس سليمان بن سحيم قاضي الرياض وأن بينهما شبهاً في الاسم وهذا ليس ببعيد، لأن من المألوف في الأسر النجدية حصول تشابه داخل الأسرة الواحدة في أسماء الأشخاص وربما في أسماء آبائهم وأجدادهم كذلك، ومما يشبه ذلك تعيين الإمام تركي بن عبدالله رجلاً يقال له سليمان بن سحيم على رأس جند في مرابطة تاروت قرب القطيف سنة 1249هـ/ 1833م[16].

وقد رجح الشيخ عبدالله البسام أن سليمان

(13) البسام، علماء نجد، ج2، ص 381، 382 .

(14) العثيمين، موقف سليمان بن سحيم، ص 16.

(15) ابن غنام، ج1، ص 19، 46، 47، ابن بشر، عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن بن = عبداللطيف آل الشيخ، نشر وزارة المعارف 1394هـ ج1، ص 43، 45، 46 ، العثيمين، موقف سليمان ابن سحيم، ص 17.

(16) ابن بشر، ج2، ص 61 .

ابن سحيم لما رأى نجاح الدعوة واتساع الدولة السعودية الأولى اقتنع بأن لا قبل له بهما، خاصة بعد اشتداد المعارك بين القادة السعوديين ودهام بن دواس فرحل إلى الزبير(17)، ويمكن أن يكون ذلك من الرياض مباشرة أو من الدرعية على الاحتمال الذي يرجح أنه الشخص الذي انتقل مع الذين رحلوا من الرياض إلى منفوحة فالدرعية؛ ويبدو أن من أسباب ضعف دهام واستيلاء الإمام عبدالعزيز بن محمد على الرياض رحيل الساعد الأيمن لدهام في حربه ضد الدولة السعودية وهو سليمان بن سحيم على أهمية الأسباب الأخرى المتمثلة في ضعف دهام نتيجة كبر سنه ومقتل ابنيه وكثرة غزوات الدولة السعودية وتتابعها ضده وكثرة القتلى من جنده قياساً بقتلى جيش الدولة السعودية.

وكان ترجيح الشيخ البسام لرحيل سليمان بن سحيم إلى الزبير وإقامته ووفاته فيها سنة 1181هـ / 1767م مبنياً على أن ابنه ناصر أحد علماء الزبير (1177هـ - 1226هـ / 1763م - 1811م) قد ولد فيها بعد رحيل والده إليها(18)، والمعلومات عن سليمان بن سحيم بعد رحيله إلى الزبير محدودة لا تقارن بتلك التي توافرت عنه خلال إقامته في نجد وإثارته الشبهات في عدد من الرسائل ضد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وحقاً ما قاله الدكتور عبدالله العثيمين: " فإن شهرة سليمان ابن سحيم وهو معارض لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تفوق كثيراً شهرته وهو مذعن لها أو هارب من قوتها "(19).

وعلى أي حال فيمكن القول إن المناوأة العلمية والدينية من سليمان بن سحيم ضد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب ودعوته كانت سنداً قوياً وداعماً رئيساً لدهام بن دواس في بدء مناوأته السياسية وحروبه ضد الدولة السعودية الأولى واستمراره على ذلك، وهذا ما جعل المناوأة الدينية والسياسية في الرياض تتوحدان وتتحزبان ضد الدعوة والدولة السعودية الأولى رداً على تحالف الزعامة الدينية في الشيخ محمد بن عبدالوهاب مع الزعامة السياسية في الإمام محمد بن سعود.

أصل آل دواس وإمارتهم في منفوحة والرياض قبل قيام الدولة السعودية الأولى:

ذكر النسابة والمؤرخون رأيين في الانتماء القبلي لأسرة دهام بن دواس شأنها شأن عدد من الأسر الحاكمة وغير الحاكمة في بعض البلدان النجدية. ويمكن إرجاع جانب من هذا الخلاف إلى رغبة بعض القبائل في نسبة بعض الأسر الحاكمة إليها، أو إلى ما عرف عند القبائل العربية من الحلف والجوار، وانتقال بعض الأسر وربما الأفخاذ من قبيلة إلى أخرى، وبينما تتفق آراء النسابة والمؤرخين على أن دهام بن دواس من آل شعلان من الجلاليل فإن هذه الآراء

---

(17) البسام، علماء نجد، ج2، ص 382.

(18) المرجع نفسه، ج2، ص 382، وهذا يخالف ما ذكره الشيخ البسام رحمه الله ج6، ص 467 عند نقله في =

= ترجمة ناصر بن سحيم عن عثمان بن سند أن ناصراً هذا قد انتقل من نجد صغيراً.

(19) موقف سليمان بن سحيم، ص 1، 17.

تنقسم إلى قسمين على أساس الانتماء القبلي هما:

الأول: أن آل دواس من قبيلة مطير استناداً إلى أن آل شعلان من الجلاليل من العفسة وهم فخذ من قبيلة مطير المشهورة، وهذا هو الرأي المشهور، وينسب الجلاليل إلى جدهم جلال[20].

الثاني: أنهم من بني بكر من وائل وتحديداً من بني حنيفة، وهذا الرأي رغم عدم اشتهاره فقد قال به جمع من النسابة والمؤرخين، ولعلهم استندوا في ذلك إلى أن أغلب الأسر الحاكمة في منطقة العارض من بني حنيفة، ولأنهم لم يغفلوا أهمية الرأي الأول فإنهم فيما يبدو يعدونهم من الأسر التي حالفت أو جاورت العفسة من مطير فدخلت فيهم وعدت منهم لكنهم أصلاً من بني حنيفة، بل ذكر بعض النسابة أن العفسة والجلاليل من بني قيس بن ثعلبة أبناء عمومة بني حنيفة أي من بني وائل، وأن فروعاً من مطير دخلت في العفسة مما يشير إلى أنه عكس الرأي السابق[21].

وعلى أي حال فقد كان أصل إمارة آل دواس في منفوحة[22]، وكان والد دهام دواس بن عبدالله بن شعلان أميراً على هذه البلدة، وقد اشتهر بالحزم والقسوة والعنف فقد قتل سنة 1093هـ/ 1681م أفراداً من أسرة الجلاليل القريبة نسباً منه كما قتل سنة 1095هـ/ 1684م أفراداً من أسرة المزروع التي كان لها نفوذ قوي في منفوحة فقد كانت تنازع دواساً الوجاهة والمكانة فيها، وهذا العمل لا يختلف عما كان يفعله عدد من أمراء البلدان النجدية في فترة حكم الإمارات المتصارعة التي سبقت قيام الدولة السعودية الأولى، وقد توفي دواس سنة 1139هـ / 1726م[23].

---

(20) ابن بشر، ج1، ص 59، وكذلك الريكي، حسن، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب تحقيق الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، المطابع الأهلية، الرياض نشر دارة الملك عبدالعزيز ص 34، أبو علية: محاضرات، ص 26، وقد أشار خالد السليمان في معجم مدينة الرياض ط1. مطابع الفرزدق، نشر الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون 1404هـ/1983م، ص 169 إلى أن العفيسية وهي نخل وبقايا آثار قديمة ترجع للعفسة سكان منفوحة كما أشار ص 246، 247 إلى أن للعفسة قصراً قديماً يقع جنوبي منفوحة.

(21) اليسام، عبدالله بن محمد، تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، مخطوط نقله عن خط المؤلف نور الدين شريبه، ورقة 110، الجاسر، حمد، جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، ط1 مطبعة نهضة مصر، القاهرة، نشر دار اليمامة. الرياض 1401هـ/1981م، ج1، ص 114، 266، 453، ابن سيار، جبر، نبذة في أنساب أهل نجد، تحقيق ودراسة راشد بن محمد بن عساكر، ط1 = = الشفق للطباعة، بيروت 1424هـ، ص 98 .

(22) منفوحة: لفظها مأخوذ من النفح وهو الأعطية وهي من البلدان القديمة في العارض واشتهرت بأعشى قيس وانقطعت أخبارها منذ العصر الجاهلي إلى القرن العاشر الهجري حيث وردت لها أخبار تاريخية بعد ذلك وتقع جنوبي الرياض، وكانت منفصلة عن الرياض إلى أن أصبحت أحد أحيائها، ابن خميس، عبدالله بن محمد، معجم اليمامة، ط1، مطبعة الفرزدق، الرياض 1398هـ/1978م، ج2، ص ص 397 - 400.

(23) ابن ربيعة، محمد، تاريخ ابن ربيعة، نشر الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة 1419هـ/1999م، ص 67، ابن عباد، محمد بن حمد، تاريخ ابن عباد دراسة وتحقيق أ.د. عبدالله بن يوسف الشبل، نشر الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة 1419هـ/1999م، ص 59، 64، 82، ابن بشر، عثمان، سوابق عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق وتعليق عبدالله بن محمد المنيف، ط (1)، =

وبعد موت دواس بن عبدالله بن شعلان تولى بعده ابنه محمد بن دواس إلا أن إمارته لم تستقر فيها بل كانت نهاية إمارة آل دواس في منفوحة، وكان ذلك بسبب القسوة والعنف اللذين تميز بهما حكم والده؛ فقد نقم بعض أهل منفوحة سيرة آل دواس فيهم وكرهوا ولايتهم لهم بممالأة من ابن أخي دواس وهو زامل بن فارس بن عبدالله آل شعلان الذي قام مع بعض أهل منفوحة على ابن عمه محمد بن دواس فقتله، وأجلى بقيتهم خارج منفوحة[24]، ولما كان أمير الرياض زيد بن موسى آل زرعه صهراً لآل دواس فقد كان زوجاً لابنة دواس؛ فقد لجأ إليه بقية أبناء دواس وعلى رأسهم دهام ومعهم أمهم واستوطنوا الرياض، ولما قتل زيد بن موسى أمير الرياض سنة 1146هـ / 1733م[25] تولى أحد مواليه ويبدو أن ذلك على سبيل الوصاية على ابن زيد الذي كان صغيراً إلى أن يكبر ويتولى الإمارة بعد أبيه، واستمر هذا المولى المسمى خميس في إمارة الرياض إلى سنة 1151هـ / 1738م[26] حينما هرب من الرياض لأمور نقمها عليه أهل الرياض فخرج منها خائفاً من سطوتهم عليه، واستغل الفرصة دهام بن دواس فحل محله على أساس أنه خال لذلك الغلام وأوهم أهل الرياض أنه وصي عليه إلى أن يكبر، وأنه سيضبط له

= دار البشائر الإسلامية. بيروت 1423هـ/2002م، ص 100، 102، 156، وانظر: ابن بشر، تحقيق الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ، ج2، ص 214، 215، 237، الفاخري، محمد بن عمر، تاريخ الفاخري، تحقيق أ.د. عبدالله الشبل، نشر الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة 1419هـ/1999م، ص 100، 125، البسام، تحفة، ورقة 76ب، 77ب، 104أ، الذكير، مقبل بن عبدالعزيز، تاريخه المخطوط ورقة 17، 36، وقد أشار الدكتور عبدالله الشبل في تحقيقه لتاريخ ابن عباد إلى خلط تاريخي وقع فيه حينما ذكر أنه تولى دواس بن عبدالله بن شعلان في منفوحة سنة 1057هـ/1647م والصحيح أن الذي تولى في تلك السنة هو دواس بن عبدالله بن معمر في العيينة، على أن المصادر تشير إلى تولي دواس في منفوحة سنة 1095هـ وبعضها 1093هـ ولعل الأخير أقرب إلى الصحة، إذ من المرجح أنه ما قتل أفراداً من أسرته إلا بعد توليه السلطة أو هو في سبيل التولي لها.

(24) ابن عباد، ص 82، ابن بشر، السوابق، ص 100، 101، 156، وانظر: ابن بشر، عنوان، ج1، ص 29، 30، الفاخري ص 125، الذكير، ورقة 36، وقد وردت إشارات تاريخية إلى بعض الآثار المرتبطة بأسرة الجلاليل في منفوحة من أهمها حوشة الجلاليل في منفوحة التي كانت أرضاً زراعية زمن حكم آل دواس لمنفوحة. السليمان، ص 87.

(25) ذكر ابن غنام ج2، ص 5، ووافقه ابن بشر، ج1، ص 29، والذكير، ورقة 36 أن الذي قتل زيد بن زرعة أحد بني عمه وكان معتوهاً صعد إلى زيد وهو نائم في علية - أي مرتفع في البيت - فقتله بسكين معه ثم جاء مولى زيد المسمى خميس وتمكن من قتل القاتل ورميه من رأس العلية، واستولى على مقاليد الإمارة في الرياض، لكن الفاخري، ص 128، ذكر أن قتله كان نتيجة معركة بين أهل الرياض وبين قبيلة عنزة وذكر رأياً آخر في تاريخ قتله وهو سنة 1147هـ/1734م، ووافقه على ذلك إبراهيم بن صالح بن عيسى في كتابه: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان ط2، نشر دار اليمامة، ص 103، كما وافقه على ذلك البسام، في تحفة المشتاق، ورقة 106أ.

(26) ذكرت المصادر السابقة أن خميساً استمر في الإمارة نحواً من ثلاث سنين لكن يبدو من مقارنة التواريخ أن هذه المدة أكثر من ذلك فقد كانت أربع سنين أو أكثر، ويشير ابن غنام، ج2، ص 5، أن هذا المولى لما هرب من الرياض أقام في الحائر مدة ثم ارتحل منها إلى منفوحة. وأقام فيها مدة ثم عدا عليه أحد أهلها فقتله لأنه سبق أن قتل أباه إبان إمارته على الرياض بينما لم يشر ابن بشر، ج1، ص 29، إلى إقامته في منفوحة. وكلامه يوحي بأن الذي قتله أحد سكان الحائر ويبدو أن في الكلام سقطاً عند ابن بشر وأن الصحيح ما رواه ابن غنام.

مقاليد الإمارة إلى أن يتولاها وجعل نفسه نائباً له، ثم ما لبث أن أبان عن مقصده فأجلى ابن أخته واستأثر بالإمارة فنقم عليه أهل الرياض هذا التصرف ونظروا إليه على أنه مطرود من منفوحة، ومغتصب لإمارة الرياض فأثاروا في وجهه المشكلات وهموا بعزله واجتمعوا له لتنفيذ ما يريدون ضده من العزل أو القتل وحاصروه في قصره فالتقاهم وقتل منهم رجلين أو ثلاثة، لكنه ظل خائفاً منهم كما خاف مولى آل زرعة كذلك. وما زال يتحين الفرصة ليعاقب أهل الرياض وينتقم منهم ويلزمهم الطاعة والخضوع له؛ فأرسل أخاه مشلب إلى جاره أمير الدرعية محمد بن سعود في السنة نفسها 1151هـ يطلب منه مدداً يتقوى به على أهل الرياض حتى تستقر إمارته فيها، فبعث له الأمير محمد بن سعود أخاه مشاري على رأس جند من الدرعية، فاستعان بهم دهام على أهل الرياض وقاتلهم حتى انتصر عليهم وقتل منهم عدداً، وبقي مشاري بضعة شهور في الرياض ويبدو أن ذلك برغبة من دهام ابن دواس حتى استقرت له الأمور في الرياض وعظم أمره وعد نفسه من أمراء العارض بل من أمراء نجد البارزين، وأثر ذلك على إبرازه شخصيته بين هؤلاء الأمراء واتخاذه أسلوب الحزم والعنف والقسوة في حكم الرياض مثل ما فعل والده في حكم منفوحة[27].

ويمكن من خلال ما سبق وغيره من الأحداث المتعلقة بإمارة آل دواس في منفوحة وبدء إمارة دهام في الرياض أن نتبين ما يلي:

1 - وجود رأيين للنسابة والمؤرخين في أصل آل دواس لا يختلف عما عرف من آراء لهؤلاء في أصول بعض الأسر الحاكمة وغير الحاكمة في نجد.

2 - أن بدء إمارة آل دواس كانت في منفوحة والأقرب إلى الصحة أن ذلك كان عام 1093هـ / 1681م مما يدل على أن بدء هذه الإمارة يعد متأخراً عن وصول بعض الأسر العريقة للحكم في منطقة العارض كآل سعود وآل معمر، وهذا يعني أن إمارة آل دواس ليست عريقة في المنطقة ولم يحصل لها استقرار لا في منفوحة ولا في الرياض وإن استمرت في الأخيرة أكثر من ثلاثين سنة، لكنها سنوات حروب ونزاع مع الدولة السعودية الأولى وبالتالي فلم يحصل لدهام استقرار لحكمه فيها.

3 - أن أبرز سمات حكم آل دواس القسوة والعنف وأوضح مظاهره القتل، ولئن كان هذا ليس خاصاً بحكم آل دواس فقط بل هو حالة عامة في أغلب بلدان نجد في عهد الإمارات المتناحرة قبل قيام الدولة السعودية الأولى؛ فإن حكم آل دواس تميز بذلك منذ بدايته كما أكدت ذلك الأحداث السابقة، وبرز فيه أكثر حتى أدى إلى زواله من منفوحة، وكان هذا عاملاً مهماً أدى إلى نقمة بعض أهل منفوحة ثم أهل الرياض بعد ذلك على آل دواس بما استتبع ذلك من استيلاء دهام على إمارة الرياض بطريقة غير مشروعة كما مر.

---

(27) ابن غنام، ج2، ص 5، 6. ابن بشر ج1، ص 30.

4 - يمكن اعتبار سنة 1140هـ تقريباً نهاية حكم آل دواس في منفوحة وإجلائهم منها إلى الرياض أي بعد موت والدهم دواس سنة 1139هـ كما مر، كما يمكن اعتبار سنة 1151هـ / 1738م هي بداية حكم دهام بن دواس للرياض كما أكدت ذلك الأحداث السابقة في المصادر المحلية مما مر بيانه.

5 - فضل الأمير محمد بن سعود على دهام بن دواس بمجرد توليه الإمارة في الرياض سنة 1151هـ / 1738م حينما مد يد العون له حتى استقرت له الأوضاع الداخلية في الرياض، وكان بقاء مشاري مع قوته التي أرسلها محمد بن سعود في الرياض مدة من الزمن عاملاً ساعد كذلك على تحقيق ذلك الاستقرار، ويبدو أن بقاء مشاري مع قوته كان بموافقة من محمد بن سعود؛ فضلاً عن أنه برغبة من دهام بن دواس حتى تستتب له الأوضاع في الرياض. وقد تنكر دهام لهذا الجميل بمجرد قيام الدولة السعودية الأولى وبدأ حروبه الطويلة ضدها كما سيأتي.

ورغم ما اشتهر به حكم دهام بن دواس للرياض من قسوة وعنف، ورغم ما ترسم له المصادر المحلية المؤيدة للدولة السعودية الأولى من صورة قاتمة؛ فإن بعض الإشارات التاريخية تلمح إلى قيام حركة عمرانية في عهد هذا الأمير، فيبدو أن الرياض توسعت عمرانياً في عهده حتى أنه أحاط هذه المدينة بسور طويل مرتفع سميك البناء شمل منفوحة ومعكال[28] مع الرياض مما يدل على أن حكم دهام كان يشمل هذه البلدان أحياناً، وفي أحيان أخرى كانت تنفصل عنها، ولعل من أسباب محاربة دهام لمنفوحة بعد أن بايعت الدولة السعودية رغبته في إعادتها إلى إمارته، ويعد سور دهام بن دواس أشهر أسوار الرياض في فترة ما قبل الدولة السعودية الأولى، ويرى الشيخ حمد الجاسر أن بناء هذا السور كان في حوالي 1160هـ / 1747م حينما اشتدت الحرب بينه وبين قادة الدولة السعودية الأولى، فكانت هذه الحروب سبباً في بناء السور وقوته ومتانته، ويبدو أنه لقوة أساس هذا السور وبقائه مدة طويلة فقد كان أساساً لما وضع للرياض من أسوار بعد ذلك، وكانت بقايا هذا السور وآثاره موجودة إلى عهد قريب؛ فتشير بعض الروايات إلى أن محمد بن عبدالله بن رشيد[29] قد هدم هذا

---

(28) معكال بكسر الميم وإسكان العين حي قديم من أحياء الرياض وكانت بلدة عامرة منذ فترات متقدمة، وكان بينها وبين الرياض القديمة "مقرن" معارك عديدة حتى شكلتا أحياء الرياض فيما بعد. وتقع في جنوبي الرياض القديمة. ابن خميس، معجم اليمامة، ج2، ص 379، 380. السليمان، معجم مدينة الرياض، ص ص 227 - 231.

(29) هو محمد بن عبدالله بن علي بن رشيد تولى الإمارة سنة 1288هـ/1871م، وكان أميراً للحاج العراقي قبل ذلك ويلقب بالكبير. اشتهر بالحكمة وبعد النظر والحلم والعدل. وامتد حكمه إلى أطراف = العراق ومشارف الشام ونواحي المدينة ومنطقة نجد كلها أمنت السبل في عهده ومنع تعدي البدو على الحضر والقوافل، وكان على علاقة جيدة مع السلطان عبدالحميد الثاني (ت 1335هـ/1917م) وفكر في إنشاء ميناء بحري لنجد لكنه توفي قبل تحقيق أمنيته تلك فكانت وفاته في حائل سنة 1315هـ/1897م، وكان عقيماً فخلفه ابن أخيه عبدالعزيز بن متعب. ابن عيسى، المصدر السابق، ص 184، وذكر أن توليه الإمارة سنة 1289هـ، وانظر ص 199، بن ناصر، عبدالرحمن بن محمد، عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار =

السور سنة 1309هـ/ 1891م حينما استولى عليها حتى لا يكون هذا السور سبباً في صمود أهل الرياض، خاصة عندما هم الإمام عبدالرحمن الفيصل[30] باسترجاع الرياض والانطلاق منها لإعادة كيان الدولة السعودية الثانية[31].

ومن المعالم العمرانية في عهد دهام بن دواس قصر الإمارة الذي بناه دهام في وسط المدينة، وتسميه المصادر المحلية قصر دهام بن دواس لأنه كان المعلم البارز في الرياض في عهده، ولأنه أول من بناه، وكانت الإمارات المتعاقبة على الرياض تتخذه مقراً للإمارة، وقد استتبع بناء السور والقصر بناء عدد من الحصون التي كان الهدف منها التصدي لحملات الدولة السعودية الأولى على الرياض. ويبدو أن بناء هذا القصر قد تم في أوائل إمارة دهام على الرياض، فقد أشارت إليه المصادر المحلية في بداية المعارك بين الدولة السعودية الأولى ودهام بن دواس وخاصة سنة 1159هـ/1746م. وقد بقي هذا القصر معلماً بارزاً في الرياض في الفترات المتعاقبة بعد عهد دهام حتى هدمه محمد بن رشيد كما هدم السور سنة 1309هـ/ 1891م، لكن بقيت قواعده وأساساته، حيث يروى أن قصر الحكم في الرياض قام على هذه القواعد والأساسات[32].

ومن المعالم العمرانية في عهد دهام بن دواس بناء بعض السدود على بعض الوديان فقد أشار ابن بشر إلى سد يسمى الرشاء، وكان هذا السد قريباً من منفوحة ويبدو أنه بينها وبين الرياض. وكان بناء هذا السد من الصخور الضخمة المدعومة بأبراج مستديرة، وقد حدثت حوله موقعة بين جيش الدولة السعودية الأولى وجيش دهام بن دواس سنة 1170هـ / 1756م حينما بدأ جيش الدولة في هدم ذلك السد ففزع عليهم

= الحجاز واليمن ونجد، مخطوط ج1، ورقة 28، 29، 34 - 36، ستودارد، لوثروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض بإضافات شكيب أرسلان، ط4، دار الفكر بيروت، القاهرة 1394هـ/1973م، ج4، ص 171، الريحاني، أمين، نجد وملحقاته، ط4. نشر مؤسسة دار الريحاني، بيروت 1390هـ/1970م، ص 110، 111، الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط3، ج7، ص 122.

(30) هو عبدالرحمن بن فيصل بن تركي والد الملك عبدالعزيز ولد سنة 1268هـ/1852م كان مؤيداً لأخيه سعود في البداية، لكنه بعد أن توفي سنة 1291هـ/1874م بويع عبدالرحمن بالإمامة من قبل أهل الرياض لعدم وجود أحد من أبناء فيصل فيها فلما قدم أخوه عبدالله بايعه عبدالرحمن بالإمامة وتنازل له عنها، له محاولات لإعادة كيان الدولة السعودية الثانية والتصدي لآل رشيد حتى إذا استعاد الملك عبدالعزيز الرياض سنة 1319هـ/ 1902م أصبح مرجعاً لابنه ومعيناً له في توحيد المملكة. وفي الإمام عبدالرحمن زهد وورع وعلم، وقرت عينه = بتوحيد المملكة حتى توفي سنة 1346هـ/ 1928م. ابن ناصر، المصدر السابق ج2، ورقة 162 - 165، الزركلي، الأعلام ج4، ص 96، 97، صحيفة أم القرى، عدد 188، الجمعة 10 صفر سنة 1347هـ، ص 3، وعدد 189، الجمعة 17 صفر 1347هـ، ص 3، وعدد 199، الجمعة 15 جمادى الأولى سنة 1347هـ، ص 3.

(31) ابن عيسى، المصدر السابق، ص 197. الجاسر، حمد، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ط1، دار اليمامة 1386هـ/1966م، ص 95. ابن خميس، المرجع السابق، ج1، ص 490، 495. السليمان، المرجع السابق، ص 128، 235، 254.

(32) ابن غنام، ج2، ص 6، 9. ابن بشر، ج1، ص 30، 35. ابن عيسى، ص 197. الجاسر، المرجع السابق، ص 95. ابن خميس، ج1، ص 493، 495. مجموعة مؤلفين، منطقة الرياض دراسة تاريخية وجغرافية واجتماعية صدر بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ج3، ص 38. السليمان، ص 196، 197.

دهام عنده فاقتتلوا قتالاً شديداً، ويبدو أن هذا الحاجز قد اندثر واختفت معالمه في الوقت الحاضر[(33)].

ولا ريب أن دهام بن دواس قد استفاد كثيراً من مساعدة محمد بن سعود له في استتباب الأمن في الرياض لصالحه مما أكسبه قوة ونفوذاً كبيرين وازدادت هيبته بين أمراء العارض ونجد، وتقدمت الرياض في عهده تقدماً كبيراً واتسع عمرانها وكثر سكانها وازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية فيها مما زاد في شهرة دهام حتى أطلق عليه لقب "الشيوخ"[(34)]. وهذا اللقب لا يمنح في نجد إلا لمن كان له نفوذ واسع وهيبة عظيمة سواء كان من أمراء البلدان أو شيوخ القبائل[(35)].

وفي رسالته إلى معارضه سليمان بن سحيم أشار الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى دهام بن دواس بلقب الشيوخ بقوله: "إنك لما خرجت من عند الشيوخ وأتيت عند الشنيفي جحدت الكلام الذي قلت في المجلس"[(36)] كما قال في الرسالة نفسها: "وهذه مسألتك التي جادلت بها في مجلس الشيوخ"[(37)].

وفي إشارة إلى عظم مناوأة سليمان بن سحيم للدعوة ذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب لفظة الشيوخ. ويبدو من سياق الكلام أن المقصود بها دهام بن دواس حينما قال في إحدى رسائله: "وتأملوا ما جرى بيننا وبين أعداء الله[(38)] نطلبهم دائماً الرجوع إلى كتبهم التي بأيديهم في مسألة التكفير والقتال فلا يجيبوننا إلا بالشكوى عند الشيوخ وأمثالهم"[(39)].

كما أشار الشيخ محمد بن عبدالوهاب كذلك إلى دهام بن دواس بلفظ الشيوخ، وذلك في رده على سليمان كذلك بعدم أهليته لإمامة الناس في

---

(33) ابن غنام، ج2، ص 48. ابن بشر، ج1، ص 47. السليمان، ص 113. فيلبي، سنت جون، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تعريب عمر الديراوي، نشر المكتبة الأهلية. بيروت ص 50، 51.

(34) الشيوخ جمع شيخ والمراد به الوالي أو الحاكم الكبير، وقد تطلق على زعيم واحد من باب التفخيم والتعظيم وإظهار الهيبة وسعة النفوذ. وأصل إطلاقها قبلي على أساس أن زعيم القبيلة يسمى شيخاً؛ فإذا عظم أمر شيخ القبيلة تبعاً لكبر قبيلته وتعدد أفخاذها وسعة نفوذها أطلق عليه لقب "الشيوخ" ثم أخذت لأمير البلدة إذا علت مكانته كأنه يحكم بلداناً يحكمها عدد من الأمراء والشيوخ فهو شيخ الشيوخ، بحيث إن أي صاحب سلطان وزعامة يطلق عليه ذلك اللقب في ديرته وما يتبعها تمييزاً له عن غيره. العبودي، محمد بن ناصر، الأمثال العامية في نجد، نشر دار اليمامة. الرياض 1399هـ/1979م، ج2، ص 872. الزركلي، خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ط2، دار العلم للملايين، بيروت = 1397هـ/1977م، ج2، ص 649. العثيمين، عبدالله الصالح، تاريخ المملكة العربية السعودية: عهد الملك عبدالعزيز، ط1، مكتبة العبيكان 1416هـ/ 1995م، ص 306.

(35) الذكير، مصدر سابق، ورقة 40.

(36) ابن عبدالوهاب، الشيخ محمد، الرسائل الشخصية، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص 229.

(37) المصدر السابق، ص 230.

(38) لا يلزم من إطلاق الشيخ محمد بن عبدالوهاب على خصومه هنا وأبرزهم سليمان بن سحيم لفظة (عدو الله) أن يكون قصده العداوة لله سبحانه وتعالى بل قصده - رحمه الله - شدة معاداتهم للحق الذي جاء به لتجديد هذا الدين ومحاربة البدع مع وضوح ذلك الحق. ومن الأمور المألوفة في نجد أن يقول أحد المتخاصمين لخصمه: "يا عدو الله" تعبيراً عن شدة عداوته له وإنكار ما يعتقد أنه الحق.

(39) ابن عبدالوهاب، الشيخ محمد، المصدر السابق، ص 273.

الصلاة حينما أغرى بعض الشخصيات المهمة في الرياض وأبرزهم دهام نفسه ألا يصلوا خلفه أو خلف والده الذي لا يقل عداوة للدعوة عن ابنه، وأن يعزلوهما عن الإمامة فقال في ذلك: "وكلامنا هذا - وقصده الرد على من أباح السحر والطلاسم - لغيرك الذين عليهم الشرهة[(40)] مثل الشيوخ أو من يصلي خلفك كادوا - وفي بعض المصادر لعل - أن الله يهديهم ويعزلونك أنت وأبوك عن الصلاة بالناس لئلا تفسد عليهم دينهم، وإلا فأنا أظنك لا تقبل ولا يزيدك هذا الكلام إلا جهالة وكفراً "[(41)] وتوحي عبارة الشيخ هنا أن دهاماً كان في البداية مؤيداً أو مقتنعاً بصحة الدعوة، أو أن الشيخ محمداً والإمام محمد بن سعود كانا يعتقدان فيه ذلك مما يدل على أن سليمان كان أسبق من دهام في هذه المناوأة.

وبعد فيمكن القول في تحليل شخصية دهام بن دواس من خلال الأحداث التي قام بها سواء قبل قيام الدولة السعودية الأولى أو خلال حروبه معها إنه من الأمراء النجديين البارزين همة وإقداماً، وانه قوي الشكيمة صعب المراس موغلاً في عداوته مراوغاً في صداقته. لا يمنح هذه الصداقة ولا يهادن إلا لحاجة في نفسه حينما يحس بضعفها وقوة خصمه. وبمجرد أن يحس بقوته وضعف خصمه أو انشغاله عنه حتى ينقض هذه الهدنة ويلغي تلك الصداقة ويستأنف عداوته وحروبه من جديد سواء كانت عبر أعمال أو حروب يقوم بها منفرداً أو متحالفاً مع مؤيديه من القوى النجدية وغيرها[(42)].

أسباب بدء قتال الدولة لخصومها بدهام بن دواس:

تتداخل أسباب ضم الرياض مع الأسباب التي جعلت الدولة السعودية الأولى تبدأ النزاع المسلح بينها وبين خصومها إثر تكوين النواة الأولى للدولة التي تكونت من عدة بلدان هي الدرعية والعيينة وحريملاء ومنفوحة وما تبعها من بلدان أخرى مثل عرقة والعمارية، وإذا أدركنا أن انضمام هذه البلدان للدولة السعودية الأولى كان طواعية وتقبلاً لمبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أمكننا القول إن قيام الدولة السعودية الأولى كان سلمياً، ولم تلجأ الدولة إلى الحرب في بداية قيامها إلا بعد أن فرضت عليها من قبل دهام بن دواس، وبعد أن استنفد الشيخ محمد والقادة السعوديون الوسائل السلمية الأخرى من إرسال الرسائل والدعاة والوعاظ ونحو ذلك إلى الرياض والبلدان الأخرى.

ويمكن بتتبع الأحداث التي سبقت بدء القتال بين الدولة السعودية ودهام بن دواس تلمس الأسباب التالية التي جعلت جيش الدولة وجهاً لوجه أمام خصمها العنيد حاكم الرياض، وتتابعت بعد ذلك مراحل النزاع بينها وبين خصومها الآخرين في نجد:

---

(40) الشرهة: ما تتطلع إليه النفس من الحصول عليه عند أي شخص لفضله وتمييزه الأمور والمقصود ليس اللوم والعتاب عليك بل على الشيوخ.

(41) ابن عبدالوهاب، الشيخ محمد، المصدر نفسه، ص 230.

(42) الذكير، المصدر السابق، ورقة 40.

1- مهاجمته لمنفوحة سنة 1159هـ / 1746م، وتأتي أهمية هذا السبب في أن دهام بن دواس قد أصبح محاطاً بمناطق نفوذ سعودية حينما انضمت منفوحة للنواة الأولى التي تأسست عليها الدولة السعودية الأولى، ورغم أن من أسباب غزوه لمنفوحة إجلاء أسرته منها وعزلها من إمارتها؛ فإن انضمام منفوحة للدولة السعودية الأولى وتأييدها لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب هو السبب الرئيس الذي دفعه لغزوها، وهو السبب الذي تبرزه المصادر المحلية التي أشارت إلى أنه هاجمها على حين غفلة من أهلها لم يتبين لهم منه عداوة من قبل لكن الأحداث التاريخية السابقة تبين أن نذر الحرب من دهام ضد منفوحة كانت موجودة، وأن الهجوم كان متوقعاً كما سلف من الأسباب السابقة، وأن غزو منفوحة هو السبب الرئيس الذي أجج هذا النزاع بعد ما رأى دهام أن تكوين النواة الأولى للدولة جعله بين فكي الكماشة منفوحة من الجنوب والدرعية من الشمال فأيقن أنه أحيط به، وأن ذلك لن يدع حكمه في الرياض يستقر فضلاً عن رغبته في ضم منفوحة إلى الرياض[43]، فرأى ضرورة التحرك سريعاً لإزالة أو أضعاف أخف الخطرين عليه؛ فقرر مهاجمة منفوحة بتلك الغزوة حتى ينفرد بها مستغلاً ضعف الدولة في بداية قيامها، معتقداً أن ذلك أسهل عليه من مهاجمة الدرعية للأسباب التالية:

أ - أن منفوحة أقرب إلى الرياض من الدرعية، وهي في نظر دهام تابعة للرياض.

ب - أن منفوحة أضعف عسكرياً وهي منعزلة عن بلدان النواة للدولة، لأن الرياض تشكل حاجزاً بين منفوحة والدرعية، وإمكاناتها العسكرية لا ريب أقل من إمكانات الدرعية.

ج - أن إمارة منفوحة كانت سابقاً في أسرته وأجليت منها فأراد أن ينتقم من أهلها بهذه الغزوة.

د - أن دهام بن دواس على علم سابق بتحصيناتها ومداخلها[44].

وقد تمت مهاجمة دهام لمنفوحة بأن كمن ليلاً حول سورها، وأمر بعض البادية الذين معه أن يغيروا بخيلهم على مزارع منفوحة. فلما حل الصباح أغارت الخيول وفزع أهل منفوحة للحرب فانضم دهام بكمينه وأصبح ردءاً للفرسان حتى تمكنوا من الاستيلاء على قصر الإمارة لكن علي بن مزروع أمير منفوحة المنضم للدولة السعودية الأولى ثبت بمن معه فصعدوا بيتاً قريباً من قصر الإمارة المحتل من دهام فردوه وشددوا عليه الحصار وقتل من جنده عشرة رجال وقتل حصانه وقطعت أصابع رجله؛ فنزل من القصر وبقية جنده وهربوا إلى الرياض؛ وبدأت مظاهر العداوة بينه وبين الإمام محمد بن سعود تبرز تدريجياً، ويبدو أن دهام بن دواس كان مدركاً لقوة أهل منفوحة، خاصة بعد انضمامها للدولة السعودية

(43) ابن غنام، ج2، ص6. ابن بشر، ج1، ص30. أبو علية، محاضرات، ص27.

(44) الذكير، ورقة 40. أبو علية، ص27. العثيمين، تاريخ المملكة، ج1، ص93.

مما جعله يستعد لهم بالاستعانة ببعض القبائل البدوية[45].

2- إغارة دهام بن دواس بعد منفوحة على العمارية[46] وهي إحدى البلدان التي تكونت منها النواة الأولى للدولة، وكانت إغارته تلك في السنة نفسها حيث قتل أحد رجالها وعقر إبله[47]، ولا شك أن هجومه على منفوحة وإغارته على العمارية نظر إليه قادة الدولة السعودية الأولى على أنه مظهر عدائي واضح، وبذلك بدأت الحروب تتابع بيت الدولة الجديدة ودهام بن دواس، والذي يظهر من رواية هذين الحدثين في المصادر المحلية أن خصوم الدولة السعودية وأولهم وأبرزهم دهام بن دواس هم الذين بدأوا الهجوم عليها بغزو أتباعها، وأن الدولة حريصة في هذه الفترة على الأقل على أن يتم نشر الدعوة وتوسع الدولة سلماً ما أمكن ذلك، وقد يسند ذلك ما ورد في رسالة الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى عبدالرحمن بن عبدالله السويدي[48] حينما قال: " وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ﴾[49]، وإذا كان كلام الشيخ هذا ينطبق تمام الانطباق على علاقة دهام بن دواس والدولة السعودية الأولى في إغارته على بعض البلدان التابعة لها ورد الدولة ونجدتها لأتباعها في هذه البلدان، فإن المطلع على ملامح العلاقة بين هذه الدولة والقوى الأخرى في شبه الجزيرة يدرك أن هذا الكلام ينطبق عليها، كذلك فلم تقم الدولة السعودية الأولى بغزو الأحساء إلا بعد أن شن بنو خالد حملات عديدة ضد الدرعية، فكان غزو الدولة للأحساء رداً على تلك الحملات الكبرى والصغرى التي شنها بنو خالد عليها سواء كان ذلك بقواتهم الخاصة أو كانوا متحالفين مع القوى الأخرى.

كما أن ذلك ينطبق على علاقة قادة الدولة السعودية الأولى بأشراف الحجاز؛ فلم يقم هؤلاء

(45) ابن غنام، ج2، ص 6، 7. ابن بشر، ج1، ص 30. ويبدو أن من أسباب انضمام علي بن مزروع بالإضافة إلى اقتناعه بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قتل دواس والد دهام لبعض أفراد أسرته، مما جعله يقتنع بأن الدخول في طاعة الدولة السعودية الأولى أفضل من خضوع منفوحة لدهام. انظر: السليمان، مرجع سابق، ص 235.

(46) العمارية نسبة إلى وادي عمار أكبر روافد وادي حنيفة ويسمى وادي العمارية وتبعد عن الرياض حوالي 40 كيلاً إلى الشمال الغربي منها، وهي تتبع محافظة الدرعية وقد ورد ذكرها في كتب الجغرافيين المسلمين، كما مرت بها أحداث تاريخية قبل العهد السعودي وخلاله. ابن خميس، المرجع السابق، ج2، ص ص180 - 184.

(47) ابن غنام، ج2، ص 7. ابن بشر، ج1، ص 31. البسام، تحفة، ورقة 110 أ.

(48) هو عبدالرحمن بن عبدالله السويدي ولد في بغداد سنة 1134هـ / 1722م له بعض الكتب في العقيدة والفقه والتاريخ والنحو توفي في بغداد سنة 1200هـ/ 1786م، ويبدو أن له مكانة بارزة بين علماء العراق وخشي الشيخ أن يكون لشبهات مناوئيه تأثير عليه فأرسل له هذه الرسالة، وللتوسع في ترجمته انظر: السويدي، عبدالرحمن، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق عماد رؤوف نشر الدار الوطنية بغداد 1398هـ/1978م، ص ص16 - 26 من مقدمة المحقق، الزركلي، الأعلام، ج4، ص 87.

(49) الشورى آية (40)، وانظر: ابن عبدالوهاب، الشيخ محمد، الرسائل الشخصية، ص 38. ابن غنام، ج1، ص 154.

القادة بغزو الحجاز والاستيلاء عليه إلا بعد أن قام أشراف الحجاز بغزو بلدان نجد أو البلدان الواقعة بين نجد والحجاز التي أعلنت تبعيتها للدولة السعودية، كما أن ذلك كان رداً على مضايقة هؤلاء الأشراف لبعض القبائل والأفخاذ التي أيدت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأعلنت دخولها في طاعة الدولة السعودية الأولى. وهذا ما يؤكد الحقيقة التاريخية السابقة في تداخل أسباب ضم الرياض مع الأسباب التي أدت إلى ضم البلدان والمناطق الأخرى.

3- مضايقة دهام بن دواس لأتباع الدعوة والدولة في الرياض؛ فقد دأب دهام على هذا الأمر منذ رفضه الانصياع لرغبة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب والإمام محمد بن سعود في تأييد الدعوة والدخول في طاعة الدولة حينما أرسلا له في هذه السنة 1159هـ/1746م رسالة بهذا الخصوص. وقد أشار ابن غنام إلى إقراره بأن ما جاء به الشيخ هو الحق الذي لا مرية فيه، ولكن الحسد والبغي حالا بينه وبين الإذعان لما يريده الشيخ والإمام محمد بن سعود، ثم صب جام غضبه ونقمته على أتباع الدعوة في الرياض بعد أن رأى ازدياداً في عددهم وإخلاصاً منهم لمبادئ الدعوة وصدقاً في الولاء للدولة السعودية الأولى؛ فكلما نما إلى علمه أن أحداً من أهل الرياض أحب الدعوة وأيدها سخر منه وعاقبه، وقد أورد ابن غنام أحداثاً تؤكد هذا الجانب وتقرره، مشيراً إلى أن له قضايا كثيرة محققة شهيرة، وأن أهل الرياض كانوا يعانون منه التنكيل والمضايقة، وقد تزامنت هذه الأعمال مع غزوه لمنفوحة والعمارية وإن كان بعض منها قد سبقها والبعض الآخر قد أعقبها، إذ كلما نقض العهد مع الدولة وأحس بقوته حاربها من ناحية وضايق أتباعها في الرياض من ناحية أخرى. ويبدو أن بعضاً من هؤلاء الأتباع كان يلجأ إلى الدرعية مشكلاً عامل ضغط وتشجيع لقادة الدولة لغزو الرياض[(50)].

4- تحديه للدعوة في أهم ما تدعو إليه وهو التوحيد وإخلاص العبادة لله ونفي ما يضاد ذلك من الشركيات والبدع والمخالفات. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن من أسباب حروب الدولة السعودية لدهام إقدامه على ذبح نذور لشخص يعتقد بولايته وهو تاج، كما أشارت المصادر إلى وجود قبة في الرياض باسم هذا الشخص المعتقد فيه، ويبدو أن دهاماً هو الذي بناها أو أنه أبقاها من بناء سابق، كما لا يستبعد أن دهاماً كذلك كان يشجع بعض المظاهر الشركية والبدعية في معكال وليس شرطاً أن يكون مؤمناً بها بل نكاية بالشيخ محمد بن عبدالوهاب ومؤيديه من آل سعود؛ فلعل بعض أهل معكال قد أوعزوا إلى دهام إشعال الحرب مع الدولة السعودية الأولى فاجتمعت أهداف المناوأة السياسية عند دهام مع أهداف المناوأة العقدية عند بعض أهل معكال، وإذا كان من المعلوم أن معكال تنضم أحياناً إلى الرياض وخاصة في عهد دهام فمن المتوقع أن تلقى هذه الشركيات والبدع تشجيعاً من دهام إرضاء لمن يعتقدون بها من أهل معكال، أو نكاية

---

(50) ابن غنام، ج2، ص 4، 6.

بالدعوة والدولة في هذا الأساس العقدي الذي قامت عليه. ومما أشارت إليه المصادر من هذه الشركيات والبدع في معكال بعض الأشخاص الذين يعتقد بولايتهم مثل طالب الحمضي وحسين وادريس ويوسف وغيرهم، ووجود بعض مظاهر التصوف وأحياء الموالد - ولعله بدعة الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ (51) وغير ذلك.

5- تنكره لجميل محمد بن سعود عليه في بداية توليه الإمارة كما مر ومساعدته له في ضبط الأمور في الرياض لصالحه، ويبدو أن العلاقات بينه وبين الأمير محمد بن سعود كانت طيبة نتيجة لتلك المساعدة التي ثبتت إمارته وأبرزت مكانته بين أمراء البلدان النجدية؛ فلما اتفق الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب على نصرة الدعوة وإقامة الدولة تغير موقف دهام بسرعة وأظهر العداء والمناوأة لمحمد ابن سعود والشيخ محمد(52)، ويبدو أنهما توقعا منه الموافقة على قبول الدعوة والدخول في طاعة الدولة نتيجة ذلك الجميل إلا أنه رفض ذلك ولم يكتف بذلك بل سعى في صد الناس عنها داخل الرياض وفي البلدان القريبة منها كما مر. عند ذلك ثارت نقمة الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب عليه فضلاً عن اعتداءاته السابقة على أتباع الدعوة والدولة فقررا الرد على غزواته والسعي في ضم الرياض.

6- قوة المناوأة العلمية والدينية في الرياض بزعامة سليمان بن سحيم ووالده، وإدراك الشيخ محمد لخطرها على دعوته بمحالفة سليمان القوية لدهام وتبريره الشرعي لأعماله العدائية ضد الدعوة والدولة، وكذلك بتحالف سليمان أو محاولته التأثير على علماء نجد وأئمة المساجد في بعض البلدان، فضلاً عما اشتهر عن سليمان من محاولته تشويه الدعوة والإساءة إلى سمعة الشيخ في بعض المناطق خارج نجد، ولذلك سعى الشيخ محمد إلى الرد العلمي على شبهاته، والتحذير من آرائه ومواقفه، ويدل حرص الشيخ محمد على عزل ابن سحيم ووالده عن إمامة الناس في الصلاة في الرياض كما مر على تأييد ابن سحيم لبعض البدع في الرياض، وقوة تأثيره على العامة والخاصة فيها خصوصاً دهام بن دواس، ولا شك أن قوة هذه المناوأة من ابن سحيم كانت سبباً مهماً في إدراك قادة الدعوة والدولة لخطورته، وجعل القضاء على نفوذه ومكانته الدينية والاجتماعية أحد أهم أسباب ضم الرياض.

7- الشعور الطبيعي لدى قادة أي دولة فتية تعتقد أنها قادرة على توسيع نفوذها وتوافرت لها أسباب ذلك في حربها مع دهام بن دواس خاصة عندما بدأها الحرب والقتال، فالدولة السعودية الأولى بعد تكوين نواتها الأولى أحست أنها قوية، ورأى قادتها ضرورة التوسع فيما حول النواة أولاً بالرد على غزوات خصومها، وانطلقوا في ذلك من ضرورة توحيد منطقة العارض أولاً وصولاً إلى توحيد نجد كلها وما يمكن ضمه من مناطق شبه

(51) ابن غنام، ج1، ص ص 138 - 139. ابن بشر، ج1، ص 30. السليمان، ص 228، 229.

(52) ابن غنام، ج2، ص 6. ابن بشر، ج1، ص 30.

الجزيرة بعد ذلك؛ فبعد بروز المعطيات الخيرة لتكوين النواة الأولى للدولة رأى قادة الدولة السعودية أنه لا يجوز الاستمرار في الوضع الديني والسياسي والإداري الشاذ المتفرق؛ فإما أن تؤمن بقية بلدان نجد بالدعوة وتنضم للدولة طواعية وهو ما حصل من بعض البلدان والقبائل، وإما أن تحمل على ذلك بالقوة وهو ما حصل في بعض البلدان والقبائل الأخرى بعد استنفاد الوسائل السلمية في ضم هذه البلدان والقبائل(53).

وبعد: فقد كانت ملامح العلاقة بين سليمان ابن سحيم ودهام بن دواس من جهة والشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام محمد بن سعود من جهة أخرى قبل ضم الرياض، والأسباب التي أدت إلى النزاع بين الزعامتين إرهاصاً وتوطئة لبدء محاولات الدولة إخضاع بلدان نجد الأخرى وصولاً إلى إخضاع قبائلها مما جعل النزاع مع حاكم الرياض يعد صورة صادقة للنزاع مع بقية زعماء نجد بل مثلاً لنزاع الدولة مع القوى المجاورة لنجد، ولا غرو في ذلك فقد كانت بعض أحداث النزاع مع دهام ذات أثر بارز في النزاع مع البلدان والقوى الأخرى وذلك بتحالف دهام معها ودعمه وتأييده لها.

الخاتمة:

لقد ظهرت لي من خلال هذا البحث جملة من الأفكار والنتائج التي تبين طبيعة العلاقة بين الزعامتين الدينية والسياسية في الرياض والدرعية قبل ضم الرياض في عهد الدولة السعودية الأولى، ويمكن أن أجملها فيما يلي:

1- قدم العلاقة بين دهام بن دواس والإمام محمد بن سعود؛ فقد سبقت قيام الدولة السعودية الأولى بالجميل الذي أسداه محمد ابن سعود لدهام حينما أيده بقوة استتب له الأمر في الرياض بسببها.

2- أهمية العامل السياسي والإداري في تحديد مواقف المؤيدين والمناوئين من الأمراء النجديين من الدولة السعودية تبعاً لنظرة كل واحد منهم لما سيؤول إليه وضعه في ظل الدولة الجديدة.

3- أهمية العامل الديني في تحديد مواقف المؤيدين والمناوئين من علماء نجد تجاه دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تبعاً لاقتناع أو عدم اقتناع هؤلاء بصحة هذه الدعوة، وحاجة المنطقة إليها، أو كانت المواقف المناوئة تحت تأثير الغيرة والخوف من فقدان المكانة الاجتماعية لدى المناوئين خاصة.

4- أن استمرار مناوأة سليمان بن سحيم لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ساهم في إطالة أمد الحرب بين الدولة السعودية ودهام بن دواس، بما كان يثيره ابن سحيم من شبهات، وما يوجده من مبررات شرعية لدهام في حربه ضد الدولة السعودية.

5- أن سليمان بن سحيم أخذ جانباً من المناوأة العلمية عن والده، حيث إنه تلقى العلم ابتداء على والده.

---

(53) العريني، عبدالرحمن، الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى نشر = الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة 1419هـ/1999م، ص 98.

6- حرص الشيخ محمد على انضمام الشيخ سليمان إلى الدعوة واستعمال أسلوب اللين معه حينما أحس بشيء من الاعتراف منه بصحة الدعوة، لكنه ما لبث أن تغير وأخذ يثير الشبهات حول الدعوة.

7- أن مناوأة سليمان بن سحيم كانت مبكرة والدعوة في العيينة مما يعني أنه أسبق من دهام بن دواس، ثم ازدادت بعد رحيل الشيخ محمد إلى الدرعية وقيام الدولة السعودية الأولى، وبدء الحرب مع دهام بن دواس.

8- أن سليمان بن سحيم رحل عن الرياض إلى الزبير بعد أن رأى أنه لا قبل له بهذه الدعوة، وكان رحيله قبل ضم الرياض مما يعني أن هذا الرحيل كان من أسباب ضعف دهام بن دواس وضم الرياض فيما بعد.

9- أن خلاف النسابة والمؤرخين في نسب آل دواس ينسجم مع حرص بعض القبائل والأسر على نسبة بعض الأمراء إليها، مع ما عرف عند القبائل العربية من الحلف والجوار.

10- أن أبرز سمات حكم آل دواس في منفوحة القسوة والعنف مما أدى إلى زواله عن منفوحة.

11- بروز بعض الجوانب الإيجابية في حكم دهام ابن دواس للرياض وخاصة في الناحية العمرانية ببناء القصور والأسوار والسدود.

12- أن أسباب نزاع الدولة مع دهام بن دواس قد بدأت بعد تكوين النواة الأولى، وبعد تعدي دهام على منفوحة بسبب ولائها للدولة السعودية الأولى، وعلى بعض سكان الرياض بسبب تبعيتهم للدعوة، مما يعني أن البادئ بالحرب هو دهام نفسه وليس قادة الدولة السعودية.

Consultants

Prof. Abdullah Yoursif Al-Shibl, Former-President of Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University, Riyadh.

Prof. Abd Al-Aziz Al-Duri, Department of History, College of Arts. The University of Jordan, Jordan.

Prof. Abd Al-Aziz Al-Helabi, Department of History, College of Arts. King Saud University, Riyadh.

Prof. Abd Al-Jelil Temimi, Le Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisquesm de Documentation et d'Information, Tunisia.

Prof. Ali Mohafza, Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Jordan, Jordan.

Prof. Daif Allah Yhya Al Zahrani, Department of Historical & Cultural Further Studies, Umm Al-Qura University.

Prof. Ekmeledin Ihsanoghlu, Director General, Research Centre for Islamic History, Art and Culture. Istanbul. Turkey.

Dr. Fahd Ibn Abdullah Alsmari, Secretary General, King Abdul Aziz Foundation for Research and Archives, Riyadh.

Prof. Halil Inalcik, The University of Chicago, Middle East Center, Chicago, U.S.A.

Prof. Ibrahim Shbbuh, Director general de la Bibliotheque Nationale, Tunis, Tunisia.

Prof. Irfan Shahid , George Town University, Washington D.C., U.S.A.

Prof. Jamal Zakaria Qasim, Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt.

Prof. Khairia Kasmieh, Modern and Contemporary History, Dept. of History, Damascus University, Syria.

Prof. Mostafa Kamal Abdul-Alim, Department of History. Aen Shams University, Cairo. Egypt..

Prof. Mohammad Adnan Al-Bakhit, Former-President of Al- Albait University . Amman, Jordan.

Prof. Mohammad Fantar, Director du Centre de la Civilisation Punique, Tunis, Tunisia.

Prof. Mohammed Ziyad Kebbe, College of Arts, King Saud University, Riyadh.

Prof. Naser Al-Din Al-Asad, Director, Royal Academy for Islamic Civilization Research, Amman, Jordan.

Prof. Richard L. Chambers, The University of Chicago, Middle East Center, Chicago, U.S.A.

Ages

P.O. Box 10720 Riyadh 11443 , Tel 4647531 – 4658523 , Fax 4657939 .
Email : marspub1@zajil.net

Web Site : http://alosour.netfirms.com
E-mail : al_Osour@hotmail.com

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

All MSS should be addressed to :
- Mars Publishing House,
P.O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Lts.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

Ages

A Semal - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 15
PART 1
January 2005
DHUAL-QA'DAH 1425

Published by : Mars Publishing House London

العصور

مجلة علمية مُحَكّمة، نصف سنوية، تعنى بنشر البحوث التاريخيّة والآثاريّة والحضاريّة

المجلد الخامس عشر

الجزء الثاني

يوليو 2005م

جمادى الأولى 1426هـ

دار المريخ للنشر

تصدر عن : دار المريخ للنشر - لندن

بسم الله الرحمن الرحيم

العصور

موقع المجلة على الإنترنت
http://alosour.netfirms.com

البريد الإلكتروني للمجلة
al_osour@hotmail.com

تكون جميع المراسلات والاشتراكات لجميع دول العالم على العنوان التالي :

- دار المريخ للنشر — ص . ب 10720 الرياض : 11443 — المملكة العربية السعودية.
- دار المريخ للنشر — 4 ش الفرات — مدينة المهندسين — جمهورية مصر العربية.
- هاتف 3376579 فاكس 7609457.
- الدار العربية للنشر والتوزيع — 49 جولد هوك رود، لندن - W128QP المملكة المتحدة.

الاشتراكات السنوية :

- المملكة العربية السعودية (100) ريال سعودي.
- الدول العربية (35) دولاراً أمريكياً أو ما يعادلها.
- الدول الأوروبية (40) دولاراً أمريكياً .
- أمريكا وكندا (45) دولاراً أمريكياً .
- استراليا وجنوب شرق آسيا (50) دولاراً أمريكياً .

*** ما ينشر في هذه المجلة من مواد تعبر عن آراء أصحابها.**

المستشارون

الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح ، المدير العام لدار الكتب الوطنية ، تونس - الجمهورية التونسية.

الاستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو ، مدير عام مركز الأبحاث للتاريخ والفن والثقافة الإسلامية ، استانبول - الجمهورية التركية .

الاستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم . أستاذ التاريخ الحديث ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

الأستاذ الدكتور خليل إنالجيك ، قسم دراسات الشرق الأوسط ، جامعة شيكاغو - الولايات المتحدة الأمريكية .

الاستاذ الدكتور خيرية قاسمية ، قسم التاريخ - جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية.

الأستاذ الدكتور ريتشارد تشيمبرز ، قسم دراسات الشرق الأوسط ، جامعة شيكاغو - الولايات المتحدة الأمريكية .

الأستاذ الدكتور ضيف الله يحيى الزهراني، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية. جامعة أم القرى، مكة المكرمة .

الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي ، أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة التونسية ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق ، زغوان، الجمهورية العربية التونسية .

الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري ، أستاذ التاريخ الإسلامي ، الجامعة الأردنية ، عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية .

الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح الهلابي ، قسم التاريخ - جامعة الملك سعود - الرياض.

الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (سابقاً) - قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض .

الاستاذ الدكتور عرفان شهيد . جامعة جورج تاون، واشنطن دي . سي - الولايات المتحدة الأمريكية .

الاستاذ الدكتور علي محافظة . كلية الإنسانيات والدراسات الإسلامية ، الجامعة الأردنية - المملكة الأردنية الهاشمية.

الدكتور فهد بن عبد الله السماري. أمين عام دارة الملك عبد العزيز، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الاستاذ الدكتور محمد زياد كبة ، كلية الآداب - جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية.

الأستاذ الدكتور محمد فنطر ، مدير مركز الدراسات البونيقية واللوبية . تونس - الجمهورية التونسية .

الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت ، رئيس جامعة آل البيت (سابقاً) - الجامعة الأردنية - عمان - المملكة الأردنية الهاشمية .

الأستاذ الدكتور مصطفى كمال عبد العليم . قسم التاريخ ، جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية.

الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ، رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية .

العصور، المجلد الخامس عشر ، الجزء الثاني، 1- 119، القسم العربي، 1-21، القسم الإنجليزي (2005م).

المحتويـــات

القســم العربــي

English Section

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الثاني، 7 – 23 (2005م)

نقوش سبئية جديدة
دراسة تحليلية في دلالاتها اللغوية والتاريخية

د. عميدة محمد شعلان

ملخص البحث:

يُعنى هذا البحث بدراسة تحليلية لغوية وتاريخية لخمسة نقوش سبئية جديدة، من مجموعة نقوش متحف قسم الآثار بجامعة صنعاء[1]. مصدر هذه النقوش الخمسة هي مدينة الجوف (الخربة البيضاء).

بعد الأطلاع على مدونات النقوش السبئية المنشورة حتى الآن، تبين بأن هذه النقوش الخمسة جديدة لم يسبق نشرها من قبل. وبالرغم من أن هذه النقوش – في غالبيتها – غير مكتملة، وذلك بسبب التلف الذي أصابها، إلا أنها تحتوي على معلومات قيمة وهامة؛ لما فيها من ذكر لأسماء أعلام جديدة، سواء كانت اسم شخص، أو اسم أرض، أو اسم ملك أو اسم عائلة يمنية قديمة أو غير ذلك. وبالتالي فهي تعد إضافة جديدة إلى تاريخ اليمن القديم بشكل عام، وإلى اللغة اليمنية القديمة بشكل خاص.[2]

وهذه النقوش الخمسة تحمل الأرقام التالية: (A-20-846; A-20-659; A-20-555; A-20-899; A-20-172).[3]

النقش رقم (1):

الرقم المتحفي للنقش: A-20-846

مصدر النقش: قرية المصلوب - بني نوف - الجوف

مادة النقش: حجر جيري

أبعاد النقش: الطول 16 سم، العرض 7 سم، الارتفاع 13 سم

---

(1) يضم متحف قسم الآثار بجامعة صنعاء مجموعة كبيرة من النقوش اليمنية القديمة غير المنشورة، وقد سبق للباحثة أن نشرت بعضاً منها في ثلاثة أبحاث، الأول: "نقوش جديدة من متحف قسم الآثار: دراسة تحليلية لغوية لثلاثة نقوش قصيرة"، مجلة الإكليل، العدد 26، 2002م، ص ص 100- 107، الثاني: "نقش جديد من نقوش ذي سماوي"، مجلة أدوماتو، العدد السادس، 2002م، ص ص 7- 14، والثالث: "دراسة تحليلية لنقش معيني جديد"، بحث قدم لمؤتمر الخطوط والنقوش والكتابات في العالم عبر العصور، الإسكندرية- جمهورية مصر العربية، 2003م، قيد النشر.

(2) جاء تأريخ الباحثة لهذه النقوش في الحقيقة اعتماداً على نمط الخط إلى جانب ذكر لبعض أسماء الأعلام، وهي على كل حال تواريخ تقريبية، لأن النقوش غير مؤرخة وبالتالي عملية إعطاء تواريخ دقيقة غير ممكنة.

(3) تاريخ حيازة النقوش الخمسة كالتالي: الأول: في 1986/2/22م، الثاني: في 1985/11/17م، الثالث: في 1985/9/28م، الرابع: في 1991/3/18م، الخامس: في 1984/4/7م.

وصف النقش: (نقش رقم 1) عبارة عن قطعة من الحجر الجيري مستطيلة الشكل تقريباً، نُفّذ عليها نقش في ستة أسطر مكتوبة بخط المسند، بطريقة الحفر الغائر. الجزآن الأيمن والأيسر من النقش مكسوران، وهناك طمس لبعض الحروف في منتصف النقش. أما السطر السادس فلم تظهر منه سوى الأجزاء العليا لبعض الحروف. وبشكل عام فإن النقش ينتمي إلى مجموعة النقوش النذرية.

أهمية النقش: تكمن أهمية النقش في ذكر أرض **نجران**، وهي الأرض التي جاء ذكرها في عددٍ من النقوش السبئية، والتي سيرد ذكرها في السطور القادمة بالتفصيل.

تاريخ النقش: حوالي القرن الرابع الميلادي

النص بالحرف المسند:

1. ...] 𐩲𐩻𐩩𐩧 | 𐩥𐩨𐩬𐩺𐩠]𐩥 ...
2. ...] 𐩥𐩲𐩨𐩵𐩱𐩨𐩠𐩥 | 𐩥𐩱 [..] 𐩲 [...
3. ...| [𐩱𐩵𐩣 | 𐩣𐩡𐩫𐩬 | [𐩠𐩤𐩬𐩺] 𐩥 | 𐩹 [...
4. ...] | 𐩮𐩡𐩣𐩬 | 𐩹𐩹𐩠𐩨𐩬 | 𐩡 [...
5. ...] 𐩬𐩴𐩧𐩬𐩲𐩵𐩺 | 𐩱𐩧𐩳 | [...
6. ....𐩠𐩢.........

النص بالحرف العربي:

1. ...] ع ث ت ر/ و ب ن ي هـ لو...
2. ...] و ع ب د أ ب هـ و/ و أ [..] ع [...
3. .../ أ] د م/ م ل ك ن/]هـ ق ن ي]و/ ذ [...
4. ...] ص ل م ن/ ذ ذ هـ ب ن/ ل [...
5. ...] ن ج ر ن ع د ي/ أ ر ض/ [...
6. ....هـ ح.........

محتوى النص باللغة العربية:

1. ...] عثتر وأبنائه [...
2. ...] وعبد أبهو و أ [..] غ [...
3. ...أ] تباع الملك لقربوا ذ[...
4. ...] التمثال (المصنوع) من الذهب لـ [...
5. ...] نجران حتى أرض [...
6. ....هـ ح.........

الحاشية:

السطران 1- 2: ...] ع ث ت ر: واضح أن بداية النقش قد تلفت حروفه الأولى التي تشكل اسم صاحب النقش، ومن الملاحظ أن اسم العلم هنا مركب، والذي لم يتبق منه سوى العنصر الثاني وهو اسم المعبود عثتر. فهناك أسماء أعلام مركبة لأشخاص اقترنت كثيراً باسم المعبود عثتر، كما هو الحال في النقوش السبئية[4]، والمعينية[5]، والقتبانية[6]، منها

---

(4) Salem Tairan, *Die Personennamen in den altsabäischen Inschriften. Ein Beitrag zur altsüdarabischen Namengebung*. Texte und Studien zur Orientalistik 8, (Hildesheim: Olms, 1992), P. 261; Mounir Arbach, *Les Noms Propres du Corpus Inscriptionum Semiticarum Pars IV: Inscriptiones Himyariticas et Sabœas Continens*. Inventaire des inscriptions sudarabiques. Tom 7 (Paris: Instituto per il Medio ed Estremo Oriente, 2002), P. 442.

(5) Said F. Al-Said, *Die Personennamen in den minäischen Inschriften . Eine etymologische* = *und lexikalische Studie im Bereich der semitischen Sprachen*. Veröffentlichungen der Orientalischen Kommission der Akademie der Wissenschaften und Literatur Mainz 41, (Wiesbaden: Harrassowitz, 1995), P. 227.

(6) Hani Hayajneh, *Die Personennamen in den qatabānischen Inschriften. Lexikalische und grammatische Analyse im Kontext der semitischen Anthroponomastik*. Texte und Studien zur Orientlaistik 10, (Hildesheim: Olms, 1998), P. 292.

على سبيل المثال: أوس عثت، كرب عثت، لحي عثت ...إلخ.

و ب ن ي هـ و...: الواو حرف عطف. **بنيهو**: اسم في حالة الجمع، بمعنى "بنيه أو أبناؤه". ونظراً للكسور الموجودة في الجزء الأيسر من النقش، فيحتمل أن تكون هناك مجموعة من الأسماء - ربما أسماء الأبناء - تلي كلمة **وبنيهو**.

وعبد أبهو: واضح من حرف العطف أن هناك أسماء أخرى تسبق الاسم نفسه. **عبد أبهو**: اسم علم مركب من **عبد** ومن اسم المعبود السامي **أب**[7]، ومن ضمير المفرد الغائب **هو**، بصيغة الجملة الإسمية. ولعله من الممكن قراءة الاسم "عبد أبيهو". جاء ذكر هذا الاسم في النقش السبئي (Ja 2116/4-5)[8]، كما جاء أيضاً بصيغة **عبد أبهـ** في إحدى المخربشات السبئية (RyGS)[9]، أما صيغة الاسم المؤنث منه - اسم لامرأة - فهو **أمت أبهـ** ورد هكذا في النقش السبئي (Haram 34/1 = CIH 533)[10]، وعلى خط الزبور السبئي (Mon.sript.sab. 1/6)[11]، أما في المصادر العربية فقد جاء الاسم بصيغة **أمت أبيها**.[12]

السطران 3- 4: ...أا د م/ م ل ك ن: أدم: اسم جمع بمعنى "أتباع، مَوالٍ، رعية".[13] **ملكن**: اسم مفرد معرف بالنون في آخره بمعنى "الملك"، والمعنى العام "أتباع الملك". **ص ل م ن/ ذ ذ هـ بْ ن: صلم**: اسم مفرد مذكر بمعنى "تمثال، رجل، صورة رجل".[14]، والنون في آخره للتعريف، والمعنى "التمثال". **ذذهبن**: صيغة مركبة من الاسم الموصول **ذ** للمفرد المذكر بمعنى "الذي"، ومن الاسم ذهب "البرونز".[15] المعرف بأداة التعريف النون في آخره، والمعنى "التمثال (المصنوع) من البرونز". **ل ذ**: ربما أن هذين الحرفين، هما عبارة عن حرف الجر اللام، والاسم الموصول **ذ**.

السطر 5: ...ا نْ ج ر ن ع د ي/ أ ر ضْ/ ...: بداية

(7) ارتبط اسم المعبود أب أكثر من 23 مرة مع أسماء أعلام النساء المركبة في النقوش اليمنية القديمة، حول أسماء النساء في النقوش اليمنية القديمة انظر: Amida Sholan, *Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften.* Texte und Studien zur Orientlaistik 11, (Hildesheim: Olms, 1999), P. 162. كما جاء أيضاً مع أسماء الأعلام اليمنية القديمة المركبة: Tairan, *Die Personnenamen in den altsabäischen Inschriften,* P. 257; Al-Said, *Die Personennamen in den minäischen Inschriften,* P. 226; Hayajneh, *Die Personennamen in den qatabānischen Inschriften,* P. 287; Arbach, *Les Noms Propres du Corpus Inscriptionum Semiticarum,* P. 440.

(8) Brian Doe, Albert Jamme, "New Sabaean Inscriptions from South Arabia", *JRAS,* 1968, P. 20.

(9) Gonzague Ryckmans, "Graffites sabéens relevés en Arabie Sa´udite" (Scritti in onore di Giuseppe Furlani), *RSO* 32, 1957, P. 559.

(10) Sholan, *Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften,* P. 97.

(11) Peter Stein, "The inscribed wooden sticks of the Bayerische Staatsbibliothek in Munich", PSAS 33, 2003, P. 268.

(12) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الإكليل ج10، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، 1990م)، ص 126.

(13) الفريد فل بيستون، محمود الغول، والتر مولر، جاك ريكمانز، المعجم السبئي، بيروت: مكتبة لبنان، 1982م)، ص 2؛ Stephen Ricks, *Lexicon of Inscriptional Qatabanian.* Studia Pohl 14, (Roma: Pontificio Istituto Biblico, 1989), P. 3.

(14) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 143.

(15) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 47؛ وانظر أيضاً سالم أحمد طيران، "قراءة جديدة للنقش السبئي جام 822 من معبد أوام"، مجلة الدارة، العددان 1- 2 السنة السادسة والعشرون 1421هـ- 2000م، ص ص 133- 134.

السطر مفقودة، ويأتي بعد ذلك اسم نجرن عدي دون وجود فاصل بين الكلمتين[16]. ويعتقد أن نجران هنا اسم لمدينة نجران، حيث جاء ذكرها في عدد من النقوش اليمنية القديمة كاسم لمدينة مثل[17]: وعدي/خلف/هجرن/نجرن (Ja 635/23)[18]؛ بهجرن/نشقم/ونجرن (Shib'anu-Nashq 1/17)[19]؛ بنجرن/وبشعبن (Uḫdūd 35/2)[20].

كما ورد ذكر نجرن على أنه اسم لشعب في بعض النقوش: شعبن/نجرن (Ja 577/8, 9, etc)[21]؛ ملك/سبأ/وكدت/ونجرن (Ir 32/3)[22]. وورد أيضاً على أنه اسم لبيت (قصر): بيتهمو/نجرن (Dostal 1/3)[23]. وكذلك اسم لوادي: وكل/أهجر/نجرن (CIH 363/1,2)[24]. **عدي**: تستخدم عد؛ عدي للدلالة على ظرف مكان والمعنى "إلى، نحو، بقدر ما"، وتستخدم أيضاً للدلالة على ظرف زمان "حتى"[25] كما هو في نقشنا هذا. **أ ر ض**: اسم مفرد مذكر بمعنى "أرض"، وبسبب الأجزاء التالفة من جانبي النقش لم نتمكن من معرفة اسم الأرض المعنية فيه.

النقش رقم (2):

الرقم المتحفي للنقش: A-20-659

مصدر النقش: الجوف

مادة النقش: رخام

أبعاد النقش: الطول 22 سم، العرض 6 سم، الارتفاع 11 سم

وصف النقش: (نقش رقم 2) عبارة عن قطعة من الرخام مستطيلة الشكل، نفذ عليها نقش في ثلاثة أسطر مكتوبة بخط المسند، بطريقة الحفر الغائر، السطر الأول لم يظهر منه سوى الأجزاء السفلى من نهاية الحروف. ويلاحظ هنا أن حرف النون في الاسم مرثد إلن في السطر الثاني جاء بصورة معكوسة.

أهمية النقش: تأتي أهمية هذا النقش في ذكر الاسم مرثد إلن، الذي ربما يكون واحداً من أسماء الأقيال أو الأذواء الذين ينتسبون لبني جدنم والذين

---

(16) جاءت هذه الأخطاء بعدم وضع الفواصل بين الفعل والاسم في عدد من النقوش السبئية. حول موضوع الأخطاء الكتابية في النقوش السبئية كنموذج نقوش القرابين السبئية انظر: Peter Stein, Schreibfehler im Sabäischen am Beispiel der mittelsabäischen Widmungsinschriften, *Le Muséon* 115, 2002, P. 426.

(17) Abdallah H.Al-Sheiba, Die Ortsnamen in den altsüdarabischen Inschriften. Mit dem Versuch ihrer Identifizerung und Lokalisierung, ABADY IV, 1987, P. 56.

(18) Albert Jamme, Sabean Inscriptions from Mahram Bilqîs (Mârib), (Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1962), P. 136.

(19) Kenneth Kitchen, A royal Adminstrator in Nashqum und Najran under the Himyarite King Shammar Yuhar'ish, c.AD 290, and a Squire from Sanaa, PSAS 25, 1995, P. 75.

(20) Alexander Sima, "Anmerkungen zu einigen jüngst publizierten Felinschriften aus Saudi-Arabien", WZKM 88, 1998, P. 249.

(21) Jamme, Sabean Inscrip*tions*, P. 76.

(22) مطهر علي الإرياني، في تاريخ اليمن، نقوش مسندية وتعليقات، الطبعة الثانية، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1990م)، ص 200.

(23) Walter W. Müller, Eine sabäische Inschrift aus dem Jahre 566 der ḥimjarischen Ära, NESE 2, P. 140.

(24) Corpus Inscriptionum Semiticarum Pars Quarta. Inscriptiones himyariticas et Sabæas Continens. 3.Bde. (Paris, 1889-1929).

(25) إلفريد فل. بيستون، "قواعد النقوش العربية الجنوبية "كتابات المسند"، ترجمة رفعت هزيم، (اربد: مؤسسة حمادة، 1995م)، ص 101، الفقرة 34: 9.

جاء ذكرهم في النقش السبئي(RES 4069)[26]، وهم شرحبيل يكل؛ شرحبيل يقبل؛ مرثد إلن أحصن؛ وسميفع أشوع. وهم أذواء يزن وجدن ويلغب ويصبر[27].

تاريخ النقش: حوالي القرن الخامس - السادس الميلادي.

النص بالحرف المسند:

1. ...] 𐩨𐩬 𐩽 [...
2. 𐩥𐩣𐩧𐩻𐩵𐩱𐩡𐩬 𐩽 [...
3. 𐩨 𐩽 𐩨𐩬𐩥 𐩽 𐩴𐩵𐩬𐩣 𐩽 𐩥 [...

النص بالحرف العربي:

1. ...] ب ن/ [...
2. و م ر ث د إ ل ن/ [...
3. ب/ ب ن و/ ج د ن م/ و [...

محتوى النص باللغة العربية

1. ...] بن [...
2. و مرثد إلن [...
3. ب بنو جدنم و[...

الحاشية:

السطران 1- 2: ...]: واضح أن بداية السطر الأول قد تلفت حروفه وهي ما من شك تؤلف اسم صاحب النقش؛ أما الحرفان المتبقيان وهما الباء والنون للكلمة بن فبمعنى "ابن".

م ر ث د إ ل ن: اسم علم مركب، مؤلف من الاسم مرثد، واسم المعبود إلن الذي ورد معرفاً بالنون في آخره، وقد قرأته "مَرثَد إيلَن" والمعنى "حماية (المعبود) إيل".[28] جاء ذكره في النقوش السبئية: (CIH 596-1, 597, 648)[29]؛ (RES 4069/1-2, 4157, 4158)[30]؛ (Ja 1028/10)[31]؛ (MAFRAY-Abû Twar 4/1)[32]؛ (Fa 74)[33]؛ علاوة على ذلك جاء الاسم بصيغة أخرى هي مرثد إل في النقوش القتبانية.[34]

السطر 3: ب ن و/ ج د ن م/ و [...: بنو: أداة نسب لعائلة أو لأسرة **جدنم**، والتي هي من أشهر العائلات السبئية[35]، والتي ذكر بأنها من المثامنة[36]. **وجدنم** قد جاء ذكرهم كثيراً في النقوش السبئة[37]؛

(26) *Répertoire d'Épigraphie Sémitique publié par la Commission du Corpus Inscriptionum Semiticarum*, 8. Bde. 1900-1968.

(27) محمد عبد القادر بافقيه، في العربية السعيدة: دراسات تاريخية قصيرة، ج2، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1993م)، ص150.

(28) توفيق محمود القرم، أسماء الأعلام المركبة مع أسماء الآلهة في النقوش السبئية مستقاة من سجل النقوش السامية (RES)، (إربد: رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك، 1994م)، ص71.

(29) *Corpus Inscriptionum Semiticarum*

(30) *Répertoire d'Épigraphie Sémitique*

(31) Albert Jamme, *Sabaean and Ḥasaean Inscriptions from Saudia Arabia,* Studi Semitici Semitici 23, (Roma: Istituto di Studi del Vicino, 1966), P. 39.

(32) Christian Robin, Du Nouveau sur les Yaz`anides, *PSAS* 16, 1986, P. 185.

(33) Ahmed Fakhry, *An Archaeological Journey to Yemen, Bd. II. Epigraphical Texts* by G.Ryckmans, (Cairo: Government Press, 1952), P. 46.

(34) Hayajneh, *Die Personennamen in den qatabānischen Inschriften,* P. 232.

(35) عبد الله أحمد مكياش، أسماء القبائل في النقوش العربية الجنوبية، (إربد: رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك، 1993م)، ص 36.

(36) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الإكليل ج2، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، (بيروت: دار التناوير، 1986م)، ص ص 266- 272.

(37) قارن النقوش التي يرد فيها ذكر جدنم؛ ذجدنم في: Gonzague Ryckmans, *Les noms propres sud-=*

(Ja 2896)[38]؛ (Robin-digue de Mārib 1/1, 2)[39]؛ (Gl 1725/2)[40]؛ (BR-Yanbuq 47/3)[41]؛ (Uẖdūd 35/1)[42]؛ (MAFRY-Abû T̲war 4/3)[43]؛ (Mon.script.sab. 1/2)[44]؛ (Ir. 69/1)[45].

ويرى الإرياني بأن مساكن بني جدن تقع في مشارف خولان العالية وبالتحديد في وادي حباب.[46] فقد لعبت أسرة جدنم دوراً كبيراً مع اليزنين[47]، كبار عشائر قبيلة سبأ، الذين كانوا من طبقة مساوية للأقيال والأذواء، وكانوا يتقدمون عليهم في بعض الأحيان، إلا أنه لم "تكن لهم مقولات/ أذوائيات كالأقيال والأذواء الذين هم في الأساس رؤساء شعوب لها كيانها المستقل في تاريخ سابق ولها أراضيها المحددة".[48] كما كان الجدنيون من القادة العسكريين خلال القرن الثالث الميلادي من عهد شرح يحضب وأخيه يأزل بين ملكي سبأ وذي ريدان، وفي القرن الرابع الميلادي أصبحوا حلفاء وقادة عسكريين للدولة الحميرية، واستمر ذكرهم حتى القرن السادس الميلادي عندما ظهروا إلى جانب يوسف أسار في صراعه مع الأحباش، ومن المحتمل أنهم استمروا في تولي قيادة الأعراب في شرق اليمن حتى عهد أبرهة.[49]

بالنسبة **للواو** الأخيرة بعد الاسم **جدنم** واضح أنها حرف عطف لمعطوف هو اسم أسرة أو عائلة أخرى. ويلاحظ هنا تقدم ذكر بني جدن في هذا النقش على اسم العائلة الأخرى التي تليها، والتي للأسف لم نتمكن من معرفة اسم هذه الأسرة، وذلك بسبب التلف الذي أصاب النقش، وهذا التقديم جاء في نقش سبئي آخر (Ja 1030/3)[50]، حيث تقدم ذكر اسم **جدن** على اسم **يزن**.[51]

النقش رقم (3):

الرقم المتحفي: A-20-555

مصدر النقش: مأرب

مادة النقش: حجر جيري

= *sémitiques* 3.Bde, Bibliothèque du Muséon 2, (Louvain: Muséon, 1934-35), II., P. 4; Alessandra Avanzini, *Glossaire des inscriptions de l'Arabie du Sud.* 2.Bde., Quaderni di Semitistics 3, (Firenze: Università, 1977-1980), P. 254.

(38) Albert Jamme, Pre-Islamic Arabian Miscellanea, In: *Al-Hudhud. Festschrift Maria Höfner zum 80. Geburtstag*, hrsg. von R.G. Stiegner (Graz: Karl-Franzens-Universität, 1981), P. 112.

(39) François, Bron, Inscriptions de la digue de Mārib, *AuOr* 1, 1983, P. 140.

(40) Maria Höfner, *Inschriften aus Ṣirwāḥ H̱āulān, Teil. I. SEG VIII*, 291/1.Abh. SBAWW (Wien, 1973), P. 70.

(41) Muḥammad ʿA. Bāfaqīh, Christian Robin, Inscriptions inédites de Yanbuq (Yémen démocratique), *Raydan* 2, 1979, P. 49.

(42) Sima, Anmerkungen, P. 249.

(43) Robin, Du Nouveau sur les Yaz`anides, P.184.

(44) Stein, The inscribed wooden sticks, P. 268.

(45) الإرياني، في تاريخ اليمن، ص ص 322- 323.

(46) الإرياني، في تاريخ اليمن، ص 328.

(47) ناصر صالح يسلم حبتور، اليزنيون. موطنهم ودورهم في تاريخ اليمن القديم، (عدن: جامعة عدن، 2002م)، ص ص 240- 245.

(48) بافقيه، في العربية السعيدة، ج2، ص 153.

(49) حول الأعراب في النقوش اليمنية القديمة انظر: علي عبد الرحمن الأشبط، الأعراب في تاريخ اليمن القديم. دراسة من خلال النقوش من القرن الأول ق.م. وحتى القرن 6م، (صنعاء: رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، 2002م).

(50) Jamme, *Sabaean and Ḥasaean Inscriptions,* P. 55.

(51) يرى حبتور أنه يصعب تفسير تقديم اسم جدن على اسم يزن في هذا النقش، أو ورود نقوش منفردة تحمل اسم الجدني. (حبتور، اليزنيون، ص ص 242- 246).

أبعاد النقش: الطول 26سم ، العرض 5 و13 سم، الارتفاع 23 سم

وصف النقش: (نقش رقم 3) نقش غير مكتمل على قطعة من الحجر الجيري، نُفّذ عليها نقش بخط المسند الغائر، والمتبقي من النقش هو الجزء السفلي منه، وهو عبارة عن سبعة أسطر، أما الجزء العلوي من النقش، وهو الجزء الذي يتضح من سياق النقش، أن سطوره ربما تشكل العدد الأكبر من النقش فغير موجود.

أهمية النقش: تأتي أهمية النقش في ذكر الملك نشأ كرب يأمن يهرحب، الذي يُنسب في النقوش إلى إل شرح يحضب وعمه يأزل بين مَلِكَي سبأ وذي ريدان ابني فارعم ينهب ملك سبأ. وقد حكما معاً نحو من 200 أو (206) ميلادي إلى 229 ميلادي، ثم حكم إل شرح يحضب منفرداً حتى تولى ابنه نشأ كرب يأمن العرش ما بين 235، 240 إلى 265 ميلادي.[52] ويلاحظ أن معظم النقوش السبئية التي تعود إلى عهد هذا الملك[53] نقوش تتحدث عن الشكر للآلهة التي مَنّت بالخيرات، فمنها ما يتعلق بشؤون الغلال والأمطار والسيول، ومنها ما يتعلق بأمور شخصية[54]، فهي مختلفة إلى حد ما عن نقوش والده إل شرح يحضب وعمه يأزل بين، التي كان طابعها - في الغالب - الحديث عن الحروب والغزوات. ومع ذلك فنقوش نشأ كرب لم تخل من بعض الإشارات إلى بعض الغارات الحربية التي تمت في عهده.[55]

تاريخ النقش: حوالي القرن الثالث الميلادي "عهد نشأ كرب يأمن يهرحب ملك سبأ وذي ريدان"

النص بالحرف المسند:

1. ....
2. [𐩥𐩡𐩭𐩣𐩧𐩠𐩥|𐩰𐩡𐩣𐩤𐩠𐩺𐩠𐩥𐩬
3. 𐩨𐩱𐩡𐩰𐩥𐩣|𐩢]𐩻𐩹|𐩥𐩧𐩲𐩥|[𐩣𐩧𐩰𐩠
4. 𐩥|𐩬𐩦𐩰𐩫𐩧𐩨|𐩹𐩰𐩣𐩬|𐩹𐩠𐩧𐩢𐩨|
5. 𐩣𐩡𐩫|]𐩪𐩨𐩰|𐩥𐩸𐩧𐩹𐩴𐩬|𐩥𐩡𐩭𐩧𐩹𐩬𐩠 𐩥|𐩨𐩬
6. 𐩬𐩲𐩱]|𐩥𐩦𐩻𐩹|𐩥𐩩𐩺𐩱𐩩|𐩦𐩬𐩰𐩣|𐩸𐩨𐩬
7. 𐩠𐩥|]𐩴𐩱𐩥|𐩥𐩸𐩨𐩬𐩠𐩥|𐩰𐩡|𐩴𐩱𐩥
8. 𐩨]𐩰𐩡𐩣𐩤𐩠𐩺𐩠𐩥𐩬𐩨𐩱𐩡𐩰𐩥[𐩣]

النص بالحرف العربي:

1. ....
2. لو ل خ م ر هـ و/ إ ل م ق هـ ث هـ و ن
3. ب ع ل أ و م/ حا ظ ي/ و ر ض و/ ا م ر أ هـ
4. و/ ن ش أ ك ر ب/ ي أ م ن/ ي هـ ر ح ب/
5. م ل ك/ا س ب أ/ و ذ ر ي د ن/ و ل خ ر ي ن هـ و/ ب ن

---

(52) Herman von Wissmann, *Zur Geschichte und Landeskunde von Altsüdarabien, SEG III.* SBAWW 246, (Wien, 1964), P. 26.; Kenneth A. Kitchen, *Documentation for Arabia. Part I. Chronological framework and historical sources*, (Liverpool: Liverpool University Press, 1994), P. 214.

(53) بلغ عدد النقوش التي تعود إلى عهد هذا الملك ما يربو على ثلاثين نقشاً، معظمها من نقوش محرم بلقيس. حول نقوش الملك نشأ كرب يأمن (الثاني) يهرحب، انظر قائمة أرقام النقوش في = كتاب: Kitchen, *Documentation for Arabia*, P. 216.

(54) الإرياني، في تاريخ اليمن، ص 257؛ طيران، "قراءة جديدة للنقش السبئي جام 822 ...، ص 123.

(55) عبدالله عبده إسماعيل أبو الغيث، علاقات جنوب الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد، (صنعاء: رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، 1998م)، ص 74؛ علي محمد علي الناشري، ذي جُرَة ودورهم في حكم دولة سبأ وذي ريدان. دراسة في التاريخ السياسي لليمن القديم، (صنعاء: رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ القديم، كلية الآداب، 2003م)، ص ص 130- 138.

6. ن ض عا/ و ش ص ي/ و ت ث ع ت/ ش ن أ م/ ذ ب ن
7. هـ و/ا د ع و/ و ذ ب ن هـ و/ أ ل/ د ع و
8. ببا أ ل م ق هـ ث هـ و ن ب ع ل أ و لم]

محتوى النص باللغة العربية:

1. ....
2. وليمنحهم (المعبود) إلمقه ثهوان
3. بعل أوام حظوة ورضى لسيدهم
4. نشأ كرب يأمن يهرحب
5. ملكا سبأ وذي ريدان ولنجاته من
6. كل عدو ا وحاسد، من
7. عرفاه منهم ومن لم يعرفاه (أي من كل عدو حاسد معروف ومجهول)
8. بجاه (المعبود) إلمقه ثهوان سيد (المعبد المسمى) أوام

الحاشية:

السطر 1: واضح أن بداية النقش مفقودة ولم نتمكن من معرفة مُقَدم النقش، ولكن يبدو أن صاحب النقش قدمه في عهد سيده نشأ كرب يأمن (الثاني) يهرحب.

السطران 2- 3: و ل خ م ر هـ و: صيغة دعاء ورجاء مركبة: من واو العطف، ومن لام الأمر الدالة على الدعاء والرجاء، ومن الفعل الماضي خمر الذي يقوم هنا مقام الفعل المضارع. والمعنى "وليهبه، وليمنحه". **ح ظ ي/و ر ض و: حظي:** اسم بمعنى "حظوة"، **الواو:** حرف عطف، **رضو:** اسم بمعنى "رِضى، رضوان".[56]

السطران 4- 5: "نشأ كرب يأمن يهرحب" ربما يكون هو آخر ملوك سبأ وذي ريدان، وحسب تقدير فون فيسمان بأن تاريخ حكمه يرجع إلى 240-265 ميلادي. واسم العلم نشأ كرب مركب من العنصر نشأ بمعنى "رفع، علَى، خلق"، ومن الفعل الماضي كرب بمعنى "بارك"، ويمكن قراءته ناشئ كرب، أي الخالق أو الرافع (المعبود) بارك"[57]. أما اللقبان اللذان حملهما نشأ كرب فهما يأمن، من الجذر أمن بمعنى "أَمِن، حمى، حفظ"؛ واللقب الآخر يهرحب من الجذر رحب بمعنى "وسع، أرحب".[58]

و ل خ ر ي ن هـ و: صيغة دعاء ورجاء مركبة من **واو** العطف ومن **لام** الأمر الدالة على الدعاء والرجاء ومن **خرين** مصدر من الجذر السبئي **خ ر ي** بمعنى "نجىَ، حمى"، هو: ضمير مفرد غائب.[59]

السطران 6- 7: ن ض عا/ و ش ص ي/ و ت ث ع ت: أسماء ثلاثة عادة ما ترد متتابعة في مثل هذا السياق في النقوش النذرية المنشورة. **ن ض ع:** اسم مفرد من الجذر نضع بمعنى "أذى، ضرر". **ش ص ي:** من الجذر شصي بمعنى "ضغينة، حقد"[60]. **ت ث ع ت:** اسم مفرد من الجذر ثعي بمعنى "سعاية، نميمة".

ش ن أ م: اسم بمعنى "شانئ، حاسد"[61]، والميم في آخره للدلالة على التنكير. **ذ ب نْ هـ و: ذ:** اسم موصول للمفرد المذكر بمعنى "الذي"، **بنهو:** مركبة

---

(56) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 115؛ Walter W. Müller, *Die Wurzel Mediae und Tertiae y/w im Altsüdarabischen. Eine Etymologische und lexikoraphische Studie*, (Tübingen: Dissertationsdruck, 1962), P. 56.

(57) Tairan, *Die Personnenamen in den altsabäischen Inschriften*, P. 217.

(58) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 6؛ ص 116.

(59) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 62.

(60) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 91، ص 135، ص 149.

(61) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 133.

من حرف الجر بن بمعنى "من"، هو: ضمير مفرد للغائب والمعنى العام هو "فيما بعد، من حينئذٍ".

د ع و: بمعنى "علم، شعر بشيء"[62]. **أ ل**: أداة نفي تأتي في السبئية مع الفعل الماضي وتأتي مع المضارع للدلالة على (لا) الناهية.

السطر 8: ب إ ل م ق هـ: صيغة دعاء بمعنى "بجاه المعبود إلمقه سيد (المعبد المسمى) أوام".

النقش رقم (4):

الرقم المتحفي: A-20-899

مصدر النقش: إهداء من الأخ عوض هادي ناصر

مادة النقش: حجر بلق

أبعاد النقش: الطول 30سم، العرض 34سم، الارتفاع 17سم

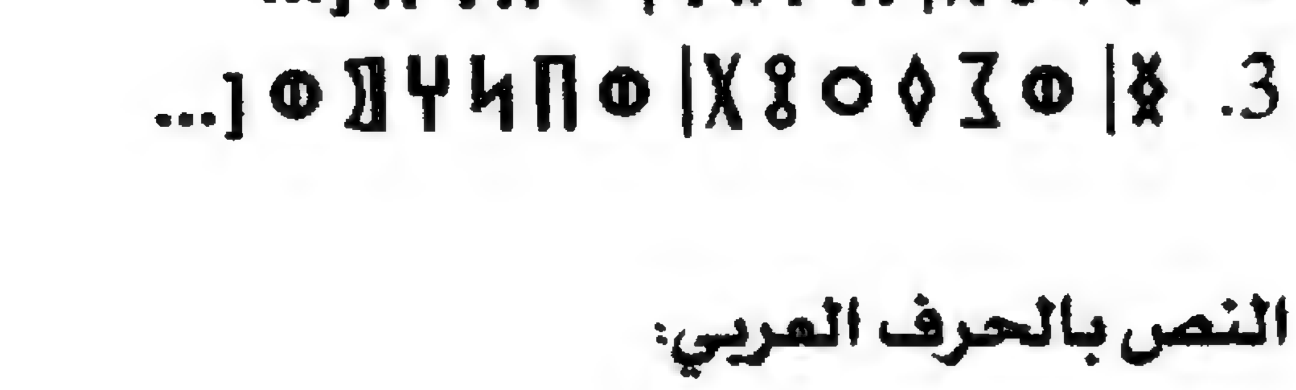
وصف النقش: (نقش رقم 4 أ، ب) عبارة عن قطعة من الحجر البلق مربعة الشكل تقريباً، نفذت عليها عناصر زخرفية: حيوانية، وهندسية ونباتية وكتابية؛ فالصف الأول: عبارة عن زخارف حيوانية تمثل رأس الثور، حيث يحتوي كل إطار على رأس ثور، ولم يتبق منها سوى رأسين. أما الصف الثاني: فهو عبارة عن عناصر زخرفية هندسية على شكل مستطيلات تشبه الأبواب الوهمية، أحدها يأتي في طرف الصف، ويليه عنصر على اليمين وهو زخرفي يمثل شكل مبخرة يعلوها رمز الهلال والقمر أو الشمس، وبعد ذلك بابان مستطيلان، ثم مبخرة أيضاً بنفس الشكل السابق، مع كسور في الحافة اليسرى منها. وأما الصف الثالث: فهو عبارة عن زخرفة نباتية في إطار مستطيل يقع في الجهة اليمنى من الصف وهي تمثل ورقة نباتية، بجوار هذه الزخرفة تبدأ الطغرات التي تمثل اسم الملك والذي ربما يكون اسم شرح بإل أسأر. أما النقش فقد جاء في الصف الرابع من القطعة، وهو عبارة عن نقش جاء في أربعة أسطر مكتوبة بخط المسند، بطريقة الحفر الغائر، بها بعض الكسور في الجهة اليسرى من النقش.

أهمية النقش: تأتي أهمية النقش بذكر اسم العلم شرحبئيل صاحب اللقب أسأر، وحسب علمي أن صاحب النقش بلقبه هذا يرد لأول مرة في النقوش السبئية. إلى جانب ذلك فإن السطر الأول من النقش يحمل حروفاً متشابكة تمثل طغرات ربما تشكل اسم صاحب النقش شرحبئيل. فهل صاحب النقش هذا هو اسم لملك جديد، مع العلم أن الملك شرحبئيل صاحب اللقب المشهور بيعفر عاش في القرن الخامس الميلادي.

تاريخ النقش: نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي

النص بالحرف المسند:

حروف متداخلة تمثل (طغرة)



النص بالحرف العربي:

حروف متداخلة تمثل (طغرة)

1. ش ر ح ب إ ل/ أ س أ ر/ و أ خ لهـ و/ ش[
2. ر ح ث ت/ أ ر س3 ل/ و إ ل ب [...
3. س3 / و ش ف ع ث ت/ و ب ن هـ م و [...

(62) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 34؛ Müller, *Die Wurzel*, P. 34.

محتوى النص باللغة العربية:

الحروف المتداخلة تشكل الاسم: ش ر ح ب إ ل

1. شرحبئيل أسار وأخلهو/ش
2. رحثت أرسـ3ـل وإ ل‌ب.....
3. سـ3 وشف عثت وإبنهم]....

الحاشية:

السطر 1- 2: ش ر ح ب إ ل: اسم علم مركب جاء ذكره كثيراً في النقوش السبئية والحضرمية.(63) ويمكن تفسير الاسم إما على صيغة الجملة الإسمية المؤلفة من المبتدأ شرح، وحرف الجر الباء، والاسم المجرور بإل، الواقعين خبراً، والمعنى "حِفْظ أو حراسة بالإله إيل". أو أن يكون على الجملة الفعلية جاء فيها العنصر شرح مبنياً للمجهول، والمعنى "حُفِظَ بإيل".(64) قارن الاسم في العربية شرحبيل بن إل شرح.(65)

أ س أ ر: وهو اللقب الذي حمله شرحبئيل في هذا النقش. كما جاء هذا اللقب مع عددٍ من الأسماء في النقوش اليمنية القديمة(66)، أشهرها على الإطلاق مع اسم العلم يوسف أسأر المعروف بـ"ذو نواس". وهو على وزن أفعل التفضيل، من الجذر سأر بمعنى "نجا (من عراك)".(67)

و أ خ لهـ و/ش| ر ح ث ت: الواو: حرف عطف، **أخ:** اسم مفرد مضاف، وبسبب الكسر الذي أصاب نهاية السطر الأول فمن الراجح أنه قد تلفت ثلاثة أحرف منه - تقريباً - وهي التي بين المعقوفين الأول والثاني منها هما ضمير الاسم **أخهو**، **هو:** ضمير متصل للمفرد الغائب. ويعتقد بعد ذلك أن يأتي فاصل، ثم حرف تقترح الباحثة تكملته بحرف الشين وهي تكملة تناسب بقية حروف الاسم التي تشكل حروف اسم العلم المركب شرحثت. ورد الاسم بصيغة الجملة الفعلية المؤلفة من الفعل الماضي المجرد شرح بمعنى "حفظ، نجى"(68)، والفاعل ثت، وهو اسم مختصر للمعبود عثتر؛ ومن هنا يمكن أن نقرأ الاسم شَرَح عثت(ر) أي "حَفِظ عثت(ر)". علاوة على ذلك جاء ذكر هذا الاسم في عددٍ من النقوش السبئية(69) (Ir. 7/1)(70)؛ (جدران 2/1)(71).

أ ر سـ3ـل: وقد جاء هذا اللقب في عدد من النقوش السبئية.(72) لقب حمله شرحثت وهو على وزن أفعل التفضيل من الجذر **رسـ3ـل**، وهو جذر غير معروف في المعاجم اليمنية القديمة.

إ ل ب...: بسبب التلف الذي أصاب نهاية السطر الثاني لم يتبقَ من الاسم سوى ثلاثة أحرف هي الألف، واللام، والباء، ويحتمل أن يكون اسم علم مركباً

---

(63) Lankestar G. Harding, *An Index and Conocordance of Pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions*, Near and Middle East Series 8, (Toronto: University of Toronto, 1971), P. 345.

(64) القرم، ، أسماء الأعلام، ص 74.

(65) الهمداني، الإكليل ج2، ص 221.

(66) انظر مجموعة النقوش في كتاب: Avanzini, *Glossaire*, P. 53.

(67) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 121.

(68) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 134.

(69) Harding, *An Index*, P. 345.

(70) الإرياني، في تاريخ اليمن، ص 80.

(71) عميدة محمد شعلان، "نقش سبئي جديد من جَدَرَان"، مجلة أدوماتو، العدد 7، 2003م، ص ص 65- 66.

(72) Harding, *An Index*, P. 36; Avanzini, *Glossaire*, P. 52.

من عنصرين: العنصر الأول إل، والعنصر الآخر غير معروف، أو اسم علم مفرد.(73)

ش ف ع ث ت: اسم علم مركب من شقين من الفعل الماضي المجرد شف(74) معتل الوسط بحرف الألف (شاف) ومعناه "حمى، حرس"، وهي ظاهرة شائعة في لغة النقوش اليمنية القديمة أن حروف اللين لاتثبت كتابةً، وإنما تثبت نطقاً. والفاعل اسم المعبود عثت. ويقرأ اسم العلم هذا على صيغة الجملة الفعلية شَاف عثت ومعناه "حمى أو حَرَس (المعبود) عثت" مع ظاهرة القطع أو الترخيم في الاسم عثت أي عثتر وهي للتخفيف عند التلفظ باسم العلم المذكور.(75) علاوة على ذلك جاء ذكر الاسم **عثت** في عدد من النقوش السبئية الأخرى.(76)

النقش رقم (5):

الرقم المتحفي للنقش: A-20-172

مصدر النقش: الخربة البيضاء- بني نوف- الجوف

مادة النقش: حجر جيري

أبعاد النقش: الطول 35 سم، العرض 16 سم، الارتفاع 5و7 سم.

وصف النقش: (نقش رقم 5) عبارة عن قطعة من الحجر الجيري مستطيلة الشكل، نفذ عليها نقش في ثلاثة أسطر مكتوبة بخط المسند، بطريقة الحفر الغائر. الجزء الأسفل من الجانب الأيسر من النقش مكسور.

تاريخ النقش: القرن الأول- الثاني للميلاد.

النص بالحرف المسند:

1. 𐩴𐩥𐩺𐩵𐩣𐩿𐩥𐩣𐩲𐩵 [...
2. 𐩥𐩪𐩲𐩵𐩬𐩿𐩨𐩬𐩥𐩿𐩤 [...
3. 𐩻𐩣𐩬𐩿𐩪𐩩 [...

النص بالحرف العربي:

1. ج و ي د م/ و م ع د [...
2. و س ع د ن/ ب ن و/ ق [...
3. ث م ن/ س ت [...

---

(73) قارن الأسماء التالية: إل بحر اسم علم لرجل في نقش قتباني Hayajneh, *Die Personennamen in den qatabānischen Inschriften*, P. 75 : إل بيت اسم علم لامرأة في نقش سبئي Sholan, *Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften*, P. 48؛ إل بت اسم علم لرجل في نقش معيني Al-Said, *Die Personennamen in den minäischen Inschriften*, P. 59. انظر أيضاً الأسماء التالية: إل بلت، إل برأ، إل بطل في Avanzini, *Glossaire*, P. 30.

(74) جاءت أسماء كثيرة في النقوش السبئية مركبة على صيغة الجملة الفعلية من ثلاثة أجزاء: الأول: الفعل الماضي (شف، شوف) أي "حمى، رعى"، والثاني: ضمير المتكلم المفرد المتصل (ني، نا)، والثالث: اسم المعبود. انظر إبراهيم محمد الصلوي، "أعلام يمانية قديمة مركبة. دراسة عامة في دلالتها اللغوية والدينية"، مجلة ريدان، العدد 6، 1994م، ص 124 . وجاءت غالبية هذه الأسماء لنساء، منها: شفن أب، شفن نسر، شفن قين، شفن سهو (شفن ثهون)، شفن رم Sholan, *Frauennamen in den altsüdarabischen* = *Inschriften*, P. 48 ؛ شفن حلف (النقش رقم 1/4)؛ سعيد ابن فائز السعيد، "نقوش سبئية جديدة في ذكر المرض"، مجلة العصور، المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني، 2002م، ص 15. فهي عبارة عن أسماء مركبة من الفعل. ومن الفاعل اسم المعبود مثل: شف نسر، شف سي (شف سين)، شف إل، شوف حرم. أو من اسم المعبود وهو الفاعل ومن الفعل مثل: أبي شف، حقب شف. انظر في هذا الموضوع:
Jacques Ryckmans, First Evidence on a form the First Person in the Old South Arabian Inscriptions, *PSAS* 5, 1975, P. 62.; Sholan, *Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften*, P. 167.

(75) إبراهيم محمد الصلوي، "أعلام يمانية قديمة مركبة. دراسة عامة في دلالتها اللغوية والدينية"، مجلة دراسات يمنية، العدد 38، 1989م، ص132.

(76) Harding, *An Index*, P. 352 ؛ القرم، أسماء الأعلام، ص 74.

محتوى النص باللغة العربية:

1. جويدم ومعد]...
2. وسعدن بنو ق]...
3. ثمن ست]...

الحاشية:

السطر 1: ج و ي د م: اسم علم بسيط، على وزن فُعيل من الجذر جود بمعنى "جاد، جُود: جَواد".[77]، يجوز قراءته جُوَيدُم. وهذا الاسم جويدم يرد - حسب علمي - لأول مرة في النقوش اليمنية القديمة. ومن أسماء الأعلام العربية المشتقة من الجذر جود: جُودان[78]: جود الله؛ جوده؛ وجوَاد.[79]

م ع د: ربما يكون اسم علم بسيطاً أو جزءاً من اسم علم مركب. والجذر معد كثيراً ما يأتي مقترناً بأسماء الأشخاص في النقوش اليمنية القديمة، وفسر الجذر مَعْدُ - كما جاء في اللغة العربية - بمعنى: "الضخم الغليظ."[80] وقد جاء الاسم معد كاسم علم لامرأة في نقش قتباني[81]. أما إذا كان اسم علم مركباً، فقد جاء ذكر العنصر **معد** في عدد من النقوش اليمنية القديمة مثل معد كرب، معد هل، معد إل، معد ردم.[82]

السطر 2: س ع د ن: اسم علم مذكر جاء ذكره في النقوش السبئية[83]؛ والصفوية[84]، والثمودية[85] من الجذر سعد في اللغة اليمنية القديمة بمعنى "أعطى، وهب".[86]. ويقرأ الاسم سَعْدَان كما هو معروف في المصادر العربية.[87]

ب ن و: اسم بصيغة الجمع بمعنى "أبناء".

ق]...: واضح أن الحرف المتبقي هو بداية اسم العائلة الذي ينتسب إليها أصحاب النقش.

ث م ن/ س ت: بسبب تلف النقش يصعب معرفة ارتباط الكلمة **ثمن**، إن كانت مرتبطة بسابقها أم كلمة مستقلة.

---

(77) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 51:
Müller, *Die Wurzel*, P. 39; Avanzini, *Glossaire*, P. 263

(78) Al-Hamdānī, Abū Muḥammad al-Hassan Ibn Ya'qūb, *Südarabisches Muštabih, Verzeichnis honmonymer und homographer Eignnamen aus Berliner Unikum des Iklīl*, hrsg. von O Löfgren, (Uppsala: Almqvist/Wiksells Boktryckeri AB., 1953), no. 116.

(79) J.J Hess, Beduinennamen aus Zentralarabien, SHAW 19. Abh. (Heidelberg: Carl Winter, 1912), P. 17.

(80) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج1، بيروت: دار الجيل، 1952م)، ص 351.

(81) Sholan, *Frauennamen in den altsüdarabischen Inschriften*, P. 37.

(82) Hayajneh, *Die Personennamen in den qatabānischen Inschriften*, P. 294; Tairan, *Die Personnenamen in den altsabäischen Inschriften*, P. 262; Al-Said, *Die Personennamen in den minäischen Inschriften*, P. 43.

(83) Arbach, *Les Noms Propres du Corpus Inscriptionum Semiticarum*, P. 330.

(84) Harding, *An Index*, P. 320.

(85) سليمان بن عبد الرحمن الذييب، دراسة لنقوش ثمودية من جُبّة بحائل المملكة العربية السعودية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000م)، ص 105.

(86) بيستون وآخرون، المعجم السبئي، ص 122.

(87) الهمداني، الإكليل ج2، ص 255:
Yusuf M. Abdallah, *Die Personennamen in al-Hamdānī's al-Iklīl und ihre Parallelen in den altsüdarabischen Inschriften. Eine Beitrag zur jemenitischen Namengebung*, (Tübingen: Dissertationsdruck 1975), P. 64.

الاختصارات الأجنبية:

ABADY:	Archäologische Berichte aus dem Yemen.
Abh.:	Abhandlung.
AuOr:	Aula Orientalis.
Bd./Bde.:	Band/Bände.
hrsg.:	herausgegeben.
JRAS:	Journal of the Royal Asiatic Society.
NESE:	Neue Ephemeris für Semitische Epigraphik.
PSAS:	Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.
RSO:	Rivista degli Studi Orientali.
SBAWW:	Sitzungsberichte der Österreichischen Akademie der Wissenschaften in Wien.
SEG:	Sammlung Eduard Glaser.
WZKM:	Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.

فهرس بالمفردات، وأسماء الأعلام:

أ- معجم بالمفردات:

ب- أسماء الأماكن، والمعابد والآلهة:

ج- أسماء الأشخاص، العائلات والقبائل:



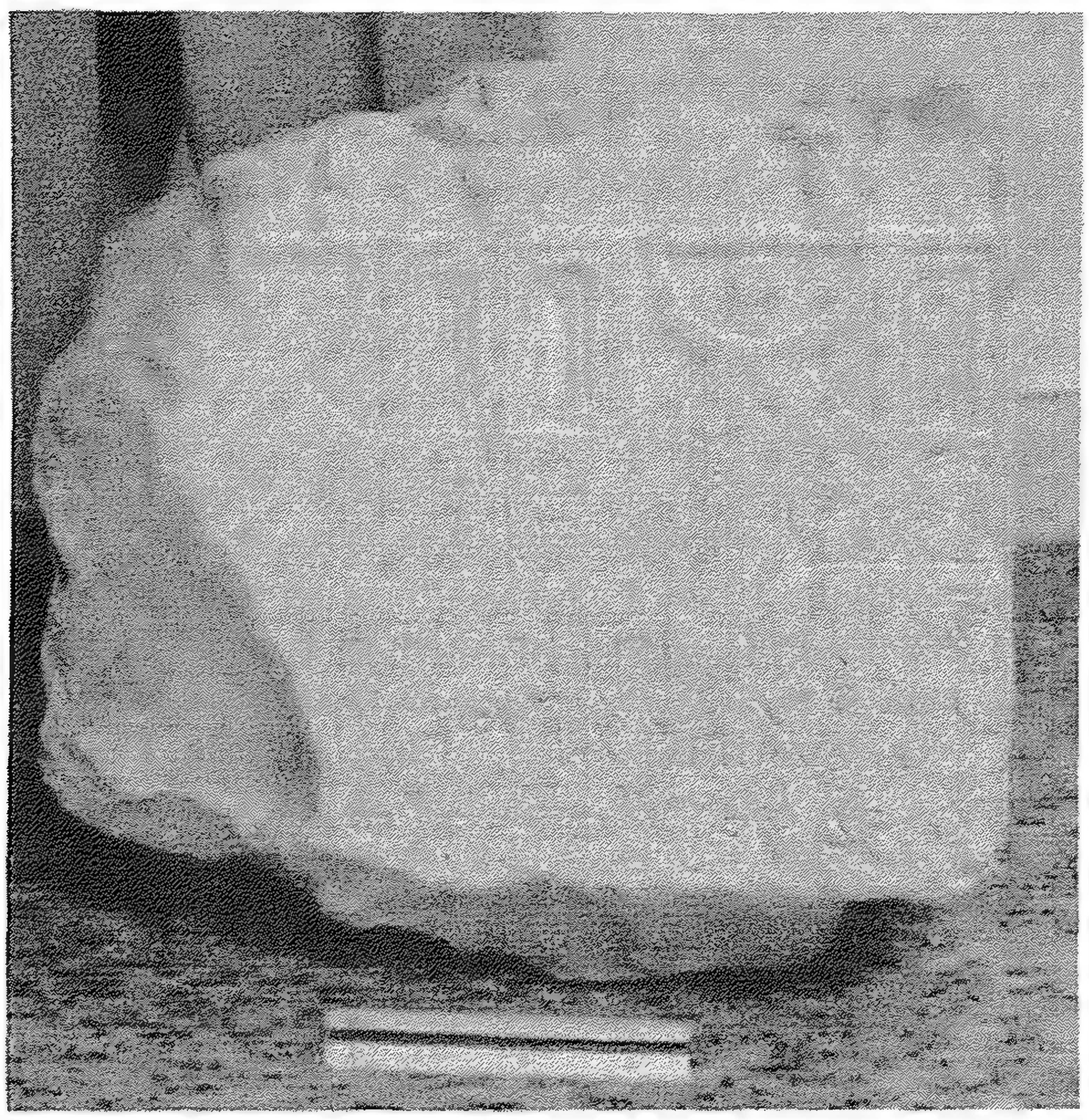
النقش رقم (1)



النقش رقم (2)



النقش رقم (3)



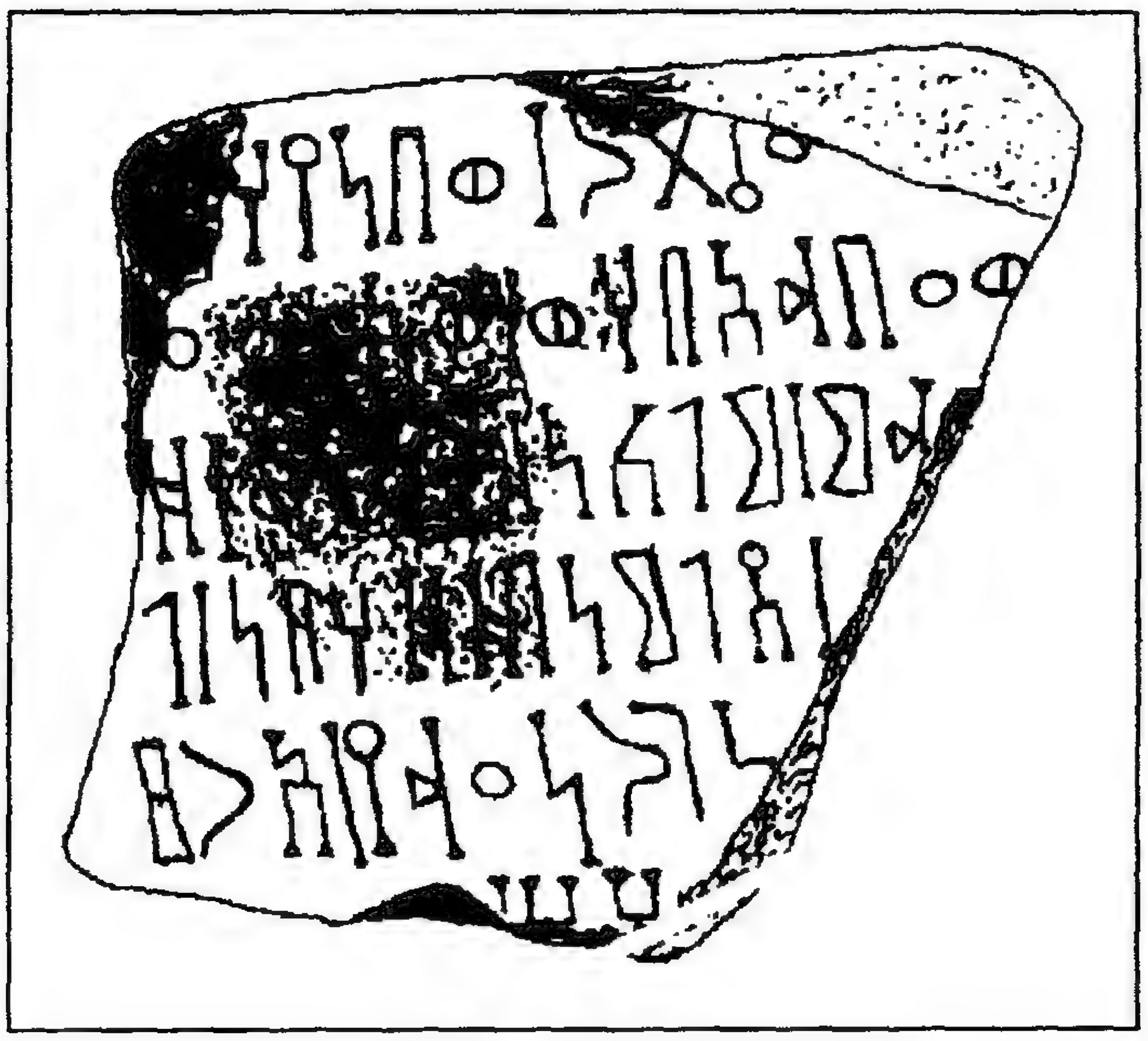
النقش رقم (4 أ)



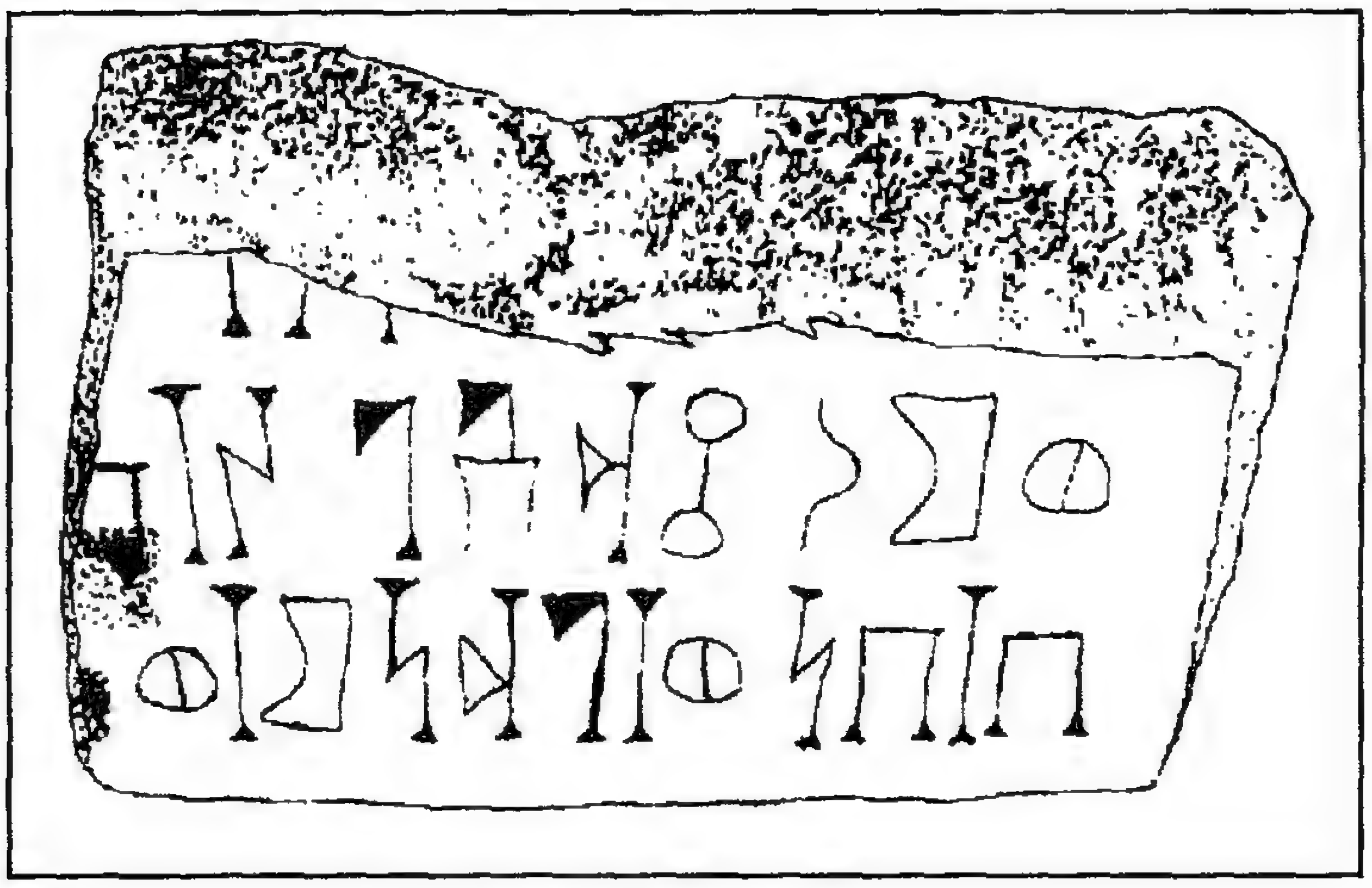
النقش رقم (4 ب)



النقش رقم (5)



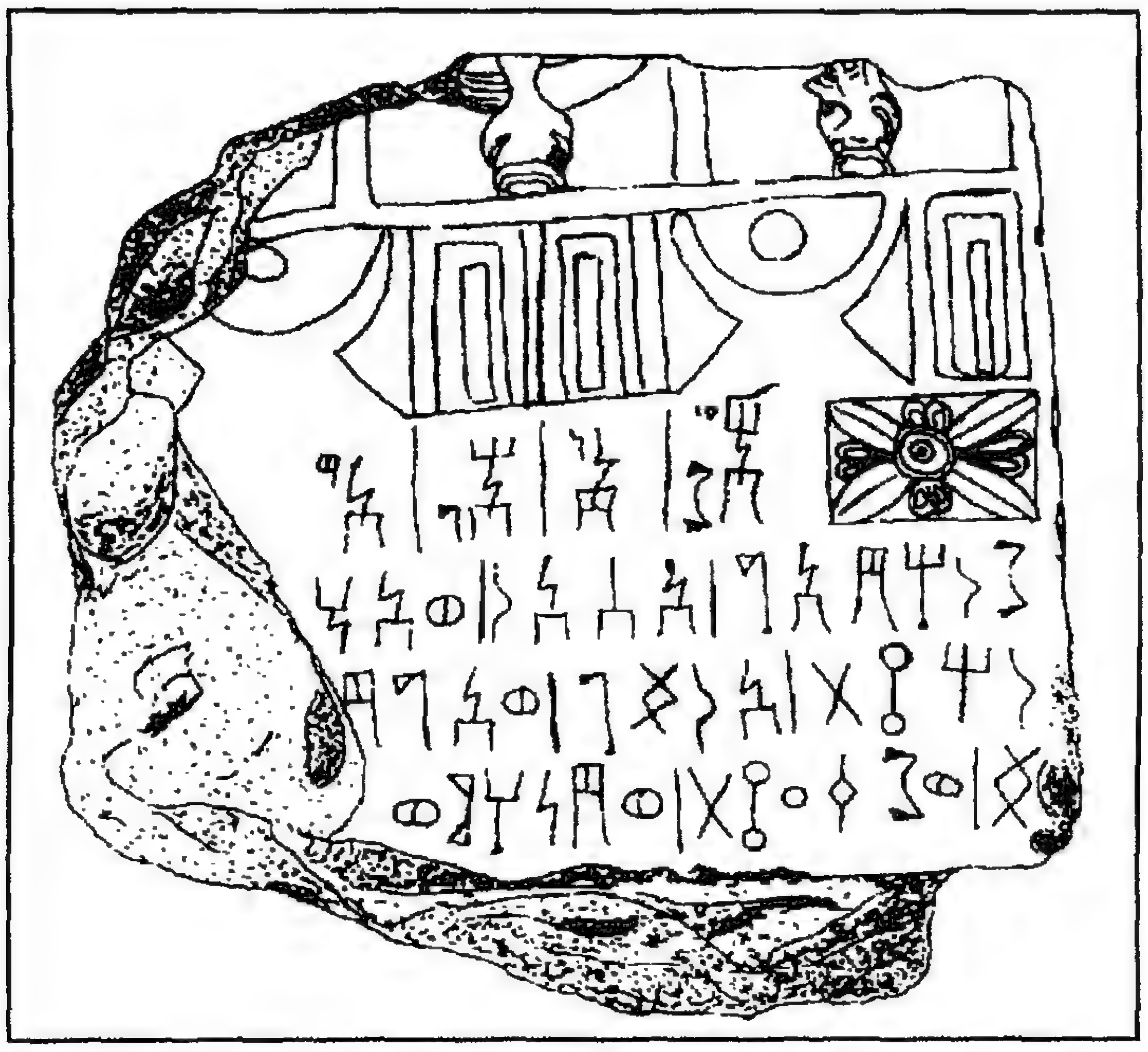
النقش رقم (1)



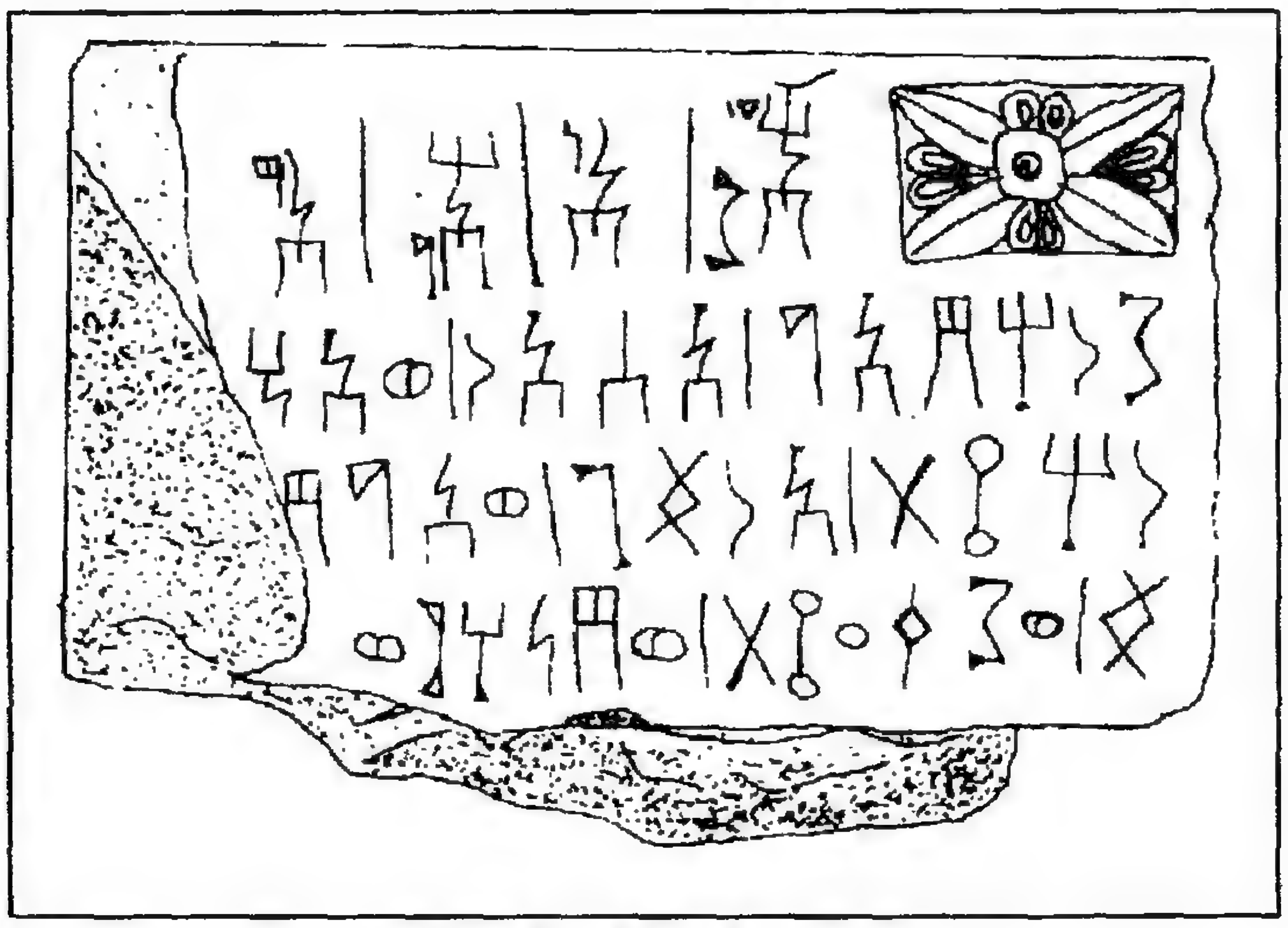
النقش رقم (2)



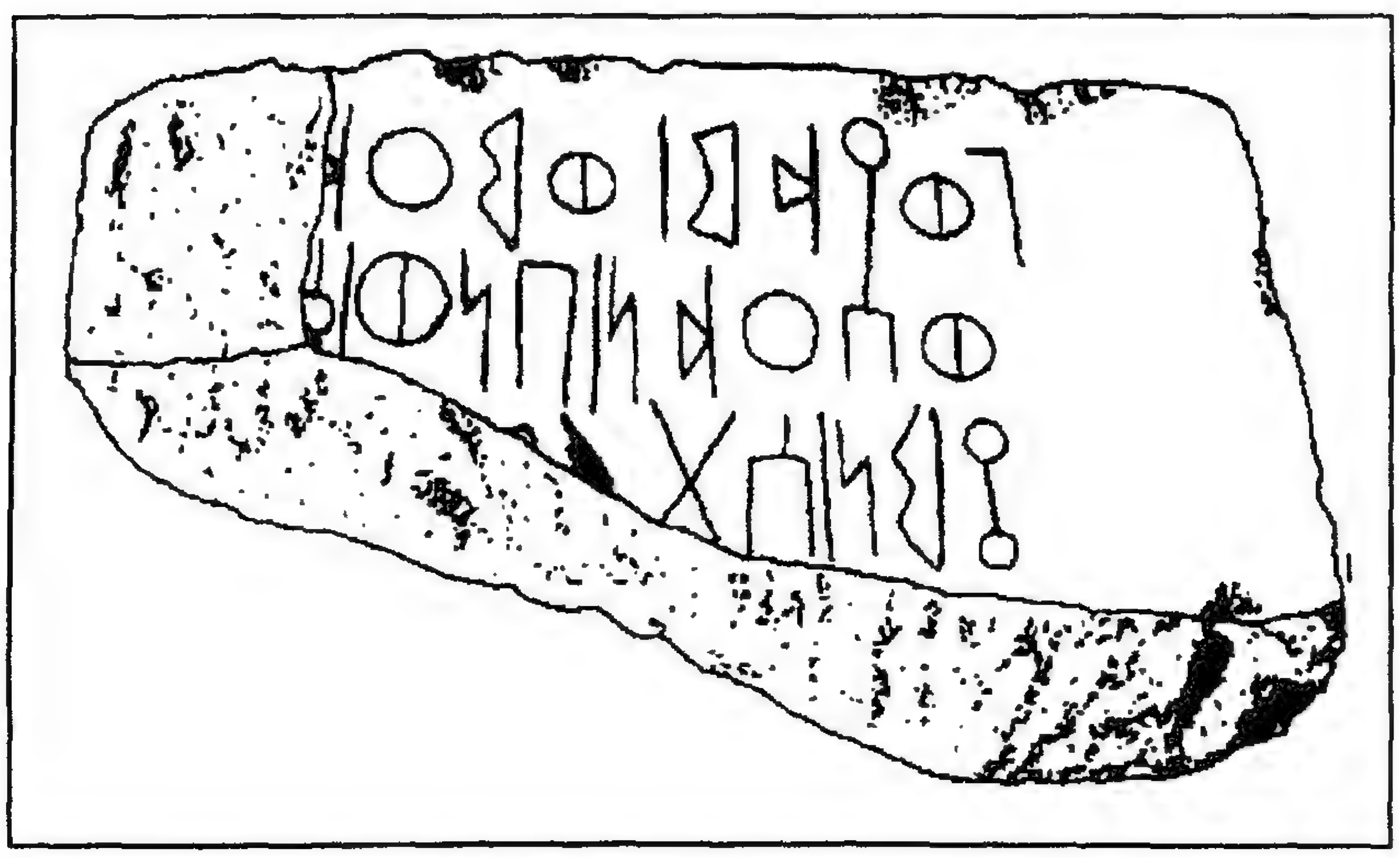
النقش رقم (3)



النقش رقم (4 أ)



النقش رقم (4 ب)



النقش رقم (5)

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الثاني، 25 – 37 (2005م)

الـزلازل فـي مـصـــر
(من القرن 1- 13هـ/7- 19م)

د. خالد يونس عبد العزيز الخالدي

ملخص البحث:

جاء هذا البحث ليسد النقص الكبير في مجال التوثيق التاريخي للزلازل التي ضربت مصر من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجريين.

وقد أجرى الباحث توثيقاً لكل زلزال، من حيث زمان ومكان حدوثه، والأضرار المادية والبشرية التي رافقته، واعتمد في ذلك على أكثر من 17 مصدراً أولياً.

وقد تبين أن مصر قد تعرضت خلال المدة التي تناولها الباحث لنحو تسع وعشرين زلزلة، تم تسجيل جميع التفاصيل المتعلقة بها.

وخلص الباحث إلى العديد من النتائج المهمة وقدم قاعدة معلوماتية مهمة للمؤرخين والعلماء والمهتمين.

المقدمة:

للزلازل في حياة الإنسان وحضارته كبير الأثر، فكم من مدن وحضارات دمرتها في لمح البصر، فلم تبق منها ولم تذر، وكم أفنت عبر الزمان من البشر، وما تزال وسوف تبقى من أشد أنواع الخطر.

ومع ذلك فقد أهمل الباحثون المعاصرون دراسة تاريخ الزلازل في الأقطار العربية والإسلامية، ووجهوا معظم دراساتهم نحو التاريخ السياسي لهذه الأقطار.

ولقد عزمت على الخوض في دراسة تاريخ الزلازل في الأقطار العربية والإسلامية وقررت أن أبدأ بمصر. موضوع هذا البحث- للأسباب الآتية:-

1. ندرة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، إذ لم أجد عنه أية دراسة تاريخية.
2. الأثر الكبير الذي لعبته الزلازل في حياة وحضارة السكان في مصر وغيرها من الأقطار العربية والإسلامية.
3. اهتمام بعض المؤرخين الأوائل بالتأريخ للزلازل في الدولة الإسلامية، وتقديم تفاصيل مهمة عن صفتها وآثارها، وتناثر هذه المعلومات وتبعثرها في بطون الكتب، وضرورة جمعها وإخراجها في دراسات تعالج الموضوع في مصر وغيرها من الأقطار كل على حدة.
4. أن الزلازل ما تزال وسوف تبقى تهدد حياة وحضارة السكان في منطقتنا العربية والإسلامية، ولسنا ببعيد من زلزلة ضربت مصر قبل بضعة أعوام أدت إلى دمار كبير وخسائر فادحة.

5. أملاً في تسجيل معلومات عن كل الزلازل التي ضربت مصر، وغيرها من الأقطار الإسلامية - لاحقاً- ، وتقديمها إلى العلماء والباحثين المتخصصين في مجال الزلازل، لكي يفيدوا منها في تطوير هذا العلم، ويتعرفوا على طبيعة الأرض التي يدرسونها، ويتمكنوا من التنبؤ بموعد الزلزلة قبل وقوعها، إذ تحدث بعض المؤرخين المسلمين عن ظواهر طبيعية تحدث قبيل الزلزلة في بعض الأحيان.

6. إطلاع المهندسين على ما أحدثته الزلازل من تدمير في المباني، وخسائر في الأرواح عبر ثلاثة عشر قرناً من الزمان لكي يتعرفوا على طبيعة الأرض، ويتعلموا من خلال تاريخ الزلازل وآثارها في منطقتهم، كيف يقيمون أبنية تقاوم الزلازل.

ويتلخص منهجي في هذه الدراسة في النقاط الآتية:

1) اعتماد المنهج الوصفي الذي يقوم على تقديم المعلومات مثلما قدمها لنا المؤرخون الأوائل، وذلك ثقة بقدرة مؤرخينا على تقديم وصف دقيق لمشاهداتهم، ولأن موضوع الزلازل بعيد عن التأثر بميولٍ وأهواء المؤرخين، ولا مجال فيه للادعاء والكذب، ورغبة في وصول هذه المعلومات كاملة إلى العلماء والمتخصصين. وقد أكثرتُ من ذكر النصوص التي قالها المؤرخون الأوائل، حتى لا يؤدي اختصارها وكتابتها بأسلوبنا المعاصر إلى ضياع معلومات قد تهم العلماء والباحثين في مجال الزلازل.

2) البعد عن الاستنتاج والاستنباط والتفسير فيما يتعلق بالأمور العلمية الخاصة بعلم الزلازل، وترك ذلك لجهود العلماء المتخصصين، والاكتفاء بتقديم كل المعلومات التي توفرت عن الزلازل في كتب المؤرخين، وعرضها بصورة منظمة ودقيقة وشاملة، تخدم المهتمين والباحثين المتخصصين في مجال الزلازل.

3) تسجيل المعلومات عن الزلازل حسب تسلسلها الزمني، بادئاً بالأقدم، وفق ما قدَّمته مصادرنا من معلومات.

4) تسجيل كل المعلومات الواردة عن الزلزلة وآثارها في مصر، مع إضافة أسماء المناطق التي ضربتها الزلزلة نفسها وفي الوقت نفسه خارج مصر، وأهم المعلومات المتوفرة عن آثارها في تلك المناطق، وذلك من أجل دراسات علمية أكثر دقة عن الزلازل في الأقطار العربية والإسلامية.

وإني إذ أقدّم هذا البحث عن الزلازل في مصر، لأعدُ الباحثين والمهتمين بتقديم دراسات أخرى عن تاريخ الزلازل في كل قطرٍ عربي وإسلامي في القريب العاجل إن شاء الله، إذ أتممت بعون الله تعالى جمع كل ما توفر عنها من معلومات.

أول تاريخ وجدته في مصادرنا الإسلامية للزلازل في مصر في العهد الإسلامي هو سنة (180هـ/796م) في العهد العباسي، وقد أجمع المؤرخون على أنَّ الزلزلة في هذه السنة كانت عظيمة أدت إلى سقوط رأس منارة الإسكندرية[1]، ولم يشيروا إلى حدوث زلازل خارج مصر في تلك السنة.

(1) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج 4، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1407هـ، ص 649؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ = الملوك والأمم (حتى 257هـ)، ج 9، بيروت، دار صادر، ط 1، 1358هـ، ص 46؛ ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، ج 5، تحقيق: أبي الفداء =

وفي شهر (ذي الحجة، من سنة 242هـ/إبريل 857م) في العهد العباسي أيضاً، "نال أهل مصر زلزلة عَمَّت حتى اضطربت سواري المسجد، وتهدمت البيوت والمساجد"[2].

ولم أعثر على معلومات عن حدوث زلازل في شهر ذي الحجة من سنة 242هـ في أقطار الدولة الإسلامية، لكن مصادرنا أشارت إلى زلزلة شديدة أصابت قومس والدامغان والري وطبرستان ونيسابور وأصبهان وجرجان وخراسان في شعبان من هذه السنة[3]

"حتى مات بقومس خلق كثير، ونالتهم رجفة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شعبان [22- ديسمبر- 856م]، فمات فيها زهاء مائتي ألف، وخسف بعدة مدن بخراسان"[4].

وفي سنة (245هـ/859م) في العهد العباسي أيضاً "زلزلت مصر، وسمع أهل بلبيس[5] من ناحية مصر صيحة هائلة، فمات خلق من أهل بلبيس"[6].

وتحدَّث كلٌ من الطبري[7] وابن كثير[8] والحنبلي[9]. عن زلازل شديدة وقعت في هذه السنة في بلاد الشام، وذكروا أن الذين سمعوا الضجة الهائلة من أهل مصر هم أهل تنيس[10]، لكنهم لم يذكروا أنَّ الزلازل قد ضربت مصر.

والظاهر أنَّ الزلزلة قد ضربت مصر فعلاً مثلما ذكر ابن تغري بردي والسيوطي، لكنها كانت خفيفة، لأنهما لم يتحدثا عن هدمٍ حصل في مصر، وإنما تحدثا عن موتٍ نتيجة للصيحة الهائلة التي رافقت الزلزلة[11]، ومما يؤكد صحة وقوعها في مصر، أنها كانت واسعة، حيث ضربت بلاد المغرب والعراق والشام[12]، ووصفت بأنها قد عَمَّت الدنيا[13]. ويبدو أن السبب في عدم قول الطبري أنها وصلت إلى

= عبدالله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 1415هـ- 1995م، ص 311؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، العبر في خبر من غبر، ج 1، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط 2، 1948م، ص 275؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء، البداية والنهاية، ج 10، بيروت، مكتبة المعارف، د.ت، ص 175؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 2، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص 99؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، ج 1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، 1371هـ- 1952م، ص 288؛ الحنبلي، عبد الحي بن أحمد الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج 1، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص 293.

(2) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، بيروت، دار صادر، د.ت ص 491.

(3) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 491؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، سير أعلام النبلاء، ج 12، تحقيق: شعيب الأرناؤط، محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1413هـ، ط 9، ص 37؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، =

= ج 2، ص 307؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج 1، ص ص 99- 100.

(4) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 491.

(5) بلبيس: "مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام".

ينظر: ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج 1، بيروت، دار الفكر، ص 479.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 219؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 349.

(7) تاريخ، ج 5، ص 328؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10، ص 346؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج 1، ص 107.

(8) البداية والنهاية، ج 10، ص 346.

(9) شذرات الذهب، ج 1، ص 107.

(10) تنيس: جزيرة في بحر، قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 51.

(11) الطبري، تاريخ، ج 5، ص 328؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 219؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 349.

(12) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 219.

(13) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 12، ص 38؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 349.

مصر، أنها كانت خفيفة لم تؤدِّ إلى هدم أو خراب، أما ابن كثير فلم يشر إلى حدوثها لأنه نقل هذا الخبر عن الطبري[14].

وفي سنة (267هـ/880م) في العهد الطولوني ضربت مصر زلزلة وصفت بأنها عظيمة، لكن لم تتوفر معلومات عن حجم الخسائر والأضرار التي ألحقتها، ولم تقتصر هذه الزلزلة على مصر، بل ضربت أيضاً الشام وبلاد الجزيرة وأفريقيا والأندلس[15].

وقد حدَّد الناصري تاريخ حدوثها، فذكر أنه يوم الخميس، (الثاني من شوال سنة 267هـ/4 مايو 881م)، وتحدَّث عن قوَّتها في بلاد المغرب، وحجم الخسائر المادية التي ألحقتها[16]، وأنه مع ذلك "لم يمت فيها أحد لطفاً من الله تعالى بخلقه"[17]، كما تحدَّث الطبري عن وقوعها في بغداد، وأنها كانت هائلة[18]، ولكن "وقى الله شرَّها وصرف مكروهها"[19].

وفي سنة (271هـ/884م) في العهد الطولوني أيضاً "كان بمصر زلزلة عظيمة انهدمت منها منارة الإسكندرية"[20].

وفي (جمادى الآخرة من سنة 272هـ/نوفمبر 885م) في العهد الطولوني أيضاً[21]، ضربت مصر "زلزلة شديدة خربت الدور والمسجد الجامع، وأحصي بها في يوم واحد ألف جنازة"[22].

وفي سنة (344هـ/955م) في العهد الأخشيدي "زلزلت مصر زلزلة صعبة هدمت البيوت، ودامت ثلاث ساعات، وفزع الناس إلى الله بالدعاء"[23].

وضربت مصر في (جمادى الأولى من سنة 460هـ/ مارس 1068م) في العهد الفاطمي زلزلة، لم يتحدث المؤرخون عن آثارها في مصر[24]، لأنها لم تكن شديدة فيما يبدو، إذ كان مركزها مدينة الرملة التي أصابها تدمير كبير، حيث وصفها ابن الأثير بقوله: "خربت الرملة وطلع الماء من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألف نسمة"[25].

كما ضربت مصر زلزلة أخرى يوم الثلاثاء (11 جمادى الأولى- سنة 462هـ/ 25- 2- 1070م) أدت إلى تدمير في تنيس[26]، وهدم في إحدى زوايا جامع مصر، لكنَّ مركز هذه الزلزلة كان في الرملة وأعمالها[27]، إذ يصفها ابن كثير بقوله: "كانت زلزلة عظيمة بالرملة وأعمالها، فذهب

---

(14) ينظر: البداية والنهاية، ج 10، ص 346.

(15) ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 307.

(16) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 1، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1997م، ط 1، ص 237.

(17) م.ن، ج 1، ص 237.

(18) الطبري، تاريخ، ج 5، ص 540.

(19) م.ن، ج 5، ص 540.

(20) القلقشندي، أحمد بن عبد الله، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، ج 1، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط 2، 1985م، ص 256.

(21) ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 346.

(22) م.ن، ج 6، ص 346.

ينظر: الطبري، تاريخ، ج 5، ص 593؛ ابن الجوزي، المنتظم (من 257هـ)، ج 5، ص 85؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج 1، ص 162.

(23) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 399؛ ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 3، ص 313.

(24) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 399؛ ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 3، ص 313.

(25) ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 381؛ القلقشندي، مآثر الإنافة، ج 1، ص 343.

(26) ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 381.

(27) ابن الجوزي، المنتظم (من 257هـ)، ج 8، ص 256.

أكثرها وانهدم سورها"[28].

وفي (12 شوال من سنة 565هـ/الأحد 28- 6- 1170م) في أواخر العهد الفاطمي هزت مصر "زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها[29]، وقد ضربت هذه الزلزلة أيضاً "الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء"[30].

ولم ترد معلومات عن الخسائر التي تسببت بها هذه الزلزلة في مصر، وذكر الذهبي أنها أدت إلى فشل الفرنجة في دخول دمياط، إذ اضطروا بسببها إلى فك الحصار عنها بعد أن استمرَّ خمسين يوماً[31].

وفي (شعبان من سنة 597هـ/ مايو 1201م) في العهد الأيوبي هزَّت مصر زلزلة تحدَّث المؤرخون عن شدَّتها فوصفوها بالعظمى[32]، والهائلة[33]، والكبرى[34]، وذكروا أنها "هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير"[35]، وأنَّ إماماً في الإسكندرية صلَّى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة من ضحايا هذه الزلزلة[36].

ولم تقتصر هذه الزلزلة على مصر، بل امتدت إلى الشام، فدمرت كثيراً من مدنه، وأوقعت خسائر مادية وبشرية فادحة، وقُدرت خسائرها في مصر وغيرها بمليون ومائة ألف نسمة[37]، وأحصي عدد من مات تحت الهدم في نابلس وحدها، فكان ثلاثين ألف نسمة[38].

ولا نستبعد أن تكون هذه الأرقام قريبة من الدقة بالرغم من ضخامتها، لأننا نسمع في وقتنا الحاضر عن زلازل تؤدي إلى موتِ عشرات الألوف في بلدٍ واحد، بالرغم من التطور الكبير في مجال الهندسة والبناء ووسائل الإنقاذ.

وشهدت مصر زلزلة سنة (600هـ/ 1204م) في العهد الأيوبي أيضاً[39]، وقد ضربت هذه الزلزلة أيضاً "الشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرص، ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرها، وخربت من صُور سورها، وأثرت في كثير من الشام"[40].

والظاهر أنها كانت خفيفة في مصر إذ لم تؤدِّ إلى دمارٍ وخسائر بشرية، ولو حدثت خسائر لسجلت ذلك كتب التاريخ التي جاءت بخبر هذه الزلزلة.

---

(28) ابن كثير. البداية والنهاية، ج 12، ص 99.

(29) م.ن، ج 12، ص 99.

(30) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج 2، تحقيق: إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1997، ص 154.

(31) م.ن، ج 2، ص 154.
لمزيد من التفاصيل عن آثار هذه الزلزلة في بلاد الشام.
ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 24؛ الذهبي، العبر، ج 4، ص 189؛ الذهبي سير أعلام النبلاء، ج 20، ص 417؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص 261.

(32) سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 417.

(33) الذهبي، العبر، ج 4، ص 296؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج 2، ص 328.

(34) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 174.

(35) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 455.

(36) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 174.
ينظر: الذهبي، العبر، (1)، ج 4، ص 296؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص ص 221- 222؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 455.

(37) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص 220.

(38) ينظر تفاصيل ذلك عند: الذهبي، العبر، ج 4، ص 296؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص ص 221- 222؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 174؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 455، الحنبلي، شذرات، ج 2، 328.

(39) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص ص 221- 222.

(40) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص ص 293- 294؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 37.

وفي سنة (608هـ/1211م) في نفس العهد "كانت زلزلة عظيمة شديدة بمصر والقاهرة، هدمت فيها دوراً كثيرة، وكذلك بالكرك والشوبك هدمت من قلعتها أبراجاً، ومات خلق كثير من الصبيان والنساء تحت الهدم"(41).

وفي سنة (660هـ/1261م) في العهد المملوكي البحري "وقع بالديار المصرية بمصر والقاهرة والوجهين القبلي والبحري والبلاد الشامية دمشق وصفد والكرك والشوبك وغيرها وسواد العراق زلزلة شديدة تساقطت منها الأبنية، وتشققت الجبال، وتقطعت الصخور، وتفجرت الأرض عيوناً، وخرج الناس من مساكنهم هاربين إلى الصحاري، وظهر أثرها في النيل والبحر الملح، وطما البحر لسببها، حتى أغرق قماش القصارين، وتكسرت القوارب والسفن، وتهدمت الجدران ومنارات الجوامع، ووقع جانب عظيم من منارة الإسكندرية"(42).

وفي سنة (662هـ/ 1263م) في نفس العهد "زلزلت مصر زلزلة عظيمة"(43)، ولكن لم ترد معلومات عن حجم الخسائر التي أحدثتها، وكانت هذه الزلزلة في عهد السلطان بيبرس البندقداري، وقد أشار إليها أبو الحسن عبد الله البرقي في الأبيات التي يمتدح فيها الحاكم بأمر الله حيث يقول:

بالحاكم العدلِ أضحى الدين معتليا
نجل الهدى وسليل السادةِ الصلحا
ما زلزلت مصر من كيدٍ يُرادُ بها
وإنما رقصت من عدله فرحا(44).

وفي (ذي القعدة من سنة 702هـ/ يوليو- 1303م) في العهد المملوكي البحري أيضاً أيام السلطان الناصر محمد "زلزلت مصر، وتساقطت الدور، ومات بالإسكندرية تحت الردم نحو المائتين"(45).

وفي سنة 702هـ أيضاً "جاءت زلزلة عظيمة يوم الخميس بكرة [الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة/8- 8- 1303م]، وكان جمهورها بالديار المصرية، وتلاطمت بسببها البحار ولم يُرَ مثلها في هذه الأعصار. وكان منها بالشام طائفة، لكن كان ذلك أخف من سائر البلاد غيرها"(46).

وعن هذه الزلزلة يقول ابن تغري بردي: "وفيها كانت بمصر والقاهرة زلزلة عظيمة أخربت عدة منائر ومبانٍ كثيرة من الجوامع والبيوت، حتى أقامت الأمراء ومباشرو الأوقاف مدة طويلة، ترمم وتجدد ما تشعث فيها من المدارس والجوامع حتى منارة الإسكندرية"(47). وعنها أيضاً يقول السيوطي: "وفيها زلزلت مصر والشام زلزلة عظيمة هلك فيها خلق تحت الهدم"(48).

وقد تحملت الدولة في مصر عمليات الإصلاح والترميم لكل ما تهدم بسبب هذه الزلزلة من مرافق عامة كالمدارس والجوامع والمنارات(49)، ويروي السيوطي أنَّ الأمير بيبرس الجاشنكير المنصوري جددً

(41) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص ص 293- 294.
(42) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 62.
ينظر: الحنبلي، شذرات الذهب، ج 3، ص 32.
(43) القلقشندي، مآثر الإنافة، ج 2، ص ص 114- 115.
ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص 235.
(44) ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص 389.
(45) ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص 389.
(46) الذهبي، العبر في خبر من غبر(1)، ج 6، ص ص 20- 21.
(47) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 27.
(48) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 201.
(49) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 484.

سنة (703هـ/ 1303م) بناء جامع الحاكم بعد خرابه من هذه الزلزلة خاصة مئذنتيه[50].

وقد ضربت هذه الزلزلة أيضاً مكة والمدينة، وأحدثت فيهما خسائر وأضراراً، حملت "سلار" نائب السلطان محمد بن قلاوون على دفع ديون غالب الناس في مكة والمدينة، وإعطاء كلٌ منهم قوت سنة[51].

ويذكر ابن تغري بردي في أحداث سنة (703هـ/1303م) أن السلطان محمد بن قلاوون "انتدب الأمراء لعمارة ما خرب من الجوامع بالزلزلة في السنة الماضية، وأنفقوا فيها مالاً جزيلاً"[52].

وفي سنة (725هـ/ 1324م) في أيام السلطان الناصر محمد أيضاً "زلزلت القاهر ة زلزلة لطيفة"[53].

وفي (ذي الحجة من سنة 741هـ/ يونيو 1341م) "كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام والإسكندرية مات فيها تحت الردم ما لا يحصى، وغرقت مراكب كثيرة، وتهدمت جوامع ومآذن لا تُعد"[54].

وتحدث السيوطي عن زلزلة ضربت مصر يوم الأحد، (17 محرم 886هـ/18 مارس 1481م) في العهد المملوكي الجركسي أيام السلطان قايتباي فقال: "زلزلت الأرض يوم الأحد بعد العصر، سابع عشر المحرم زلزلة صعبة ماجت منها الأرض والجبال والأبنية موجاً، ودامت لحظة لطيفة ثم سكنت فالحمد لله على سكونها وسقط بسببها شرافة من المدارس الصالحية على قاضي القضاة الحنفي شرف الدين بن عيد فمات، فإنا لله وإنا إليه راجعون"[55].

وضربت هذه الزلزلة أيضاً مناطق أخرى كدمشق[56]، ومكة المكرمة[57]، وقد أكد ذلك صاحب الشذرات بقوله: "وفيها في سابع عشر المحرم، كانت بمكة زلزلة هائلة لم يسمع بمثلها"[58].

وفي سنة (984هـ/ 1576م) في العهد العثماني وقعت في مصر زلزلة لم تتوفر لدينا معلومات عنها، غير أنها حملت نور الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزار المصري (ت: 984هـ/1576م) على تأليف رسالة عن الزلازل بعنوان: "تحصين المنازل من هول الزلازل"[59].

وقد سبق لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: 911هـ/ 1505م) أن ألّف في مصر كتاباً عن الزلازل أسماه "كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة"، وقد ألّفه في أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[60].

وأكد الجبرتي أنَّ مصر قد شهدت زلزلة في (2 رجب سنة 1122هـ/ الأربعاء 27- 8- 1710م) لكنه لم يقدم عنها أية معلومات[61]، كما لم أجد لها ذكراً في المصادر الأخرى.

---

(50) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 201.

(51) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، ص 33؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 484.

(52) السخاوي، شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، ج 1، ص 411.

(53) النجوم الزاهرة، ج 8، ص 208.

(54) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 510.

(55) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 515؛ ينظر: النعيمي، عبدالقادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، =

= 1410هـ، ص ص 493- 494.

(56) النعيمي، الدارس، ج 1، ص ص 493- 494.

(57) الحنبلي، شذرات الذهب، ج 4، ص 344.

(58) م ن، ج 4، ص 344.

(59) القسطنطيني، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 1، بيروت، دار الكتب العلمية 1413هـ- 1992، ص 360.

(60) القسطنطيني، كشف الظنون، ج 2، ص 1491.

(61) الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 1، بيروت، دار الجيل، د.ت، د.ط، ص 65.

وظنَّ سكان القاهرة يوم الثلاثاء (10 رمضان 1201هـ/ 26- 6- 1787م) أنَّ زلزلة قد ضربت ديارهم، ففزعوا وتدافعوا في السوق، وأخذ التجار في خان البهار يحملون بضائعهم ويهربون، ثم تبين لهم أن، الارتجاج والصوت الذي سمعوه ناجم عن انفجار كمية كبيرة من البارود الإنجليزي وصلت إليه النار بطريق الخطأ[62].

وفي (12 رمضان سنة 1204هـ/ الخميس 27- 5- 1790م) "حصل زلزلة لطيفة في سادس ساعة من الليل"[63].

ويروي الجبرتي حادثة طريفة وقعت في (أواخر شهر جمادى الأولى من سنة 1205هـ/ فبراير 1791م)، فيقول: "أشيع في الناس أنّ في ليل السابع والعشرين، نصف الليل يحصل زلزلة عظيمة، وتستمر سبع ساعات، ونسبوا هذا القول إلى أخبار بعض الفلكيين من غير أصل، واعتقده الخاصة فضلاً عن العامة، وصمموا على حصوله من غير دليلٍ لهم على ذلك، فلما كانت تلك الليلة خرج غالب الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن المتسعة، مثل بركة الأزبكية والفيل وخلافهما، ونزلوا في المراكب، ولم يبق في بيته إلا من ثبته الله، وباتوا ينتظرون ذلك الصباح، فلم يحصل شيء، وأصبحوا يتضاحكون على بعضهم"[64].

وتدل هذه الحادثة على شدة خوف الناس في مصر من الزلازل، وعلى أثرها في نفوسهم وتفكيرهم وحياتهم.

(62) م.ن، ج 2، ص 25.
(63) م.ن، ج 1، ص 56؛ ج 2، ص 86.
(64) م.ن، ج 2، ص 94.

ويذكر أيضاً أنه في ليلة الأحد (2 جمادى الثانية سنة 1216هـ/ 10- 10- 1801م) حصلت زلزلة في مصر في ثالث ساعة من الليل[65]، لكنه لم يقدم عنها أية تفاصيل.

كما يشير إلى زلزلة أخرى وقعت في مصر يوم الثلاثاء (5 ربيع الثاني 1220هـ/ 2- 7- 1805م[66]) فيقول: "وفي ذلك اليوم وقت الشروق حصلت زلزلة عظيمة، وارتجت الأرض نحو أربع درجات"[67].

ويتحدث عن زلزلة ضربت مصر في ليلة السبت، 13 محرم 1225هـ/ 17- 2- 1810م)[68]. ويصفها بقوله: "حصلت زلزلة عجيبة، وارتجت الجهات ثلاث رجات متواليات، واستمرت نحو أربع دقائق، فانزعج الناس منها من منامهم، وصار لهم جلبة وقلق، وخرج الكثير من دورهم هاربين إلى الأزقة يريدون الخلاص إلى الفضاء مع بعده عنهم، وكان ذلك في أول الساعة السابعة من الليل، وأصبح الناس يتحدثون فيما بينهم، وسقط بسببها بعض حيطان ودور قديمة، وتشققت جدران، وسقطت منارة بسوس، ونصف منارة بأم أخنان بالمنوفية وغير ذلك لا نعلمه. وفي عصر يوم السبت أيضاً حصلت زلزلة، ولكن دون الأولى، فانزعج الناس منها أيضاً، وهاجوا ثم سكنوا، ثم كثر لغط العالم بمعاودتها، فمنهم من يقول: ليلة الأربعاء، ومنهم من أسنده لبعض النصارى واليهود، وأنَّ رجلاً نصرانياً ذهب إلى الباشا، وأخبره بحصول ذلك، وأكد في قوله، وقال له احبسني حتى يمضي الوقت الذي عينه ليظهر

(65) م.ن، ج 2، ص 449.
(66) م.ن، ج 3، ص 73.
(67) م.ن، ج 3، ص 73.
(68) م.ن، ج 3، ص 285.

صدقه من كذبه، وكل ذلك من تخيلاتهم واختلاقاتهم وأكاذيبهم، وما يعلم الغيب إلى الله"[69].

وفي (صفر سنة 1225هـ/ مارس 1810م) "وصلت الأخبار من البلاد الرومية والشامية وغيرها بوقوع الزلزلة في الوقت الذي حصلت فيه بمصر إلا أنها كانت أعظم وأشد وأطول مدة، وحصل في بلاد كريت إتلافات كثيرة، وهدمت أماكن ودوراً كثيرة، وهلك كثير من الناس تحت الردم"[70]. وهي أخبار الزلزلة سالفة الذكر التي وقعت في (13 محرم 1225هـ/ 17- 2- 1810م)

ويواصل الجبرتي حديثه عن شائعة أفزعت أهل مصر حدثت يوم الخميس (18 محرم 1225هـ/ 22- 2- 1810م) فيقول: "شاع في الناس حصول زلزلة تلك الليلة وهي ليلة الجمعة، ويكون ذلك في نصف الليل، فتأهب غالب الناس للطلوع بخارج البلد، فخرجوا بنسائهم وأولادهم إلى الشيخ قمر ووسط بركة الأزبكية وغيرها. كذلك خرج الكثير من العسكر أيضاً، ونصبوا خياماً في وسط الرميلة وقراميدان والقرافتين، وقاسوا تلك الليلة من البرد ما لا يكيف ولا يوصف، لأنَّ الشمس كانت ببرج الدلو وهو وسط الشتاء، ولم يحصل شيء مما أشاعوه وأذاعوه وتوهموه، و تسلّق العيارون والحرامية تلك الليلة على كثير من الدور والأماكن وفتشوها، فلما أصبح يوم الجمعة كثر التشكي إلى الحكام من ذلك فنادوا في الأسواق بأن لا أحد يذكر أمر الزلزلة، وكل من خرج لذلك من داره عوقب فانكفوا وتركوا هذا اللفظ الفارغ"[71].

وفي ليلة الإثنين (9 رجب 1229هـ/ 27- 6- 1814م) "حصلت في وقت أذان العشاء زلزلة نحو دقيقتين، وكان المؤذنون طلعوا على المنارات وشرعوا في الأذان، فلما اهتزت بهم ظن كل من كان على منارة سقوطها، فأسرعوا بالنزول، فلما علموا أنها زلزلة طلعوا وأعادوا الأذان، وسقط من شرائف الجامع الأزهر شرافة، وتحركت الأرض أيضاً في خامس ساعة من الليل، ولكن دون الأولى، وكذلك وقت الشروق هزة لطيفة[72].

وفيما يلي جدول توضيحي مفصل يعرض أهم المعلومات الواردة في البحث عن الزلازل في مصر بصورة منظمة تمكن المهتمين من الوصول إليها بسهولة:

---

(69) م‌ن، ج 3، ص 285.

(70) م‌ن، ج 3، ص ص 290- 291.

(71) م‌ن، ج 3، ص ص 286- 287.

(72) م‌ن، ج 3، ص 462.

الرقم	تاريخ الزلزلة	قوتها حسب وصف المؤرخين	المناطق التي نصت الروايات على تضررها داخل مصر	المناطق التي نصت الروايات على تضررها خارج مصر	الأضرار المادية داخل مصر	الأضرار البشرية داخل مصر	الأضرار المادية خارج مصر	الأضرار البشرية خارج مصر.
.1	180هـ/ 796م	عظيمة	الإسكندرية	–	–	–	–	–
.2	ذو الحجة 242هـ/ إبريل 857م	عامة	–	–	تهدم البيوت والمساجد	–	–	–
.3	245هـ/ 859م	–	بلبيس	بلاد المغرب – العراق – الشام	–	–	–	–
.4	الخميس 2 شوال 267هـ/ مايو 881م	عظيمة	–	الشام – بلاد الجزيرة – أفريقيا – الأندلس	تهدم العديد من المنازل في الشام	لا يوجد	تهدم العديد من المنازل في الشام	–
.5	سنة 271هـ/ 884م	عظيمة	الإسكندرية	–	انهدمت منارة الإسكندرية	–	–	–
.6	جمادى الأخرة 272هـ/ نوفمبر 885م	شديدة	–	–	أخربت المنازل والمساجد	أحصي بها في يوم واحد ألف جنازة	–	–
.7	344هـ/ 955م	صعبة	–	–	هدمت البيوت	–	–	–
.8	جمادى الأولى 460هـ / مارس 1068م	–	–	الرملة	–	–	خربت الرملة – طلع الماء من رؤوس الآبار	هلك من أهل الرملة 25 ألف نسمة
.9	الثلاثاء 11 جمادى الأولى 462هـ/ 25-2-1070م.	عظيمة بالرملة	تنيس	الرملة وأعمالها	–	–	ذهب أكثرها وانهدم سورها.	–
.10	12 شوال 565هـ/ الأحد 28-6-1170م.	عظيمة لم ير الناس مثلها	–	الشام – الجزيرة – الموصل – العراق	–	–	خراب بعلبك – حمص – حماه – شيزر – بعرين وغيرها سقطت المنازل على أهلها	هلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء
.11	شعبان 597م / مايو 1201م	العظمى – الهائلة – الكبرى	الإسكندرية	الشام	خسائر مادية فادحة	مليون ومائة ألف نسمة داخل وخارج مصر.	–	في نابلس وحدها ثلاثون ألف نسمة
.12	600هـ/1204م	–	–	الشام – الجزيرة – بلاد الروم – صقلية – قبرص – الموصل – العراق	–	–	خرب سور صور	–
.13	608هـ/1211م	عظيمة – شديدة	القاهرة	الكرك – الشوبك	هدمت دورا كثيرة	مات خلق كثير تحت الهدم	–	مات خلق كثير تحت الهدم.

الرقم	تاريخ الزلزلة	قوتها حسب وصف المؤرخين	المناطق التي نصت الروايات على تضررها داخل مصر	المناطق التي نصت الروايات على تضررها خارج مصر	الأضرار المادية داخل مصر	الأضرار البشرية داخل مصر	الأضرار المادية خارج مصر	الأضرار البشرية خارج مصر.
.14	660هـ/1261	شديدة	القاهرة – الوجهان القبلي والبحري – الإسكندرية	الشام – دمشق – صفد – الكرك – الشوبك – سواد العراق	هدم الجدران ومنارات الجوامع – جانب كبير من منارة الإسكندرية	–	تهدم الجدران ومنارات الجوامع	–
.15	662هـ/ 1263م	عظيمة	–	–	–	–	–	–
.16	ذو القعدة 702هـ/ يوليو 1303م	–	الإسكندرية	–	تساقط الدور.	وفاة مائتي شخص في الإسكندرية	–	–
.17	صباح الخميس 23 ذو الحجة 702هـ/ 8-8-1303م	عظيمة	الديار المصرية – القاهرة	الشام – مكة – المدينة	تلاطم البحار – تكسر المراكب – هدم الدور – شققت الحيطان – أخربت عدة منائر – ومبان كثيرة لجوامع وبيوت	مات خلق كثير	–	–
.18	725هـ/1324م	لطيفة	–	–	–	–	–	–
.19	ذو الحجة 741هـ / يونيو 1341م	عظيمة	مصر – الإسكندرية	الشام	تهدمت دور – غرقت مراكب كثيرة – تهدمت جوامع ومآذن لا تعد	مات تحت الردم ما لا يحصى	–	–
.20	الأحد بعد العصر 17 محرم 886هـ/ 18 مارس 1481م	صعبة – هائلة	–	دمشق – مكة المكرمة	سقطت شرافة من المدارس الصالحية على قاضي القضاة الحنفي شرف الدين فمات	–	–	–
.21	984هـ/1576م	–	–	–	–	–	–	–
.22	2 رجب 1122هـ/ الأربعاء 27-8-1710م	–	–	–	–	–	–	–
.23	12 رمضان 1204هـ/ الخميس 27-5-1790م	لطيفة	–	–	–	–	–	–
.24	ليلة الأحد 2 جمادى الثانية 1216هـ/10 أكتوبر 1801م	–	–	–	–	–	–	–
.25	الثلاثاء 5 ربيع الثاني 1220هـ/ 2 يوليو 1805م	عظيمة ارتجت الأرض نحو أربع درجات	–	–	–	–	–	–

الرقم	تاريخ الزلزلة	قوتها حسب وصف المؤرخين	المناطق التي نصت الروايات على تضررها داخل مصر	المناطق التي نصت الروايات على تضررها خارج مصر	الأضرار المادية داخل مصر	الأضرار البشرية داخل مصر	الأضرار المادية خارج مصر	الأضرار البشرية خارج مصر.
.26	ليلة السبت 13 محرم 1225هـ/ 17 فبراير 1810م	عجيبة ارتجت الجهات ثلاث رجات متوالية - استمرت أربع دقائق	المنوفية بسوس	-	- سقطت بعض حيطان ودور قديمة - تشققت جدران - سقطت منارة بسوس ونصف منارة أم أخنان بالمنوفية	-	-	-
.27	عصر يوم السبت 14 محرم 1225هـ/ 18 فبراير 1810هـ	دون الأولى	-	البلاد الرومية - الشامية وكانت فيها أشد - كريت	إتلافات كثيرة في بلاد كريت - هدم أماكن ودور كثيرة	هلك كثير من الناس تحت الردم	-	-
.28	ليلة الاثنين 9 رجب 1229هـ وقت أذان العشاء / 27 يونيو 1814م	زلزلة نحو دقيقتين دون الأولى	-	سقطت شرافة من شرافات الجامع الأزهر -	-	-	-	-
.29	10 رجب 1229هـ وقت الشروق/ 28 يونيو 1814م.	هزة لطيفة	-	-	-	-	-	-

الخاتمة ونتائج البحث:

تم بعون الله تعالى إتمام هذا البحث، وقد توصل الباحث إلى العديد من النتائج وأهمها:-

- ❖ أنَّ مصادرنا الإسلامية قد أحصت تسعاً وعشرين زلزلة، ضربت مصر منذ فتحها وحتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري.
- ❖ أن كثيراً من الزلازل التي تعرضت لها مصر كانت شديدة أدت إلى خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات والمباني العامة.
- ❖ أنَّ بعض الزلازل كانت خفيفة لم ينجم عنها إلاّ القليل من الخسائر.
- ❖ أنَّ كثيراً من الزلازل التي ضربت مصر، امتدت في الوقت نفسه إلى الشام، وأحياناً إلى المغرب والعراق والجزيرة الفراتية وإلى الحجاز.
- ❖ أنَّ السكان في مصر كانوا يرهبون الزلازل ويفزعون منها لكثرة ما سمعوا وشاهدوا من ويلاتها.
- ❖ أنَّ بعض علماء المسلمين اهتموا بالزلازل، فألفوا كتباً في وصفها، وكيفية تحصين المنازل منها.
- ❖ أنَّ عدداً من الحكام والأمراء في مصر اهتموا بإصلاح ما خربته الزلازل، وقدموا العون للمتضررين منها.
- ❖ أنَّ العلماء في مصر لم يتوصلوا إلى معرفة الزلازل قبل وقوعها. وأنَّ الناس كانوا يصدقون الإشاعات الصادرة عن بعض المنجمين بخصوص مواعيد قدوم الزلازل، فيغادرون بيوتهم إلى المناطق الصحراوية والواسعة وإلى المراكب في البحار والأنهار.

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الثاني، 39 – 68 (2005م)

أحوال الثغور الإسلامية مع بلاد الروم حتى نهاية العصر العباسي الأول

د. سعيد عبد الله القحطاني

ملخص البحث:

أوضح البحث أن منطقة الثغور الإسلامية على حدود الروم ظلت مسرحًا للصراع بين المسلمين والروم لفترات طويلة وأن الحرب كانت سجالاً بين الطرفين، وإن كان النصر في الغالب يعود للمسلمين الذين اهتموا بتحصين هذه الثغور ومرابطة الجند فيها. كما ارتبط هذا الصراع بمدى قوة أو ضعف أي من الطرفين المسلمون أو الروم.

ففي عهد الخلفاء الراشدين تم فتح مناطق كثيرة تابعة للروم مثل بلاد الشام أو إقليم الجزيرة ومصر بعد أن خاض المسلمون معارك حاسمة إنتهت لصالحهم كما حدث في معركة اليرموك الشهيرة 13هـ/ 634م. ثم فتح مدينة قيصرية 19هـ/640م كآخر معاقل الروم في الشام وأخيرًا فتح مصر 20هـ/ 641- 642م.

وتوصلت الدراسة إلى حقيقة أن طبيعة المواجهة بين الروم والمسلمين في عهد الدولة الأموية اختلفت عنها في العصر العباسي ففي عهد بني أمية كانت المباداة من أيدي الأمويين. فقد هاجم يزيد بن معاوية عاصمة الروم نفسها سنة 54هـ/ 674م ثم غزاها بعد ذلك بحملة أكبر مسلمة بن عبدالملك 96هـ/ 717- 718م، وكذلك اهتمام الأمويين بمنطقة الثغور الإسلامية وإعادة تعميرها وشحنها بالجنود وتشجيع الناس على الاستقرار بها.

اما في العصر العباسي فالأمر اختلف، فالغزوات من جانب العباسيين كانت في معظمها رد فعل أم دفاع ضد الروم الذين انتقل إليهم زمام المبادرة. فعلى الرغم من اهتمام خلفاء بني العباس بصد اخطار الروم عن طريق قيادة الحملات الحربية بأنفسهم كما حدث مع الخليفة هارون الرشيد في الصوائف والشواتي، ثم ابنه الخليفة المأمون وحتى المعتصم الذي غزا عمورية وسط آسيا الصغرى إلا أنهم سرعان ما ينسحبون من مناطق الروم بسرعة بسبب المشاكل الداخلية في الخلافة العباسية.

كما تطرق البحث إلى بيان أحوال الثغور الإسلامية على الحدود مع بلاد الروم منذ بداية إنشائها وحتى نهاية فترة الدراسة بنهاية العصر العباسي الأول. كما أوضح تاريخ كل ثغر من هذه الثغور، ودور كل منها في الحملات العربية على أراضي الروم. واهم هذه الثغور هي: مَرْعَش، الحَدَثُ، زِبَطْرة، كَيْسُوم، مَلَطْيَة، سُمَيْسَاط، طَرَسُوس، أذَنَة، المَصِّيصَة، عيَن زَرْبَة.

مقدمة:

يتناول البحث أحوال الثغور الإسلامية الواقعة في الأطراف الشمالية لبلاد الشام، وفي أعالي الرافدين والتي تشكل الحد الفاصل بين مناطق النفوذ الإسلامية، والنفوذ الرومية، وقد حظيت باهتمام الخلفاء المسلمين وحرصوا على فتحها، والقضاء على الوجود البيزنطي فيها. فأشار البحث إلى موقعها الجغرافي، حيث تتخللها سلسلة جبلية كجبال طوروس واللُّكام، وقد درج بعض الجغرافيين على تقسيم الثغور إلى شامية وجزرية؛ فالشامية تبدأ بثغر طَرَسُوس وتنتهي بالهَارُونية. أما الجزرية فمنها مَرعَش وسُمَيساط. وقد تناول البحث أهم المعالم عند الحديث عن كل ثغر على حدة، ولم يغفل الإشارة إلى المناخ، وسكان الثغور، والديانات، وبعض النشاط الاجتماعي إن وجد.

ثم عرضت في إيجاز للفتوحات الإسلامية لهذه الثغور ودورها في امتداد هذه الفتوحات إلى عمق أراضي الروم، وما وجهته الدولة الإسلامية من حملات من وقت لآخر لهذه المنطقة، وإخضاعها للنفوذ الإسلامي، وكذا ما تعرضت له الحدود من هجمات مضادة في بعض الأوقات من جانب الروم.

ثم عرضت للجهود الأموية التي تركزت على محاولة فتح عاصمة الروم القسطنطينية، وكان أهمها الحملات التي كانت في عهد معاوية بن أبي سفيان، وفي عهد الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان، فقد تم حصار القسطنطينية وشددوا الخناق على دولة الروم في تلك الأثناء.

وقد حاولت تقويم نتائج تلك الحملات في نهاية الحديث عن كل منها، ثم عرضت للفتوحات الإسلامية في عهد الدولة العباسية، والتي لم تكن بنفس الحماس الذي كانت عليه من قبل في العهد الأموي. وقد اتضح لنا أن النشاط الحربي العباسي ضد دولة الروم كان مجرد ردة فعل أو ثأراً حيث كان موقفهم في معظم الأوقات موقف المدافع فكان زمام المبادأة من قبل الجانب الآخر. كما كان لنقل مركز الحكومة من دمشق إلى العراق أثره في فتور الهجمات الإسلامية على أملاك الروم.

ولم أغفل الإشارة إلى الأسباب التي شغلت الدولة الإسلامية عن مواصلة هجماتها على إمبراطورية الروم، واكتفت بصد أي خطر يداهم مناطق نفوذها. فكانت المشكلات الداخلية في عهد الدولة العباسية شغلها الشاغل، فلم تكن تطمع في التوسع الخارجي وكسب مناطق نفوذ جديدة، بل إنها خسرت بعض أراضيها في الأندلس التي استقلت عنها.

وقد اعتمد البحث على مصادر كثيرة ومتنوعة في مقدمتها المصادر التاريخية وأخص بالذكر البلاذري (ت 279هـ/892م) في كتاب "الفتوح"، الذي أمدنا بمعلومات وفيرة عن الفتوحات الإسلامية لمنطقة الثغور، ثم الطبري، (ت 310هـ/ 922م)، في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" فقد أورد معلومات متناثرة عن الجهاد الإسلامي، إلا أنه يفصل في بعضها مثل حديثه عن حملة عَمورية، فقد أوردها بشيء من التفصيل، وكذلك ابن الأثير، (ت 630هـ/ 1232م)، في كتابه "الكامل في التاريخ"، الذي اعتمد على الطبري في رواياته، كما اعتمدت على المصادر الجغرافية والبلدان مثل كتاب ابن حوقل، "صورة الأرض" ، "والمسالك والممالك"، للأصطخري وكتاب "البلدان" لليعقوبي، وابن رسته، في كتابه "الأعلاق النفيسة"، وكذا ابن خرداذبة "المسالك والممالك"، ثم الحموي "معجم البلدان".

جغرافية الثغور:

تمتد الثغور الإسلامية من مَلَطْية على الفرات الأعلى إلى طَرَسُوس في قيليقية بالقرب من ساحل بحر الروم، فكانت الحدود بين بلاد المسلمين والإمبراطورية الرومية تتكون من سلسلة جبال طوروس وطروس الداخلية "اللُكام" ويقسمها ابن خرداذبة إلى ثغور شامية وجزيرية[1].

فالثغور الشامية تبدأ بطَرَسُوس وأَذَنَة والمَصيّصَة وعَينُ زَرْبَة والكَنيسَة والهَارُونية، أما الجزرية فتبتدي بمَرْعَش والحَدَث وزِبَطْرة وكَيسوم وحصن منصور ومَلَطْيه وسُمَيسَاط وشمشاط[2]. وقد أشار ابن رسته إلى أن معظم الثغور الإسلامية تدخل في الإقليم الرابع في تقسيماته[3]، فالثغور تقع عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس، فهذه السلسلة الجبلية تفصل شمال الشام وأعالي الرافدين عن آسيا الصغرى.

ومن أبرز معالم منطقة الثغور المجرى الأعلى لنهر الفرات ونهر القباقب والمجرى الأعلى لنهري جيحان وسيحان[4]. ومن أهم المعالم ممرات سلسلة جبال طوروس وإقليم جيحان الأوسط وبوابات قيليقية إلى قيصرية[5]. وتلتقي الحدود الشامية بأرض أرمينية الصغرى عند ضفة الفرات الأعلى الشمالية بين سميساط وملطية، وقد ذكر اليعقوبي أن ثغر ملطية في أرض مستوية تحيط بها جبال الروم وماؤها من الفرات[6]. وتفصل سلسلة جبال اللكام بين الثغور الجزيرية والشامية ويعدّ سهل قيليقية دلتا نهري جيحان وسيحان[7]، وهذا السهل محاط بالجبال من ثلاث جهات هي جبال طوروس القيليقية، وجبال اللُكام، وجبال أمانوس، وبالقرب من نهر جيحان توجد منطقة خصبة تسمى مرج الديباج[8]. وتقترب جبال طوروس من البحر المتوسط وكانت تنتهي الحدود الإسلامية عند نهر اللامس[9]. وتنقسم السهول في منطقة الثغور إلى قسمين سهل قيليقية السفلي، كما أشرنا سابقاً، ويمتد من سفوح جبال طوروس حتى البحر وأهم حصونه طَرسوس وأَذَنه، أما

---

(1) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، (ت 300هـ/912م)، المسالك والممالك، ليدن، 1888م، ص 43؛ لوسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص 160؛ الجنزوري، علية عبدالسميع، الثغور البرية الإسلامية في العصور الوسطى، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1979م، ص 8.

(2) تحصن الروم في ثغور لهم بآسيا الصغرى تماثل الثغور الإسلامية أهمها ثغر الابسيق Opsikion وعاصمته نيقية، وثغر الافتيماتي Optimaron وعاصمته نيقوميديا، ثم ثغر التراقسيون Thracesoin بالجنوب الغربي من هضبة الأناضول ويقع بالقرب من البحر، ثم ثغر البقلار Bucellairon ، وبافلاجونيا Paphlagonia، وثغر الارمنياق Armeniakon المعروف بضخامة مساحته، ثم ثغر خالديا Chaldia وعلى امتداد الطرف الشرقي للأملاك البيزنطية في آسيا الصغرى تقع ثغور خرسنة Charsyanon ، العريني، الباز، الدولة البيزنطية، القاهرة 1965م، ص 161، 354.

(3) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، (ت 299هـ/903م)، الأعلاق النفيسة، بريل، 1891م، ذكر الأقاليم السبعة.

(4) أطلق المسلمون على نهري سارس وبيرامس اسم سيحان = وجيحان، وكانا في صدر الإسلام حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم، وقد سمى البلدانيون العرب نهري بيرامس وسارس باسم جيحان وسيحان وهما ينبعان من أرض الروم ويصبان في البحر عند الحدود الشامية. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ص 175- 177؛ لوسترانج: بلدان الخلافة، ص 163؛ الجنزوري، الثغور البرية، ص 13.

(5) ابن حوقل، أبو القاسم محمد، (ت 367هـ/978م)، صورة الأرض، ليدن، 1938م، ص 184.

(6) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، (ت 284هـ/ 897م)، كتاب البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، 1408هـ، ص 118.

(7) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ص 176- 177.

(8) الأصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد، (ت 346هـ/957م)، المسالك والممالك، دار القلم، القاهرة، 1681هـ/1961م، ص 47؛ ياقوت، شهاب الدين بن عبدالله، (ت 626هـ/ 1228م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج 5، ص 101.

(9) عاشور، سعيد، سلطنة المماليك، القاهرة، 1968م، ص 141.

السهول الشرقية فيفصلها عن السهول الغربية جبل المَصيصة وتشكل سلسلة جبال طوروس الشمالية منطقة شديدة الانحدار والوعورة تتخللها مضايق ومنخفضات عميقة يصعب اختراقها في يسر وسهولة، أما الوديان وضفاف الأنهار فإنها تكون سهلة العبور. ويتخلل منطقة الثغور بعض الدروب (الطرق) وأهمها الدرب الذي يسمى أبواب قليقية وسلكته الجيوش الإسلامية في حروبها في آسيا الصغرى ويبلغ طوله سبعين ميلاً ويبدأ من سفوح هضبة آسيا الصغرى جنوبي طوانه وينتهي عند السطح الجنوبي لجبال طوروس[10]. وبالقرب من الطرف الشمالي لهذا الدرب[11] تقع قمة يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم تقريباً من سطح البحر تشرف على السهول الجنوبية في قبادوقيا والمنحدرات الشمالية لجبال طوروس، وقامت على هذه المنطقة قلعة اللؤلؤة، والتي ظلت مضرب المثل في المنعة وتبادل المسلمون والبيزنطيون الاستيلاء عليها لأنها مفتاح ممر قليقية، وتتحكم في الطريق المؤدي إلى طوانة والطريق الغربي الذي ينتهي عند هرقلة[12]. وهناك درب آخر يبدأ من مَرْعَش ويمر بالبستان ويحمي هذا حصن الحَدَث الذي يقع على نهر آق صو[13].

ويغلب على تضاريس منطقة الثغور كثرة الشعاب والمضايق والأودية والكهوف والشجر والعقاب والمنحدرات فقد أورد الواقدي وصفاً لها على لسان أحد المجاهدين فقال "إنهم تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد إلا وترجل عن فرسه ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا"[14]. ومناخ هذه المنطقة شديد البرودة في الشتاء تتساقط الثلوج على الجبال بكثرة، وأشار الطبري إلى ما أصاب المسلمين المحاربين من شدة البرودة فقال "أصابهم برد قطع أيديهم وأرجلهم"[15]. فكانت الثلوج تتراكم والتي تصل إلى صدور الخيل في ارتفاعها[16]. أما في الصيف فالمناخ معتدل بحكم المرتفعات الجبلية وتأثير مناخ البحر المتوسط عليها.

أحوال السكان:

أ - عناصر السكان:

أما من حيث سكان الثغور فإنه في الغالب عليها عدم وجود تشابه بين سكانها إلا فيما ندر، ومرد هذا الاختلاف تباين الظروف بين هذه الثغور. فعندما امتدت الفتوحات الإسلامية إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى كانت الجيوش الإسلامية تمر بهذه الثغور فتجدها خرابًا خالية من السكان. ويذكر البلاذري "أن هرقل أخذ معه أهل هذه الحصون عند انتقاله من إنطاكية لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين إنطاكية وبلاد الروم"[17].

(10) يسمى أيضاً جبل النور، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 141؛ العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، ص 109.

(11) العرب يسمونه درب السلامة فكان يسلكه صاحب البريد والوفود بالإضافة إلى الجيوش، رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم، دار الكشوف، 1955م، ص 295.

(12) العريني، السيد الباز، الدولة البيزنطية، ص 278.

(13) لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ص 154- 165.

(14) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، (207هـ/923م)، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، ص 6.

(15) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت 310هـ/932م)، تاريخ الرسل والملوك، دار صادر، بيروت، 1399هـ/1979م، ج 6، ص 449.

(16) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد، (ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1399هـ/ 1979م، ج 6، ص 216.

(17) البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر، (ت 279هـ/892م)، فتوح البلدان، دار النشر للجامعيين، 1377هـ/1957م، ص 172.

وهذا ما حصل عندما غزا معاوية بن أبي سفيان عَمورية سنة 25هـ/645م وجد الثغور ما بين إنطاكية وطَرَسوس خالية فكان لا يمر على حصن إلا هدمه[18]. وفي عهد عبد الملك بن مروان بدأ في تعمير الثغور ووضع بها بعض السكان ومعظمهم من الجند الذين يتولون أمور الدفاع عن الحدود[19]، فقد وجهت مجموعة من السكان إلى طرسوس غالبيتهم من أهل خرسان[20]. ومن عناصر السكان الأخرى التي أقامت في الثغور عند تعميرها مع المسلمين الزُط[21]، والجراجمة[22]، وبنو تغلب الذين كانوا يقيمون في منطقة الثغور قبل الإسلام، وقد صالح الخليفة عمر ابن الخطاب ﷺ، بني تغلب على الجزية[23]. ومن القبائل العربية الأخرى التي أقامت في الثغور بنو حبيب الذين سكنوا في مَلَطية[24]. وتبعاً لما ورد في المصادر عن سكان الثغور تبين افتقارها من السكان نتيجة للحروب التي دارت على ساحتها والتي طالت مدتها سواء ما كان منها بين الروم والفرس، ومن بعدهم حروب العرب مع الروم. وقد حاول أباطرة الروم تجنيد عدد من الأرمن والسلاف والبلغار وتشجيعهم على الاستقرار في المناطق المهجورة لتقوم بزراعتها بالإضافة إلى الدفاع عنها، وفعل معاوية بن أبي سفيان مثل ذلك عندما شحنها بالمقاتلة وأقطعهم بها أراضي زراعية لعمارتها[25].

ب - ديانة السكان:

يغلب الإسلام على ديانة سكان منطقة الثغور لاسيما إذا كانت الغلبة عليها من جانب المسلمين، ومن أهم معالمه إقامة المساجد في كل ثغر يستقر فيه المسلمون. وإلى جانب الإسلام توجد الديانة النصرانية فهي الديانة السائدة في المنطقة قبل الإسلام ووجود الكنيسة في بعض هذه الثغور يؤكد بقاءها إلى جانب الإسلام، وبالإضافة إلى الإسلام والنصرانية ظهر بعض الأقوام من عبدة الأوثان أو اليهود[26].

ج - حرف السكان:

ومن الحرف التي زاولها السكان في مناطق الثغور الزراعة لأن معظم أراضيها كانت تمتاز بخصوبة عالية في التربة ووفرة في المياه سواء ما كان منها من الأنهار أو الأمطار، وكان بعضها من أهم المحطات التجارية وعلى سبيل المثال مَرْعش ومَلَطْية[27]. واشتهرت طَرسوس بصناعة البز الفاخر والأواني[28]. وإلى جانب حرفتي الزراعة والتجارة كانت هناك حرفة أخرى هامة، وهي الرعي وتربية الماشية فقد

---

(18) البلاذري، المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(19) البلاذري، المصدر السابق، ص 173.

(20) نقل الرشيد حوالي ثلاثة آلاف من أهل خرسان وحوالي ألفين من أهل المَصيّصة وألفاً من أهل إنطاكية وشجعهم على البقاء بطرسوس في أعطياتهم. البلاذري، المصدر السابق، ص 200، الجنزوري، الثغور البرية، ص 113.

(21) قبيلة أصلها هندي أتى بهم الحجاج بن يوسف، (ت 95هـ/713م)، من زُط السند فقد نُقلوا مع أولادهم وجواميسهم فأسكنهم كسكر، فازيلييف، العرب والروم، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 196.

(22) نسبة إلى جُرجُومة مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقا قرب إنطاكية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص 123.

(23) ابن إسلام، أبو عبيد القاسم، (ت 222هـ/836م)، الأموال، القاهرة، 1396هـ/1976م، ص 650.

(24) رستم، أسد، الروم في سياستهم وحضارتهم، ص 30.

(25) فرج، وسام عبد العزيز، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، 1983م، ص ص 252- 255.

(26) إن الإمبراطورية البيزنطية في عهد هرقل أصبحت أرثوذكسية كنيسة ودولة حيث انتهى في عهده الخلافات الدينية، فرج، وسام عبد العزيز: المرجع السابق، ص 90.

(27) دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، ص 268، طبعة 1936م.

(28) ابن مسكويه، أبو عبد الله أحمد بن محمد، (ت 421هـ/1030م)، تجارب الأمم، مصر، 1333هـ، ج 2، ص 212.

ذكر ابن حوقل بأن "المَصِّيصة كانت كثيرة الخضرة والماشية والكراع لوفرة المراعي"[29].

وكان للناحية العلمية أثرها في حياة الثغور، رغم طابع الحرب وعدم الاستقرار، فقد برز من أهلها من كان قبلة لطلاب العلم في عصره، وإليها ينسب كثير من العلماء في مختلف العلوم مثل أبي إسحاق الفَزاري إبراهيم بن محمد الحارث بن أسماء بن خارجة المحدث المعروف مات بالمصيصة سنة 188هـ/803م[30]، وإمام الحديث محمد بن إبراهيم بن مسلم البغدادي ثم الطوسي أبو أمية من حفاظ الحديث، له مسند سكن طَرسوس ومات بها سنة 274هـ/886م[31]. وغيرهم كثير من العلماء الذين ينتسبون إلى الثغور وكان لهم باع طويل في نشر العلم والتأليف ويشهد على ذلك آثارهم الخالدة في هذا المجال، كأبي الفرج بن اهرون المعروف بابن العبري المولود بملطية سنة 624هـ/1226م الذي برع في الفلسفة والطب وألف أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية من بينها كتاب مختصر الدول[32].

أولاً: الثغور الجزرية:

1 - مَرْعَش:

مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمراواني نسبة إلى مروان بن محمد[33]. امتدت إليها الفتوحات الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان وأمر بإعادة بنائها[34]. وقد تعرض هذا الثغر إلى الخراب من قبل البيزنطيين عندما أغاروا على الدولة الإسلامية في أواخر الدولة الأموية سنة 129هـ/ 746م، وعندما آلت الخلافة العباسية إلى أبي جعفر المنصور زوده بحامية وعُززت هذه الحامية في عهدي المهدي وهارون الرشيد، فقد قام الأخير بعمارة سائر المدينة وبها ربض يعرف بالهارونية وهو ما يلي باب الحدث[35].

وقد لعبت مَرْعَش دوراً هاماً في الحروب الإسلامية ضد الروم فمنها تخرج الحملات الموجهة لهم وعليها تقع الحملات المضادة[36]. ويجدر بنا ذكر أهم الأحداث التي واجهتها سواء من المسلمين أو الروم فقد هاجمها خالد بن الوليد سنة 16هـ/637م، وخرب حصنها واستولى عليها ودامت في حوزة المسلمين إلى أن تعرضت لهجمات الروم بعد وفاة يزيد ابن معاوية سنة 64هـ/683م، واستولوا عليها[37]. وفي سنة 75هـ/694م وجهت حملة بقيادة محمد بن مروان لاستعادة مَرْعَش من الروم وظلت تبعيتها متأرجحة ما بين المسلمين والروم من قويَ جانبُهُ تغلب عليها، إلى أن جاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور فوجه إليها سنة 152هـ/769م حملة لمواجهة الروم إلا أن المسلمين تعرضوا إلى هزيمة سنة 162هـ/779م على يد الروم

(29) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 184.

(30) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري، (ت 230هـ/ 844م)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج 7، ص 488؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت 748هـ/1347م)، العبر في خبر من غبر، الكويت، 1961م، ج 1، ص 290.

(31) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، (ت 874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج 3، ص 70؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، = 1980م، ج 5، ص 294.

(32) حسن إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، 1964م، ج 1، ص 142.

(33) بنى هذا السور مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في سنة 130هـ/ 747م. ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 107.

(34) البلاذري، فتوح البلدان، ص 224.

(35) البلاذري، المصدر السابق، ص 224؛ ياقوت، المصدر السابق، ج 5، ص 107.

(36) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 88.

(37) البلاذري، فتوح البلدان، ص 224.

مما حمل الخليفة العباسي المهدي على إعداد جيش سار فيه بنفسه لملاقاة الروم وطردهم من مَرْعَش وما إن جاءت سنة 227هـ/841م حتى عادت لها قوات الروم واستولت عليها، ولكن لم تدم لهم طويلاً فسرعان ما استعادها المسلمون[38]. وتذكر المصادر أن الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (99- 123هـ/ 717- 740م) ينسب إليها[39].

2 - الحَدَثُ:

قلعة حصينة بينها وبين زِبَطرة أربعة فراسخ[40]. ومن الحدث إلى مَرْعَش خمسة فراسخ ويقال لها الحمراء[41]. وهي من الثغور وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب[42].

وذكر البلاذري أن حصن الحدث مما فتح في أيام عمر بن الخطاب ﷺ فتحه حبيب بن مسلمة الفهري[43]، وكان معاوية بن أبي سفيان يتعاهده وكان بنو أمية يسمون درب الحدث درب السلامة تفاؤلاً لأن المسلمين أُصيبوا به[44]. ولما كانت فتنة مروان بن محمد دمرت الروم هذا الثغر وأجلت عنه أهله، وفي خلافة الدولة العباسية غزت الروم الحدث وخربوا سورها سنة 161هـ/777م[45]. ولما غزا الحسن بن قحطبة الثغور أخبر الخليفة المهدي بما في بنائه من المصلحة للمسلمين فأمر الخليفة المهدي بإعادة بنائه سنة 162هـ/778م[46]. وبعد وفاة المهدي عاد إليه الروم فدمروا ما أُعيد بناؤه في السابق، مما حمل الخليفة هارون الرشيد إلى الانتقام من الروم بإرساله حملة إلى ثغر كيسوم وهدم كنيستها وحمل حجارتها إلى ثغر الحدث حيث أعاد بناءه بتلك الحجارة[47]. وفي سنة 215هـ/830م أرسل المأمون جيشاً بقيادة ابنه العباس. وقد شارك المأمون نفسه بقوة في هذا الجيش وعاد بعد انتصاره إلى الشام، كما سلك درب الحدث جيش المعتصم الذي قاده الأفشين[48] سنة 223هـ/837هـ في طريقه إلى عمورية[49].

---

(38) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت 808هـ/1405م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1979م، ج 3، ص 357.

(39) ليو الثالث يعرف بليو الأيسوري وحكم من 99هـ/717م- 123هـ/741م، فازيلييف، العرب والروم، ترجمة محمد عبدالهادي شعيره، دار الفكر العربي، ص 197 وما بعدها، ولمزيد من المعلومات انظر الجنزوري، الثغور البرية، ص 77.

(40) الفرسخ = 3 أميال، الميل = أربعة آلاف ذراع، الذراع = أربعة وعشرون أصبعا، الأصبع = ست حبات شعير بطون بعضها إلى بعض، خطاب، محمد شيت: فتح قادة فتح فارس، ص 343.

(41) يقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء، ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 227.

(42) ياقوت، المصدر السابق، ج 2، ص 227.

(43) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي من كبار الفاتحين شهد اليرموك وتولى إنطاكية وسار وتوغل في أرمينه وغزا الروم وكان يقال له حبيب الروم، ت 42هـ/662م، الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 166.

(44) وقال آخرون لقي المسلمون على درب الحدث غلامًا حدثًا فقاتلهم في أصحابه قتالاً استظهر فيه فسمي الحدث بذلك، البلاذري، فتوح البلدان، ص 267.

(45) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 267- 268؛ ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 228.

(46) البلاذري، المصدر السابق، ص 268؛ ياقوت، المصدر السابق، ج 2، ص 227.

(47) البلاذري، فتوح البلدان، ص 268؛ ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 227.

(48) الأفشين، من أشهر قواد المعتصم وهو تركي واسمه الحقيقي حيدر بن كاوس، ويدعى الأفشين نسبة إلى أجداده الذين كانوا أمراء في آسيا الوسطى. وقد قام بالقضاء على بابك الخرمي في أذربيجان سنة 222هـ/837م، وشارك في حروب المعتصم ضد الروم، والاستيلاء على عمورية، الطبري، تاريخ الرسل، ج 8، ص 623 وما بعدها؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي، دار القلم، بيروت، 1965م، ص 209.

(49) الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 57.

3 - زِبَطْرة: [50]

مدينة تقع بين مَلَطْيه وسُمَيْساط وبينها وبين الحَدَث أربعة فراسخ وهي أقرب الثغور الإسلامية إلى بلاد الروم[51]. فهذا الثغر على الحدود بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم[52]. قام بفتحه القائد حبيب بن سلمة الفهري في نفس حملته الموجهة إلى ثغر الحدث، وظلت زِبَطرة في حوزة المسلمين إلى أن تعرضت لهجوم من قبل الروم في أيام الوليد بن يزيد، وعادوا إلى تدميرها مرة أخرى في عهد فتنة مروان بن محمد (127- 132هـ/ 744- 749م)، ولما آلت السلطة العباسية للمنصور (136- 158هـ/ 753- 774م)، أمر بإعادة بنائها ولكن هدمها الروم من جديد بعد وفاة الخليفة المهدي سنة 170هـ/786م، فبناها هارون الرشيد على يد محمد بن إبراهيم[53].

وفي خلافة المأمون (198- 218هـ/ 813- 833م)، أمر بإعادة ترميم حصنها[54]. وتعرضت زبطرة إلى هجوم شديد من قبل الروم في خلافة المعتصم وأحرقت البلد وقتل الرجال وسبيت الذراري والنساء، وحيث إن المعتصم ينتمي إلى زبطرة ويهتم بها لأنها، كما يقال، مسقط رأسه، لذلك جهز جيشاً للانتقام من الروم، وقصد عمورية لما لها من مكانة دينية لديهم فيقال إنها عين المسيحية كانت مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل وأسرته (829- 842م) لذلك خرج المعتصم في اتجاه عمورية للانتقام لما لحق زبطرة من خراب. وقد تحقق له أخذ الثأر بتدمير عمورية، وأظهر براعة فائقة في قتال أهلها وتدمير سورها الحصين[55].

4 - كَيْسُوم:

قرية مستطيلة من أعمال سميساط ولها سوق وفيها حصن كبير فيها مياه وبساتين[56]. وسبق الإشارة في الكلام عن ثغر الحدث إلى ما تعرضت له كيسوم من خراب على يد الرشيد عندما أمر ببناء الحدث. وفي عهد المأمون عهد إلى طاهر بن الحسين بمحاربة نصر بن شبث[57] الذي تحصن في كيسوم سنة 198هـ/808م ولم يتمكن من الاستيلاء على الحصن إلا سنة 209هـ/824م وتعرض هذا الثغر إلى التخريب نتيجة للمقاومة التي أظهرها نصر بن شبيب قبل أن يظفر به قائد المأمون[58].

وثغر كيسوم يقع بين الحصون التي أقامها المعتصم مثل حصن طبارجي والحسينية وبني المؤمن وابن راجوان، وحصن منصور[59]، والذي يربطه

---

(50) سميت باسم زبطرة بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح، ويقال لها عند الروم سوزبطره، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3، ص 131.

(51) الاصطخري، الممالك، ص 47؛ لوسترانج، بلدان الخلافة، ص 153.

(52) فازيلييف، العرب والروم، ص 125.

(53) البلاذري، الفتوح، ص ص 268- 272.

(54) البلاذري، المصدر السابق.

(55) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل عمر، (ت 774هـ/1372م)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1979م، ج 10، ص 288؛ رستم، أسد، الروم، ص 326؛ ولمزيد من المعلومات انظر، الجنزوري، الثغور البرية، ص 94.

(56) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 4، ص 497.

(57) نصر بن شبث العقيلي، كان أسلافه من رجال بني أمية وإقامته بكيسوم، امتنع عن البيعة للمأمون وثار عليه، (ت 210هـ/825م). الكندي، محمد بن يوسف، (ت نحو 350هـ/961م)، الولاة والقضاة، ص 180.

(58) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 497.

(59) حصن منصور منسوب إلى منصور بن جَعْوَنة بن الحارث العامري القيسي، وكان قد تولى عمارته وأقام به زمن مروان بن محمد ليصد العدو ومعه جند كثيف من أهل الشام والجزيرة وأرمينة. البلاذري، فتوح البلدان، ص 268 وما بعدها؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص ص 265- 266.

بكيسوم نهر سنجة الذي عليه قنطرة تُعد من عجائب الدنيا[60].

وفي إشارة للطبري أن المأمون قد أقام بكيسوم فترة قصيرة عندما عاد من حربه مع الروم سنة 216هـ/831م[61]. ويعني هذا أن الثغر يعد من أماكن استقرار الجيوش الإسلامية في حروبها مع الروم.

5 - مَلَطْيَة:

وهي بلدة من بناء الإسكندر وجامعها من بناء الصحابة، قريبة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين، فتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد القائد حبيب بن سلمة الفهري ولكن الروم استرجعتها[62].

وتعرضت مَلَطْية إلى حصار شديد من الروم سنة 123هـ/740م مما حمل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى إعداد حملة لمواجهة الروم وسار فيها بنفسه وأقام بملطية وأعاد بناءها[63]. ولكن لم يدم حالها طويلاً فقد داهمها الروم مرة أخرى سنة 133هـ/750م مستغلين انشغال السلطة الإسلامية بحروبها الداخلية فتمكنوا من إجلاء أهلها عنها[64].

وبعد أن آلت الخلافة لبني العباس واستتبت لهم الأمور وجه أبو جعفر المنصور عبد الوهاب بن إبراهيم ابن الإمام محمد بن علي بن عبد الله العباس سنة 140هـ/757م، لبناء ملطية فأقام عليها سنة حتى بناها وأسكنها الناس وغزا منها الصائفة[65]. ويعتبر ثغر مَلَطْية من أهم الثغور الإسلامية فهو بوابة الجيوش المتجهة من الشرق إلى آسيا الصغرى وكذلك بالنسبة للجيوش القادمة من الغرب وزاد من أهمية موقعه الجغرافي في حيث تحيط به الجبال وله عيون وأودية تجري فيها المياه من الفرات وتمر به الطرق البرية العامة[66]. وقد أهلها موقعها هذا أن تكون قاعدة ينطلق منها المسلمون لغزو الروم.

6 - سُمَيْسَاط:

مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات شرقي جبل اللكام ولها قلعة في شقّ منها يسكنها الأرمن وهي من الإقليم الرابع[67].

وقد ذكر البلاذري أنها من ضمن البلاد التي فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد شملها صلح الرقة والرها[68]. ولكنها خرجت على الصلح فعاد لها القائد عياض بن غنم[69] ففتحها[70]. وبقيت تابعة للمسلمين إلى أن هاجمها الروم سنة 152هـ/769م وألحقوا بها الخراب وأسروا أهلها، وقد تمكن الخليفة المهدي من إنقاذ المسلمين الذين يسكنونها من الأسر[71].

---

(60) القزويني، أبو عبد الله زكريا محمد بن محمد، (ت 682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، 1979م، ص 271.

(61) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 191.

(62) البلاذري، فتوح البلدان، ص 193؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 193.

(63) البلاذري، المصدر السابق، ص 194.

(64) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4، ص 341.

(65) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 193.

(66) قدامة بن جعفر، (ت 337هـ/948م)، الخراج وصنعة الكتابة، ليدن، 1309هـ، ص 254؛ اليعقوبي، البلدان، ص 362.

(67) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 258.

(68) البلاذري، فتوح البلدان، الطبعة الأولى 1901م بالقاهرة، ص 183.

(69) عياض بن غنم بن زهير الفهري من الصحابة وهو أول من اجتاز الدرب إلى الروم، (ت 20هـ/641م)، الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 194.

(70) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 183- 184؛ ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن محمد، (ت 815هـ/1412م)، الدر المنتخب، طبعة بيروت سنة 1909م، ص 199.

(71) اليعقوبي، تاريخ، ج 3، ص 135.

وأثناء حملة الإمبراطور الرومي ثيوفيل (214-228هـ/ 829- 842م)، التي قام بها تجاه زبطرة وملطية عسكر جيشه بالقرب من سميساط سنة 222هـ/836م[72].

ثانياً: الثغور الشامية:

1 - طَرَسُوس:

وهي أجل الثغور يقال سميت بطرسوس بن الروم ابن اليفز بن سام بن نوح، وهي بين إنطاكية وحلب وبلاد الروم، وبينها وبين أَذَنَة ستة فراسخ وعلى طَرَسُوس سوران وخندق واسع، ولها أبواب ويشقها نهر البَرَدَان وبها قبر المأمون بن الرشيد، وسكنها حشد من المسلمين بعد الفتح[73]. فقد فتحها العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة 53هـ/ 672م على يد القائد جنادة بن أبي أمية الأزدي (ت 67هـ/ 686م)[74]. وأعيد تحصينها في عهد الخليفة سليمان ابن عبدالملك، وقد كانت لأهل طَرَسُوس مشاركة في الحملات الإسلامية التي توجه للروم[75]. وفي خلافة العباسيين أمر المهدي بإعادة بناء طَرَسُوس ومثله فعل الرشيد بإعادة بناء ما خرب منها وحصنها بسورين وخندق وبنى بها مسجداً وأقام حولها سبعة وثمانين برجاً[76].

وقد تعرضت طَرَسُوس لهجوم إمبراطور الروم ثيوفيل (214هـ- 829م/ 228- 842م) وقتل كثيرًا من أهلها[77]، إلا أن المأمون قد قام بهجوم معاكس على الروم سنة 216هـ/831م وحاول الإمبراطور ثيوفيل مصالحته وإيقاف الحرب بينهما، إلا أن الخليفة مضى قدماً وقد تمكن من تحقيق هدفه بدحر الروم وأعاد تحصين طرسوس بالخيل والرجال والعتاد والسلاح والعمارة[78].

وقد انطلقت منها حملات المعتصم الموجهة ضد الروم والتي حققت نصرًا عظيمًا بتدمير عين المسيحية عمورية[79].

2- أَذَنَة:

يقع هذا الثغر قرب المَصِّيصَة وله قنطرة من حجارة عجيبة على نهر سيحان، وهو على تسعة أميال من المصيصة[80]. وأَذَنة في الإقليم الرابع ولها نهر يقال له سيحان وعليه قنطرة، ولأذنة ثمانية أبواب وسور وخندق[81]. أعيد بناء القنطرة زمن الخليفة الوليد بن يزيد سنة 126هـ/ 743م، ثم في زمن المعتصم سنة 226هـ/ 840م ويذكر البلاذري أن مدينة أَذَنة أقيمت في هذا الثغر سنة 141هـ/ 755م، حيث نقلا لها الجنود من أهل خُراسان بقيادة مسلمة بن يحيى البجلي، وكذلك جنود الشام بقيادة مالك بن أدهم

---

(72) الشيخ، محمد مرسي، سياسة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل تجاه الخلافة العباسية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود لعام 1399هـ/1979م، ص ص 165- 166.

(73) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 28.

(74) اليعقوبي، التاريخ، ج 2، ص 240؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 4، ص 280.

(75) رستم أسد، الروم، ج 1، ص 273؛ الجنزوري، الثغور البرية، ص 31.

(76) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 410.

(77) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 183؛ فازيلييف، العرب والروم، ص ص 93- 96.

(78) فازيلييف، المرجع السابق، ص ص 96- 104.

(79) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه نور، القاهرة، دار الفكر العربي، 1953م، ص 163.

(80) البلاذري، فتوح البلدان، ص 175؛ ابن الفقيه، أبوبكر أحمد ابن محمد، (ت 3هـ/ 9م)، مختصر البلدان، بريل، 1302هـ، ص 50.

(81) ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص 132.

الباهلي من قبل صالح بن علي وتعرضت المدينة للتخريب وأعيد بناؤها في عهد هارون الرشيد[82]. وأعاد تحصينها كذلك الخليفة العباسي المأمون سنة 216هـ/ 831م. وفي إشارة للطبري بأن المأمون أقام بها فترة واستقبل فيها سفير إمبراطور الروم الذي عرض عليه شروط الصلح بين المسلمين والروم سنة 216هـ/ 831م، فساد أذنة الاستقرار، ومنها انطلقت حملات المأمون في غزو بلاد الروم[83].

3- المَصِّيصَة:

وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين إنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس في السعة، وهي من أشهر الثغور الشامية وبها بساتين كثيرة يسقيها نهر جيحان ولها سور وخمسة أبواب وهي مسماة باسم مصيصة بن الروم بن اليمن بن سام بن نوح، وكانت تعمل بهذا البلد الفراء التي تحمل إلى الآفاق[84].

وفتح المسلمون المصيصة سنة 84هـ/ 703م، وأقام بها عبدالله بن عبدالملك بن مروان حصنًا ومسجدًا، وفي سنة 87هـ/ 706م غزا مسلمة بن عبدالملك الروم بناحيتها[85].

وفي أيام الخليفة عمر بن عبدالعزيز أقيم بها مسجدٌ جامعٌ يعرف باسم مسجد الحصن، ويذكر ابن الفقيه أن المسجد خرب في خلافة المعتصم[86].

وكان الخليفة المنصور قد أعاد بناءها وأطلق عليها اسم المعمورة وبنى مسجدًا جامعًا بها سعته ثلاثة أضعاف مسجد عمر بن عبدالعزيز سنة 141هـ/ 758م، وفي خلافة المهدي أمر بترميم المَصِّيصَة وبنائها[87]. وقد خرج المأمون من المصيصة بعد أن قُويت قبضته عليها، لملاقاة إمبراطور الروم ثيوفيل سنة 216هـ/ 831م- 218هـ/ 833م[88].

4- عيْن زَرْبَة: (عين زَرْبَى):

بلد بالثغور من نواحي المصيصة وهي مفتاح الطريق إلى سوريا، وهي على سفح الجبل ولها سوران[89]. ويذكر ابن العديم أن تجديد زَرْبَى وعمارتها زمن الخليفة هارون الرشيد سنة 180هـ/ 796م، على يد أبي سليمان التركي الخادم الذي تولى الثغور من قبل الرشيد[90]. وتعرضت زربى إلى غزو الروم ودمروها[91]. فأعاد عمارتها الخليفة المأمون بن الرشيد، وفي عهد المعتصم نقل لها جماعة من الزُط الذين كانوا في البطائح بين واسط والبصرة[92].

دور الثغور في حملات المسلمين على بلاد الروم:

أ – في عهد الخلفاء الراشدين:

عند ظهور الإسلام في الجزيرة العربية على يد سيدنا محمد ﷺ كانت الروم منهمكة في حروبها

---

(82) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 172- 176؛ اليعقوبي، التاريخ، ص 363.
(83) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 466 وما بعدها؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج 8، ص 625؛ وانظر الجنزوري، الثغور البرية، ص 55.
(84) ياقوت، المصدر السابق، ج 5، ص ص 144- 145.
(85) الطبري، المصدر السابق، ج 6، ص 429؛ ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 107.
(86) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 112.
(87) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص ص 112- 113.
(88) الطبري، المصدر السابق، ج 7، ص 189.
(89) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ص ص 190- 191.
(90) ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد، (ت 660هـ/ 1209م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج 2، ص 247؛ ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص 177.
(91) أبو زكريا الأزدي، يزيد بن محمد، (ت 334هـ/ 945م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، 1387هـ/ 1967م، ص 308.
(92) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص ص 177- 178.

مـع الإمبراطوريـة الـساسانية[93]. ولمـا كـان الإسـلام للنـاس كافـة كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ: 28)[94]. وسـعى الرسـول ﷺ إلى نـشر الإسـلام خـارج الجزيـرة العربيـة فأرسل رسـله في السنة السادسة للهجرة/ 627م، إلى بعض الملوك والأمراء يدعوهم للإسـلام ومـن بـين هـؤلاء الملـوك الـذين شملـتهم خطابـات الرسـول ﷺ هرَقْـل إمبراطـور الـروم" الـذي حكـم مـن سـنة 610-641م"[95].

فلما أتاه كتاب رسول الله ﷺ نظر فيه ثم جعله بين فخذَيْه وخاصرته وعمد إلى المراوغة ولم يبعث برد صريح[96].

وأمـام هـذا التحدي بـدأت طلائـع الفـتح الإسـلامي تشق طريقها تجاه الشام[97]، حيث وجه الرسول ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة/629م حملة تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل وتقابلوا مع الروم في مُؤتة[98] وقد خسر المسلمون هذه المعركة لأن كفتي الحرب غير متكافئتين؛ فاشتد الأمر عليهم فعادوا إلى المدينة المنورة[99]. وبعد وفاة الرسول ﷺ أخذت موجة الفتوح الإسلامي تأخذ شكلها الكاسح من بداية عهد الخلفاء الراشدين فأنفذ أبوبكر رضي الله عنه[100] الجيش الذي أعده الرسول ﷺ قبل وفاته بقيادة أسامه بن زيد[101] سنة 11هـ/ 632م، إلى شمال بلاد العرب[102].

ثـم تمكـن الخليفـة أبـوبكر رضي الله عنه مـن تـسيير جـيش كبير إلى الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح[103]،

(93) ينتسبون إلى جدهم ساسان وكان سادناً لبيت نار في اصطخر (بلدة بفارس)، وبدأ قيام الدولة الساسانية في أول القرن السادس الميلادي واتخذوا من المدائن مركزاً لإمبراطوريتهم التي انتهت سنة 31هـ/ 651م، وآخر ملوكهم هو يزدجرد وديانتهم الزرادشتية. وقامت بينهم وبين الروم حروب من 527- 532م في عهد الملك الفارسي قُباد، وآخرها الحرب التي قامت في العام الخامس الهجري/ 627م، في عهد كسرى الثاني والتي انتهت بهزيمة الفرس على يد جيش هرقل، خطاب، قادة فتح بلاد فارس، ص 16، 60، 64؛ عمران محمود سعيد، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية، 1981م، ص 54، 73.

(94) آية 28 من سورة سبأ.

(95) حكم الأسرة الهرقلية من 610- 717م، رينسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز جاويد، 1961م، ص 370

(96) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 418، 419؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 2، ص 646.

(97) أرض الشام/ حدودها من الغرب بحر الروم (البحر المتوسط)، ومن الشرق البادية من أيله إلى الفرات ثم من الفرات إلى حدود الروم، ومن الشمال بلاد الروم (تركيا حاليًا)، ومن الجنوب أرض الجزيرة العربية وحد مصر وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ياقوت، معجم البلدان، ج 5، ص 219. خطاب، قادة فتح بلاد الشام، ص 54، والشام اليوم (سوريا، الأردن، فلسطين ولبنان).

(98) مُؤتة، قرية من قرى البَلْقاء في حدود الشام وبها قبر جعفر بن أبي طالب الذي استلم الراية بعد مقتل زيد بن حارثة في لقاء المسلمين بالروم، ياقوت، المصدر السابق، ج 5، ص 220.

(99) ابن سعد، الطبقات، ج 2، ص 130؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 237، كانت قوات المشركين أكثر من مائة ألف.

(100) هو عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمر بن كعب كان يسمى في الجاهلية عبدالكعبة فسماه الرسول ﷺ عبدالله، ولد بمكة بعد عام الفيل بعامين وهو أول من أسلم من الرجال كانت خلافته من 11هـ/ 632م- 13هـ/ 634م حيث وافته المنية، ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ/ 1448م)، الإصابة في تميز الصحابة، دار النهضة، القاهرة، 1972م، ج 4، ص 101.

(101) أسامه بن زيد بن حارثة بن شراحبيل بن عبدالعزى الكلبي، والده مولى رسول الله ﷺ، وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ، ولد بمكة قبل الهجرة بتسع سنين/ 613م، وتوفي سنة أربع وخمسين للهجرة/ 674م؛ خطاب، قادة فتح الشام، ص 45.

(102) الطبري، تاريخ الرسل، ج 2، ص ص 223- 227.

(103) أبوعبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح القرشي الفِهْري أسلم وكان أحد العشرة السابقين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وقاد الجيوش الإسلامية في الشام وتوفي سنة 18هـ/ 639م، وعمره ثمان وخمسون سنة، أي أنه ولد سنة 584م، وقبره بعمواس بالقرب من بيت المقدس بفلسطين؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص ص 414- 415.

واستولى المسلمون على بُصرى سنة 13هـ/ 634م، ثم تلتها دمشق، وفي معركة اليرموك تمكن المسلمون من هزيمة جيش الروم سنة 13هـ/ 634م، وإجلائهم من الشام وودع الإمبراطور هرقل سورية بقولته المشهورة، (وداعًا يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو)[104].

وقد وصل المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى قيصرية سنة 19هـ/ 640م وبسقوطها تم فتح بلاد الشام كلها[105].

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ[106] كان معاوية[107] بن أبي سفيان والياً على بلاد الشام ومركزه في دمشق وفي هذه الأثناء برع معاوية ﷺ في حروبه ضد الثغور الرومية[108] وعندما آل العرش البيزنطي إلى الإمبراطور قنسطانز الثاني "21هـ/ 641م- 48هـ/ 668م" أرسل قوة بحرية في سنة 25هـ/ 645م بقيادة أحد قواده لاستعادة الإسكندرية[109] التي سبق أن فتحها المسلمون[110].

وفي هذا الوقت تصدى معاوية لحملة الروم التي اتجهت إلى الشام سنة 26هـ/ 646م ومنيت بالفشل على يده، ثم أدرك ما للسفن البحرية من أهمية لذلك اهتم ببناء أسطول بحري إسلامي وأصبح لدى المسلمين قوة بحرية وضحت أهميتها سنة 34هـ/ 654م بصد الحملة التي قام بها الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني والتي كان يهدف منها إلى عرقلة الاستعدادات الإسلامية لغزو القسطنطينية، وكان النصر حليف المسلمين عند التقائهم بالروم في فوينكس Phoenix قرب شواطئ ليكيا بآسيا الصغرى. وهذه المعركة تعرف بذات الصواري وتعد من أعظم المعارك الفاصلة في تاريخ البحرية الإسلامية. وكاد الإمبراطور البيزنطي قنسطانز يقع أسيرًا في يد القوات الإسلامية، وتابع المسلمون انتصاراتهم في عهد معاوية بن أبي سفيان أثناء ولايته للشام في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ[111]، وعندما آلت

---

(104) البلاذري، فتوح البلدان، ص 143؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج 3، ص 613.

(105) الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص ص 158- 160؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 224.

(106) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف ابن قصي، ولد في السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول ﷺ، وقيل إنه ولد بعد عام الفيل بست سنوات. زوجه الرسول ﷺ ابنته رقية وبعد وفاتها زوجه الرسول ابنته الثانية أم كلثوم، ولهذا لقب ذا النورين تولى الخلافة سنة 23هـ/ 644م، وتوفي سنة 35هـ/ 656م، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص ص 53- 55، 72.

(107) معاوية بن أبي سُفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي، ولد بمكة قبل البعثة بخمس سنين، وأسلم يوم الفتح وتولى الخلافة سنة 40هـ/ 660م إلى أن توفي سنة 60هـ/ 680م، ابن حجر، الإصابة، ج 6، ص ص 112- 113.

(108) الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 158 وما بعدها؛ محمود – شاكر، التاريخ الإسلامي، دمشق، المكتب الإسلامي، 1980م، ص 215.

(109) مدينة عظيمة بمصر تقع في الإقليم الثالث ويقال في الإقليم الثاني يقال إن الذي بناها الإسكندر المقدوني وقيل الإسكندر (ذو القرنين) صاحب موسى والخضر عليهما السلام وهي على ساحل البحر المتوسط، فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ سنة 21هـ/ 642م، واتخذوها قاعدة للتوغل في الأراضي المصرية التي كانت تحت السيطرة الرومية. وقد تمكنت الجيوش الإسلامية من صد خطر الروم، واستطاع عمرو بن العاص دخول الإسكندرية مرة ثانية عندما استعادها من الروم سنة 26هـ/646م، منتصرًا عليهم؛ ابن عبدالحكم، أبو محمد عبدالله، (ت 214هـ/ 829م)، فتوح مصر، والمغرب، طبعة 1920م، ص ص 58- 72؛ ياقوت، معجم البلدان، ج 1، ص ص 184- 185.

(110) ابن عبدالحكم، المصدر السابق، ص ص 58- 72.

(111) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 117.

الخلافة إلى علي بن أبي طالب ﷺ[112] قامت الفتنة بينه وبين معاوية بن أبي سفيان مما حمل الأخير إلى عقد هدنة مع الروم يدفع لهم بموجبها مبلغاً من المال وأشياء عينية[113].

ب – في عهد بني أمية:

لمّا استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وأصبح خليفة للدولة بدون منازع استأنف حركة الفتوح الإسلامية وأرسل الحملات الحربية برًا وبحرًا على آسيا الصغرى، وجزر بحر الروم، بالإضافة إلى شمال أفريقيا مما كان تحت النفوذ الرومي فوصلت الجيوش الإسلامية خَلْقَدُونيا في آسيا الصغرى[114].

ولم يقف الجيش الإسلامي عند هذا الحد في مواجهة الإمبراطورية الرومية بل واصل توغله في أراضيها بهدف ضرب الحصار على القُسطنطينية فأقدم معاوية بن أبي سفيان على محاولة الاستيلاء عليها فجهز جيشًا ضخمًا وعززه بأسطول بحري كبير في سنة 49هـ/669م، حيث أبحر الأسطول الإسلامي في اتجاه القسطنطينية فعبر مضيق الدردنيل ودخل بحر مرمرة في حين اجتاز الجيش البري آسيا الصغرى والتقى بالقوة البحرية أمام القسطنطينية. واستولى المسلمون على جزيرة كزيكوس[115] على الساحل الجنوبي لبحر مرمرة في مواجهة العاصمة البيزنطية فكانت قاعدة تنطلق منها الحملات الإسلامية ضد القسطنطينية. واستطاع المسلمون فرض حصار على عاصمة الروم دام سبع سنوات "54هـ/ 673م- 60هـ/ 679م"[116] وكان الجيش الإسلامي يوجه غاراته على العاصمة خلال فصل الصيف والربيع ومن ثم يتراجعون إلى مقرهم في كزيكوس[117].

وقد تعرضت القُسطنطينية لكثير من الخراب والمتاعب والضيق لكنها صمدت على الرغم من ذلك بسبب تحصيناتها وشحنها بالمؤن، بالإضافة إلى موقعها الجغرافي المتميز الذي ساعدها على الصمود في مواجهة الضغط الإسلامي فضلاً إلى استخدام النار الإغريقية[118] في دفاعهم ضد المسلمين. وبفضل هذا السلاح صمدت قوات الروم في مواجهة الأسطول الإسلامي بل إنها ألحقت به الضرر وانتشر الاضطراب في صفوفه مما حملهم على الانسحاب. كما انسحبت الجيوش الإسلامية البرية التي كانت تشارك الأسطول البحري في حصار القسطنطينية، وفي هذه الأثناء كان معاوية بن أبي سفيان قد شعر بدنو أجله ورأى أن من مصلحة الدولة الإسلامية سحب القوات المرابطة في حصار عاصمة الروم، فالأمر يتطلب وجود قوة كافية لمساندة ابنه يزيد الذي ستؤول له الخلافة وقد يتعرض لبعض المشكلات من الداخل، فما كان

(112) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي ولد بمكة قبل البعثة بعشر سنين، وقد زوجه الرسول ﷺ ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة، تولى الخلافة سنة 35هـ/ 656م، وتوفي سنة 40هـ/ 661م؛ ابن حجر، الإصابة، ج 4، ص 269.

(113) عاقل، نبيه، تاريخ خلافة بني أمية، دار الفكر، 1394هـ/ 1975م.

(114) وفي نفس الوقت تمكنت الجيوش الإسلامية من إقامة قاعدة لها في القيروان بشمال أفريقيا، الطبري، تاريخ الرسل – والملوك، ج 5، ص 240.

(115) البلاذري، فتوح البلدان، ص 235.

(116) عاقل، نبيه، تاريخ خلافة بني أمية، ص 88.

(117) العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، ص 174.

(118) وهي عبارة عن أنابيب تحتوي على مخلوط كيماوي قابل للانفجار سريع الاشتعال عند احتكاكه بجسم أو حاجز فمن خصائصها أنها تشتعل حتى في الماء، اخترعها مهندس يوناني اسمه كالينيكوس؛ (العقيلي، عمر، معاوية بن أبي سفيان، الرياض، 1404هـ/1984م، ص 113).

من معاوية إلا أن دخل في صلح مع الروم ليتمكن من سحب القوات الإسلامية الموجودة في أراضي الروم إلى بلاد الشام[119]. وكانت الإمبراطورية الرومية قد أظهرت من جانبها رغبتها في إنهاء هذه الحرب فقبلت الدخول في مفاوضات مع الدولة الإسلامية وأرسلت من قبلها مندوبًا يدعى يوحنا ونجحت مفاوضاته مع معاوية بن أبي سفيان في عقد صلح بين الدولتين مدته ثلاثون سنة[120].

وعلى الرغم من أن هذه الحملة التي أعدها معاوية للاستيلاء على القسطنطينية لم تؤت ثمارها فإنها قد تركت لدى الروم انطباعاً عن قوة الدولة الإسلامية والذي بات خطرها يداهمهم في عقر دارهم، وأمام هذا الخطر قبلوا التفاوض ودخلوا في عهد صلح طويل الأمد، كما أسلفنا. ومن المكاسب التي يمكن القول بأن معاوية حققها في هذه الحروب هو ضمان جانب أعدائه الروم عند انتقال السلطة لابنه يزيد، فعندما عادت القوات الإسلامية إلى الشام قوت مركزه ودعمته ومكنته من مواجهة المشكلات التي قد تظهر في الداخل، وقد لا يتحقق له استتباب الأمور ما لم يأمن جانب الروم بعقد الصلح ليتفرغ لأمور الدولة الداخلية فكانت وفاة معاوية بعد هذه المفاوضات مباشرة سنة 60هـ/ 679م، وتقلد الأمور من بعده، فقد حقق والده ما كان يأمله له بأن يخلفه على الدولة الأموية. وقد انشغل يزيد بإخماد الفتن التي واجهته داخل دولته مثل خروج الحسين بن علي بن أبي طالب ورفضه البيعة ليزيد وانتهى الأمر بقتله سنة 61هـ/ 680م[121]. وحيث إن الخليفة يزيد قد انشغل بتدعيم سلطانه فإن الحملات الإسلامية على الأراضي الرومية قد وقفت إلى أن جاء دور عبدالملك بن مروان الذي انتقلت له السلطة سنة 65هـ/ 684م، وتزامن معه في اعتلاء عرش الإمبراطورية الرومية الإمبراطور جستنيان الثاني "65هـ/ 684م- 75هـ/ 694م"[122] وقد واجه عبدالملك بن مروان كثير من المشكلات الداخلية منها حركة الخوارج[123]، والمختار الثقفي[124] وعبدالله بن الزبير[125]،وزفر بن الحارث الكلبي[126] الذي خرج شمال العراق، وغيرها من الفتن الأخرى[127].

(119) العدوي، إبراهيم، المرجع السابق، ص ص 174- 175.

(120) العدوي، إبراهيم، المرجع السابق، ص 175؛ عاقل، نبيه، المرجع السابق، ص 88.

(121) وكذلك خروج أهل المدينة المنورة على طاعته، فهزمهم في موقعة الحرة سنة 63هـ/ 682م، كما أنه حاصر عبدالله بن الزبير بمكة المكرمة سنة 64هـ/ 683م. ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 124.

(122) اعتلى العرش الرومي مرتين الأولى من 65- 75هـ/ 685- 695م، والثانية 85- 93هـ/ 705- 711م ويعرف بالأشرم؛ رنسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ص 371.

(123) قامت في الأهواز حركة الخوارج المعروفون باسم الأزارقة لأنهم يتبعون مذهب نافع بن الأزرق، وفي شرق الجزيرة العربية قامت دولة أخرى للخوارج اتسع نفوذها في عهد قائدهم نجدة ابن عطية الحنفي وقد شملت اليمامة وعُمان وحضرموت واليمن، الرئيس، ضياء الدين، عبدالملك بن مروان، القاهرة، 1969م، ص ص 127- 129.

(124) ينتمي المختار بن أبي عبيد الثقفي إلى قبيلة ثقيف التي أقامت بالطائف ونشأ على حب أبناء علي بن ابي طالب، وأقام في العراق واتصل بالشيعة وقد دعا إلى الانتقام من مقتل الحسين بكربلاء، العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، ص 189.

(125) اقام عبدالله بن الزبير بالحجاز وكان خارجًا على الدولة الأموية، فأرسلت له حمله بقيادة الحجاج بن يوسف، حاصر مكة، وطال حصارها واستخدم المنجنيق حتى سقط ابن الزبير قتيلاً، الرئيس، ضياء الدين، عبدالملك بن مروان، ص ص 217- 418.

(126) قام بتأسيس دولة في مدينة قَرْقيسياء في شمال الفرات على حدود الجزيرة وكان من أنصار الضحاك بن قيس ومن المؤيدين لابن الزبير، العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص 189.

(127) العريني، السيد الباز، الدولة البيزنطية، ص 151.

وقد استغل هذه الظروف الإمبراطور جستنيان الثاني لا سيما خلو الثغور الإسلامية من القوات المرابطة فأعلن الحرب على الدولة الأموية واعتمد على جماعة المردة (الجَراجمة)[128] في جبال اللّكام في الضغط على الدولة الإسلامية منتهزًا اضطرابها الداخلي. ولكن أمام هذا الضغط الرومي دخل عبدالملك بن مروان مع جستنيان الثاني في معاهدة تقضي بتعهد الإمبراطور بإبعاد الجراجمة من الثغور الإسلامية مقابل التزام الخليفة عبدالملك بدفع ألف دينار سنويًا. وبمقتضى هذا الاتفاق تمكن الخليفة من إيقاف الخطر البيزنطي من ناحية، ومن جانب آخر تفرغ لمعالجة مشكلاته الداخلية، وعد قيام الإمبراطور البيزنطي بإبعاد الجَراجمة من حدود الدولة الإسلامية تحطيماً للستار الحديدي الذي كان يقف دائمًا في وجه الجيوش الإسلامية[129]. ولكن ما إن استتب الوضع في الدولة الأموية الداخلي حتى استأنف عبدالملك بن مروان خلافه مع جستنيان سنة 74هـ/ 693م- 75هـ/ 694م.

حيث تذمر الأخير من استبدال اسم المسيح وعبارة التثليث التي اعتاد أقباط مصر كتابتها على رؤوس القراطيس التي كانت تصدر للروم بالآية الكريمة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقد أدى ذلك إلى استنكار الإمبراطور جستنيان الثاني وتذمره من قيام المسلمين بهذا العمل[130]. ومما زاد الأمر سوءاً لدى الروم قيام الخليفة عبدالملك بن مروان[131] بسك الدينار الإسلامي وكتب عليه آيات من القرآن وكان هذا رد فعل لتهديد الإمبراطور جستنيان الثاني الذي ضمنه رسالته لعبدالملك بن مروان والذي قال فيها (إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه، فإن تركتموه، وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه)[132]. وكانت العملة الجديدة سببًا في تجدد الصراع بين المسلمين والروم، فعندما أرسل الخليفة عبدالملك الضريبة السنوية المتفق عليها للإمبراطور جستينان الثاني والتي كانت مقابل نقل الجَراجمة بعيدًا عن الحدود الإسلامية، رفض الإمبراطور قبولها لأن الدنانير خالية من شارات الأباطرة الروم. فلم يراع المعاهدة السابقة، وأخذ يتعرض للمسلمين ويغزو أراضيهم فما كان أمام عبدالملك بن مروان بد من الدفاع عن دولته فجهز حملة لغزو أراضي الروم في آسيا الصغرى فتوجه إلى قيليقية، وتقابل مع جيش جيستنيان الذي كان على رأسه عند مدينة سيواس وانهزم الإمبراطور، وفر

---

(128) نسبة إلى مدينة الجُرجُمة بجبل اللّكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقا قرب إنطاكية. وأصولهم غير معروفة، ونذكر البلاذري أنهم يدينون بالمسيحية فكان أمرهم إلى طريق إنطاكية وواليها وقد لزموا مدينتهم عندما فتح المسلمون إنطاكية وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم وقد غزا أبو عبيدة بن الجراح الجُرجُومة ولم يقاتله أهلها وبادروا بطلب الصلح على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل اللّكام على ألا يؤخذ منهم الجزية. وكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم فلما كانت حركة ابن الزبير وموت مروان ابن الحكم اضطر عبدالملك بن مروان إلى مصالحتهم على ألف دينار في كل جمعة، وقد شكل هؤلاء حجر عثرة =

= أمام المسلمين في حروبهم مع الروم؛ البلاذري، الفتوح، ص ص 166- 167، 170؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 23؛ بلوفهار، مادة جراجمة، دائرة المعارف الإسلامية، ج 2، ص 318.

(129) ابن خلدون، كتاب العبر، ج 4، ص ص 152- 154؛ خطاب، عبدالعزيز بن الوليد فاتح شطر بلاد الروم، مجلة المجمع العراقي، المجلد 31، صفر 1400هـ، كانون الثاني، 1980م، ص ص 60- 81.

(130) البلاذري، المصدر السابق، ص 249.

(131) ضربت العملة الجديدة سنة 74هـ/ 692م.

(132) البلاذري، المصدر السابق، ص 394.

هاربًا إلى البسفور وقد ساند المسلمين في هذا اللقاء مجموعة من السلاف الحاقدين على الإمبراطور، وساعدوا المسلمين بإرشادهم إلى أيسر المسالك والدروب في آسيا الصغرى الموصلة إلى أهم الحصون[133]، وتحقق للمسلمين بفضل هذا النصر السيطرة على إقليم قيادوقيا[134].

وفي عهد الوليد بن عبدالملك (86- 96هـ/ 705- 714م) بلغت الفتوحات الإسلامية أوْجَ قمتها، فقد كانت الإمبراطورية الرومية تمر بأوضاع سيئة فأخذ يشدد الضغط عليها في محاولة للاستيلاء على القُسْطَنْطِينِيّة فحققت الجيوش الإسلامية في عهده انتصارات في آسيا الصغرى فقد سقطت طُوَانة[135] سنة 91هـ/ 709م، وتلتها أماسيا سنة 93هـ/ 711م، ثم إنطاكية 94هـ/ 712م وتوغلت القوات الإسلامية إلى فريجيا وحاصروا عمورية[136]. ففي الوقت الذي حققت فيه الجيوش الإسلامية انتصارات باهرة كانت عاصمة الروم مضطربة نتيجة للثورات والفوضى التي صاحبت الإمبراطور الجديد فيليبكوس Philippicus "بارداني الأرمني". الذي اغتصب السلطة من الإمبراطور جستنيان الثاني ودام حكمه خلال الفترة من 92هـ/ 710م إلى 94هـ/ 712م[137]، على أن الأجل لم يمهل الوليد بن عبدالملك ليتم فتح القُسطنطينية حيث توفي وترك للخليفة سليمان بن عبدالملك مهمة فتحها[138].

وفي هذا الوقت انتقل عرش الروم إلى الإمبراطور الجديد ليو الثالث الأيسوري (الأيزوري) نسبة إلى إقليم أيزوريا في شرق آسيا الصغرى[139]، الذي استولى على السلطة في 98هـ/ 716م، ودام حكمه إلى 122هـ/ 739م وعمل على تحصين القُسطنطينية ودعم أسوارها لمواجهة أي خطر يداهمها[140]. وفي تلك الآونة كان الخليفة سليمان بن عبدالملك (96هـ/ 714- 99هـ/ 717م) قد جهز جيشًا بريًا كبيراً[141] بقيادة مَسلمة[142] بن عبدالملك بن مروان اتجه به سنة (98هـ/ 716م) من ثغر طَرَسُوس إلى قلعة لؤلؤة ومنها إلى هرقلة فقونية حتى بلغ عَمورية حاضرة إقليم أنوليا (الإقليم الشرقي)، وحاصرها إلى أن دخل حاكمها ليو الذي سبق الإشارة إليه في مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إلى المسلمين فرفعوا الحصار عنها وعسكروا أمامها[143]. وشارك هذه الحملة البرية أسطول بحري يضم عدداً

(133) العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، ص 210.
(134) الطبري، تاريخ الرسل، ج 6، ص 194؛ عاقل، نبيه، الإمبراطورية البيزنطية، ص 121.
(135) مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذي سلكته الجيوش الإسلامية في طريقها إلى القسطنطينية وتعتبر طوانة (تيانة) أعظم حصون كيدوكيا؛ حتى، فيلب، تاريخ العرب، ص 275؛ العدوي، إبراهيم، المرجع السابق، ص 212.
(136) البلاذري، المصدر السابق، ص 249؛ العريني، الباز، الدولة البيزنطية، ص 173.
(137) العريني، المرجع السابق، ص 174.
(138) الطبري، المصدر السابق، ج 7، ص 495 وما بعدها.
(139) موسس الأسرة الأسورية والتي حكمت الروم من 717- 820م حيث قضت على أسرة هرقل؛ نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود = يوسف زيدان، ص 403.
(140) العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، ص 218.
(141) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 9، ص 175.
(142) ولد مسلمة بن عبدالملك في المدينة المنورة 63هـ/ 683م، وتوفي سنة 121هـ/ 739م، وقد قاد حملات الجهاد ضد الروم فقد غزاهم سنة 86هـ/ 709م- 87هـ/ 706م، أثخن فيهم بناحية المَصِّيصَة وفتح حصوناً كثيرة مثل بُولَق، والأخرم وبُولس قَمْقِم. وغزاهم سنة 88هـ/ 707م، الطبري، الرسل، ج 6، ص ص 426- 436؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 4، ص 302، وفي سنة 89هـ/ 708م، افتتح حصن هرقلة، قَمودية قاصدًا عمورية؛ الطبري، المصدر السابق، ج 6، ص 439، ومن ثم تابع جهاده الذي استمر حتى أيام الخليفة عمر بن عبدالعزيز.
(143) ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص ص 27- 28.

كبيراً من السفن أبحرت من الشام متجهة إلى بحر إيجه، فتقابل الأسطول مع الجيش البري عند مدينة إبيروس Epiros الواقعة على الشاطئ الآسيوي للدردنيل، ثم احتل الأسطول الإسلامي ممر البسفور الجنوبي حيث قطع الاتصال بين بحر مرمرة وبحر إيجه والمدينة. وتوجهت بعض قطع الأسطول البحري في اتجاه مدخل البسفور الشمالي لقطع أي إمدادات ترد للمدينة عن طريق بحر الروم(144). وكان هدف الحملة الكبيرة إضعاف إمبراطورية الروم وكسر حدة كبريائها بإسقاط مركزها وحاضرتها القُسطنطينية، فمداهمتها وحصارها من قبل المسلمين الذين وفقوا في الوصول إليها دون أن يلحق بهم أذى يؤكد قوة الدولة الإسلامية، والتي انحسرت أمامها كل جموع الروم واقتصروا على الدفاع عن عاصمتهم. وقد أحدث المسلمون الاضطرابات والقلق في نفوس الأهالي، وأصبحت الحكومة الرومية في حالة يرثى لها، وما إن تولى ليو الثالث عرش القُسطنطينية سنة 98هـ/ 716م، حتى قطع مفاوضاته مع مَسلَمة وغدر به ويبدأ في إعداد العدة للدفاع عن القُسطنطينية وتعبئتها بالمواد التموينية، وإقامة السد البحري، والاحتماء بأسوار حصينة، واستخدام النار الإغريقية وهذا السلاح نقل المبادرة من المسلمين إلى الروم، فقد أفادت هذه النار المدافعين وأحدثت في صفوف المسلمين ثغرات كانت السبب في زعزعة معنويات الجند المسلمين والتي كانت قبل ذلك عالية(145).

وفي أثناء حصار القوات الإسلامية للقُسطَنطينيّة توفي الخليفة سليمان بن عبدالملك بن مروان وآلت السلطة الأموية إلى عمر بن عبدالعزيز 99هـ/ 717م- 101هـ/ 719م الذي أحس بما لحق بالجيش الإسلامي المرابط من أذى وهزيمة، فأرسل إلى مَسلمة بن عبدالملك وهو محاصر القسطنطينية وأمره بالقفول بمن معه من المسلمين وأمده بإمدادات من الدواب والطعام لتساعد الناس على العودة إلى ديار الإسلام(146).

وكان قرار عمر بن عبدالعزيز بسحب جيش مسلمة صائبًا لأن وضع المسلمين في حصار القُسطنطينية ميؤوس منه؛ لأن جانب الروم أصبح هو الأقوى وكفتهم هي الراجحة في الحرب، وحرصًا منه على سلامة المسلمين وحقن دمائهم في هذه الحرب التي أصبحت نتائجها في غير صالحهم فقد قرر أن يعود الجيش وتعد سلامتهم في حد ذاتها مكسبًا في مفهوم الحروب.

ثم إن عمر بن عبدالعزيز ركز على الإصلاحات الداخلية والتي أعطاها الأولوية على الفتوحات الخارجية، لا سيما وأن الدولة الإسلامية قد بلغت أوَّجَ اتساعها في عهدي الوليد بن عبدالملك ثم سليمان بن عبدالملك(147).

ومع هذا وذاك فإن حصار القُسطنطينية لم يعد مجديًا أمام حصانتها الطبيعية والاصطناعية التي كان لها دور كبير في الدفاع عنها، ولمناعة أسوارها وخنادقها المحيطة بالمدينة من كل جانب، بالإضافة

(144) العدوي، إبراهيم، الأمويون والبيزنطيون، ص ص 218- 220؛ عاقل، نبيه، الإمبراطورية البيزنطية، ص ص 141- 142.

(145) مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود، مطبعة النعمان، النجف، العراق، - 1392هـ/ 1972م، ص ص 25- 26.

(146) المصدر السابق، ص 39؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 43.

(147) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 38.

إلى السلاح الفتاك الذي استخدمه الروم في تدمير سفن الجيش الإسلامي وتفريق صفوفه. ولا ننسى النجاح الذي حققه ليو الثالث في استثمار هذه الظروف في دفاعه عن المدينة فكان على درجة كبيرة من المهارة في رسم خطط الدفاع والتي نجحت في صد هجوم المسلمين. وهناك عامل هام ساعد على إضعاف المسلمين في هذا الحصار وهو رداءة المناخ وبرودته الشديدة والتي سقط من جرائها عدد غير قليل من جنود المسلمين لا سيما أن الحصار قد دام قرابة ثلاثين شهرًا[148].

ولكنّ غارات الجيش الإسلامي لغزو الروم لم تتوقف بعد أن فشلت آخر محاولة قام بها الأمويون للاستيلاء على القُسطنطينية، بل استمرت هجماتهم على آسيا الصغرى مثل ما حدث في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك سنة 106هـ/724م حيث استولى الجيش الإسلامي على قيصرية[149] وحاصروا مدينة نيقية[150]، وفي سنة 122هـ/739م تقدم الجيش الإسلامي في اتجاه عَمورية في محاولة أخرى لمهاجمة العاصمة البيزنطية ولكن الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث تمكن من صد هذا الهجوم عند مدينة أكرونيوم (افيون قرة حصار) Acroinon وحمل المسلمين على التراجع إلى الشرق والجنوب وكانت هذه المحاولة آخر حروب الدولة الأموية ضد العاصمة البيزنطية[151]. ويجدر بنا الإشارة إلى الوضع الداخلي في الإمبراطورية البيزنطية والذي أولاه الإمبراطور ليو الثالث جل اهتمامه فبعد أن تمكن من وقف الزحف الإسلامي إلى العاصمة - حتى إنه ليقال ولولا ليو الأيسوري وصمود القُسطنطينية في مواجهة المد الإسلامي لانتشر الإسلام في أوربا، وارتفعت رايته فوق ربوع تلك القارة- واستقر له الأمر توجه إلى الإصلاحات الداخلية من ذلك إصدار القوانين التشريعية والصراع اللايقوني، كما أنه قام بتقسيم الإمبراطورية إلى أقسام أقل اتساعًا من ذي قبل وأطلق على كل قسم اسم ولاية بعد أن كانت تعرف باسم ثيمات، وقد عمل على التقليل من نفوذ الحكام المعينين عليها لكي يضمن عدم تمردهم عليه، فكانت الإمبراطورية في عهده متماسكة مما مكنه من مواجهة أي خطر خارجي يهدد سلامة بلاده.

ج - في عهد العباسيين:

وعندما آلت السلطة في الدولة الإسلامية لبني العباس سنة 132هـ/749م، كانت حدودها قد وصلت في العهد الأموي من ناحية الشمال الشرقي جبال القوقاز وأرمينية وتاخمت في الشمال حدود الروم، وأصبحت حدود الدولة الإسلامية مع الروم تمتد من قيليقية في الشرق وتحاذي الأطراف الجنوبية لآسيا الصغرى حتى طَرَسُوس من الغرب[152].

ومع أن الخلفاء العباسيين قد انشغلوا بالخلافات الداخلية[153] عندما استولوا على السلطة 132هـ/

(148) المصدر السابق، ص 32.

(149) مدينة كبيرة عظيمة تعرف (قَيْساريّة) وهي بين مَلَطْيَة وكماخ مما يلي الجزيرة وهي في آخر الإقليم الخامس حاصرها معاوية بن أبي سفيان سبع سنين ومقاتلته الروم وكان فيها من اليهود مائة ألف، ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص ص 421- 422.

(150) مدينة نيقية من أعمال اصطنبول على البر الشرقي وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 333.

(151) العريني، الدولة البيزنطية، ص ص 216- 212.

(152) هازارد، هاري، أطلس العالم الإسلامي، من مطبوعات جامعة برنستون، 1954م، ص ص 8- 10.

(153) مثل مطالبة عبدالله بن علي بالخلافة بعد وفاة السفاح، والخلاف الذي نشأ بين أبي جعفر المنصور وولي عهده عيسى ابن موسى، حيث عزم الأول على خلعه ومبايعة ابنه المهدي بولاية العهد؛ عمر فاروق، العباسيون الأوائل، دمشق، 1973م، ص ص 206- 208.

749م، إلا أنهم أدركوا خطر الإمبراطورية الرومية العدو التقليدي للمسلمين والقابعة على حدودهم الشمالية وكان على رأسها الإمبراطور قسطنطين الخامس (123- 158هـ/740- 774م)[154]، والذي واجه ثورة زوج أخته انابا سدوس، مما اضطر الأول للخروج من العاصمة إلى عَمورية مركز قيادة والده (ليو الثالث) العسكري ضد المسلمين. وقد انضمت لقسطنطين معظم ولايات الإمبراطورية وقد قابل خصمه سنة 125هـ/ 742م، وكان النصر حليفه واستعاد عرشه. وقد شهدت البلاد في عهده استقرارًا في الداخل، فقد ورث الإمبراطورية بعد والده وفي خزائنها ثروة كبيرة من الأموال، وقد ساعده هذا الاستقرار على مواجهة الأخطار الخارجية فكان طوال عهده يشن الهجوم على الدولة الإسلامية لانشغال العباسيين بترتيب أمور البلاد الداخلية، مثل نقل العاصمة من دمشق إلى العراق البعيدة عن حدود الروم. وبما أن وضع الروم كان في ذلك العهد مستقرًا فكانت توجه الضربات من وقت لآخر للمسلمين، لأن الروم لم ينسوا خسارتهم المتمثلة في بعض الأقاليم الفنية التي أخذها منهم المسلمون مثل الشام ومصر عند الفتوحات الإسلامية، فلم يهدأ لهم بال وأخذوا يتحيّنون الفرص، فعندما شعر الإمبراطور قسطنطين الخامس بالاضطرابات التي صاحبت قيام الدولة العباسية هجم على منطقة الثغور سنة 133هـ/ 750- 751م، فدمر حصني الحَدَث وزِبطرة وحاصر ثغر مَلْطية حتى استسلم أهلها وأجبرهم على إخلاء قلعتها[155]. وقد أدرك الخليفة العباسي أبو العباس عبدالله (132- 136هـ/749- 753م)، خطر الروم فأعد العدة للدفاع عن الثغور الإسلامية، ووجه حملة بقيادة عمه عبدالله بن علي، ولكن الأجل وافى الخليفة قبل تمام الحملة مهمتها، بل إن عمه غير وجهته عندما بلغته وفاة الخليفة، ورجع نحو العراق يقصد المطالبة بأحقيته في الخلافة[156].

وعندما تولى أبو جعفر المنصور (136- 158هـ/ 753- 774م) أمر الدولة العباسية تصدى لغارات الروم وأمر بتحصين الحصون بمنطقة الثغور، وقد أشار البلاذري إلى الجهود التي بذلها المنصور في إعادة تنظيم إقليم الثغور. ويذكر أن عددًا كبيرًا من أهل خراسان والجزيرة والشام اشتركوا في إعادة بناء ما لحق مَلَطْيَة من دمار على يد الروم[157]؛ قد بذل المنصور كل جهوده في تحصين حدود الدولة الإسلامية لمواجهة خطر عدوها القديم، والذي لم تهدأ ثائرته عليهم فاستكمل التحصينات في المَصِّيْصَة ومَلَطْية ومَرْعَش وأَذَنة وزِبَطْره، وبدأ يقوي موقفه في هذه الثغور بعد إعادة تعميرها مما أهله لشن هجوم على أراضي الروم، فأرسل جيشًا بقيادة كل من صالح بن علي والعباس بن محمد سنة 138هـ/ 755م. ويذكر اليعقوبي أن هذا الجيش كان أول حملة عباسية توجه للروم[158]. ولا نستبعد أن يكون سبق هذه الحملة محاولات ولكنها مقصورة على غزو الصائفة أو أنها لم تتم مهمتها كما هو الحال في الحملة التي قادها عبدالله بن علي كما سبق أن أشرنا في حديثنا السابق إلى أنه قفل عائدًا إلى البصرة ليطالب بالخلافة.

(154) اليوسف، عبدالقادر احمد، الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، صيدا، 1966م، ص ص 101- 102.

(155) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص 168- 190؛ اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 362، 366.

(156) الطبري، تاريخ الرسل، ج 7، ص 473.

(157) البلاذري، المصدر السابق، ص 222 وما بعدها.

(158) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 470.

وقد حققت الحملة الموجهة سنة 138هـ/755م إعادة بناء الحصون الثغرية وانقاذ أسرى المسلمين الذين أخذهم الروم في حروبهم سنة 133هـ/ 750م[159]، ونظرًا لانشغال الدولة العباسية بإخماد ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ابني عبدالله بن الحسن، فإن المصادمات الإسلامية الرومية قد هدأت خلال الفترة من 138هـ/ 755م، وحتى 146هـ/ 763م[160]، بسبب الاضطرابات الداخلية في كل من الدولتين، ففي نفس الوقت الذي انشغلت فيه الدولة العباسية بإخماد فتنها الداخلية كما أسلفنا، كذلك إمبراطورية الروم انشغلت بمشكلاتها الداخلية، مثل حركة اللايقونية[161]، ومواجهة خطر البلغار، فانتهز الروم فرصة انشغال المسلمين بإصلاح أمورهم الداخلية، والتفت الإمبراطور إلى إصلاح وضع بلاده ومواجهة مشكلاته الداخلية[162].

ولم يحدث في أواخر عهد المنصور حملات هجومية فعالة على الروم[163]، وتزامنت وفاة المنصور مع وفاة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين، والذي خلفه ابنه ليو الرابع (158هـ/ 774م- 164هـ/ 780م)، بينما تولى المهدي أمور الدولة العباسية (158هـ/ 774م- 169هـ/ 785م)، واضطرب أمر الإمبراطورية الداخلي لسوء سياسة ليو الرابع، فقد اضطهد الكثير من رعاياه بل شملت هذه الاضطهادات أقرب الناس إليه زوجته إيرين. ومن هنا فإن ظروف الإمبراطورية في هذه الفترة لا تساعدها على مقاومة الحملات الإسلامية فكانت الفرصة مهيأه أمام الخليفة المهدي الذي كان عهده يتميز بالاستقرار، فقد ورث الدولة بعد المنصور وهي موطدة الدعائم خالية من الأخطار، فقد ذكر البلاذري أنه استكمل ما بقي من الثغور وحصنها وشحنها بالمقاتلة[164]. ففي سنة 159هـ/ 775م وجه حملة بقيادة العباس بن محمد بن علي[165] ردًّ فعل على هجوم الإمبراطور ليو الرابع الذي سبق أن قام به على ثغر سُميسَاط فكان زمام المبادرة في هذه الحملة من قبل المهدي، ووصلت هذه الحملة إلى أنقرة ولكن دون أن تلقى أي مقاومة من جانب الروم، ومع ذلك لم تشر المصادر التاريخية إلى أنها حاصرتها أو فتحتها[166].

وذكر البلاذري أن المهدي أسكن ألفين من الجند في ثغر المَصِّيْصَة في سنة 159هـ/ 775م[167].

وما إن دخلت سنة 160هـ/ 776م، حتى أرسل صائفتين واحدة تلو الأخرى في اتجاه ثغر الحَدَث ولكن الروم شنوا هجومًا مفاجئًا وبقوة كبيرة تقدر بثمانين ألفًا على ثغر مَرّعش سالكين درب الحَدث بقيادة القائد الرومي ميخائيل، وأشار البلاذري إلى ما

(159) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 223- 225؛ اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 446؛ الطبري، المصدر السابق، ج 7، ص 479؛ قدامه، الخراج، ص 254.

(160) الطبري، الرسل والملوك، ج 7، ص 517، 577؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ص 195- 200.

(161) حركة إصلاح الدين بتطهيره من الماديات ورفض عبادة الصور والتماثيل.

(162) العريني، الباز، الإمبراطورية البيزنطية، ص 212.

(163) لانشغاله بمواجهة المشاكل الداخلية مثل أطماع الفرس، وخاصة جماعة الراوندية وهم اتباع أبي مسلم الخراساني، وكذا ثورة العلويين التي تزعمها محمد النفس الزكية الذي =

= استقر في الحجاز؛ العدوي، إبراهيم، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص 83، 84.

(164) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 174- 177.

(165) العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس هو أخو المنصور والسفاح ويلقب بأبي الفضل ، (ت 186هـ/ 802م)؛ ابن تغريردي، النجوم الزاهرة، ج 2، ص 120.

(166) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 172- 177؛ اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 396؛ الطبري، المصدر السابق، ج 8، ص 142، 144، 152؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 66.

(167) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص 172- 177.

لحق المسلمين من جراء هذا الهجوم فقال "خرج ميخائيل من درب الحدث في ثمانين ألفًا فأتى عمق مَرْعَش فقتل وأحرق وسبى من المسلمين خلقاً"[168].

ولمّا بلغ المهدي خبر هذا الهجوم الكبير من جانب الروم أعد حملة مضادة بقيادة الحسن بن قحطبة سنة 162هـ/ 778م، فساح في أرض الروم وثقلت وطأته على أهلها حتى صوروه في كنائسهم، وكان دخوله مع درب الحَدَث وقد كلموا المهدي في إعادة بناء مدينة الحدث وطرسوس[169].

وفي سنة 163هـ/ 779م، أعد المهدي حملة أخرى موجهة إلى أرض الروم وعلى رأسها ابنه هارون، ووصلت الحملة إلى حصن سمالو واحتلته بعد حصار دام حوالي أربعين يومًا وعاد الجيش الإسلامي ظافرًا غانمًا، مما أكسب هارون لقب الرشيد ومنحه ولاية العهد الثانية[170]. وفي السنة التالية 164هـ/ 780م، سار هارون حتى بلغ القسطنطينية، فطلب منه الروم الصلح فصالحهم وانصرف[171]. وأعد المهدي بعد ذلك أكبر حملة وجهها إلى الروم سنة 165هـ/ 781م وعلى رأسها ابنه هارون الرشيد ومعه يحيى بن خالد البرمكي والربيع بن يونس ويزيد بن مزيد الشيباني[172]. ويذكر الطبري أن تعداد هذا الجيش بلغ خمسة وتسعين ألفًا وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً، وتوجه هارون إلى آسيا الصغرى، ودمر حصن ماجدة ثم اندفع الجيش الإسلامي إلى الشمال في اتجاه القسطنطينية[173]. وتمكن أن يصل للمرة الأولى في العهد العباسي الأول إلى سواحل مضيق البسفور. وقد ساعده في تحقيق هدفه الوضع الذي كانت عليه الإمبراطورية في ذلك العهد، فكانت تعيش في حالة عدم استقرار داخلي بسبب المشاكل العقدية، وانشغالها بقمع ثورة في جزيرة صقليه[174]، بالإضافة إلى الفتنة التي حدثت بين الإمبراطورة أيرين وابنها قسطنطين السادس، وكذلك مواجهتها لخطر البلغار وأطماع شارلمان[175]. وفي جو هذه الظروف التي تعيشها الروم استطاع هارون الرشيد حمل الإمبراطورة أيرين على طلب الصلح، وتم عقد هدنة بين المسلمين والروم مدتها ثلاث سنوات تدفع الإمبراطورة بموجبها جزية للخليفة سنويًا قدرها تسعون ألف دينار، بالإضافة إلى ما تقدمه من تسهيلات للمسلمين في طريق عودتهم إلى بلادهم[176]. وتشير المصادر إلى أن الروم بعد انتهاء مدة المعاهدة شنوا هجومًا على ثغر الحدث في عهد الخليفة الهادي سنة 169هـ/ 785م، مما حمل الخليفة إلى إرسال حملة تصد هذا الهجوم، وذكر البلاذري أنها كانت بقيادة المسيب بن زهير[177]، وروح بن حاتم[178]،

---

(168) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 172- 177.
(169) البلاذري، المصدر السابق، ص ص 197- 198.
(170) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 396؛ الطبري، الرسل، ج 8، ص 148.
(171) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 396؛ مؤلف مجهول، كتاب العيون، ص 278؛ أبوالفدا، عماد الدين إسماعيل، (ت 732هـ/ 1331م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1325هـ، ج 2، ص 9.
(172) ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 66.
(173) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 8، ص 152.
(174) العريني، الدولة البيزنطية، ص 229، وهي ثورة الصقالبة.
(175) شارلمان تولى حكم دولة الفرنجة خلال الفترة من 151هـ/ 768م- 199هـ/ 814م؛ ديفز، هـ، كالس، شارلمان، ترجمة الباز العريني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 249.
(176) الطبري، المصدر السابق، طبعة القاهرة، 1926م ج 9، ص 437.
(177) المسيب بن زهير: قائد من الشجعان كان على شرطة المنصور، والمهدي والرشيد مات في منة سنة 175هـ/ 791م؛ ابن قتيبه، أبو محمد عبدالله بن مسلم، (ت 276هـ/ 889م)، المعارف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1970م، ص 181
-

وحمزة بن مالك[179]، ولمّا انتقلت السلطة في الدولة العباسية للخليفة هارون الرشيد "170هـ/ 786م- 193هـ/ 808م"، كان الاستقرار يعم أرجاء البلاد الداخلية فبدأ هارون الرشيد اهتمامه بمواجهة الإمبراطورية الرومية وتجديد هجماته عليها، ففي سنة 171هـ/ 787م بلغه أن العدو يهم بالخروج إلى طَرَسُوس، فأغزى الصائفة وأمر بعمارة طَرَسُوس واستتم لهم بناؤها سنة 172هـ/ 788م، وتحصينها وبناء مسجدها[180].

وقد اهتم باستكمال تحصينات الثغور الإسلامية بل إنه أقام منطقة جديدة أطلق عليها اسم منطقة العواصم. وجعل عاصمة هذه المنطقة مَنْبِج[181]، وأمر جيشاً بالمرابطة فيها وكذلك في طَرَسُوس نظم فيها جيشًا، كما أمر ببناء عين زربة والهارونية ويرابط فيها الجند لحماية حدود الدولة الإسلامية من خطر الروم[182].

على أن نقفور[183]، لم يلبث بعد أن استولى على سلطة الروم "186هـ/ 802م- 196هـ/ 811م"، أن سخر من موقف الإمبراطورة أرين وأرسل رسالة إلى الرشيد أوضح فيها احتجاجه وطلبه رد الإتاوات التي سبق أن أخذها من أرين. ومما ذكره في تلك الرسالة أن هذه المرأة قد أقامتك مقام الرُّخ وأقامت نفسها مقام البَيْدق، ... فأد إليّ ما كانت المرأة تؤديه إليك[184].

فغضب الرشيد وقد أجابه بخطابه المشهور الذي جاء فيه، "بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم؛ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه. والسلام"[185].

ثم أعدَّ الرشيد جيشًا لملاقة الروم، سنة 190هـ/ 805م، الذين نقضوا العهد وأغاروا على عين زَرْبة وكَنيسة السَّوْداء والمَصّيْصَة، وكان الخليفة الرشيد على رأس جيشه، الذي ذكر الطبري أن عدده "مائه ألف وخمسة وثلاثون ألف مرتزق، سوى الأتباع وسوى المطوّعة وسوى من لا ديوان له"[186].

واجتاز آسيا الصغرى إلى أن وصل طُوَانة حيث استولى عليها وأقام بها مسجدًا وجعلها قاعدة أعماله الحربية، ومنها توجه إلى هِرَقلة وحاصرها ثلاثين يومًا وفتحها وخربها وسبى أهلها، وأمام هذه الانتصارات التي أحرزها الجيش الإسلامي على الروم تحطم كبرياء نقفور، وشعر بعجزه عن مقاومة الجيوش الإسلامية فطلب الصلح على أن يدفع الجزية، وقد أجابه الخليفة هارون الرشيد على طلبه فبعث للخليفة بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته، وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار[187]. إلا أن الإمبراطور نقض العهد وخرج على الصلح بمجرد عودة

(178) روح بن حاتم بن قبيضة بن المهلب الأزدي من الأجواد كان حاجبًا لخمسة من الخلفاء أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت 681هـ/ 1282م)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص 305.

(179) البلاذري، الفتوح، ص 199.

(180) المصدر السابق، ص ص 176- 177.

(181) (بالفتح ثم السكون وباء مكسورة) أول من بناها كسرى لما غلب على الشام، والرشيد أول من أفرد العواصم وجعل مدينتها منبج، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص ص 205- 206.

(182) الطبري، الرسل، ص 307 وما بعدها.

(183) من أصل شرقي ويقال إن جده كان أميرًا عربيًا من سكان آسيا الصغرى، وتزعم الروم أنه من أولاد جَفْنَة بن غسّان، وكان على ديوان الخراج، ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص 185.

(184) الطبري، الرسل والملوك، ج 8، ص ص 307- 308؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج 2، ص 17.

(185) الطبري، المصدر السابق، ج 6، ص 308.

(186) الطبري، المصدر السابق، ج 8، ص 320.

(187) الطبري، المصدر السابق، ج 8، ص ص 321- 322.

الجيوش الإسلامية إلى مقرها فما كان من الخليفة الرشيد إلا أن تولى غزوهم مرة أخرى، ومضى إلى درب الحدث وأقام ثلاثة أيام وتصدى للروم، وتمكن من هزيمة جيشهم فما كان أمام الإمبراطور نقفور إلا الطاعة والإذعان إلى دفع الضريبة السابقة للمسلمين. وقد أمر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور وأمر أهل الذمة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين[188]، وتعهد نقفور بألا يعيد بناء وترميم الحصون التي دمرها الخليفة في حملته عام 193هـ/ 808م.

وبعد وفاة الرشيد نشب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون وبعد أن استقرت الخلافة للمأمون (198هـ/ 813م- 218هـ/ 833م)، استطاع أن يعيد للدولة هيبتها واستمرت فعاليتها في مواجهة الخطر الرومي وحاول الاستفادة من ثورة توماس الصقلي الذي قاد ثورة عارمة في آسيا الصغرى ضد الإمبراطورية الرومية، فحاول المأمون كسبه لجانبه وعقد معه صلحًا يقضي وقوفهما ضد الإمبراطور ميخائيل الثاني (205هـ/ 820م- 214هـ/ 829م)[189]، وأن يمد المأمون هذا الثائر بقوات تساعده على فتح القُسطنطينية وكان يهدف المأمون من التقارب إلى إضعاف جانب الروم لأن وضعه لا يسمح له بمصادمتهم لانشغاله بمواجهة الاضطرابات الداخلية عقب مقتل الأمين، وما إن استتب له أمر البلاد حتى قاد إحدى الصوائف الموجهة لأرض الروم سنة 215هـ/ 830م سالكًا بها طريق الموصل ومَنْبِج ودابق وإنطاكية والمَصِّيْصَة وطَرَسُوس، وكان ابنه العباس ابن المأمون على رأس حملة أخرى، انطلق من مَلَطْيَة واستولى على حصن قرة وماجدة وسندس وسنان[190]. ثم عاود المأمون غزو الروم في السنة الثانية (216هـ/ 831م)، وعاود قتالهم سنة 217هـ/ 832م، وكانت السلطة في الإمبراطورية قد آلت إلى الإمبراطور ثيوفيلوس الأول (214هـ/ 829م- 227هـ/ 841م)، الذي اشتد في عدائه للدولة الإسلامية ولكن المأمون شدد عليه في هذه الحملة مما حمله على طلب الصلح، ولكنّ الخليفة لم يجبه إلى طلبه، ومضى في قتاله مركزًا على الوصول إلى عمورية، ولكن الأجل وافاه في طَرَسُوس سنة 218هـ/ 833م[191]. وخلفه أخوه المعتصم بن الرشيد (218هـ/ 833م- 227هـ/ 841م)، الذي لم يقل حماسًا من سابقيه في عدائه للروم فكان يلقب بفارس بني العباس، وأول ما بادر إليه القضاء على فتنة بابك الخرمي[192]، التي أقلقت الخلافة العباسية في عهد الخليفة المأمون وقد زاد من قوة هذا الثائر مساندة الإمبراطور ثيوفيل له ليرد على وقوف الخليفة المأمون بجانب توماس[193]، الصقلي،

(188) المصدر السابق.

(189) الشيخ، محمد محمد مرسي، سياسة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل تجاه الخلافة العباسية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود، العدد الثالث لعام 1399هـ/ 1979م، ص ص 138- 139.

(190) الطبري، تاريخ الرسل، ج 8، ص ص 667- 668.

(191) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 196؛ الطبري، المصدر السابق.

(192) فرقة اسمها مشتق من الكلمة الفارسية "خُرّم" ومعناها (مقبول) على أساس أن اتباعها يعدون كل مقبول جائز شرعًا ولكن الأرجح أن هذا الاسم مشتق من خرم وهي ناحية باردة ولعل الفرقة قد نشأت فيها. وقد قويت شوكة اتباع الخرامية بعد مقتل أبي مسلم الخراساني عام 137هـ/ 754م، وقد - نشطت هذه الفرقة في عهد المأمون عندما شق بابك الخرمي عصا الطاعة على الحكومة الإسلامية، وتحصن في بَذّ وهي قرية بين إذربيجان وأرّان ووطد أقدامه من عام 201هـ/ 816م إلى عام 223هـ/ 833م حتى استولى الأفشين أحد قواد المعتصم على معقله واقتيد إلى سامراء حيث قتل، وكان يوجد أيام المسعودي سنة 332هـ/ 947م اتباع لهذه الفرقة، المسعودي، مروج الذهب، ج 6، ص 186؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج 8، ص 299.

(193) إن محاولات الثائرين باءت بالفشل فقد انتهت حركة توماس بأن قبض عليه وتم إعدامه، كما انتهت حركة بابك الخرمي الفارسي في عهد المعتصم بقتله وتشتيت اتباعه.

فلما أحس بابك بالهلاك كتب إلى ثيوفيل يحرضه على المسلمين فقال: "إذا أردت الخروج فاعلم أنه ليس في وجهك أحد يمنعك"(194). وعلى أساس هذا التحريض خرج إمبراطور الروم على رأس جيش كبير يقدر بمائة ألف، وقيل أكثر من ذلك، يقصد به أراضي المسلمين حتى وصل إلى زِبَطْرَة سنة 223هـ/ 837م، فأشعل النار فيها وسبى نساءها وأطفالها وقتل الكثير من رجالها واقتاد الباقين أسرى، كما أغار على سُمَيْسَاط ومَلَطْيَة ثم رجع غانمًا سالمًا إلى القُسطنطينية فاستقبل فيها استقبال الأبطال(195).

وفي هذا الوقت تمكن المعتصم من القضاء على بابك الخرمي وثورته ومن ثم توجه بكل ثقله جهة الروم للانتقام من ثيوفيل الذي دمر زِبَطْرَة متسائلاً أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عَمُورية وهي عين النصرانية وبُنْكها(196)، فهي عند الروم أشرف من القُسطنطينية.

وقد تنبأ المنجمون أن وضع الكواكب ينبئ بفشل الحملة، ولكن المعتصم لم يُعر ذلك أي اهتمام فتوجه سنة 224هـ/ 838م، على رأس قوات كبيرة لم تجتمع لخليفة من قبل مثلها، فيما يذكر الطبري، ولا مثل لسلاحها ومؤونتها وبغالها ودوابها وقِرَبها المختلفة الأحجام وآلات الحديد والنُّفط، وكان على مقدمة الجيش أشناس(197)، وهو تركي، ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته ايتاخ(198) التركي، وعلى ميسرته جعفر بن دينار بن عبدالله الخياط، وعلى القلب عُجَيف بن عنبسة. ونقش المعتصم على الألوية، والتروس عَمورية واتجه إليها مباشرة سالكًا مَرْعَش ودرب الحَدَث وقد تجنب درب قليقية حيث كان يخضع لمراقبة الإمبراطور ثوفيل، وقد أرسل في نفس الوقت خمسمائة من الجيش بقيادة القائد الأفشين(199) إلى أنقرة للهجوم عليها، وبعد أن دمرها اتجهت القوات الإسلامية لعمورية وفرضت عليها الحصار واستمر لبضعة أيام حتى انهارت مقاومتها أمام المسلمين، الذين افتتحوها وانتقم الخليفة المعتصم لما حل بزبطرة على يد الروم في العام الماضي فترك عَمُورية عرضة للسلب والنهب والإحراق وارتفع عدد القتلى من الروم إلى ما يقرب من ثلاثين ألف عدا الأسرى(200).

وظفر المسلمون منها بغنائم وفيرة وقد بلغ من كثرتها أن المعتصم أمر ألا ينادى على السبي إلا ثلاثة أصوات ليتروج البيع، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة(201).

وقد فكر المعتصم بعد فتحه لعمورية أن يتوجه لغزو القسطنطينية، ولكنه تراجع بعد أن علم بمؤامرة كانت تحاك من قبل ابن أخيه العباس بن

(194) الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 56.

(195) الطبري، المصدر السابق ونفس الصفحات.

(196) البُنك: بالضم، أصل الشيء وخالصه، الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 57.

(197) أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش توفي سنة 230هـ/ 845م، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3، ص 89.

(198) ايتاخ: كان غلامًا لسلام الأبرش طباخًا فاشتراه المعتصم - سنة 199هـ/ 815م، فرفعه المعتصم وولاه قيادة إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم وقتل في عهد المتوكل سنة 235هـ/ 850م: ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 46؛ ولمزيد من المعلومات انظر، محمد الخضري، الدولة العباسية، ص 240.

(199) وردت ترجمته في موضع سابق من البحث.

(200) اليعقوبي، تاريخ، ج 2، ص ص 475- 476؛ الطبري، تاريخ الرسل، ج 9، ص ص 57- 74، وقد تناول موضوع فتح عَمورية بتفصيل موسع يمكن الرجوع إليه.

(201) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 6، ص 488.

المأمون لخلع عمه، مما اضطره إلى العودة إلى سامراء حيث احتفل باستقباله وقد خلد أبو تمام انتصار المعتصم في قصيدته العصماء التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

وفيها يقول:

خليفة الله جاز اللهُ سعيك عن
جرثومةِ الدينِ والإسلامِ والحسب[202]
لم تطلعُ الشمسُ منهم يوم ذاك على
بانٍ بأهلٍ ولم تغرُبْ على عَزَبِ

وكانت حملة المعتصم خاتمة الجهود البطولية في حروب الدولة العباسية في عصرها الأول مع الروم. وعلى الرغم من أن المعتصم قد أعد أسطولاً بحريًا سنة 227هـ/ 841م ليوجهه لغزو القسطنطينية إلا أن المنية عاجلته وتوفي سنة 227هـ/ 841م، فتولى من بعده ابنه الواثق (227هـ/ 841م- 232هـ/ 846م)، وفي العام نفسه توفي إمبراطور الروم ثوفيل وخلفه على العرش ابنه ميخائيل الثالث (227هـ/ 841م- 253هـ/ 867م)، وكان قاصرًا فتولت والدته ثيودورا الوصاية عليه. وفي عهد الواثق ساد الفتور حملات المسلمين تجاه الإمبراطورية الرومية، فالواثق كما تشير المصادر التاريخية من محبي السلام، وقد ذكر الطبري، فيما رواه أن سنة 231هـ/ 845م شهدت توقف الصراع بين الدولتين وتحقق السلام على حدودهما، وقد تم تبادل الأسرى على ضفاف نهر اللامس قرب طَرَسُوس[203].

والمتتبع لأخبار هذه الفترة يتبين له توقف حملات المسلمين، ويعود ذلك لسيطرة الأتراك على مقاليد الأمور في الخلافة العباسية، وبسبب الفتنة الدينية حول القول بخلق القرآن، وحول رؤية الله في الحياة الأخرى[204]، كما أن الروم لم يحاولوا من جانبهم القيام بحملات حربية هامة حتى نهاية الأسرة العمورية لانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية، والتي من أبرزها مشكلة الأيقونات فقد أعادتها والدة الإمبراطور؛ الوصية عليه، حيث كانت من محبيها وقد لاقت معارضة شديدة من البطريرك يوحنا النحوي وجميع الموالين له من رجال الكنيسة، وكبار الموظفين وقادة الجيش من مناهضي عبادة الصور مما حمل ثيودورا على الحد من سيطرتهم وعزلتهم للتقليل من خطر نفوذهم[205].

وقد ظلت ثيودورا تدير أمور الإمبراطورية بالنيابة عن ابنها إلى أن بلغ سن الرشد سنة 242هـ/ 856م، إلا أن ميخائيل الثالث شب على المجون، وأصبح يعرف بميخائيل السكير، ولم يستطع تدبير أمور الدولة مما جعله يعهد بالمهمة إلى صديقه باسيل المقدوني، وما أن قبض الأخير على زمام الأمور حتى أجهز على ميخائيل الثالث وقتله وأعلن نفسه إمبراطورًا سنة 253هـ/ 867م، وبذلك انتهى عهد الأسرة العمورية[206].

الخاتمة:

ظلت منطقة الثغور مسرحاً لصراع بين المسلمين والروم، دام فترة طويلة من عهد الخلفاء الراشدين، ثم

(202) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، (ت 705هـ/ 1305م)، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1386هـ/ 1966م، ص 230؛ الشيخ، سياسة الإمبراطور البيزنطي ثيوفل، مجلة كلية العلوم الاجتماعية لعام 1399هـ/ 1979م، ص 165، 166.

(203) الطبري، تاريخ الرسل، ج 9، ص ص 335- 443.
(204) فازيليف، العرب والروم، ص 157؛ العريني، الدولة البيزنطية، ص 299.
(205) العريني، المرجع السابق، ص ص 294- 297.
(206) العريني، المرجع السابق، ص 326.

تلاهم الأمويون فالعباسيون. وقد برز المسلمون في مواجهتهم للروم في معظم اللقاءات واهتم المسلمون بالثغور وإقامة قلاعها وتحصينها فكان يرابط فيها الجنود لمواجهة خطر العدو.

ففي عهد الخلفاء الراشدين تم استقطاع أرض الشام والجزيرة الفراتية ومصر من أملاك إمبراطورية الروم، فقد اتخذت الفتوح شكلها الكاسح في هذه المناطق وتم إجلاء الروم عنها، واستوطنها المسلمون بعد معارك حاسمة كانت نتائجها لصالح المسلمين كما حدث سنة 14هـ/635م، في اليرموك، ثم في سنة 19هـ/640م عند سقوط قيصرية، والتي كانت آخر المعاقل الرومية في الشام، وبسقوطها آلت الشام كلها للمسلمين. وأثناء ولاية معاوية بن أبي سفيان للشام من قبل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ استبسل في حروبه ضد الروم في إقليم الثغور بل إنه نقل مسرح المواجهة إلى البحر، إذ أدرك ما للقوة البحرية من أهمية في دعم الوجود الإسلامي في تلك المناطق ووضحت أهمية الأسطول الذي أعده معاوية في لقائهم مع الروم سنة 34هـ/655م، حيث كان النصر حليف المسلمين في معركة ذات الصواري.

وإن كان المسلمون لم يهنأوا بهذا النصر الذي تحقق لهم في معركة ذات الصواري، ولم يتمكنوا من الاستفادة من نتائج هذه المعركة؛ نظراً لما حدث من ظروف داخلية فقد تلا هذا النصر مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ سنة 35هـ/656م، ومن ثم بدأت نزاعات حول خلافة علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وانتهت هذه الفتنة بمقتل الأول ومبايعة الثاني بالخلافة، وقد اتخذ من دمشق مقراً للخلافة. ولما استتبت له الأمور سنة 41هـ/661م، وبانتهاء الاضطرابات الداخلية عادت حركة الفتوحات الإسلامية الموجهة للروم، فقد عقد هدنة معها إبان اضطراب الوضع الداخلي قبل توليه الخلافة، تعهد بموجبها دفع جزية سنوية، ولم تقف طموحات معاوية عند مناوشاته مع الروم في منطقة الحدود، بل عزم على التوغل في أراضيها بهدف الوصول إلى عاصمتهم القسطنطينية، وتمثلت هذه النية في حملته الأخيرة سنة 54هـ/674م، واستطاع بقوته البحرية والبرية التي شاركت في هذه الحملة أن يفرض حصاراً شديداً على القسطنطينية دام سبع سنوات، وكان الجيش الإسلامي يوجه غارات على العاصمة خلال فصلي الشتاء والصيف، وكان يهدف من هذا الأسلوب إلى تضييق الخناق على دولة الروم، وإشاعة الاضطراب والفوضى في آسيا الصغرى، إلا أن هذه الحملة لم تحقق غرضها نظراً لصمود القسطنطينية في مواجهة الحصار البري والبحري لحصانتها، وما بها من مؤن وزاد، ولتلقيها بعض الإمدادات عن طريق البحر من المناطق المجاورة، التي لم تلتف عليها القوات الإسلامية. وكذلك من الأسباب التي كانت وراء إحباط هذه الحملة طول خطوط التموين على الجيوش الإسلامية فضلاً عن رداءة الجو وبرودة الشتاء، ففيه تتساقط الثلوج وتسد منافذ الطرق عبر الجبال، علاوة على استخدام الروم الجند غير النظاميين الذين كانوا في مرتفعات جبال طوروس، وبصفة خاصة في حصن اللكام في القيام بهجوم مضاد على بلاد الشام، علاوة على استخدام السلاح الذي ألحق الضرر بالمسلمين وهو النار (الإغريقية) Greek Fire، فقد آذت السفن البحرية وألحقت بها الخراب، وعندما شعر معاوية بن أبي سفيان بدنو أجله رأى أنه من الحكمة سحب القوات الحربية وتركيزها بالقرب من مقر الخلافة للمحافظة على البيت الأموي ولمواجهة أيّة اضطرابات.

ويمكن القول إن هذه الحملة وإن لم تحقق فتح القسطنطينية، والاستقرار في المناطق التي تقع بينها وبين منطقة الثغور فإنها قد حققت للقوات الإسلامية هيبة ملأت الآفاق وأظهرت المسلمين بمظهر الخصم القوي الذي يهاب جانبه، وترك صداها أثراً بالغاً على الروم فقد ظلوا فترة طويلة في موقف المدافع ضد هجمات المسلمين عليهم، فمثل هذه الحملة ولدت لديهم الخوف من قوة الجيوش الإسلامية التي ما برحت أن حاصرتهم في عقر دارهم، وقد حملهم معاوية على عقد صلح مدته ثلاثون عاماً، ليأمن جانبهم من جهة وليتفرغ لمواجهة المشكلات الداخلية من جهة أخرى، وقد لا يتحقق له مثل هذا الصلح لو لم يحس الروم بخطر القوات الإسلامية أثناء هذه الحملة، وأعتقد أن هذه المعاهدة تعد في حد ذاتها مكسباً كبيراً حققه المسلمون من حيث أمنوا الجانب الرومي.

ويتبين لنا أن معاوية بن أبي سفيان قد وجه جهده السياسي والعسكري لمواجهة الخطر الرومي، يتضح ذلك من كلمته المشهورة (شدوا خناق الروم فبها تضبطوا بقية الأمم)، وبعد وفاته تولى يزيد الخلافة، وأثناء مدته القصيرة بدأت تظهر الفتن الداخلية، حتى آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، والذي وطد حكمه بعد القضاء على عدد من الانتفاضات والثورات في الحجاز والعراق ومصر وخرسان، وقد تفشى فيها أمر العصبية القبلية، ثم استأنف جهاده في بلاد إمبراطورية الروم في البر والبحر، ورأى من المصلحة عقد معاهدة تقضي بتعهد الإمبراطور الرومي بإبعاد الجراجمة من حدود الدولة الإسلامية، على أن يلتزم الخليفة بدفع ألف دينار سنوياً للإمبراطور، ومكنته هذه المعاهدة من التفرغ لمشكلاته الداخلية،

وما إن استتبت الجبهة الداخلية حتى استأنف خلافه مع الروم سنة 74هـ/692م، بعد أن استبدل باسم المسيح على القراطيس الآية الكريمة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فقد جهز جيشاً لملاقاة الإمبراطور عند مدينة سيواس، وكان النصر حليف الجيش الإسلامي، وتمكنوا من السيطرة على إقليم قبادوقيا.

وما إن جاء عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك 86هـ/705م - 96هـ/715م حتى بلغت الفتوحات الإسلامية في عهده أوج قمتها، وحققت الجيوش الإسلامية انتصارات باهرة في آسيا الصغرى، فسقط حصن الطوانة في أيدي المسلمين وتلته أماسيا ثم إنطاكية، ووصلت القوات الإسلامية إلى إقليم فريجيا وحاصروا عمورية. وقد عقد العزم على فتح القسطنطينية وفي عهد أخيه سليمان بن عبد الملك تم إعداد العدة لهذا المشروع الجبار فجهز جيشاً كبيراً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، تسانده قوة بحرية ضخمة، دخلت مياه البسفور بينما كانت القوات البرية قد عبرت الدردنيل، وعسكرت أمام أسوار العاصمة الرومية.

وأصبحت القسطنطينية تحت حصار شديد إلا أنه لم تكتمل حلقاته في الواقع، فقد بقيت جهتها المطلة على القرن الذهبي (الجهة الشمالية) دون حصار، وقد رفع المسلمون الحصار الذي دام قرابة عام كامل، وعادوا إلى الشام، وقد اجتمعت عدة أسباب على إحباط هذه الحملة من أهمها: ما عاناه المسلمون أثناء الحصار الطويل من شدة البرد الذي مات بسببه العديد من الجنود والقواد، بالإضافة إلى ما لحق الأسطول الإسلامي من خسارة فادحة نتيجة استخدام النار الإغريقية من جانب الروم. كما أن وقوف البلغار إلى جانب الإمبراطور ليو وهجماتهم المفاجئة على القوات

الإسلامية المرابطة على الجانب الغربي من المدينة كان له أثر في إنهاك المسلمين، وشدّ أزر الروم، علاوة على طول مدة الحصار ونفاد المؤن والأقوات وبُعدها عن مراكز التموين، كل ذلك أدى إلى إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين. ويضاف إلى هذه الأسباب سبب آخر مباشر لرفع الحصار بسحب القوات وعودتها، وهو ما تلقاه مسلمة من أوامر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز الذي أمره بالعودة فوراً إلى الشام بكافة الجيوش البرية والبحرية، فكانت هذه الحملة خاتمة محاولات الدولة الأموية لفتح القسطنطينية، وقد أظهر الأمويون قبل عهد عمر ابن عبد العزيز حماستهم في فتحها.

ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز رأى وقف الفتوح في عهده والانصراف إلى الإصلاح الداخلي، فقد ورث دولة مترامية الأطراف تحتاج منه إلى جهد في مواجهة شئونها الداخلية. علماً بأن الفشل الذي منيت به حملة مسلمة حول أسوار القسطنطينية لم يفل من عزم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على الجهاد ضد الروم، فقد وجه الغارات على آسيا الصغرى سنة 106هـ/725م، وفتحوا قيصرية وحاصروا نيقية، وقد مر بنا ذكر تقدم الجيش الإسلامي في اتجاه عمورية سنة 122هـ/740م. وتعد هذه المحاولة خاتمة حملات الأمويين ضد الروم، حيث تعرضت الدولة الأموية في عهد الخلفاء من بعد هشام بن عبد الملك لموجة من الفتن والحروب الداخلية، خاصة تلك الفتن التي أثارها الصراع بين القبائل القيسية واليمنية ومناوأة الخوارج للأمويين، بالإضافة إلى خطر الدعوة العباسية والذي استفحل أمرها على الخلفاء الأمويين الأواخر، فمع هذه الظروف توقفت الفتوح الإسلامية في جهة أراضي الروم.

ومن أسباب توقف الفتوحات الإسلامية الوضع الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومية حيث قويت نتيجة للتحالف بين أباطرتها وملوك الخزر، وما نجم عن هذا التحالف من زواج قسطنطين الخامس بن ليو الثالث من ابنة ملك الخزر ايرين. وقد استغل الروم حالة الفوضى والارتباك التي عمت الدولة الإسلامية نتيجة زوال الدولة الأموية، فاتخذوا جانب الهجوم ضد المسلمين، وعندما قامت الدولة العباسية نقلت مركز الخلافة إلى بغداد، وانتهى دور دمشق الذي وقف فترة من الزمن في مواجهة الروم وبانتقال مركز الخلافة إلى العراق باعد بينها وبين مركز الدولة الرومية، وكان لهذا أثره على توجيه الحملات وبعد أن دعمت الدولة العباسية سلطانها تصدت لخطر الروم، وأصبحت المواجهة سجالاً بين الطرفين. وقد عرضنا للحروب التي نشبت بين الطرفين، ونخلص إلى حقيقة واضحة هي أن طبيعة الحروب في عهد الدولة الأموية تختلف عنها في العهد العباسي، ففي عهد الأولى كان يغلب عليها عنصر المبادأة والهجوم وبالتالي الاستيلاء على الأراضي المفتوحة، كما هو الحال عند فتح بلاد الشام ومصر وغيرها من المناطق الأخرى التي تمكن منها الأمويون، كذلك في منطقة الثغور الإسلامية التي حرصوا على إعادة تعميرها وشحنها بالجنود وتشجيع الناس على الاستقرار بها. أما في عهد الدولة العباسية فالأمر يختلف، فإن الغارات من جانبهم كانت في معظمها رد فعل أو دفاعاً، وكان زمام المبادأة في أغلبها من جانب الروم، وعلى الرغم من اهتمام الخلفاء العباسيين بصد خطر الروم؛ ويتمثل هذا الاهتمام في أن الخليفة يقود الحملة بنفسه كما حدث في عهود المهدي والرشيد والمأمون، وآخرهم المعتصم الذي حاصر عَمورية ودمرها إلا أنهم سرعان ما ينسحبون من المناطق التي يستولون عليها بعد

خرابها وبالتالي فإنهم لا يحرصون على كسب مناطق جديدة، بل على العكس فقد فقدت الدولة بعض أملاكها مثل الأندلس التي استقطعها الأمويون، وكذلك استقلال المغرب على يد الأدارسة ثم الأغالبة في تونس، فقد اكتفى الخليفة بتبعية الأغالبة الاسمية له.

ومن هنا يتبين لنا أن جهاد الدولة العباسية ضد الروم هو الرد على كل محاولة من قبل الإمبراطور، أي أنه كل ما قامت الروم بشن هجوم تصدت له الدولة العباسية، واكتفت عند هذا الحد ولم تضف لأملاكها مناطق جديدة على حساب دولة العدو، ولم تستقر في المناطق التي تمكنت من تخريبها، وإنما العملية رد فعل أو ثأر لما لحق بها من أضرار من قبل الروم. وقد هدأت الأمور بين الدولتين في عهد الواثق بل بدأت بوادر الضعف تدب في كيان الدولة الإسلامية، بسبب الاعتماد على الأتراك في الوظائف العليا مما جعلهم يفرضون سيطرتهم وتحكمهم على شئون الدولة، مما أثر في نفوس بقية عناصر السكان من العرب والفرس، وبالتالي فإن وضع الدولة لم يعد يمكنها من مواجهة خطر الروم القابع على حدودها لأن لديها من المشكلات الداخلية ما يكفيها.

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الثاني، 69 – 87 (2005م)

دراسة لتأريخ بعض أنواع الصناعات في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-922هـ/1250-1516م)

د. فيصل عبدالله بني حمد

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهم الصناعات في بلاد الشام خلال العصر المملوكي (648- 922هـ/1250- 1516م)، مبيناً مقوماتها، وأسباب تقدمها لاسيما في العصر المملوكي الأول (648- 784هـ/1250- 1382م)، كما وضحت أهم هذه الصناعات حيث قسمتها إلى ثلاث مجموعات وهي: الصناعات القائمة على الإنتاج النباتي والحيواني مثل: صناعة السكر، والزيت والصابون والدبس والنبيذ وطحن الغلال والبلسم والورق والمنسوجات ، والحصر والحبال والعطور، ودباغة الجلود، والمراكب. أما النوع الثاني من الصناعات، فهو قائم على المعادن مثل: صناعة السلاح وصناعة الزجاج. ويتمثل النوع الثالث في صناعات لم يرد ذكرها سابقاً مثل صناعة الأواني الخشبية والملاعق والقدور والجرار والزبادي وغيرها. ثم بينت كيفية توزيع هذه الصناعات، ومن أشرف عليها، وأسباب تراجعها فيما بعد.

توصلت هذه الدراسة إلى أن أسباب ازدهار الصناعة لا سيما في العصر المملوكي الأول (648- 784هـ/1250- 1382م) يتمثل في وفرة معظم المعادن اللازمة للصناعة، ووجود الأيدي الماهرة والمدربة على مثل تلك الصناعات، ثم توفر الأسواق الداخلية والخارجية الخاصة بتصريف تلك الصناعات. واختصت كل حرفة بصنع أو بيع سلعة واحدة فقط، وتولى المحتسب مراقبة تلك الصنائع لضمان جودتها، وكان يساعده في ذلك مجموعة من الأعوان أو العرفاء، فضلاً عن ذلك، كان لكل حرفة شيخها الذي تعينه السلطة أو تعترف به، وهو يمثل تلك الحرفة.

أما أسباب تراجع الصناعة في العصر المملوكي الثاني (784 - 922هـ/1382- 1516م) فيتمثل في ضعف الحكم، وما رافق ذلك من قيام حروب أهلية متصلة لربع قرن، وتشجيع البدو والتركمان على الثورة، كما زادت هجمات القراصنة الغربيين، إضافة إلى ما قام به التتار من نقل أعداد كثيرة من أصحاب الحرف المهرة إلى سمرقند مما كان له أكبر الأثر في تراجع الصناعة بشكل واضح. وزاد المشكلة تعقيداً توقف الدولة عن دعم الصناعة؛ الأمر الذي أدى إلى توقف إنتاج بعض الصناعات، ورافق ذلك كله انهيار النظام النقدي، وتكرار الغلاء والمجاعات، ومنافسة السلع الخارجية للصناعات الشامية. كما تأثرت الصناعة سلباً باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إذ قل نشاطها لقلة روادها من التجار الأجانب.

مقومات الصناعة:

شهدت بلاد الشام[1] ازدهاراً صناعياً وخاصة في العصر المملوكي الأول (648- 784هـ/1250 - 1382م)، ولعل ذلك يعود إلى وفرة معظم المواد الأولية اللازمة للصناعة مثل: الحديد الذي تواجد بكميات كبيرة في جبال لبنان، وجبال الشراه القريبة من البتراء، والمناطق القريبة من بصرى[2]. ومن أريحا وبحيرة زغر[3] استخرج الكبريت والملح[4]. كما استخرج من بحيرة زغر أيضا القير أو الحمر[5]، بالإضافة إلى الملح الذي استخدمه الصاغة[6]. وبطبرية عثر على معدن المرجان[7]. أما حجر المرقشتيا[8]، فعثر عليه بالقرب من دمشق، وبجبل لبنان، وبالقرب من الكرك[9].

وفي حلب وجبالها وجدت معادن عدة مثل النحاس، ومعدن عرف بمغاص الدر[10] كان يستعمله الصناع في الرخام وصبغه[11]. كما وجد في جبل البشر الممتد من الشام إلى الفرات عدة معادن، مثل معدن القار، والمعتزه، والطين، وهذا الأخير كان يصنع منه

---

(1) الشام: بسكون الهمزة أو فتحها، وتلفظ كذلك بغير همزة، قيل معناها الطيب. تعددت الآراء في سبب هذه التسمية، منها: أنها نسبة إلى اليد الشوامى وهي اليسرى، وقيل سميت بذلك لكثرة قراها، وتقارب بعضها من بعض، فشبهت بالشامات، وقد تكون أيضاً لوجود شامات في أرض الشام كالأبيض والأسود والأحمر، أي أن بها أراضي ونباتاً بحسب الألوان وقيل غير ذلك. أما حدود الشام، فهي أربعة، فمن الغرب بحر الروم (البحر المتوسط)، ومن الشرق البادية من أيلة (العقبة) إلى الفرات، ومن الجنوب المنطقة الواقعة بين رفح أو العريش وبالس، ومن الشمال بلاد الروم. أما اليوم، فيطلق لفظ الشام على دمشق عاصمة سوريا. ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت626هـ/1228م)، معجم البلدان، 5 أجزاء، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1979م)، ج 3، ص ص 311- 312؛ ابن فضل الله العمري، شهاب الدين (ت 749هـ/1349م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، ط 1، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1988م)، ص ص 224- 225.

(2) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين (ت 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، (القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1985م)، ص 121؛ ابن عوض المغربي، أحمد (ت في ق 11هـ/17م)، قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار، تحقيق بروين بدري، ط 1، (بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1990م)، ص 48؛ نقولا زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي " المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام" (عمان، 1990م)، ص 111.

(3) زغر: قرية تقع في طرف البحيرة المنتنة (البحر الميت) بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام، وهي من جهة الحجاز. ياقوت الحموي، ج 3، ص 143.

(4) ابن خرداذبة، عبيدالله بن عبد الله (ت 300هـ/912م)، المسالك الممالك، (ليدن، مطبعة بريل، 1967م)، ص 79؛ ابو الفداء، عماد الدين، (ت 732هـ/1331م)، تقويم البلدان، (باريس، = دار الطباعة السلطانية، 1840م)، ص 236.

(5) القير والحمر: مادة سوداء اللون كان يدهن به الإبل والمراكب لكي يمنع الماء من الدخول إليها، ومنه صنف آخر كان يستخدم لحشو الخلاخيل والأساور، كما استعمل في صناعة النفط، وفي تلقيح أشجار التين والنخيل. النويري، شهاب الدين أحمد (ت 732هـ/1331م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (31 جزء)، من (1- 21 جزء) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، (دت)، ج 1، ص 251؛ ابن منظور، جمال الدين (ت 711هـ/ 1311م)، لسان العرب المحيط (مجلد 15)، بيروت، دار صادر، (دت)، مادة قير.

(6) ابن خرداذبة، ص 79.

(7) القزويني، زكريا بن محمود (ت 682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، (دت)، ص ص 217- 218.

(8) حجر المرقشتيا: أفضله الذهبي ثم الفضي فالنحاسي، وأقله جودة الحديدي والزئبقي، وتدخل معظم هذه الأصناف في كثير من الصناعات فإذا وضعت على النحاس أو الرصاص أصبح بياضاً يقارب لونهما لون الفضة، وإذا أضيفت إلى النحاس الذائب صار كالفضة. شيخ الربوة ،شمس الدين محمد (ت 727هـ/1326م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى، (د. ت)، ص 84؛ ابن عوض المغربي، ص 165.

(9) الكرك: اسم لقلعة حصينة جداً تقع في طرف الشام، وهي من نواحي البلقاء بين أيلة وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبيت المقدس. ياقوت، ج 4، ص 453؛ شيخ الربوة، ص 84؛ ابن عوض المغربي، ص 165.

(10) مغاص الدر: كان يتألف من عدة أصناف كاليواقيت والحجارة الثمينة وجميع أنواع الطيب. ابن شداد، عز الدين (684هـ/1285م)، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (الجزء الأول- القسم الأول)، تحقيق دومنيك سورديل، (دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1956م)، ج 1، ق 1، ص 11.

(11) ابن شداد، ج 1، ق 1، ص 11.

البواتق التي تسبك فيها الحديد، بالإضافة إلى الرمل الذي كان يصنع منه الزجاج[12].

كذلك وجد في الكرك الخماهان الذي سمي بحجر الصرف، وهو في الأصل عبارة عن حجر أسود حديدي كان يستخدمه أصحاب المصاحف في جلاء ذهبها. ولشهرته صدر إلى مختلف الأقطار[13].

وعثر في اللاذقية على معدن الرخام ذي الألوان المختلفة، مثل: الأبيض، والأخضر، والموشى. كما وجد في شرقي بيت المقدس حجر الزيت الذي " إذا أشعلته يشعل مثل الحطب"[14].

وفضلاً عن ذلك، كنزت بلاد الشام أصنافاً عدة من المعادن الأخرى، مثل: معدن الرصاص الجيد[15]. واحجار النحاس التي عرفت بالدهنج، وكان أفضلها الزمردي، والذبابي، والأخضر السلفي، والمائل إلى الأصفر، ثم المجزع في لونه، والذي نتج عنه الكبريت، ومنه صنعت المرايا[16].

وفي ذي القعدة سنة (911هـ/ آذار 1505م) عثر على البارود بالقرب من الكرك في بلد خراب[17]. هذا عدا عن الحرير والصوف والوبر والقطن والكتان والقنب وغيرها من المعادن الأخرى، والتي فاضت عن حاجة الشام حتى صدر قسم كبير منها إلى الخارج[18].

كما ساعد على ازدهار الصناعة في بلاد الشام أيضاً وجود الأيدي الماهرة والمدربة على مثل تلك الصناعات، مما دفع ببعض الدول إلى الاستعانة بتلك الخبرات، فمثلاً اعتمدت اليمن على عدد كبير من أصحاب الحرف الشاميين في مجال الصناعة[19].

ومما ساعد على ازدهار الصناعة أيضاً وجود الأسواق الداخلية والخارجية[20] الخاصة بتصريف تلك السلع، ففي دمشق وحدها وجد أكثر من مائة وأربعين سوقاً تقريباً[21].

وفيما يلي أهم الصناعات التي قامت في بلاد الشام في العصر المملوكي:

(أ) الصناعات القائمة على الإنتاج النباتي والحيواني:

1- صناعة السكر:

انتشرت زراعة السكر في طرابلس وبيروت وعكا وأريحا وعرقة[22] وصور ودمشق والأغوار[23]. كما

(12) ياقوت، ج 1، ص 426.

(13) التيفاشي، أحمد بن يوسف (ت651هـ/1253م) أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م)، ص 142.

(14) شيخ الربوة، ص 81، 209.

(15) ياقوت، ج 4، ص 389.

(16) شيخ الربوة، ص 83.

(17) ابن إياس، محمد احمد (ت 930هـ/ 1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (5 أجزاء) ط 2، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982- 1984م)، ج 4، ص 204.

(18) محمد كرد علي، خطط الشام، (6 أجزاء)، بيروت، (د.ن)، 1971م، ج 4، ص 199.

(19) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام)، ص 154، 156، 160؛ القلقشندي، احمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (14 جزء)، ط 1، (د.م، دار الفكر، 1987م)، ج 5، ص 7، 34.

(20) شيخ الربوة، ص ص 197- 198؛ محمد كرد علي، ج4، ص 218.

(21) ابن المبرد، جمال الدين يوسف (ت 909هـ/1503)، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق، نشر حبيب زيات، (مجلة المشرق، 1939م)، ص ص 22– 27؛ فيصل بني حمد، أسواق دمشق في العصر المملوكي (648- 922هـ/1250- 1516م)، (مجلة العصور، مجلد 14، جزء 1، يناير 2004م)، ص 85.

(22) عرقة: بلدة شرقي طرابلس على بعد أربعة فراسخ (أي ما يعادل 40 كم تقريباً)، وهي من آخر أعمال دمشق. ياقوت، ج4، ص 109.

(23) نيامين بن يونيه (ت 569هـ/1173م)، رحلة بنيامين (561- 569هـ)، نقلها إلى العربية عزرا حداد، (بغداد، (د.ن)، 1945م)، ص 92؛ ياقوت، ج 3، ص 111؛ ابن شداد، عز الدين (684هـ/ 1285م)، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1962م، ص 136، 104؛ النويري، ج 8، ص 217؛ ابن السباهي، محمد ابن علي (ت 997هـ/1588م)، أوضح المسالك إلى معرفة =

انتشرت معاصر السكر في بلاد الشام، فمثلاً في الأغوار كشف المسح الأثري الذي قامت به كل من الجامعة الأردنية ودائرة الآثار العامة والمعهد الأمريكي للدراسات الشرقية عن وجود اثنتين وثلاثين معصرة للسكر تعود في تاريخها إلى الفترة الممتدة ما بين القرنين السادس والثامن للهجرة/ الثاني عشر والرابع عشر للميلاد[24].

وتقوم صناعة السكر على وضع القصب المقطع تحت الحجر الذي يتم تحريكه بواسطة الأبقار، أو المياه المتدفقة حتى يتم عصره، ثم يصفى، ويغلى، ويوضع في أوعية من الصوف، ثم يطبخ في قدور مصنوعة من النحاس، ويصب المطبوخ في جرار من الفخار، ثم تقطر وتحفظ[25]. وكان القسم الأكبر منه يستهلك في الاحتفالات، وما زاد عن ذلك صدر إلى بعض المدن الأوروبية مثل: البندقية، وجنوه، ومرسيليا، وبرشلونة[26].

ولأهمية هذه الصناعة وظف كثير من الأمراء والأعيان وكبار الموظفين والتجار أموالهم في دعم هذه الصناعة، إذ امتلك بعضهم أكثر من عشرين مصنعاً. كما عين السلطان المملوكي شاداً خاصاً يشرف عليها ويجمع ما يتحصل منها[27].

2- صناعة الزيت والصابون:

اشتهرت بلاد الشام بكثرة أشجار الزيتون، لذا أنشئت لهذا الغرض عدة معاصر في كل من دمشق، وبيروت، وحماه، وطرابلس[28]، وغيرها.

ومن الزيت صنع الصابون، فكانت مدينة القدس من أبرز مدن بلاد الشام التي ازدهرت فيها هذه الصناعة، حتى إن أربابها تحكموا في سعر الزيت المباع عندهم، بسبب قدرتهم الشرائية الكبيرة لهذه المادة[29].

لقد تفنن أصحاب الحرف في صناعة الصابون، فصنعوا الصابون المطيب الذي استعمل لغسل الأيدي، وكان يصبغ بالحمرة أو الصفرة[30]. ويظهر أن بلدة سرمين[31] كانت من أشهر مدن بلاد الشام التي اختصت في هذه الصناعة.

3- صناعة الدبس والنبيذ:

اشتهرت بلاد الشام بكثرة أشجار العنب، ونتج عن ذلك إقامة صناعتي الدبس والنبيذ، وكان الدبس على نوعين" ثقيل، وخفيف. والأول، أفضل من الثاني، وهذان النوعان صدرا إلى أوروبا حيث تم وضعهما في

= البلدان والممالك، مخطوط، ميكروفيلم، (مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم 302)، ورقة ب25؛ ربى أبو دلو، معاصر السكر في غور الأردن في القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين في ضوء المصادر التاريخية والمكتشفات الأثرية، رسالة ماجستير لم تنشر، (جامعة اليرموك، 1991م)، ص ص 9- 10.

(24) ربى أبو دلو، ص 23.

(25) ربى أبو دلو، ص 23.

(26) أ. اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق المتوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، (دمشق، دار قتيبة، 1985م)، ص 391.

(27) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين (ت 749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج 1، تحقيق أحمد زكي باشا، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1924م)، ص 26.

(28) ابن عساكر، علي بن الحسن (ت 751هـ/1175م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، (المجلد الثاني، القسم الأول)، (دمشق، مطبوعات المجمع العلمي، 1954م)، ج 2، ص 255؛ فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 2، ترجمة كمال اليازجي، ط 2، (بيروت، دار الثقافة، 1972م)، ص 278.

(29) العليمي، مجير الدين (928هـ/1522م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (2 جزء في مجلد)، (بيروت، دار الجيل، 1973م)، ج 2، ص 356.

(30) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (ت 779هـ / 1377م)، رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأبصار وعجائب الأسفار)، تحقيق علي المنتصر الكتاني، (2 جزء)، ط 2، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1979م)، ج 1، ص 56.

(31) سرمين: بلدة من أعمال حلب. ياقوت، ج 3، ص 215.

براميل خاصة لذلك، وكان يمزج الدبس الخفيف ثم يوضع في أقداح، ويتناول مع الخبز[32].

كما صنع من الدبس حلواء الملبن والتي عرفت "بجلد الفرس" ، وقد وصف ابن بطوطة كيفية صناعتها، وذلك بوضع الدبس في التربة إلى أن يجمد، ثم تكسر النواة التي فيه، ويضاف إليه الفستق واللوز[33].

أما صناعة النبيذ، فهي مشهورة في بلاد الشام، فكانت بيت راس[34] واذرعات[35] واللد وبيسان[36] وبقاع لبنان من المناطق التي امتازت فيها هذه الصناعة، وكان يسمح بتناولها في حانات خاصة مقابل ضريبة معينة عرفت بضريبة المغاني[37].

4- طحن الغلال:

انتشرت الأرحية في مختلف بلاد الشام، حيث تواجدت قرب الأنهار ومجاري المياه، وكانت تستخدم لطحن الحبوب بمختلف أنواعها، إذ اعتمدت في حركتها على جريان المياه[38]. وهناك بعض الطواحين كانت تعمل بواسطة الرياح، كالطاحون التي وجدت في اللاذقية، وقد وصفها ابن الجيعان بأنها أعجوبة إذ كانت تدور باتجاه الرياح، ويطحن بها على عادة طواحين الفرنج، وهي من بناء رجل من أهل اللاذقية كان قد أسره الفرنج أثناء إغارتهم على المدينة، حيث اطلع على شكل الطواحين في بلادهم، ولما عاد إلى اللاذقية بنى واحدة مثل تلك الطواحين، فكانت تطحن في اليوم والليلة اثنا عشر إردباً[39] بالكيل المصري[40].

5- صناعة البلسم:

اشتهرت بلاد الشام وخاصة فلسطين[41] ومنطقتي عجلون والأغوار[42] بزراعة شجر البلسان، ويبلغ طول شجرته في المتوسط ثلاثة أمتار تقريباً، وامتاز بساقه الناعمة، وأوراقه الصغيرة، واستخرجت عصارة البلسان بإحداث شقوق في لحاء الشجرة، أو بنزع ورقها، فما تلبث حتى يسيل السائل السحري، فيتم

(32) راوولف، ليونهارت، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين سنة 1573م، ترجمة سليم طه التكريتي، (بغداد، دار الحرية، 1978م)، ص 84.

(33) ابن بطوطة، ج 1، ص 78.

(34) بيت راس: بلدة في شمال الأردن على بعد 5كم شمال مدينة إربد.

(35) أذرعات: بلدة في أطراف الشام بجوار أرض البلقاء وعمان. ياقوت، ج 1، ص 520.

(36) بيسان: مدينة بالأردن تقع بالغور الشامي وهي ما بين حوران وفلسطين. ياقوت، ج 1، ص 527.

(37) مغلطاي، إبراهيم (ت بعد 732هـ/ 1331م)، تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها، مخطوط ميكروفيلم، (مركز الوثائق والمخطوطات، ومكتبة الجامعة الأردنية رقم 1042، وهو صورة عن مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية في باريس تحت رقم 400)، ورقة 16أ؛ ابن حجر، شهاب الدين (ت 852هـ/1448م)، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، (9 اجزاء)، ط 2، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1986م)، ج 4، ص 54.

(38) الإدريسي، محمد بن عبدالله (ت 560هـ/1164م)، من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (سورية ولبنان وفلسطين والأردن)، تحقيق إبراهيم شوكة، (مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 30، 1979م)، ص ص 15- 17.

(39) الإردب: مكيال مصري يعادل (69/6 كغم) من القمح أو (56 كغم) من الشعير، وحوالي (90 لتراً). هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، (منشورات الجامعة الأردنية، 1970م)، ص 58.

(40) ابن الجيعان، بدر الدين (ت 902هـ/1496م)، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، أو (رحلة قايتباي إلى بلاد الشام 882هـ/1477م)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 1، (بيروت، جروس برس، 1984م)، ص ص 58- 59.

(41) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م)، ص 120.

(42) يوسف غوانمه، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم الحضاري)، (عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، 1979م)، ص 110.

جمعه في أوان وقدور خاصة، وبعد ذلك تسد الشقوق خوفاً من نزيف العصارة وموت الشجرة، ثم توضع العصارة في وعاء واسع، وتعرض لأشعة الشمس حتى يطفو الزيت وتهبط الشوائب، ثم يؤخذ الزيت ويغلى على النار، فيكتسب لوناً أحمر جذاباً، ويسمى عندئذ (دهن البلسم)، وهو أرقى أنواع البلسم وأغلاها[43].

وكان دهن البلسم مقدماً لدى رجال الدين المسيحيين حيث استعملوه في طقوسهم الدينية، كما كان من العقاقير الطبية الهامة، فقد استعمل في علاج العديد من الأمراض، كحصر البول، وتفتيت الحصا في المثانة، وتطهير الجروح، وغيرها[44].

6- **صناعة الورق:**

انتقلت هذه الصناعة من الصين إلى بلاد الإسلام، فقد تعلم المسلمون من الصينيين كيفية صناعة الورق، وذلك بطحن الألياف النسيجية في الأجران الحجرية، كما عرفوا طرق تحليلها الكيميائي. وتعلموا منهم أيضاً صناعة الورق اللاصق بالغراء النشوي، أو حشوه بالدقيق النشوي[45].

لقد كانت بلاد الشام من بين الأقاليم التي سادت فيها هذه الصناعة، فكان الحرير والقطن هما المادة الأولية التي قامت عليهما هذه الصناعة، لذا انتشرت مصانع الورق في كل من دمشق وحماه ومنبج[46] وطرابلس[47].

ويظهر أن المسلمين أبدعوا في هذه الصناعة، ففي مدينة طرابلس وصف ناصر خسرو إعجابه بهذه الصناعة بقوله: "ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه"[48]. لكن شهرة صالحية دمشق فاقت غيرها في هذه الصناعة، إذ لم يكن يصقل إلا بها، ومنها كان يصدر الورق إلى مختلف الأقطار[49].

والجدير ذكره أن الورق في بلاد الشام قد تعددت أنواعه، فالورق الشامي استخدمه أعيان أهل الشام، أما الورق الحموي والورق الأحمر الشامي والورق الأبيض، فاستخدمه سائر نواب بلاد الشام في مراسلاتهم باستثناء نائبي دمشق والكرك اللذين كتبا على الورق الأحمر الشامي، وهي عادة جرت منذ زمن الملك العادل (596- 615هـ/ 1200-1218م)[50].

7- **صناعة المنسوجات:**[51]

اشتهرت بلاد الشام بهذه الصناعة، وهي على

---

(43) نعيم زكي فهمي، ص 207.

(44) نعيم زكي فهمي، ص ص 206- 210.

(45) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255هـ/869م)، التبصر بالتجارة، تحقيق حسن عبد الوهاب، ط 2، (بيروت، دار الكتاب الجديد، 1983م)، ص 36؛ اشتور، ص 117.

(46) منبج: مدينة قديمة بينها وبين الفرات 18 كم تقريباً، وبينها وبين حلب 60 كم تقريباً.
ياقوت، ج 5، ص 206.

(47) الحصيني، محمد أديب، منتخبات التواريخ لدمشق، (3 اجزاء)، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979م)، ص 1139؛ اشتور، ص 117.

(48) خسرو، ناصر (ت 481هـ/1087م)، سفرنامة (رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن = الخامس الهجري)، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، ط 2، (بيروت، دار الكتاب الجديد، د.ت)، ص 48.

(49) ابن طولون، محمد بن علي (ت 953 هـ/1946)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، (2 قسم)، (دمشق، مطبوعات لمجمع اللغة العربية 1980-1981م)، ق 2، ص 58.

(50) القلقشندي، ج 6، ص 183، ج 8، ص ص 56، 173؛ ابن شاهين، غرس الدين (ت 872هـ/1467م)، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، (باريس، المطبعة الجمهورية، 1984م)، ص ص 131- 132.

(51) النساج: أصل هذه الكلمة مأخوذ من نسج الثوب، وتعرف الصنعة بالنساجة، والمكان بالمنسج، والمنسج بكسر الميم هي الأداة التي يمد عليها النساج كما يسمى النساج بالدراع. ابن منظور، مادة نسج.

أنواع، منها: حياكة[52] القطن وهي أكثر من صنف مثل: حياكة العمائم[53] والفوط[54]، واللحف[55]، وغيرها[56]. وكان يعتمد في صناعة القطن على بعض الأشجار الوردية أو الجوزية. ويظهر أن بعلبك والكرك ودمشق كانت من أشهر المدن الشامية التي سادت فيها هذه الصناعة[57].

وإلى جانب حياكة القطن كانت حياكة الكتان، وهي أكثر من عشرة أصناف، غير أن أجودها ما تم تصنيعه في دمشق، كالسمط وهو من نسيج الأزرق المصمت، والظهور وهو من النسيج الملون، والتفاصيل وهو من نسيج الكتان والحرير[58]. أما النوع الثالث من الحياكة، فكان حياكة الحرير، وهي أكثر من أربعين صنفاً[59].

والجدير بالذكر أن معظم ما صنع كان خاصاً بالنساء مثل اللباس والمناديل والقمصان، فمنها ما اقتصر على الحرير وحده، أو القطن والحرير، أو الحرير والكتان، أو الحرير والذهب، أو الحرير والفضة[60].

ويظهر أن هذه الصناعة اعتمدت في قيامها على دودة القز التي تم نقلها من الصين، حيث تم تربيتها في بيروت وصيدا وطرابلس، ولهذه الغاية أقيمت مصانع الحرير في كل من صور وحلب ودمشق، لكن أفضل الحرائر ما صنع في صور، كما ازدادت أهمية هذه المدينة لقربها من البحر مما سهل تصديرها إلى الغرب[61].

لقد شاهد راوولف Rowalf صناعة الحرير قائمة في أسواق بلاد الشام، فوصف طريقة صناعتها بقوله: " وهكذا تجد في الأسواق عدداً كبيراً من صانعي الحرير الذين يصنعون مختلف المطرزات الحريرية بألوان متباينة، وهم يمارسون أعمالهم هذه أمام حوانيتهم، حيث تجد الواحد منهم حين يريد برم خيوط الحرير يمسك بخيطين يربط أحدهما بإحدى قدميه ثم يبدأ بيرمه"[62].

أما حياكة البسط، فكانت مادتها الأولية تستورد من مصر وبلاد الروم[63]، واشتهرت بها كل من الكرك والشوبك[64] وأعناك[65]، وهذه الأخيرة تعد من أقدم من اختص بهذه الصناعة، فكانت

---

(52) الحياكة: نسبة لمن ينسج خيوطاً من غزل أو حرير أو صوف أو كتان، وصانعها يقال له (حائك)، والصنعة (الحياكة)، وآلتها يقال لها (النول) و(المنوال). محمد سعيد القاسمي، وآخرون، قاموس الصناعات الشامية ، 2 جزء، تحقيق ظافر القاسمي، ط 1، (دمشق، دار طلاس ، 1988م)، ج 1، ص 86.

(53) العمائم: مفرد عمامة، وهي لباس الرأس. ابن منظور، مادة عمم.

(54) الفوط: جمع فوطة، وهو ثوب من الصوف. ابن منظور، مادة فوط.

(55) اللحف: هو الثوب سواء كان سمطاً او مبطناً حيث يوضع فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه. ابن منظور، مادة لحف.

(56) ابن المبرد، جمال الدين يوسف (ت 909هـ/1503)، الحسبة، نشر حبيب زيات، (مجلة المشرق، 1937م)، ص 386.

(57) ابن طولون، محمد بن علي (ت 953 هـ/1946)، ضوء السراج فيما قيل في النساخ، تصحيح ودراسة ليلى الصباغ، (المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، 1978م)، ص ص 79، 84.

(58) ابن المبرد، الحسبة، ص 386؛ ابن طولون ، ضوء السراج، ص 84.

(59) ابن المبرد، الحسبة، ص 386؛ ابن طولون ، ضوء السراج، ص ص 79، 84.

(60) غستون دوكسوسو، تاريخ الحرير في بلاد الشام، (مجلة المشرق، مجلد 15، عدد 4، 1912م)، ص ص 284- 287.

(61) راوولف، ص ص 33- 34.

(62) راوولف، ص 34.

(63) ابن طولون ، ضوء السراج، ص 79، 84.

(64) ابن إياس، محمد أحمد (ت 930هـ/ 1523م)، نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط، ميكروفيلم، (مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم 872، صور عن المكتبة البريطانية رقم 7503)، ورقة أ 68؛ كامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، (2 جزء)، ط 1، (عمان، مطبعة التوفيق، 1983- 1985م)، ص ص 137- 138

(65) أعناك: بلدة في نواحي حوران تابعة لدمشق. ياقوت، ج 1، ص 222.

ترسم على بسطها أشكال ونقوش جميلة عبرت عن مدى ما وصلت إليه هذه الصناعة من إتقان(66).

ولأهمية صناعة البسط في بلاد الشام أوصى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (764-783هـ/1362- 1381م) عند ذهابه للحج بصناعة الأبسطة في الكرك، وإرسالها إلى القاهرة لتفرش بدار العدل في قلعة الجبل، لكن السلطان قتل قبل إتمام صناعتها، ثم لما تولى السلطان الظاهر برقوق السلطنة (784- 801هـ/1382- 1398م) أمر بإتمام صناعة البسط وإرسالها إلى القاهرة(67).

كما فرشت البسط بأنواعها المختلفة في المنازل، وكانت تنسج من الصوف(68). وإلى جانب البسط صنعت السجاجيد ذات الألوان المختلفة كالأبيض، والأخضر، والعسلي، حيث زينت بأشكال جميلة، كما بطنت ببطانات مطرزة بيضاء، وأضيف إليها (شراشيب) زرقاء مما زادها جمالاً. ويبدو أن حوران كانت من أبرز بلدان الشام شهرة في هذه الصناعة(69).

واشتهرت القدس وطرابلس بصناعة النطوع(70) التي خصصت للجلوس، وكان يصنع من الادم (الجلد)، ثم أضيف إليه قطعة بساط في وسطه(71).

أما حياكة الصوف، فمعظم مادته الخام استوردت من أوروبا، وكان أكثر من عشرين صنفاً، كالمغربي الذي صنع من الصوف والحرير. بالإضافة لذلك وجد في بلاد الشام حياكة أصناف أخرى زادت على ألف نوع(72).

كما ازدهرت صناعة النسيج في بلاد الشام خلال القرن الثامن والعاشر الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فكانت تنسج في طرسوس وبيروت وغزة وقيسارية(73) وطرابلس وإنطاكية ودمشق، وما زاد عن الحاجة كان يصدر إلى الخارج(74).

وصبغت الملابس بألوان مختلفة، فانتشرت المصابغ الخاصة بذلك. ففي مدينة حماة مثلاً كان أكثر من مصبغة، فواحدة كانت في كفر بهم، وأخرى في ارجزا، ومجموعة أخرى من المصابغ كانت في قرية أفيون والطيبة(75).

وإلى جانب ذلك امتازت بعض المدن الشامية بصناعة السلع الكمالية مثل مدينة صور التي أنتجت المنسوجات الأرجونية والأقمشة المخملية والحريرية. غير أن دمشق فاقت على غيرها في هذه الصناعة. ففي أواسط القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي وصف الإدريسي هذه الصناعة بقوله: وهي "

(66) يوسف غوانمة، ص 88.

(67) ابن الصيرفي، علي بن داود (ت 900هـ/1494م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، (3 اجزاء)، (القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1970- 1973م)، ج 1، ص 114.

(68) محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، (حولية كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، 1985م)، ص 33.

(69) محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسي، ص ص 33- 34.

(70) النطوع: وهي الفراش. ابن منظور، مادة نطع.

(71) محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسي، ص 34.

(72) ابن المبرد، الحسبة، ص 386: ابن طولون ، ضوء السراج، ص ص 79- 80، 84.

(73) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط)، تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة ايام. ياقوت، ج 4، ص 421.

(74) ارشيبالد لويس، القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط (500- 1100م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د.ت)، ص 15.

(75) عبد الودود يوسف، طوائف الحرف الصناعية في حماة في القرن السادس عشر، (مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلد 19، 1969م)، ص 86.

جامعة لصنوف المحاسن، وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير، كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد، ويتجهز منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها، والمتباعدة عنها، ومصانعها في كل بلد ذلك عجيبة يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم، ويقارب ثياب دستر(76)، وينافس أعمال أصبهان، ويشف على أعمال طرز نيسابور، من جليل ثياب الحرير... وبدايع ثياب تنيس(77)، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة، ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس، ولا يقاومها مثال"(78).

ولا غرابة في ذلك فدمشق ضمت داراً للطراز كان يصنع فيها الخلع الحسنة ذات الرسوم البديعة بأشكال حيوانية وألقاب سلطانية(79)، وقد أثنى البدري على الصناعات النسيجية بقوله: "ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعدد نقوشه وضروبه ورسومه، ومنها عمل القماش الأطلسي بكل أجناسه وأنواعه، ومنها القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله، ومنها عمل القماش الأبيض القطن المصور لإحياء القصور وأموات القبور، وبها أيضاً عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه"(80).

كذلك اشتهرت حمص بقماشها الجيد، والذي فاق نظيره في صنعاء، كما نافس قماش الإسكندرية من حيث الجودة والإتقان(81).

وفي حلب ازدهرت صناعة المنسوجات بأصنافها الحريرية والقطنية، فضلاً عن صناعة الفراء غالية الثمن، والتي كانت تصنع في الغالب من جلود الحيوانات البرية(82). كما ذاع صيت إنطاكية لصنعها الملابس ذات الأصناف المختلفة، كذلك امتازت سرمين بصناعة الملابس القطنية الجيدة، التي نسبت إليها(83). أما بعلبك، فذاعت شهرة منسوجاتها، والتي عرفت بالبعلبكي نسبة لها(84).

ولم تقل طرابلس في شهرتها عن غيرها من المدن الشامية، ففي سنة (688هـ/1289م) وجد المماليك في طرابلس أربعة آلاف نول قرازة كانت تستخدم لنسج الأقمشة الصوفية والقطنية(85).

وعندما زار الرحالة الألماني جون بولونز Gon Bolonz مدينة طرابلس سنة (825هـ/1422م) ذكر أنه شاهد فيها ألف ومائتي حائك يصنعون المنسوجات الحريرية والمخملية، والتي استمرت صناعتها حتى العصر الحديث(86).

(76) دستر: لعلها هي التي ذكرها ياقوت باسم دستوا وهي بلدة بالأهواز تنسب إليها الثياب الدستوائية. ياقوت، ج 2، ص 300.

(77) تنيس، بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة. جزيرة ما بين الفرما ودمياط في مصر. ياقوت، ج 1، ص 459.

(78) الإدريسي، ص 14.

(79) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام)، ص ص 70- 71.

(80) البدري، عبدالله بن محمد (ت 887 هـ/ 1482م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، ط 1، (بيروت، دار الرائد العربي، 1980م)، ص 214.

(81) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام)، ص 125؛ القلقشندي، ج 4، ص 116.

(82) الحميري، محمد عبد المنعم (ت 900هـ/ 1514م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، 1975م، تحقيق إحسان عباس، (بيروت، مكتبة لبنان، 1975م)، ص 77.

(83) ابن بطوطة، ج 1، ص 38؛ ابن إياس، نشق الأزهار، ورقة ب71.

(84) ابن بطوطة، ج 1، ص 100؛ الحميري، ص 38؛ ابن إياس، نشق الأزهار، ورقة ب 71.

(85) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ /1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء الأولى (1- 2) تحقيق محمد مصطفى، (القاهرة، مطبعة دار الكتب، لجنة التأليف والترجمة، 1970م- 1972م)، ج 1، ق 3، ص 748.

(86) فيليب حتى، مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد جرجس، ط 1، (بيروت، دار الثقافة، 1967م)، ص 157.

وما دمنا قد تحدثنا عن الأقمشة والثياب فلا ينبغي أن نغفل الأصبغة النباتية وأهمها النيلة والقرمس أو (القرمز)[87] والزعفران[88]، إذ استخدمت للتلوين بالأزرق والأحمر والأصفر على التوالي. وكانت النيلة تزرع في زغر وبيسان، كما زرع في الشام أيضاً العصفر والزعفران الذي عرف بالورس، أما القرمس أو (القرمز)، فكان يجلب من أرمينية إلى بلاد الشام ليستعمل في تلوين الأقمشة الصوفية، ومعظم من عمل بهذه المهنة كانوا من اليهود[89].

8- صناعة الحصر[90] والحبال:

اعتمدت صناعة الحصر في بلاد الشام على السامان[91] الذي كثر وجوده في بيسان، كما صنع من نبات الحلفا، ونبات الكتان والقنب، ونبات قصب السكر، وبعد جمع هذه المواد كانت تصبغ بمختلف الألوان، ثم تشد بعضها إلى بعض بخيوط الكتان[92].

هذا وتعد طبرية من البلدان الشامية التي ذاعت شهرتها في هذا المجال، فقد وصفت حصرها السامانية بأنها عجيبة[93]. كما اشتهرت الكرك بهذه الصناعة فعرف (بالكركر أو الكركي)[94].

أما صناعة الحبال، فاعتمد تصنيعها على قصب القنب[95]، حيث يتم تقطيعه، ونقعه بالماء إلى أن يتم تحليل لحاؤه، فيؤخذ اللحاء ويجفف، ويمشط بالحديد حتى يصبح كالحرير، فيصنع منه الحبال بواسطة دواليب خاصة لذلك[96].

9- صناعة العطور:

عمت هذه الصناعة معظم المدن الشامية، فهي لا تحتاج إلى معدات ضخمة أو دقيقة، بل إلى آلات خفيفة[97]، فالعامل يستطيع أن ينتقل من مكان لآخر ومعه أدوات حرفته حيث يمارسها بكل يسر وسولة.

ويبدو أن دمشق كانت من أبرز المدن الشامية شهرة بهذه الصناعة، إذ صنعت في قرية المزة[98]، ومنها حملت إلى سائر البلاد كالحجاز والهند والصين، وكانت أسعارها مرتفعة[99].

10- دباغة الجلود[100]:

تعد من الحرف المهمة التي وجدت في بلاد الشام، فمنها كانت تصنع سروج الخيل[101] والقرب[102]

(87) القرمس: ويعرف بالقرمز: كلمة فارسية معربة وهو صبغ أرمني أحمر. ابن منظور، مادة قرمز.

(88) الزعفران: صبغ من الطيب.ابن منظور، مادة زعع.

(89) بنيامين، ص 95، 104، 107؛ نقولا زيادة،تجارة، ص ص 120- 121.

(90) الحصير: الجمع حصر، وهو البساط المصنوع من النبات، وعرف حصيراً لأن بعضه حصر على بعض أي حبس، ويقال للصغير منها الذي تسميه العامة السجادة. ابن منظور، مادة حصر.

(91) السامان: فارسي ولم تعرفه العرب، والسامان في الفارسية الحد، لأنه يبسط في أول حدود البيت. ابن منظور، مادة سام.

(92) الإدريسي، ص 11؛ محمد سعيد القاسمي، ج 1، ص ص 98- 99.

(93) ابن الوردي، زين الدين عمر (ت 749هـ/1348م)، تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، تحقيق أحمد = رفعت البدراوي، ط 1، (مصر، مطبعة البابي الحلبي، د.ت)، ص 41.

(94) محمد سعيد القاسمي، الصناعات الشامية، ج 1، ص ص 90- 91.

(95) قصب القنب: يزرع كسائر الحبوب، فيبذر حبه في أوائل فصل الربيع ويزرع. وحبه يعرف ب"القنبس" ثم يسقى بالماء على فترات فينبت، ثم يقطف في شهر أيلول. محمد سعيد القاسمي، ج 1، ص 90.

(96) يوسف غوانمة، ص 86.

(97) شيخ الربوة، ص 195.

(98) المزة: قرية كبيرة غرب دمشق على مسافة 3 كم تقريباً. ياقوت، ج 5، ص 122.

(99) شيخ الربوة، ص ص 195- 198.

(100) دباغة الجلود: ويتم ذلك بتنظيف الجلود وإزالة الشعر عنها، وذلك بطرق مختلفة. محمد سعيد القاسمي، ج 1، ص ص 140- 141.

والروايا[103] والأحذية والمحافظ والفراء، وغيرها[104] ويظهر أن هذه الصناعات قامت بالقرب من ضفاف الأنهار، ففي مدينة دمشق كانت المدابغ الخاصة بهذه الصناعة تقع على ضفة نهر قويق[105]. وغالباً ما دبغت تلك الجلود بألوان مختلفة، كالأبيض، والأحمر، والقرمزي، والمصفر[106].

11- صناعة المراكب:

ازدهرت صناعة المراكب في بلاد الشام نظراً لما واجهته من أخطار مستمرة، مما حتم على سلاطين المماليك الاهتمام بهذه الصناعة، رغم قلة المواد اللازمة لها[107]. ومع ذلك صنعت السفن بمختلف أشكالها: العسكرية والتجارية. وجلبت الأخشاب لها من سفوح جبال الشراة ومؤاب ولبنان وعجلون[108]، وكذلك من أوروبا والأناضول[109]. وقد انتشرت الصناعة على طول الساحل الشامي[110].

(ب) الصناعات المعدنية:

ازدهرت الصناعات المعدنية في بلاد الشام نظراً لتوفر المعادن الخاصة بذلك، وتمثلت تلك الصناعات فيما يلي:

1- صناعة السلاح:

ارتبطت صناعة السلاح في بلاد الشام بالأخطار الخارجية والمتمثلة في الغزو الصليبي والتهديد المغولي ثم العثماني، إضافة إلى الثورات والفتن الداخلية، الأمر الذي أوجب على سلاطين المماليك رعاية صناعة الأسلحة وتوفير ما يلزم لها.

اشتملت صناعة السلاح على صناعة السيوف[111]. وعدت مدينة دمشق أشهر مدن بلاد الشام في هذه الصناعة، فقد وصف لابروكييه **Labroukyeih** صناعة السيوف فيها بقوله: "إن سيوف دمشق خير السيوف، وأفضل ما يصنع (بسورية)[112]، ومن الطريف أن يرى الإنسان طريقة صقلها، فإنهم يستخدمون لهذا الغرض قطعة صغيرة من الخشب مثبتاً عليها قطعة من الحديد يمسحون بها النصل، وهكذا يسوونه كما يسوي فار النجار الخشب، ثم يسقون النصل، ويصقلونه، وتتم عملية الصقل بطريقة

---

(101) سروج الخيل: جمع سرج وهو ما يوضع على ظهر الخيل حيث يعلو فوقه الفارس. محمد سعيد القاسمي، ج 1، ص ص 83، 180.

(102) القرب: جمع قربة، وهي أوعية تصنع من جلود الحيوانات يوضع بها اللبن او الماء. ابن منظور، مادة قرب.

(103) الروايا: أوان للماء توضع على الإبل. ابن منظور، مادة روي.

(104) محمد كرد علي، ج 4، ص 206؛ محمد سعيد القاسمي، ج 1، ص ص 82- 83.

(105) نهر قويق: وهو نهر مدينة حلب، مخرجه من شناذر (قرية على ستة أميال من دابق) ثم يمر في حلب وقنسرين ثم المرج الأحمر فيفيض في أجمة هنالك. ياقوت، ج 4، ص 417.

(106) ابن منقذ، أسامة (ت 584هـ/1188م)، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، (أمريكا، مطبعة جامعة برنستون، 1930م)، ص 28؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام)، ص 113؛ كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، (3 اجزاء)، (حلب، المطبعة المارونية، د.ت)، ج 1، ص ص 104- 105.

(107) لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ترجمة سهيل زكار، ط 1، (دمشق، دار حسان، 1985م)، ص 76.

(108) يوسف غوانمة، ص 89.

(109) ابن واصل، جمال الدين (ت 697هـ/1299م)، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب (ج 2- 3)، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة، المطبعة الأميرية، 1975م)، ج 2، ص 127؛ العيني، بدر الدين (850هـ/1446م)، عقد الجمان في تاريخ الزمان، أحداث (648- 664هـ)، تحقيق محمد أمين، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م)، ص 427.

(110) لابيدوس، ص 76.

(111) يعود تاريخ صناعة السيوف في بلاد الشام إلى ما قبل الإسلام، فقد كانت مؤتة ومؤاب وبصرى أشهر من عرف هذه الصناعة. وأما في دمشق، فتعود إلى العصور الرومانية، لكن شهرتها ازدهرت ابتداء من القرن العاشر الميلادي. ياقوت، ج 5، ص 131، 220؛ القزويني، ص 275؛ عفيف بهنسي، صناعة السيوف الدمشقية، (أبحاث الندوة العالمية لتاريخ العلوم عند العرب، مطبعة جامعة حلب، 1977م)، ص 497.

(112) هكذا ورد في الأصل والأصح الشام.

ممتازة، بحيث إن الشخص عندما يصلح عمامته ينظر إلى نصله كما لو كان مرآة، ولم أر في حياتي نصالاً أقطع منها"[113].

كما وصف راوولف Rowalf فيما بعد هذه الصناعة إلى جانب صناعة السكاكين في دمشق بقوله: "وتعد السيوف والسكاكين التي تصنع في دمشق من خيرة الأسلحة وأكثرها شحذاً ورهافة، إذ في مقدورك أن تقطع بها قضيباً من الحديد إلى عدة قطع دون أن يؤثر ذلك في شحذ السكين"[114]. بالإضافة لذلك صنعت السيوف في كل من زحلة والشوير ودمة من لبنان[115].

وكانت تجمع المعادن لصناعة السيوف من بعض جبال لبنان وشمال الشام، ومن جوار دمشق، وبخاصة من مشارف حوران والقلمون[116]، كما استورد لها الفولاذ الهندي لتطبع منها النصال التي تميزت بصلابتها ومرونتها ورونقها البديع الرسم. ومن بلاد الشام انتقلت صناعة السيوف إلى أوروبا والأندلس، وذلك زمن الحروب الصليبية[117].

كما صنع في بلاد الشام الترس، وهو عبارة عن شكل مستدير محدب بعض الشيء كان يصنع من المعدن أو الخشب على مختلف أنواعه، وإذا ما صنع الترس من الجلد السميك عرف عند ذلك" بالدرقة"، ويبدو أن هذه الصنعة صدرت إلى العراق بدليل وجود كميات منها عثر عليها في الموصل تعود إلى عهد المماليك[118].

كذلك صنع في بلاد الشام المنجنيق، وهو عبارة عن آلة كبيرة الحجم مصنوعة من الخشب فيها جزء متحرك يدعى السهم، وهو عارضة خشبية طويلة في نهايتها ثقل معاكس، وفي الطرف المقابل كفة توضع القذيفة فيها لرميها، وكان أهم أنواع هذه المجانيق الزيار، والمنجنيق الأفرنجي، والمنجنيق السلطاني[119].

ومعظم هذه الصناعات وغيرها كانت تصنع في دمشق، ومنها تحمل إلى مختلف أنحاء بلاد الشام، فتحصن بها البلاد والقلاع. كما صدرت دمشق من سلاحها إلى مصر والعراق وبلاد الروم[120]. وقد مدح البدري هذه الصناعة بقوله:" وفيها (أي دمشق) تعمل صناعة السلاح بما فيها من الأعاجيب والاقتراح"[121].

ومن الأسلحة الأخرى النبال[122] والرماح[123] والقسي وغيرها، حيث برع صناع حلب في عملها[124]، فهؤلاء كانوا يحتفظون إلى جانب

(113) لابروكييه ، براترندون،رحلة برترانْدون دي لابروكييه إلى فلسطين، ولبنان، وسورية، (1432م) ترجمة محمود زايد، أيلول 1965م، (من مجلة الأبحاث ، جزء 3 ، السنة 15، أيلول 1965م)، ص 323.

(114) شحذ السكين: كانت طريقة شحذها تتم بدق شجرة الفلى ثم يخلط معها الدهن، وتطلى به المن، ثم يشحذ عليه السكين، وبعد تحسينها توضع في لاف يحفظها، وتبقى زمناً أطول حادة. ابن منظور، مادة شحذ.

(115) عبد الرحمن زكي، صناعة السيوف، (المجلة التاريخية المصرية، مجلد 6، 1956م)، ص 89.

(116) القلمون: قرية قرب دمشق. ياقوت، ج 4،ص 391.

(117) عفيف بهنسي، ص 503، 506.

(118) ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، (الهيئة = المصرية العامة للكتاب، 1972م)، ص ص 86- 87.

(119) علي أزاد، البينة النظرية لكتاب الأنيق في المناجيق لابن ابقا الزردكاش، (دراسات تاريخية، عدد 33- 34، كانون الأول، 1989م)، ص 144.

(120) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام)، ص ص 111- 113؛ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت 774هـ/1372م)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد ابو ملحم وآخرين ، جزء 14، ط 1، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1985م)، ج 13، ص 335، ج 14، ص 71.

(121) البدري، ص 214.

(122) النبل: هي السهام العربية، وهي مؤنثة. ابن منظور، مادة نبل.

(123) الرماح: جمع رمح وهو من السلاح. ابن منظور، مادة رمح.

(124) ياقوت، ج 4، ص 153.

حوانيتهم بمحلات صغيرة تمارس فيها الرمي والتهديف، لذا كان بإمكان كل شخص أن يجرب حظه في التهديف أو أن يختبر سهمه قبل أن يشتريه، ومعظم السهام كان صنعها بسيطاً، لكن بعضها كان يحتاج إلى درجة عالية من الخبرة حيث تفنن الصناع في تجميله، وذلك باستخدام العاج وقرون العظام وغيرها، مما جعلها غالية الثمن[125].

وفي أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عرف المماليك استعمال البارود، وفي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي صنعوا الأسلحة النارية كالمدافع وغيرها[126].

ولجودة صناعة السلاح وحسن إتقانه في بلاد الشام فقد كان من ضمن الهدايا التي أرسلها بعض سلاطين المماليك إلى ملوك الدول الأخرى، فمثلاً كان من الهدايا التي بعثها السلطان الظاهر بيبرس (658- 676هـ/ 1260- 1277م) إلى سلطان المغول في تركستان قسي حلق دمشقية[127].

2- **صناعة الزجاج:**

يرجع تاريخ صناعة الزجاج في بلاد الشام إلى العصر الروماني، إلا أنها ازدهرت في العصر الإسلامي، حيث أنشئت المصانع الخاصة بها في معظم مدن بلاد الشام مثل: دمشق وحلب وصور وعكا وإنطاكية[128].

وكان زجاج دمشق مضرب المثل فقيل فيه: "وفيها الزجاج الذي يشبه به كل شيء، رقيق فيقال على ألسنة الأنام أرق من زجاج الشام"[129] ولفتت جودة صناعة الزجاج في دمشق نظر ابن بطوطة حتى وصفها بالعجيبة[130].

أما حلب، فعرف زجاجها بالنمط الحلبي، لكونه مذهباً ومموهاً بالمينا، فكان من يدخل سوق الزجاج لا يحب الخروج منه لشدة ما يبهره من جمال الأواني المزخرفة بذوق عجيب، حتى إن بعضها كان ينقل إلى كافة الأقطار للتهادي بها[131].

ومن الزجاج صنعت أواني الشراب والقوارير والقناديل والمصابيح الزجاجية التي زينت بالمينا، حيث تخللها حروف مرسومة بالألوان الوردية ذات الأشكال البديعة. وفي أغلب الأحيان كانت تزخرف الأواني الزجاجية بالرنوك أو الشارات الوظيفية وهي علامات اتخذها بعض السلاطين والأمراء المماليك كشعارات يعرفون بها كالنسر أو الأسد أو غيرهما[132]. كما صنعت من الزجاج المرايا المدببة التي إذا وجهت إلى أشعة الشمس فعكستها على خشبة أحرقتها، ولو كانت تبعد عنها نحو أربعة أمتار تقريباً[133]. ومن بلاد الشام نقل البنادقة معهم صناعة الزجاج إلى أوروبا[134]. كما يوجد في بعض المتاحف الغربية كثير من القطع الصناعية التي تعود للعصر

(125) راوولف، ص 78.

(126) نقولا زيادة ، دمشق في عصر المماليك ، (بيروت، نيويورك مكتبة لبنان بالاشتراك مع موسسة فرانكلين ، 1966م)، ص 58.

(127) ابن عبد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط 1، (الرياض، د.ن، 1976م)، ص ص 172- 173.

(128) محمد العش، الزجاج السوري المموه بالمينا والذهب في العصر الوسيط، (مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلد 16، جزء 1، 1966م)، ص ص 45- 46.

(129) ابن الوردي، ص 209.

(130) ابن بطوطة، ج 1، ص 107.

(131) القزويني، ص ص 183- 184.

(132) هناء عبد الخالق، الزجاج الإسلامي في متاحف ومخازن الآثار في العراق، (بغداد، دار الحرية، 1976م)، ص 83؛ محمد العش، ص 49.

(133) نقولا زيادة، رواد الشرق في العصور الوسطى، ط 1، (هدية المقتطف، 1943م)، ص 197.

(134) محمد كرد علي، ج 4، ص 218؛ محمد العش، ص ص 55- 56.

المملوكي، ويعلق سعيد عاشور على ذلك بقوله: "... وما زالت الكؤوس والأباريق والقوارير والمشكايات الباقية من ذلك العصر تعتبر من أجمل ما تزدان به المتاحف العالمية؛ ومن أمثلتها دورق من الزجاج المموه بالمينا محفوظ في متحف برلين، والمينا عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، وعليه تذهيب ما زال محتفظاً ببريقه، وعلى رقبته كتابة بالخط الثلث الجميل"[135].

(ج) صناعات أخرى:

عرفت بلاد الشام صناعات أخرى غير التي ذكرت سالفاً مثل صناعة الأواني الخشبية والملاعق والقدور والجرار والزبادي وغيرها[136]. ومن الحديد صنعت بعض الأبواب والشبابيك والموازين وبعض الأدوات الزراعية[137]. كما عرفت بلاد الشام صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع، حيث صنعت منه النقود والحلي والخواتم والمزهريات والتماثيل وصغار الحراب والسلاسل الرقيقة ونحو ذلك[138].

ومن الصناعات التي ازدهرت في بلاد الشام أيضاً صناعة الفضة، حيث اشتهرت بها بعض مدن الشام مثل القدس التي صدر قسم كبير منها إلى مختلف الأقطار[139]. ومن الذهب والفضة كانت ترصع المصنوعات المعدنية كالطسوت[140] والأباريق والمصابيح وغيرها[141].

أما صناعة النحاس، فلم تقل شأناً عن غيرها من الصناعات الأخرى، إذ كانت تبهر من رآها[142]، وصنع منها بعض أدوات العمارة الدينية والمدنية الهامة، فمثلاً باب جيرون أحد أبواب الجامع الأموي في دمشق كان مصنوعاً من النحاس، والحلقتان اللتان على بابي المستشفى النوري في دمشق كانتا أيضاً مصنوعتين من النحاس[143]. كما استخدم النحاس في صناعة الأدوات المنزلية، وقد زادتها جمالاً تلك النقوش البسيطة والكلمات أو بعض الحيوانات التي حفرت عليها[144]. كذلك أجاد صناع الشام عمل الشموع المستمدة من المصادر الحيوانية والنباتية غير أن شمع النحل كان أكثرها شهرة وطلباً[145].

فضلاً عن ذلك اشتهرت بلاد الشام بصناعة الرخام ذي اللون الأبيض والأخضر الموشى والمزخرف، حيث استخدم الرخام في تزيين المدارس والمساجد. ومن صناعة القرميد كانت تغطى سفوح المنازل، وبالكلس[146] شيدت البيوت، وبيضت من الداخل والخارج[147]. وفي بعلبك صنع الدهان الجيد وصدر

(135) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، (بيروت، دار النهضة العربية، د.ت)، ص 315.
(136) أبو الفداء، ص 263؛ ابن بطوطة، ج 1، ص 100.
(137) محمد كرد علي، ج 4، ص ص 214- 215.
(138) البدري، ص 214؛ نقولا زيادة، تجارة، ص ص 114- 115.
(139) ابن شاهين، ص 23.
(140) كالطسوت: كلمة فارسية، وهي الأواني الصفراء، لعلها كانت تصنع من النحاس. ابن منظور، مادة طست.
(141) ص، ي، الصناعة السورية زمن الحرب الصليبية، (مجلة المقتطف، مجلد 33، جزء 3، آذار، 1908م)، ص 205.
(142) البدري، ص 215.
(143) ابن طولون، محمد بن علي (ت 953 هـ/1946): قرة العيون في أخبار باب جيرون، تحقيق صلاح الدين المنجد، (دمشق، د.ن، 1964م)، ص 7.
(144) محمد كرد علي، ج 4، ص 214.
(145) محمد عيسى صالحية، الإضاءة في المدينة الإسلامية، (بيروت، دار الحداثة، 1983م)، ص 75.
(146) الكلس: ما طلي به حائط أو باطن قصر شبه الجص من غير آجر. ابن منظور، مادة كلس.
(147) ابن الشحنة، حسين بن محمد (ت 890هـ/ 1467م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، (دمشق، دار الكتاب العربي وعالم التراث، د.ت) ص 263.

منه إلى معظم الأنحاء[148].

كما أبدع أصحاب الحرف في بلاد الشام بصناعة الساعات العجيبة، فعلى أحد أبواب الجامع الأموي في دمشق علقت واحدة منها، إذ تكونت من عصافير مصنوعة من النحاس ووجه حية وغراب وحصاة، فإذا ما مضت ساعة من الوقت خرجت الحية، وصفرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة[149]. وقد دل ذلك على ما وصلت إليه هذه الصناعة من دقة وإتقان.

وهكذا لاحظنا أن الصناعات الشامية اشتهرت وتنوعت في العصر المملوكي، حيث نقلها بعض السلاطين المماليك إلى مصر، فمثلاً طلب السلطان الأشرف بن شعبان (764- 783هـ/1362- 1381م) كثيراً من الصناعات الشامية للعمارة التي أنشأها بالرميلة قرب قلعة مصر، فما كان من نائب دمشق إلا أن جمع عدداً من المعدات مثل: المفاتيح والحلق[150] والمسامير وغيرها برسم القباب، وكان وزن ذلك اثني عشر قنطاراً من الذهب والفضة، عدا النحاس المطعم بالذهب والفضة، وقد حمل جميع ذلك للقاهرة على مئة وستين جملاً[151].

وبعد أيام ورد إلى نائب دمشق مرسوم آخر من قبل السلطان نفسه يطلب فيه مجموعة من الصناعات خاصة بالحريم والخيل والإبل وما يتعلق بالسفر للحج. لذا طلب نائب دمشق تجار دمشق وطرح عليهم هذه الأصناف، ثم طلب الصناع، وأخرج لهم الذهب والفضة وأمرهم أن يصنعوا ذلك، فصنعت الإبر المذهبة برؤوس لؤلؤ، وإبر فضة برؤوس ذهب، وعددها ثلاثة آلاف، وسلاسل ومخاطم[152] للإبل، وغير ذلك الشيء الكثير، حيث امتدت هذه الخزائن من دمشق إلى القاهرة، فأول خزانة كانت بالقاهرة، والثانية بغزة، والثالثة بالغور، والرابعة خارجة من دمشق، والخامسة في أيدي الصناع[153].

توزيع الصناعات:

لم يختلف تنظيم الحرف في بلاد الشام عن سائر الحرف في المدن الإسلامية الأخرى، إذ اختصت كل حرفة بصنع أو بيع سلعة واحدة فقط، وقد جاء ترتيبها على النحو التالي: فأقرب الحرف إلى الجامع كانت أسواق الشماعين، وذلك لحاجة الجامع إلى الإضاءة بالشموع، وبعدها كان يأتي سوق العطارين، وسوق الطيبين (باعة البخور)، وسوق القباقبية لأجل الوضوء، ثم تتابع الأسواق في البعد عن مركز المدينة والجامع، فتبتعد أسواق الدباغين، والصباغين، والسراجين، والحدادين، والنجارين عن الجامع، وذلك حرصاً على راحة المصلين[154].

---

(148) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار (ممالك مصر والشام)، ص ص 123- 124.

(149) الذهبي، شمس الدين (ت 748هـ/ 1347م)، تاريخ الإسلام، أحداث (681- 700هـ)، مخطوط، ميكروفيلم، (مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم 302، وهو صورة عن مخطوط محفوظ في المتحف البريطاني، تحت رقم 4857)، ورقة أ 46.

(150) الحلق: هو كل شيء استدار كحلقة الحديد والفضة والذهب. ابن منظور، مادة حلق.

(151) ابن طولون، محمد بن علي (ت 953 هـ/1946)، أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، (دمشق، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، 1964م)، ص 51.

(152) الخطام: كل حبل يعلق في حلق البعير ثم يعقد على أنفه، كان من جلد أو صوف أو ليف أو قنب، وجمعه الخطم. ابن منظور، مادة خطم.

(153) ابن طولون، أعلام الورى، ص ص 51- 52.

(154) ابن بطوطة، ج 1، ص ص 106- 107؛ ابن المبرد، نزهة، ص ص 22- 27.

كما أقيمت بعض الحرف قرب بعض مراكز المدينة كالقلعة مثلاً، وهي مرتبة حسب حاجتها مثل: سوق السلاح، وسوق السروجين، وغيرها من الأسواق الأخرى التي كانت تلبي حاجة الجيش(155).

لقد كان لهذا التخصص الحرفي حسناته وسيئاته، إلا أن إيجابياته كانت أكثر من سلبياته، فمن حسناته أن الدولة استطاعت السيطرة على الأسواق والوصول إليها بكل يسر وسهولة، وذلك من خلال موظفيها الذين خصصوا لهذه الغاية(156).

كما أن هذا الترتيب قد قلل كثافة المرور في شوارع المدينة، إذ ساعد المستهلك في الوصول مباشرة إلى سوق محدد دون الحاجة إلى التفتيش والبحث عن سلعة معينة في مختلف شوارع المدينة(157).

وفي الوقت نفسه خدم هذا الوضع المستهلك من الغلاء أو الاحتكار، فالتاجر لا يستطيع أن يرفع سعر بضاعته خوفاً من جيرانه المنافسين له في نفس البضاعة، وبالتالي يقل احتمال حدوث الاحتكار أو الزيادة في سعر السلعة(158). كما أن المشتري الذي لا تعجبه السلعة له الحرية في الانتقال إلى تاجر آخر بكل يسر وسهولة(159).

وحتى من ناحية التنظيم والترتيب فإن هذا الشكل أفضل من غيره، حيث أعطى منظراً جميلاً للمدينة، علاوة على ذلك فإن هناك طاقة إبداع وإتقان ظهرت لا مثيل لها من خلال هذا التوزيع(160)، فمثلاً كل صانع يحاول أن ينفق سلعته من خلال جودة عمله.

أما سلبيات هذا الترتيب، فأهمها أن المستهلك إذا ما أراد شراء عدة أصناف من السلع كان عليه شق المدينة طولاً وعرضاً عدة مرات بحثاً عن تلك السلع المنتشرة في أنحائها(161).

وتولى المحتسب مراقبة تلك الصنائع لضمان جودتها، وكان يساعده في القيام بواجباته مجموعة من الأعوان أو العرفاء، وهم الوسطاء بين الدولة من جهة، وأرباب السلع من جهة أخرى، فكان على أرباب كل صنعة عريف(162)، وبهذه الطريقة سهل على المحتسب الاطلاع على الحرف بكل يسر وسهولة، فهؤلاء العرفاء كانوا يقدمون للمحتسب تفاصيل كاملة عن حرفهم، وما يجلب إلى سوقهم من سلع، وما تستقر عليه الأسعار(163).

فضلاً عن ذلك، كان لكل حرفة شيخها الذي تعينه السلطة أو تعترف به، وهو يمثل تلك

(155) ابن حجر، ج 6، ص 63؛ البدري، ص 36

(156) عبد العزيز الدوري، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، (مستل من مجلة كلية الآداب، بغداد، عدد 1 حزيران، 1959م)، ص 1؛ محمد عثمان، المدينة الإسلامية، (عالم المعرفة، الكويت، عدد 128، اب 1988م)، ص 331.

(157) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت 589هـ/1193م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط 2، (بيروت، لبنان، دار الثقافة، 1981م)، ص 11

(158) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، ط 1، (القاهرة، دار النهضة العربية، 1962م)، ص 86؛ زريف المعايطة، الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي (المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمان، 1990م)، ص 6.

(159) نعيم زكي فهمي، ص 282.

(160) ابن عبدون وآخرون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، (القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م)، ص 43.

(161) نعيم زكي فهمي، ص 282؛ سعيد عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1959م)، ص 213.

(162) قاسم عبده قاسم، الأسواق في مصر في عصر سلاطين المماليك، (مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 63-37، جزء 1- 2، 1974- 1975م)، ص 174.

(163) ابن بسام، محمد بن أحمد (ت بعد 884هـ/1474م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، (بغداد، مطبعة المعارف، 1968م)، ص ص 17- 18

الحرفة[164]، ومن هؤلاء الشيوخ جمال الحلبي (ت 704هـ/ 1304م)، وكان شيخاً للصاغة، وشرف الدين محمود العطار (ت722هـ/1322م)، وكان شيخاً لأسواق العطارين[165]، وأحمد الحموي، وكان شيخاً لسوق المرستان سنة 900هـ/ 1494م[166].

يتضح مما تقدم أن سكان بلاد الشام نجحوا في تأسيس صناعات عدة، نظراً لتوفر معظم المواد الخام، ولوجود الأيدي الماهرة والمدربة على إنتاج الصنائع، ثم توفر الأسواق الداخلية والخارجية الخاصة بتصريف تلك الصناعات.

ومن ناحية أخرى تعرضت الصناعة الشامية للضعف بعد أن استولى المماليك الجراكسة على الحكم (784 - 922هـ/1382- 1516م)، وما رافق ذلك من قيام حروب أهلية متصلة لربع قرن. وأدى ضعف الحكم إلى تشجيع البدو والتركمان على الثورة باستمرار[167]. كما زادت هجمات القراصنة الغربيين[168]، إضافة إلى ما أحدثه التتار من فساد في البلاد، ففي سنة 803هـ/1400م اجتاح تيمورلنك عينتاب[169] وحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، ملحقاً بهم الخراب والدمار والقتل والسبي، ونتج عن ذلك هروب أعداد كثيرة من الناس من بلاد الشام تاركين بضائعهم فيها، كما نقل التتار كثيراً من أصحاب الحرف المهرة إلى سمرقند مما كان له أكبر الأثر في تراجع الصناعة بشكل واضح[170].

وزاد المشكلة تعقيداً توقف الدولة عن دعم الصناعة، الأمر الذي أدى إلى توقف إنتاج بعض الصناعات، فمثلاً توقفت بلاد الشام عن صناعة الزجاج والخزف والقماش[171] ورافق ذلك كله انهيار النظام النقدي، وتكرار الغلاء والمجاعات[172].

---

(164) عبد العزيز الدوري، المؤسسات الحكومية، بحث في كتاب (المدينة الإسلامية) ترجمة أحمد محمد تغلب، (السيكومو فجر، اليونسكو، 1983م)، ص 61.

(165) الصقاعي، فضل الله (ت بعد 725هـ/1324م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبله، (دمشق، المعهد الفرنسي، 1974م)، ص ص 17، 188- 189.

(166) البصروي ،علاء الدين علي بن يوسف (ت 905هـ/1499م)، تاريخ البصروي، (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة 871هـ ولغاية سنة 904هـ) تحقيق أكرم حسن العلبي، ط 1 ، (بيروت، دار المأمون للتراث، 1988م)، ص 156

(167) ابن حجر، ج6، ص 230؛ المقريزي، السلوك، ج 4، ق 2، ص 678؛ ابن طولون ،محمد بن علي (ت 953 هـ/1946)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام)، تحقيق محمد مصطفى، (2جزء) (القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، 1962- 1964م) ، ج 1، ص ص 125، 240.

(168) ابن حجر، ج 2، ص 289، ج 5، ص 3؛ المقريزي، السلوك، ج 3، ق 2، ص 813، 1059، ج 4، ق 2، ص ص 665- 666، 882، 921؛ ابن الصيرفي، علي بن داود (ت 900هـ/1494م)، انباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، (القاهرة، دار الفكر العربي، 1970م)، -

- ص ص 441- 442؛ الأسكندراني، محمد بن قاسم (ت 775هـ/1372م)، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق ايتين كومن وعزيز سوريال عطية، (5 أجزاء)، (حيدر آباد الدكن، الهند، دائرة المعارف العثمانية، 1968- 1973م)، ج 1، ص 110؛ لابروكييه، ص 326.

(169) عينتاب أو عين تاب: قلعة منيعة وقرى ومزارع تقع بين حلب وإنطاكية. ياقوت، ج 4، ص 176.

(170) ابن عربشاه، شهاب الدين أحمد (ت 854هـ/1450م)، عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد الحمصي، ط 1، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986م)، ص ص 293- 295، 301؛ السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ/1496م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (12 جزء)، (القاهرة، مكتبة القدس، 1354هـ)، ج 3، ص ص 47- 48.

(171) لابيدوس، ص 68.

(172) عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط 3، (بيروت، دار الطليعة، 1980م)، ص ص 108- 109؛ اشتور، ص ص 389- 390؛ المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ /1441م)، النقود القديمة والإسلامية، تحقيق رأفت محمد النبراوي، (مجلة العصور، مجلد 3، جزء 1، يناير 1988م)، ص ص 141- 142.

كما كان لسياسة الاحتكار التي مارسها بعض السلاطين والأمراء المماليك أثر بالغ على تدهور الصناعة في بلاد الشام، فقد عانى صناع بلاد الشام ما كان يطرحه عليهم بعض السلاطين والأمراء المماليك من سلع معينة، وبمواصفات وأسعار متدنية. ففي سنة (786هـ/1471م) احتكر أحد أمراء حلب سوق الصابون، حيث أجبر جميع مصنعيه على بيع الصابون فقط، ومن ثم باع الكميات المتوفرة عنده بشروط خاصة. ولم يتوقف هذا بالرغم من صدور مرسوم سلطاني من قبل السلطان قايتباي سنة (882هـ/1477م) يمنع ذلك[173].

كذلك عانت الصناعة في بلاد الشام من منافسة السلع الخارجية، ففي سنة (832هـ/1428م) وصلت إلى دمشق شحنة من الأقمشة الصوفية قادمة من قبرص، حيث بلغت ثمانمائة ثوب، فطرح الثوب على التجار بثمانية عشر ديناراً، إضافة إلى دينار كلفة أجور ليصبح ثمنه تسعة عشر ديناراً، وعندما باعها التجار لم يتجاوز ثمن الثوب الواحد اثني عشر ديناراً، لذا خسر كل ثوب سبعة دنانير[174].

كما عانى أصحاب الحرف من الضرائب الكثيرة وخاصة في العصر المملوكي الثاني (784 - 922هـ/1382- 1516م)، ففي (محرم 897هـ/ تشرين ثاني 1491م) صدر الأمر بمصادرة صناع الحرير بدمشق، وأن يأخذ عن كل نول شيئاً معلوماً، لذا بلغ مجموع ما تم تحصيله خمسة عشر ألف درهم، على الرغم من احتجاج الصناع على ذلك القرار، إلا أن نائب دمشق لم يصغ لهم[175].

وأخيراً يبدو أن الصناعة في بلاد الشام تأثرت سلباً باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ففي العصر المملوكي الثاني (784 - 922هـ/1382- 1516م)، تحولت طريق التجارة العالمية بالدوران حول أفريقيا بدلاً من مرورها داخل أراضي الدولة المملوكية[176] مما حرم المماليك من مورد مالي كبير كان يجبى من تلك التجارة، ولكي تعوض الدولة ذلك المورد لجأت لزيادة الضرائب على أصحاب الحرف[177]، كما قل نشاط تلك الصناعات لقلة روادها من التجار الأجانب.

الخلاصة:

يظهر مما تقدم أن سكان بلاد الشام نجحوا في تأسيس صناعات عدة خلال العصر المملوكي (648- 922هـ/1250- 1516م)، نظراً لتوفر معظم المواد الخام، ولوجود الأيدي الماهرة والمدربة على إنتاج الصنائع، ثم توفر الأسواق الداخلية والخارجية الخاصة بتصريف تلك الصناعات.

وكانت أهم تلك الصناعات: صناعة السكر، والزيت والصابون والدبس والنبيذ وطحن الغلال والبلسم والورق والمنسوجات، و الحصر والحبال والعطور، ودباغة الجلود، والمراكب، وصناعة السلاح وصناعة الزجاج. بالإضافة إلى صناعة الأواني الخشبية والملاعق والقدور والجرار والزيادي وغيرها.

---

(173) ابن الجيعان، ص 70؛ لابيدوس، ص 104.

(174) المقريزي، السلوك، ج 4، ق2، ص ص 791- 792؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج 3، ص 146.

(175) ابن طولون، محمد بن علي (ت953 هـ/1946)، مفاكهة الخلان، ج 1، ص 146.

(176) علي الحسني، تاريخ سوريا الاقتصادي، (دمشق، مطبعة بدائع الفنون، 1342هـ)، ص ص 136- 137؛ نعيم زكي فهمي، ص 13، 145.

(177) ابن طولون ، مفاكهة ،ج 1، ص 146.

ولم يختلف تنظيم الحرف في بلاد الشام عن سائر الحرف في المدن الإسلامية الأخرى، إذ اختصت كل حرفة بصنع أو بيع سلعة واحدة فقط، وتولى المحتسب مراقبة تلك الصنائع لضمان جودتها، وكان يساعده في ذلك مجموعة من الأعوان أو العرفاء، فضلاً عن ذلك، كان لكل حرفة شيخها الذي تعينه السلطة أو تعترف به، وهو يمثل تلك الحرفة.

ومن ناحية أخرى تعرضت الصناعة الشامية للضعف في العصر المملوكي الثاني (784 - 922هـ/1382- 1516م)، ولعل أسباب ذلك تعود إلى الحروب الأهلية المتصلة لربع قرن. وقيام البدو والتركمان بالثورة. إضافة إلى هجمات القراصنة الغربيين، وما أحدثه التتار من فساد في البلاد، ونقلهم كثيراً من أصحاب الحرف المهرة إلى سمرقند مما كان له أكبر الأثر في تراجع الصناعة بشكل واضح.

وزاد المشكلة تعقيداً توقف الدولة عن دعم الصناعة، الأمر الذي أدى إلى توقف إنتاج بعض الصناعات، ورافق ذلك كله انهيار النظام النقدي، وتكرار الغلاء والمجاعات.

كذلك عانت الصناعة في بلاد الشام من منافسة السلع الخارجية، والضرائب الكثيرة. وأخيراً، يبدو أن الصناعة في بلاد الشام تأثرت سلباً باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، إذ قل نشاط تلك الصناعات لقلة روادها من التجار الأجانب.

بسم الله الرحمن الرحيم

قسيمة اشتراك

السادة / دار المريخ للنشر
ص. ب 10720 – الرمز البريدى : 11443
المملكة العربية السعودية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ..

نأمل التكرم بأعتماد اشتراكنا في مجلة العصور لمدّة .... سنة أعتباراً من .... وحتى .... ، وذلك بواقع .... نسخة، على أن ترسل من قبلكم إلى العنوان التالي: ....
....
....

ومرفق الشيك رقم .... بمبلغ .... قيمة الإشتراك.

التوقيع

....

تملأ هذه القسيمة وترسل على العنوان التالي:

دار المريخ للنشر.

- الرياض – المملكة العربية السعودية ص.ب : 10720 – الرمز البريدى : 11443
  فاكس: 4657939 هاتف : 4647531 / 4658523 + (009661)
  البريد الإلكترونى : Email: marspubl@zajil.net
- جمهورية مصر العربية – 4 شارع الفرات – المهندسين – جيزة
  تليفون : 3376579 / 7609971 (00202) فاكس : 7609457
  البريد الإلكترونى : Email: marspub@hotmail.com

المراسلات والاشتراكات لجميع الدول العربية والعالم يتفق بشأنها مع :

- الرياض – المملكة العربية السعودية ص.ب : 10720 – الرمز البريدى : 11443– فاكس: 4657939
- القاهرة – جمهورية مصر العربية 4 شارع الفرات – المهندسين – الجيزة– رمز بريدى : 12411– فاكس : 7609457

الاشتراكـــات السنوية :

الاشتراكـــات	السعر
«مائة ريال سعودي» داخل المملكة العربية السعودية	100 ريال سعودي
«خمسة وثلاثون دولار أمريكي» للبلاد العربية	35 دولار أمريكي
«أربعون دولار أمريكي» للدول الأوروبية	40 دولار أمريكي
«خمسة وأربعون دولار أمريكي» أمريكا وكندا	45 دولار أمريكي
«خمسون دولار أمريكي» أستراليا وجنوب شرق آسيا	50 دولار أمريكي
«مائة جنيهاً» داخل جمهورية مصر العربية	100 جنيهاً مصرياً

العصور، المجلد الخامس عشر، الجزء الثاني، 89 – 119 (2005م)

نماذج غير منشورة من الدوكات الذهبية البندقية المعاصرة للدولة العثمانية

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامي

ملخص البحث:

يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، بمجموعة كبيرة من الدوكات الذهبية البندقية، تُنشر لأول مرة بهذا البحث. والجديد فيه، أن هذه الدوكات ترجع إلى العصر العثماني بمصر، وهذه الفترة الزمنية لم يتناولها باحث من قبل، إذ إن الأستاذ الدكتور رافت النبراوي قد تناول في مقالة قيمة له بعنوان " الدوكات الذهبية البندقية المحفوظة في المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية"[1]، دراسة للدوكات المعاصرة لدولة المماليك البحرية.

كما تناولت السيدة الدكتورة قدرية السيد، في رسالتها بعنوان "الدوكات الذهبية البندقية وعلاقتها بالنقود المعاصرة لها في مصر والشام في العصر المملوكي الجركسى"[2]، أي دراسة الدوكات المعاصرة لدولة المماليك الجراكسة. بينما في هذا البحث أتناول فترة ما بعد المملوكي بدولتيه البحرية والجراكسة، أي دراسة الدوكات الذهبية البندقية المعاصرة للدولة العثمانية.

يبدأ البحث بتعريف الدوكات والمسميات المختلفة التي أُطلقت عليها، فقد أطلق عليها القلقشندي[3] لفظ مشخصة لوجود صور أشخاص على الوجه والظهر، فيقول "وهذه الدنانير مشخصة[4] على أحد وجهيها صورة الملك الذي تُضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية" وقد قام أ.د. رأفت النبراوي[5] بدحض هذه المقولة التي ينقصها الدقة، حيث إن هذه الدوكات تحمل بالوجه صورة السيد المسيح، وحوله الكتابات اللاتينية التي تُثبت

(1) رافت محمد النبراوي، الدوكات الذهبية البندقية المحفوظة في المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، مجلة الدارة، الرياض، العدد الرابع، السنة السابعة عشرة، 1412هـ/1992م، ص ص 91- 121.

(2) قدرية توكل السيد، الدوكات الذهبية البندقية وعلاقاتها بالنقود المعاصرة لها في مصر والشام في العصر المملوكي الجركسي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، 2002م.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 3، طبعة دار الكتب المصرية، 1913م، ص 441.

(4) لقد عقب د. حسن الباشا على هذا اللفظ بأنه يجب ألا نحمل النص أكثر مما يحتمل، لأن القلقشندي قد ذكر صراحة أنها – أي الدوكات الذهبية البندقية– ولم يقل إنه يطلق عليها المشخصة، مثلما قال عليها مؤرخو مصر المملوكية.
- حسن الباشا، قاعة بحث في العمارة والفنون الإسلامية، دار النهضة العربية، 1988م، ص214.

(5) رافت النبراوي، الدوكات الذهبية البندقية، ص 103.

ذلك، وليست صورة دوج البندقية، أما الظهر فعليه صورة القديس مرقص يتوج دوج البندقية، ويؤكد ذلك الكتابات المسجلة حول كل منهما. وبذلك لا يشتمل الظهر على صورة كل من بطرس وبولس الحواريين القديسيين.

ويسترسل القلقشندي في وصفة الدوكات فيقول " ويُعبر عنها بالأفرنتية جمع أفرنتى، وأصله إفرنسى، بسين مهملة بدل التاء المثناة فوق، نسبة إلى إفرنسه: مدينة من مدنهم وربما قيل فيها إفرنجة، وإليها تُنسب طائفة الفرنج، وهي مقرة الفرنسيس - اسم الملك فرانسوا - ملكهم، ويعبر عنه أيضاً بالدوكات، وهذا الاسم في الحقيقة لا يُطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة، وذلك أن الملك اسمه عندهم " دوك "، وكأن الألف والتاء في الآخر قائمان مقام ياء النسبة[(6)].

بينما يذكر المقريزي[(7)] في حديثه عن تعدد أسماء وأنواع الذهب، فيقول "والصنف الثاني يقال له الأفرنتي والأفلوري والبندقي والدوكات، ويُجلب من بلاد الفرنج وعلى أحد وجهيه صورة إنسان في دائرة مكتوبة بقلمهم (أي بلغتهم)، أما الفلورين - وهو الصنف الأول - فقد ضربته فلورنسا وكذلك جنوه سنة 650هـ/1252م، وتم تداوله في الأسواق الشرقية قبل الدوكات، وكان معروفاً باسم الفلورين أو الأفلوري[(8)].

ومما لاشك فيه أن الأمر قد اختلط على المقريزى، عندما أطلق على الدوكات نفس المسمى الذي أطلقه على الفلورين "الأفلوري"، وربما يرجع السبب في ذلك إلى وجود كل من الدوكات والفلورين في منافسة نقدية داخل الأسواق الأجنبية، مما جعل المؤرخين المعاصرين يختلفون في التمييز بين النقدين عند حديثهم عن الأنواع المتداولة في أسواق النقد الأجنبي، ولاسيما أن الفلورين قد تم التداول به قبل ظهور الدوكات[(9)].

وظهرت الدوكات الذهبية البندقية في أوربا عندما قرر مجلس الشيوخ في البندقية[(10)]، سك هذا النوع من النقود[(11)] في جمادى الآخرة سنة 683هـ/ أكتوبر 1284م، في عهد الدوج جيوفاني داندولو G iovani Dandolo "سنة679- 688هـ /1280-1289م"، تلك الفترة التي عاصرت حكم السلطان المملوكي المنصور قلاوون سنة 678-679هـ/1279- 1290م[(12)].

ومما هو جدير بالذكر أن مجلس شيوخ البندقية قد حرص حرصاً شديداً على أن تكون الدوكات

(6) الأب انستاس الكرملي، النقود العربية الإسلامية وعلم النُميات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1987م، ص 124.

(7) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 4، ص ص 304- 305.

(8) عبد الرحمن فهمي محمد، النقود العربية ماضيها وحاضرها، المكتبة الثقافية 103، 1964م، ص 96.

(9) موسوعة وصف مصر، الموازين والنقود، ج 6، مهرجان القراءة للجميع 2002م، مكتبة الأسرة ترجمة زهير الشايب، ص ص 62- 64.

(10) عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، ص 95.

(11) لقد كان هناك نوع آخر من النقود عرفته البندقية، وهو البندقي الفضي المعروف بالجرسو Grosso وهو النقد الأقدم، حيث ضُرب في عهد الدوج "هنري داندولو (سنة 590- 602هـ/ سنة 1193- 1205م) واختلف الباحثون في = تاريخ السنة التي سُك فيها هذا النوع من النقود.

- شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة د.احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، مصر 1948م، ص 65، هامش (1).

- Ives (Herbert E.) and Grierson (Philip), The Venetian Gold Ducat and its Imitations, The American Numismatic Society, New York, 1954, P. 6

- محمد باقر الحسيني، نقود أوربية تداولتها رسمياً أسواق عربية إبان الحروب الصليبية، مجلة آفاق عربية، العدد 3، تشرين الثاني، 1975م، ص 102.

(12) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة 1994م، ص 72.

البندقية الذهبية ذات عيار مرتفع إلى درجة كبيرة، حتى تحظى برضا وقبول المتعاملين، ومن ثم فقد حدد المجلس بنص قانوني واضح أن يكون وزن الدوكة 3.54جم وعيارها 23.75 قيراط[13]. ويُعد هذا أعلى نسبة عيار بالنسبة للنقود المتداولة في أوربا في العصور الوسطى، كما أنه يُعد أيضاً أعلى وزناً، وأكثر نقاء من نقود وعُملات تلك الفترة الزمنية، وخاصة الفلورين[14].

ولا غرو أن يُطلق على هذه الدوكات بتلك المواصفات المتميزة عبارة "دولار العصور الوسطى"[15]، وذلك لأن الدولار هو العُملة النقدية الحالية ذات السيادة العالمية، والمحتفظة بمكانتها الصرفية وقيمتها البنكية، لذا فقد أصدرت دار سك البندقية أعداداً كثيرة من الدوكات الذهبية تتداوله في الغرب الأوربي، خاصة في عام 744هـ/ 1343م، وذلك نتيجة تدفق كميات وفيرة من الذهب في هذا العام[16].

وقد أطلق على الدوكات[17] مصطلح البندقي أو الفندقي بياء النسبة، ويضم الأول والثالث، وهي كلمة معربة من اللاتينية Pontic. وقد شاع هذا الاسم عند الأتراك من العثمانيين "فندقلي" وكان معروفاً في مصر قبل نحو قرن من الزمان، وهو دينار ذهبي منسوب إلى البندقية[18]. هذا وقد لعبت دوكات البندقية الذهبية دوراً كبيراً في السيطرة على أسواق التجارة العالمية بصفة عامة، وكذا غزو الأسواق الإسلامية بصفة خاصة، يدل على ذلك انتشار هذه الدوكات في معظم مدن الغرب، جنباً إلى جنب مع الفلورين، ولكن الدوكات – كما سبق القول – تفوقت بثبات الوزن، ونقاء العيار، و جودة السك، واستدارة القطر[19].

وقد وصلت هذه الدوكات الذهبية البندقية إلى أسواق مصر والشرق العربي عن طريق التجارة التي نشطت بين الشرق والغرب، وكانت مصر أحد معابرها الرئيسية[20]. واختلفت الآراء وتضاربت الأقوال حول التاريخ الذي وصلت فيه هذه النقود عالم التداول في أسواق مصر والشام، فيذكر القلقشندي[21]، الذي يُعد من أوائل المؤرخين الذين أشاروا في كتاباتهم إلى هذا الموضوع، عندما تناول سعر استبدال الدينار الأفرنتي فيقول "وغالب ما كان عليه من صرف الدينار المصري فيما أدركناه في التسعين والسبعمائة وحولها عشرون درهماً والأفرنتي سبعة عشر درهماً".

و أكد المقريزي[22]، على ما ذكره القلقشندي في كتاباته، من أن الأفرنتي كان منتشراً في سنة

(13) Oddy (W.A), Metalurgy in Numismatices, Vol. 2, London, 1988, P. 95.

(14) قدرية توكل، الدوكات الذهبية البندقية وعلاقاتها بالنقود المعاصرة، ص 37.

(15) Bacharach (J. L), The Dinar Versue the Ducat, 1 Jmesu, 1973, P. 77

(16) مارك بلوك، مشكلة الذهب في العصر الوسيط، ترجمة توفيق اسكندر، بحوث في التاريخ الاقتصادي القاهرة، 1961م، ص ص 35- 36.

(17) لقد جاء تسمية الدوكات من الكلمة اللاتينية Ducaties, Ducatus، المشتقة من كلمة Sucatus Apalin، والتي أطلقت على النقود الفضية التي سُكت بصقلية في عهد روجر – الثاني، بدءاً من عام 1140م.

- Ives (H) and Grieson , Op. Cit, P 6.

(18) أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، 1979م، ص 45.

- الأب انستاس الكرملي، النقود العربية والإسلامية، ص 185، 198.

(19) مارك بلوك، المرجع السابق، ص 23.

- قدرية توكل، المرجع السابق، ص ص 38- 39.

(20) Ives (Herbert) and Grieson (Phillp), Op. Cit, P. 1.

(21) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص ص 441- 442.

(22) المقريزي، السلوك، ج 4، ص 305.

790هـ /1388م، بينما يذكر في موضع آخر أن رواج "الدوكات الأفرنتي" كان سنه 800هـ/ 1399م، يستشف من هذا أو يفهم من ذاك، أن المقريزي[23] كان يقصد أن هذه الدوكات كانت متداولة داخل الأسواق المصرية منذ سنة 790هـ /1388م، ولكن رواجها كان في بداية سنة 800هـ /1399م.

ويذكر د. عبد الرحمن فهمي[24] أن هذه النقود ظهرت في مصر سنة 709هـ/ 1302م أي بعد ثمان عشرة سنة من تاريخ الضرب، أما الباحثون الأجانب، وعلى رأسهم "فان جينب Van Genep"[25]، فيذهب في حديثه حول تاريخ دخول الدوكات الذهبية البندقية، وتداولها في أسواق مصر والشام إلى جانب النقود المملوكية، فيقول " إن العرب استولوا على سفينة من البندقية كانت متجهة إلى منطقة الشرق العربي سنة 691هـ / 1291م، وكانت تحمل على متنها 14.000 "أربعة عشر ألف" دوكة ذهبية، بالإضافة إلى الجروسو وسبائك ذهبيه ".

ويدلي بوبر Popper[26] بدلوه، فيؤكد أن هذه الدوكات الذهبية قد حظيت بقبول واسع لدى الأسواق المصرية في العصر المملوكي بدليل أن جمرك الإسكندرية في سنة 702هـ / 1302م - أثناء فترة حكم السلطان الناصر محمد الثانية[27]- أصر على أن تدفع سفن البندقية قيمة الرسوم الجمركية المقررة، وكذا الضرائب المفروضة بالسبائك الذهبية[28].

بينما يذكر جيري باكاراك Jere Bacharach[29]، أن دوكات البندقية الذهبية كانت متداولة في عهد السلطان برقوق[30]، سنة 784- 801هـ / 1382- 1399م، بكميات كبيرة، حتى إنه عندما توفي سنة 801هـ /1399م، ترك ثروة ضخمة قُدرت بـ 1.400.000 "مليون وأربعمائة ألف" دينار تحوي بينها مجموعة كبيرة من هذه الدوكات، تلك التي استخدمها ابنه فرج بن برقوق، بعد وفاة أبيه في تحسين شئون بلاده.

ويرى آشتور Ashtor[31] أن دوكات البندقية الذهبية قد تم تداولها في أسواق الشام قبل أن تُعرف بصفة رسمية في الأسواق المصرية، ويعزو ذلك إلى وجود التجار البنادقة بموانئ الشام، وقرب هذه الموانئ من البندقية، بالإضافة إلى تكوين هؤلاء التجار لجاليات خاصة بهم أثناء الحملات الصليبية، قبل دخولهم مصر.

ونخلص القول من خلال استعراضنا لآراء المؤرخين العرب، والباحثين الأجانب حول تاريخ دخول دوكات البندقية الذهبية إلى أسواق مصر والشام، بأن هذه الدوكات قد تم التعامل معها، والتداول بها في بداية العصر المملوكي على نطاق محدود، وذلك عبر الموانئ الرئيسية التي ترسو بها السفن التجارية، ولكن سرعان ما بدأت الدوكات الذهبية البندقية تظهر في أسواق الشرق بصورة كبيرة وأعداد وفيرة،

---

(23) المقريزي، المصدر السابق، ج 4، ص 709.

(24) عبد الرحمن فهمي، المرجع السابق، ص 96.

(25) Genep (V) , Le Ducat Venitien en Egypt son en Fluence sur Monnage de l,or Reva Numismatique Series (R. N. 1897) P. 373.

(26) Popper (W) , E gypt and Syria under Circassion Sultans (California , 1957), P. 47

(27) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص117.

(28) عبد الرحمن فهمي، المرجع السابق، ص 96.

(29) B acharach , The Dinar , P. 79.

(30) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص 160.

(31) Ashtor (E) ,Etudes Sur le Systeme Monetaire des Mamluke Circassien(1OS6,1976) P. 277

مع التجار الغربيين لشراء التوابل وغيرها من البضائع وكذلك مع الحجاج المسيحيين[32].

ومن ثم تم تداولها رسمياً في البلاد منذ سنة 790هـ/1388م، وحققت نجاحاً كبيراً ورواجاً واسعاً في منافستها للدينار المملوكي منذ سنة 800هـ/ 1397م، بل وظلت هي النقد السائد في أسواق مصر والشام[33]، في حين تراجعت النقود الذهبية المملوكية المعاصرة لاضطراب وزنها وانخفاض عيارها، حتى إن التعامل بها كان يتم بالوزن لا بالعدد، وذلك على عكس الدوكات الذهبية البندقية التي كان يتم التعامل بها على أساس العدد فقط[34].

ولا غرو بعد ذلك أن يكثر رواج وتداول الدوكات الذهبية البندقية كما يذكر المقريزي[35]، في مصر وبلاد الشام وعامة بلاد الروم والحجاز واليمن ومكة وشرق العالم الإسلامي، الأمر الذي سبب إزعاج سلاطين المماليك، واعتبروه هجوماً على الدنانير المملوكية المتداولة في الأسواق المصرية[36]. مما جعل السلطان الناصر فرج بن برقوق يجرب عمل دنانير إسلامية جديدة تحل محل الدوكات الذهبية البندقية في التداول، وأشرف على هذا النوع من النقود وزيرة "يلبغا السالمي" فسُمي الواحد منها "بالسالمي"، وكان على زنة الدنانير الأفرنتية السالفة الذكر. بمعنى أنه جعلها ذات وزن ثابت وبزنة مثقال تماماً، وقد عُرفت هذه الدنانير أيضا "بالناصرية" نسبة إلى السلطان الناصر فرج، ووجدت بكثرة وعم استعمالها، ولكنها مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الأفرنتية[37].

وقد دفعت هذه الأسباب السلطان الأشرف برسباي، بمعالجة هذا النقص فأمر بسك دنانير نُسبت إليه وعُرفت باسم الدنانير الأشرفية "زنة الدينار منها زنة الدينار الأفرنتي"، وأصدر أوامره "فنودي بإبطال المعاملة بالدنانير الأفرنتية، وأن يتعامل الناس بالدنانير الأشرفية"[38]. وبالرغم من ذلك فقد ظل "صرف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حالة بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال"[39]، الأمر الذي جعل تلك الدنانير التي سكها سلاطين المماليك لا تقوى على منافسة الدوكات الذهبية البندقية، فانحطت قيمتها في الأسواق الحرة عن قيمة البندقي[40].

ويبدو جلياً أن دور الضرب الإيطالية استغلت التدهور النقدي، فقامت بما يشبه التحدي للمسكوكات الإسلامية في مصر، فضربت نقودها على نفس النظام النقدي في مصر من حيث الاستدارة والنقوش وهي بذلك تعمل على أو تهدف إلى "نزع السيادة النقدية من الدينار الإسلامي"[41].

---

(32) Bacharach , The Dinar , P. 79.

(33) محمد عبد الغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، تاريخ المصريين 137، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م، ص 223.

- قدرية توكل، الدوكات الذهبية البندقية وعلاقاتها بالنقود المعاصرة، ص 43.

(34) القلقشندى، صبح الأعشى، ج 3، ص 441.

- سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ص 315- 317.

(35) المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، دراسة وتحقيق د. محمد عبد الستار عثمان، الطبعة الأولى 1990م، مطبعة -

- الأمانة، ص 148.

(36) رأفت النبراوي، الدوكات الذهبية البندقية، ص 105.

(37) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 3، ص 442.

- عبد الرحمن فهمي، المرجع السابق، ص 98.

(38) المقريزي، السلوك، ج 4، ص 70.

(39) القلقشندي، المصدر السابق، ج 4، ص 442.

(40) عبد الرحمن فهمي، النقود العربية، ص 98.

(41) ضيف الله بن يحيى الزهراني، زيف النقود الإسلامية، الطبعة الأولى، 1413هـ/1993م، ص 57.

وقد ترتب على اضطراب العُملة المتداولة في العصر المملوكي إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من مناحي الحياة الاجتماعية، مما أدى إلى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود[42]، وجعلهم يلجأون إلى نظام المقايضة، ذلك النظام الذي استخدم على نطاق واسع، ولم يقتصر على التجارة الداخلية، ولكنه شمل التجارة الخارجية وخاصة في القرن 9هـ/15م، يقال إن الحمل الأسكندراني من الفلفل[43] يزن خمسمائة رطل فرفوري، ويُشترى في الإسكندرية نقداً أو مقايضة بسلع كثيرة، بينما يُعطى قنطار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل[44].

وخلاصة القول إن الغش النقدي قد تولد عنه ظهور نظام المقايضة، ومن بعد نظام نصف المقايضة، وهذا يعني أن ثمن السلعة يُدفع نصفه نقداً، والنصف الآخر سلعاً[45].

لذا فقد احتفظت الدوكات الذهبية البندقية باستمرارها ومكانتها في التداول بعد دخول العثمانيين مصر سنة 923هـ/1517م، وذلك لثقة الناس في أنها عُملة قانونية بعد دمغها بكلمة "صح"[46]، علاوة على أن الدولة العثمانية كانت منذ نشأتها تتداول النقود الأجنبية لقانونيتها، ومن أهمها الدوكات الذهبية البندقية، كما أن كفة ميزان التبادل التجاري بين مصر وأوروبا، كانت راجحة بميل شديد لصالح مصر[47]، مما كان له أثره الواضح على الأسواق المصرية التي كانت تصب فيها الكثير من النقود الأوربية، ومنها الدوكات الذهبية البندقية، وذلك لتمويل تجارة الشرق حيث كانت البلاد في حاجة ماسة لتلك النقود الموثوق بها، لكي تتمكن من الوفاء بالتزاماتها ومشترياتها مع بلاد العرب والهند[48].

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإن انهيار العُملة العثمانية منذ أواخر القرن 11هـ/17م، وأوائل القرن 12هـ/18م، نتيجة عدة أسباب منها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، والذي أدى بدوره إلى نقص واردات الضرائب على تجارتهم العابرة "الترانزيت"[49]، وبالفعل لقد كان تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين، من أبرز العوامل التي أثرت على العالم العربي وخاصة في مصر والشام، أبلغ تأثير في جميع النواحي وخاصة الناحية الاقتصادية، وما صاحبها من نواح أخرى[50].

---

(42) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص 317.

(43) لقد احتكرت البندقية في الغرب الجزء الأكبر من تجارة الفلفل في العصور الوسطى، بينما مصر في الشرق كانت تشغل من حيث الترانزيت، المرتبة الأولى، إلى أن استولت فيه البرتغال على تجارة الهند بوجه عام.
- هايد(ح)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج 4، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م، ص 171.

(44) توفيق اسكندر، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1957م، ص 42.

(45) ضيف الله بن يحيى الزهراني، زيف النقود الإسلامية، ص 96.

(46) جب وجوبون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج 2، ترجمة د. احمد مصطفى عبد الرحيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م، ص ص 104، 107.

(47) أحمد السيد الصاوي، النقود المتداولة في مصر العثمانية، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولى، 2001م، ص 146.

(48) راشد البراوي ومحمد حمزة عليش، التطور الاقتصادي في مصر في العصر الحديث، النهضة المصرية القاهرة، طبعة 4، 1949م، ص 34.

(49) شوقي عطا الله الجمل، البحر الأحمر طريق تجاري عالمي عبر العالم العربي في النصف الأول من القرن السادس عشر، مقالة من ندوة "طريق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ" اتحاد المؤرخين العرب، 2000م، ص 606.

(50) فاروق عثمان أباظة، تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح وأثره على العالم العربي في مطلع العصور الحديثة، مقالة من ندوة "طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ" اتحاد المؤرخين العرب، 2000م، ص 731.

كما كان لتوقف المد العثماني عن الفتوحات مع زيادة نفقات الدولة، بالإضافة إلى تدفق كميات كبيرة من المعادن الثمينة من الذهب والفضة إلى أملاك الإمبراطورية العثمانية، مما أربك نقدها وهز اقتصادها، فانخفضت قيمة وحدة الفضة الرئيسية وهي الأقجة(51)، وارتفع سعر الذهب واحتجب لذلك(52).

وقد ترتب على تدهور الأوضاع الاقتصادية والتضخم الذي أدى إلى انهيار قيمة العُملة، أن تأثرت حالة التداول النقدي بمصر بنقص العملات العثمانية، وخاصة مصر دون سواها من الولايات التي كانت خاضعة للدولة العثمانية آنذاك، وذلك نتيجة لقيام مصر بدفع الخزانة الشريفة للسلطان، وتزايد النفقات العسكرية التي كانت تنوء بها مصر من حيث الإنفاق على حملات الدولة في البلقان ووسط أوروبا وروسيا واليمن، من خزانة ونفقات مرتبات المصريين وأجور مواصلاتهم، وأيضاً كثرة قدوم رُسل الدولة العثمانية لمصر، وعودتهم محملين بالهدايا الثمينة للسلطان العثماني وحاشيته(53).

ومن ثم فقد أدى هذا التدهور المستمر في قيمة العُملة العثمانية إلى ظهور فراغ نقدي في الأسواق المصرية، فضلاً عن زعزعة ثقة المتعاملين بتلك العملة التي كانت في حالة مستمرة من التخفيض في العيار والوزن، وعدم ثباتهما(54)، على النقيض تماماً لعبت العملات الأجنبية، وعلى رأسها الدوكات الذهبية البندقية، دوراً كبيراً في سد هذا الفراغ لما توفرت لها من مميزات أساسية ونواح جوهرية جعلتها تنجح بجدارة لثبات وزنها ونقاء عيارها مع استدارة شكلها واستواء حوافها(55).

كما كان للابتكار الصناعي الأوربي لآلة سك النقود Screw Press، على يد الإيطالي "دوناتا برامانت" Donata Bramante، في بداية القرن 10هـ/16م، دور كبير وشأن عظيم في تقدم صناعة النقود الأوربية وخاصة الإيطالية، ولا غرو في أن هذا الابتكار الهائل قد عمل على وضوح النقوش ودقة الكتابات على تلك العملات الذهبية(56).

وخلاصة القول فإن غزو العثمانيين لمصر، لم يغير من وضع الدوكات الذهبية البندقية في الأسواق المصرية، لم يكن حرصاً من البندقية وجنوه على معاملاتهما التجارية النشطة مع مصر فحسب، بل إن الإمبراطورية الأم في القسطنطينية كانت تتداول هذه الدوكات الذهبية وبالطبع كانت تصب إلى ولاياتها التابعة ومنها مصر، الكثير من تلك النقود الذهبية(57).

ولا غرو أن تنجح دوكات البندقية الذهبية في الاحتفاظ بتميزها وتفردها بين النقود الذهبية المتداولة في مصر منذ العصر المملوكي حتى العصر العثماني، بفضل وزنها الثابت "3.494جم" الذي لم

---

(51) الأقجة، كلمة تركية ومعناها اللغوي "الضارب إلى البياض"، وهي عملة فضية صغيرة سُكت في عهد اورخان بن عثمان.
- احمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص 23.

(52) سليم عرفات المبيض، النقود العربية الفلسطينية وسكتها المدنية الأجنبية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى عام 1946م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989م، ص ص 230- 231.

(53) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، اربعة اجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية 83-1986م، ج 3، ص ص 1454- 1457.

(54) احمد الصاوي، المرجع السابق، ص 147.

(55) Dctey (Richard) Money of the World, New York, 1978, P. 157.

(56) Dctey, Money of the World, P. 158.

(57) موسوعة وصف مصر، ج 6، ص 63.

يتغير منذ عام 933هـ/1526م[58]، أيضاً بفضل المكانة المتميزة التي تبوأتها البندقية في التجارة العالمية[59].

وتشير وثائق المحكمة الشرعية إلى ما بلغته شهرة البندقي من جودة العيار حداً أصبح فيه الذهب البالغ النقاء يُعرف بالذهب البندقي[60]، ويدلل الجبرتي[61] في مواضع كثيرة منذ نهاية القرن 12هـ/18م، على مدى حرص الناس وخاصة طبقة التجار على اكتناز كميات كبيرة من الذهب البندقي، ففي أحداث سنة 1183هـ/1796م يذكر الجبرتي "حضر درويش بن همام شيخ العرب وقبض على خدم أبيه وأتباعه، ومنهم رجل يسمى زعيتر، فأخذ منه أموالاً عظيمة على دفعات منها دفعة من جنس الذهب البندقي أربعين ألفاً" بينما يذكر في أحداث سنة 1200هـ/1785م "نقب بعض الحرامية حاصلاً في وكالة بباب الشعرية وأخذوا منه صندوقاً في داخلة اثنا عشر ألف بندقي".

ومن حسن الحظ وصلتنا مجموعة من الدوكات الذهبية البندقية لم يسبق نشرها من قبل، وتنشر في هذا البحث لأول مرة، ومحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهي لبعض الأدواج الذين عاشوا خلال القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر الهجري / السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلادي، أي أنهم عاصروا الدولة العثمانية، حسبما ورد بقائمة الأدواج البندقية التي وجدت على موقع بالإنترنيت[62]، وتم تداول نقودهم في أسواق مختلفة بهذه الدول منها مصر والشام وغيرها. 6261

وسوف أتناول هذه النماذج حسب تسلسلها التاريخي الأقدم فالأحدث، كما أنني قسمت دوكات كل دوج منها على حدة، موضحة أهم طرز كل دوج في ضوء ما أقوم بنشره في هذه المجموعة، أبدأها بوصف للشكل العام لكل طراز، ثم كتاباته وزخارفه مترجمة كتاباتها اللاتينية إلى العربية،ثم أقوم بشرح وتحليل الكتابات والزخارف حسب ورودها على القطعة في ضوء الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بالإضافة إلى الظروف الدينية التي كان لها تأثيرها الواضح والبين، ثم أذكر ما ينفرد به كل طراز عن غيره من الطرز الأخرى لنفس الدوج. وبعد ذلك أشير إلى ما ينسب لهذا الطراز من القطع التي أقوم بنشرها موضحة وزنها وقطرها. وأخيراً أقوم بإجراء مقارنة بين هذه القطع، وما نُشر مماثلاً لها في مجموعات أخرى، هكذا في كل طراز من طرز دوج من الأدواج الذين سوف أتناول دراسة وبحث ونشر دوكاتهم الذهبية.

أولاً: نماذج من الدوكات الذهبية البندقية من القرن 10هـ/16م من عهد الدوج الفيز موتشنجو ALVIS MOCENIGO 1

يبلغ عدد الدوكات التي تحمل اسم هذا الدوج "الدوق"[63]، من مقتنيات متحف الفن الإسلامي أربع

(58) Raymond (A), Artis aus Caire au xv111 e siecle, Tome 1, Institut Francais de Dames, 1973, P. 19.

(59) هايد (ف)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج2، ترجمة أحمد رضا محمد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م، ص ص 207- 208.

(60) لمزيد من التفاصيل: أحمد الصاوي، النقود المتداولة في مصر العثمانية، ص ص 149- 151.

(61) الجبرتي، تاريخ الجبرتي، ج1، ص 448، ج 2، ص 153، مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة، بدون تاريخ.

(62) A Complete List of the Doges of Venice , 726-1797, PP.1-2.
http://WWW.Wegm.com/Coins/Venice/Listof.htm

(63) لقد تولى الدوج (الدوق) الفيز موتشنجوAlvis Mocenigo في المدة من سنة 1570م حتى سنة 1577م، الموافق سنة 978هـ -

قطع، وتتشابه هذه الدوكات مع بعضها من حيث زخارفها وكتاباتها، التي تحيط بها من الخارج، بكل من الوجه والظهر دائرة من الحبيبات المتماسة، وهي تمثل طرازاً واحداً. وقد ورد على وجه مجموعة دوكات هذا الدوج، صورة السيد المسيح واقفاً حول رأسه هالة[64] من حبيبات صغيرة، وبين الهالة ورأس المسيح إشعاعات على شكل صلبان، تربط ما بين رأس المسيح والهالة.

ويظهر السيد المسيح مرتدياً عباءة ورافعاً يده اليمنى، ويحيط بصورته شكل بيضاوي من حبيبات صغيرة متماسة يبدأ من قمة رأسه أعلى الهالة وينتهي عند قدميه، وبين الشكل البيضاوي وصورة المسيح ست عشرة نجمة خماسية، سبع على جانب، واحدة أعلى هالة رأس المسيح، والأخرى أسفل قدميه.

وحول صورة السيد المسيح والشكل البيضاوي كتابات لاتينية تدور مع اتجاه عقارب الساعة على شكل دائري مواز للدائرة الخارجية ذات الحبيبات المتماسة، ونص هذه الكتابات هو:

SIT. T. PF. DAT. Q. TV. REGIS. ISTE. DVCAT

وهذه العبارة اختصار لهذه الجملة:

SIT TIBI CHRISTE DATUS. QUEM TU REGIS ISTE DUCATUS

وترجمتها إلى العربية:

"من أجلك أيها المسيح سُكت هذه الدوكة التي تحظى ببركتك"[65].

أما ظهر دوكات مجموعة هذا الدوج، فهي تُمثل أهم مرحلة من مراسيم تتويج الدوج "الدوق" فتوجد بها صورة دوج البندقية يركع في خشوع وورع على ركبتيه جهة اليمين، وهو يتسلم العلم المرسوم عليه صورة الأسد ذي الأجنحة من القديس مرقص، وهذا الأسد يرمز إلى القديس السابق ذكره[66].

وهنا يظهر الدوج مرتدياً العباءة، وفوق رأسه قرن الدوج Corno Decate، ممسكاً العلم بكلتا يديه، اليد اليمنى من أعلى، واليسرى من أسفل، وعلى الجانب الأيسر يقف القديس مرقص مرتدياً عباءته ينظر يميناً جهة الدوج، وهو يسلم العلم، وحول رأسه هالة التقديس من حبيبات متماسة، بينما يوجد في موازة صاري العلم من ناحية الدوج من أعلى لأسفل، الحرف اللاتيني "D" يليه الحرف "V"، ثم زخرفة على شكل صليب.

والحرف "D" هو اختصار لكلمة لاتينية هي "DUCATUS" بمعنى دوكة، أو بمعنى DUX بمعنى دوج، والحرف "V" فهو اختصار للكلمة اللاتينية "VENETIA"، بمعنى البندقية، فيصبح المعنى الإجمالي إما DUCATUS VENETIAE أي دوكة البندقية، أو DUX VENETIAE، بمعنى دوج البندقية، ويرجح ا. د. رأفت النبراوي[67]، الرأي

- حتى سنة 985هـ، وهي فترة حكم كل من السلطانين "سليم الثاني ومراد الثالث".

http://WWW.Wegm.com /coins / Venice/Listof.htp

- جرجي زيدان، مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب، كتاب الهلال، العدد517 يناير 1994م، ص ص 124- 127.

(64) الهالة على رأس السيد المسيح ترمز إلى القداسة، وكذلك السيدة العذراء، ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة -

- والمتاحف العالمية، بالكثير من القطع الفنية التطبيقية من مواد وتحف مختلفة عليها هذه الهالة المقدسة.

- حسن الباشا، فن التصوير الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية، 1973م، ص 95.

(65) رأفت النبراوي، الدوكات الذهبية البندقية، ص 92.

(66) رأفت النبراوي، المرجع السابق، ص 92.

(67) رأفت النبراوي، نفس المرجع السابق، ص 93.

الأخير في أنها بمعنى دوج البندقية لأن هذين الحرفين "D.V" قد وضعا أعلى صورة الدوج، أسوة بما فعله الفنان عند تسجيله الحرفين "S.M" فوق صورة القديس مرقص اختصاراً للقبة واسمه.

وكما هو معروف فإن هذه الدوكات كانت تسك بأمر الدوج(68)، لذا كان من حقه أن يأمر بتدوين لقبه ولو مختصراً – بسبب ضيق المساحة- فوق صورته، أما زخرفة " X" التي توجد أسفل الحرفين " D.V" فهي تشير إلى الصليب رمز الديانة المسيحية التي كان يعتنقها أهل البندقية بمن فيهم الدوج والقديس مرقص المصوران على هذه الدوكات.

وتوجد خلف صورة القديس مرقص كتابات لاتينية تسير باتجاه مستدير مواز للدائرة الخارجية ذات الإطار ذي الحبيبات على عكس اتجاه عقارب الساعة من أعلى لأسفل ونصها: S.M.VENETI، وتفسير معنى هذه الأحرف وتلك الكلمة هو: الحرف "S" اختصار لكلمة SANCTUS بمعنى القديس، والحرف "M" اختصار لكلمة MARCUS أي مرقص، أما الكلمة VENETI فمعناها أهل البندقية، والمعنى الكلي "مرقص قديس البندقية"(69).

وتوجد خلف صورة الدوج كتابات إيطالية تسير باتجاه دائري مع عقارب الساعة ونصها:

.ALOY. MOGEN، وهي اختصار لاسم الدوج ALVISE MOCENIGO، وتنطق بالعربية " إلفيز موتشنجو ".

وكما سبق القول فإن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، يحتفظ بأربع قطع من الدوكات الذهبية البندقية تحمل اسم الدوج " الفيز موتشنجو " وقد ضُربت هذه الدوكات في الفترة سنة 978هـ/1570م إلى سنة 985هـ/1577م وهي فترة حكم الدوج المدون اسمه عليها، وهو الدوج السابق و ترجع إلى النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، ولم يسبق نشرها:

القطعة الأولى:

يبلغ وزنها: 3.44جم، قطرها: 21مم (لوحة 1).(70)

القطعة الثانية:

يبلغ وزنها: 3.45جم،قطرها: 21مم (لوحة 2).(71)

القطعة الثالثة:

يبلغ وزنها: 3.46جم، قطرها: 21مم (لوحة 3)(72)

القطعة الرابعة:

يبلغ وزنها: 3.47جم، قطرها: 21مم (لوحة 4).(73)

وبذلك يبلغ متوسط وزن الدوكة الواحدة من دوكات الدوج الفيز موتشنجو التي وصلتنا 3.45جم. وعلى الرغم من أن تاريخ سك هذه الدوكات غير مسجل عليها، فإنه يمكن تأريخها بفترة حكم الدوق المدون عليها اسمه وهي الفترة من سنة 978هـ/1570م إلى سنة 985هـ/1577م

من عهد الدوج مارينو جرماني MARINO GERMANI

تضم هذه المجموعة التي تحمل اسم هذا الدوج

(68) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ص 86.
(69) رافت النبراوي، الدوكات الذهبية البندقية، ص 93.
(70) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33437.
(71) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33438.
(72) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33455.
(73) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33461.

"الدوق"[74]، دوكة ذهبية واحدة، يحتفظ بها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، لم يسبق نشرها، وهذه الدوكة الفريدة والوحيدة عليها اسم الدوج مارينو جرماني، تشبه الدوكات السابق ذكرها من حيث زخارفها، عدا ملحوظة وضعت على وجه هذه الدوكة وخاصة في عدد النجوم التي تحيط بالسيد المسيح، حيث يبلغ عددها ثمان نجمات على كل جانب، وواحدة أسفل قدمه، فيصبح عددهن سبع عشرة نجمة، بينما لا توجد نجمة فوق رأس المسيح، كما هو معتاد، ربما يرجع ذلك إلى أن القامة مرتفعة إلى حد ما، والرأس تكاد تلمس قمة الشكل البيضاوي لحافة الدوكة.

كما أن كتابات ظهر هذه الدوكة تشبه الدوكات السابقة عدا اسم الدوج الذي ورد اسمه على دوكته هكذا باتجاه عقارب الساعة نصها:

MARI. GRIM وهي اختصار لاسم الدوج MARINO GERMAN I

ونطقها بالعربية مارينو جرماني.

وكما سبق القول فإن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يحتفظ بقطعة واحدة لدوكة ذهبية واحدة تحمل اسم الدوج مارينو جرماني، وقد ضُربت هذه الدوكة في الفترة من سنة1004- 1014هـ/ سنة 1595- 1605م، وهي فترة حكم الدوج المدون اسمه عليها، وهو الدوج السابق ذكره، و ترجع إلى نهاية القرن 10هـ/16م، وبداية القرن 11هـ/17م.

وهذه القطعة الوحيدة:

يبلغ وزنها: 3.40جم،قطرها: 20مم (لوحة 5).[75]

ومما هو جدير بالذكر أن التغيير في عدد النجوم التي حول السيد المسيح، في زخرفة هذه الدوكة، ربما يعزو إلى أن الفترة الزمنية كانت مرحلة انتقال من نهاية القرن 10هـ/16م إلى بداية القرن 11هـ/17م.

ثانياً: نماذج من الدوكات الذهبية البندقية من القرن 11هـ/17م

من عهد الدوج جيوفاني كورنر GIOVANNI CORNER 1

تضم هذه المجموعة التي تحمل اسم هذا الدوج "الدوق"[76]، دوكة ذهبية واحدة يحتفظ بها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، لم يسبق نشرها، وهذه الدوكة هي الوحيدة والفريدة التي تحمل اسم الدوج جيوفاني كورنر، وهي تشبه تماماً الدوكات السابقة من حيث زخارفها وكتاباتها، عدا اسم الدوج الذي أمر بسكها.

وجاء الاسم على النحو التالي:

G.A. N* CORNER وهو اختصار لاسم GIOVANNI CORNER

ونطقها بالعربية جيوفاني كورنر.

وكما سبق القول فإن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يحتفظ بقطعة واحدة لدوكة ذهبية واحدة

---

(74) لقد تولى الدوج (الدوق) مارينو جرماني Marino Germani، في سنة 1595- 1605م، الموافق سنة 1004- 1014هـ، وهي فترة حكم السلطان "محمد بن مراد"
- http://WWW.Wegm.Com/Coins/Venice/Listof.htm
- جرجي زيدان، مصر العثمانية، ص ص 133- 134.

(75) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33458.

(76) لقد تولى الدوج (الدوق) جيوفاني كورنر Giovanni Corner 1، في سنة 1625- 1629م، الموافق سنة 1035- 1039م، أي في الربع الأول من القرن 11هـ/17م وهي فترة حكم تقع بين السلطانين مصطفى بن محمد ومراد بن أحمد.
-http://WWW.Wegm.Com/Coins/Venice/Listof.htm
- جرجي زيدان، المرجع السابق، ص ص 145- 149.

تحمل اسم الدوج جيوفاني كورنر، وقد ضُربت هذه الدوكة في الفترة الزمنية من سنة1035- 1039هـ/ 1625- 1629م، وهي فترة حكم الدوج المدون اسمه عليها.

القطعة الوحيدة والفريدة:

يبلغ وزنها: 3.44جم، قطرها: 22مم (لوحة 6)[77].

ثالثاً: نماذج من الدوكات الذهبية البندقية من القرن 12هـ/18م

من عهد الدوج فرانشيسكو لوردان

FRANCESCO LOREDAN

يوجد قطعتان من الدوكات التي تحمل اسم هذا الدوج "دوق"[78]، من بين مجموعة الدوكات الذهبية التي يحتفظ بها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، موضوع هذا البحث، وهاتان القطعتان تشبهان الدوكات السابقة الذكر، من حيث زخارفها وكتاباتها، عدا الدوج الذي سُكت بأمره.

وقد جاء الاسم على هاتين القطعتين على النحو التالي:

FRANC. LAVRED.، وهي اختصار لاسم FRANCESCO LOREDAN

وتنطق بالعربية فرانشيسكو لوردان.

وكما سبق القول فإن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يحتفظ بقطعتين من الدوكات الذهبية تحمل اسم الدوج فرانشيسكو لوردان، وقد ضُربت هاتان القطعتان الذهبيتان في الفترة من سنة 1166- 1176هـ/سنة 1752- 1762م، وهي فترة حكم الدوج المدون اسمه عليها.

القطعة الأولى:

يبلغ وزنها: 3.51جم، قطرها: 21مم (لوحة 7)[79].

القطعة الثانية:

يبلغ وزنها: 3.26جم، قطرها: 21مم (لوحة 8)[80].

من عهد الدوج باولو رينيير PAOLO RENIER

تضم مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ثماني قطع من الدوكات الذهبية عليها اسم هذا الدوج "الدوق"[81]، لم يسبق نشرها، وهي تشبه تماماً الدوكات السابقة الذكر، من حيث زخارفها وكتاباتها، باستثناء اسم الدوج الذي نقش عليها الاسم الأول مختصراً، والثاني كاملاً هكذا: PAVL. RAINER، وهذا اختصار لاسم PAOLO RENIER وتعريبها هو باولو رينيير.

وسوف أتناول أربع قطع فقط من هذه الدوكات الثمانية، بالبحث والدراسة:

القطعة الأولى:

يبلغ وزنها: 3.44جم، قطرها: 21مم (لوحة 9)[82].

---

(77) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33441.

(78) لقد تولى الدوج (الدوق) فرانشيسكو لوردان Francesco Loredan، في سنة 1752- 1762م، الموافق سنة 1166- 1176هـ، أي في بداية النصف الثاني من القرن 12هـ/18م، وهي فترة حكم ما بين السلطانين "عثمان بن مصطفى ومصطفى بن محمد".

-http://WWW.Wegm.Com/Coins/Venice/Listof.htm

- جرجي زيدان، المرجع السابق، ص ص 229- 231.

(79) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33382.

(80) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33394.

(81) لقد تولى الدوج (الدوق) باولو رينير Paolo Renier، في سنة 1779- 1789م، الموافق سنة 1193- 1204هـ، أي في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م وهي فترة حكم السلطان "عبد الحميد الأول".

-http://WWW.Wegm.Com/Coins/Venice/Listof.htm

- جرجي زيدان، نفس المرجع السابق، ص 259.

(82) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33413.

القطعة الثانية:

يبلغ وزنها: 3.45جم، قطرها: 20مم (لوحة 10)[83].

القطعة الثالثة:

يبلغ وزنها: 3.46جم، قطرها: 21مم (لوحة 11)[84].

القطعة الرابعة:

يبلغ وزنها: 3.38جم، قطرها: 21مم (لوحة 12)[85].

وبذلك يبلغ متوسط وزن القطعة الواحدة من دوكات هذا الدوق 3.43جم، وبالرغم من عدم نقش تاريخ السك على هذه القطع، فإنهم ضُربوا خلال الفترة من سنة 1193- 1204هـ/ سنة 1779-1789م، وهي فترة حكم هذا الدوج، أي في النصف الثاني من القرن 12هـ/ 18م.

من عهد الدوج لودفيكو مانين LODOVICO MANIN

يبلغ عدد الدوكات الذهبية التي سُجل عليها اسم هذا الدوج " الدوق "[86] من مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ما يزيد على إحدى وستين قطعة من الدوكات الذهبية، لم يسبق نشرها وهي تشبه النماذج السابقة من حيث زخارفها وكتاباتها، عدا اسم الدوج الذي ورد اسمه مكتوباً هكذا: LVDO. MANIN، وهي اختصار لاسم LODOVICO MANIN وتنطق بالعربية لودفيكومانين، وهذا الدوج حكم البندقية في الفترة من سنة 1204هـ/1789م حتى سنة 1212هـ/1797م.

وسوف أتناول أربع قطع من هذه الدوكات الكثيرة العدد، بالبحث والدراسة، وذلك على سبيل المثال وهي:

القطعة الأولى:

يبلغ وزنها: 3.37جم، قطرها: 21مم (لوحة 13)[87].

القطعة الثانية:

يبلغ وزنها: 3.37جم، قطرها: 20مم (لوحة 14)[88].

القطعة الثالثة:

يبلغ وزنها: 3.49جم، قطرها: 21مم (لوحة 15)[89].

القطعة الرابعة:

يبلغ وزنها: 3.47جم، قطرها: 21مم (لوحة 16)[90].

وبذلك يبلغ متوسط وزن الدوكة الواحدة من دوكات هذا الدوق 3.42جم، وعلى الرغم من عدم كتابة تاريخ السك على هذه القطع، فإنها قد سُكت خلال مدة حكم الدوج المدون اسمه عليها، وهي الفترة الواقعة ما بين سنة 1204هـ/1789م و سنة 1212هـ/1797م.

ومما هو جدير بالملاحظة أن مجموعة هذه القطع الأربع من الدوكات الذهبية البندقية التي تناولتها بالبحث والدراسة غير متقنة تمام الإتقان، من حيث زخارفها ونقوشها وكتاباتها، كمثيلاتها السابقة من فترات زمنية سابقة، مما يدفعني إلى الشك في مكان ضربها الرسمي، كما يدفعني القول بأنها قد ضُربت

(83) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33444.

(84) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33377.

(85) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33379.

(86) لقد تولى الدوج (الدوق) لودفيكو مانين Lodovico Manin، في سنة 1789- 1797 م، الموافق سنة 1204- 1212م، أي في نهاية القرن 12هـ/ 18م، وبداية القرن 13هـ/ 18م، وهي فترة حكم السلطان "سليم الثالث".

= -http://WWW.Wegm.Com/Coins/Venice/listof.htm

- جرجي زيدان، نفسه، ص 275.

(87) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33405.

(88) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33409.

(89) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33442.

(90) رقم السجل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة: 33465.

في دار ضرب غير رسمية، وليست من قبل الحكومة، أي أنها مقلدة، وهذا ما أكده كل من "أفيز، وجريرسون" IVES , GRIERSON، بأن هناك قطعاً من الدوكات الذهبية البندقية مقلدة، ترجع إلى نهاية القرن 12هـ/18م، وبداية القرن 13هـ/ 19م[91].

الخاتمة ونتائج البحث:

في الحقيقة إن دراسة موضوع " نماذج غير منشورة من الدوكات الذهبية البندقية المعاصرة للدولة العثمانية "، من الموضوعات المهمة، حيث كانت هذه الدوكات الذهبية البندقية يتم التعامل بها في الأسواق العالمية لثبات وزنها ونقاء عيارها، مما جعلها تحظى بثقة المتعاملين في عالم التجارة في البلاد المطلة على البحر المتوسط وكذلك أوروبا، بينما كان النقد المصري إبان الحكم العثماني يعانى تذبذباً في الوزن، وانخفاضاً في العيار، مما أعرض الناس عن التعامل به، ولجأوا إلى استخدام الدوكات الذهبية البندقية على نطاق واسع في معظم المعاملات اليومية وكذلك نطاق التجارة الدولية.

لذا اعتمدت في بحثي لدراسة هذا الموضوع على مجموعة من الدوكات الذهبية البندقية، المحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، حيث قمت بنشر ست عشرة قطعة لم يسبق نشرها من قبل من خلال حصري لمجموعة الدوكات التي يحتفظ بها المتحف السابق ذكره، والتي بلغ عددها سبعاً وسبعين قطعة، قسمتها حسب القرون التاريخية والفترات الزمنية لعصر كل دوج "دوق"، وكذا العصر المواكب لسلاطين بني عثمان، والتي تم تداولها في عهدهم، وأخذت منها نماذج لكل دوج كالآتى وهي:

- نموذج لدوكات أدواج " أدواق " القرن 10هـ/16م، أخذت منها أربع قطع باسم الدوج " الفيز موتشنجو " Alvis Mocenigo، سنة 978- 985هـ/ سنة 1570- 1577م، وتم تداولها فى عهدي السلطانين " سليم الثاني ومراد الثالث ".
- نموذج لدوكات أدواج " أدواق " القرن 11هـ/17م، هناك قطعة واحدة باسم الدوج " مارينو جرمانى " Marino Germani، سنة1004- 1014هـ/ سنة 1595- 1605م، وتم تداولها في عهد السلطان "محمد الثالث"، وقطعة أخرى باسم الدوج " جيوفاني كورنر " Corner 1 Giovanni"، سنة 1035- 1039هـ/ سنة 1625- 1629م، وتم تداولها في عهد السلطان " مراد الرابع ".
- نماذج لدوكات أدواج القرن 12هـ/18م، أخذت منها قطعتين باسم الدوج " فرانشيسكو لوردان " Francesco Loredan، سنة 1166- 1176هـ/ سنة 1752- 1762م، وهي تعاصر كلاً من عهدي السلطانين "عثمان الثالث ومصطفى الثالث"، وثماني قطع باسم الدوج "باولو رينير" Paolo Renier، سنة 1193- 1204هـ/سنة1779- 1789م، تم تداولها في عهد السلطان "عبدالحميد الأول"، أخذت من هذه القطع الثمان، أربع قطع فقط كأمثلة لدوكات هذا الدوج.
- نماذج لدوكات القرن 13هـ/19م، إحدى وستون قطعة باسم الدوج " لودفيكو مانين " Lodovico Manin، سنة 1204- 1212هـ/ سنة 1789- 1797م، وتم تداولها في عهد السلطان "سليم الثالث"، وأخذت، أربع قطع كأمثلة لدوكات

(91) Ives, Grierson, The Venetian Gold Ducat and its Imitation , pp. 7-8.

هذا الدوج، ويُعد هذا الدوج آخر أدواج البندقية، وللأسف فإن دوكات هذا الدوج الكثير منها مُقلد.

- كان من نتيجة زيف العملة المصرية، وخلطها بالنحاس زيادة عن القانون، في عهد " علي باشا الصوفي "، سنة 971- 973هـ/سنة 1564-1566م، أن أفسحت المجال أمام تدفق الدوكات الذهبية البندقية بأعداد كبيرة، وكميات وفيرة داخل الأسواق المصرية، وترتب على ذلك ظهور فراغ نقدي بتلك الأسواق.

- لم يغير غزو العثمانيين من وضع الدوكات الذهبية البندقية في الأسواق المصرية، كما أنه لم يكن حرصاً من البندقية وجنوه على معاملاتها التجارية النشطة مع مصر فحسب، بل إن الإمبراطورية الأم في القسطنطينية، كانت تتداول هذه الدوكات الذهبية، وبالطبع كانت تصب إلى ولاياتها التابعة، ومنها مصر، الكثير من تلك النقود.

- لقد ذُكرت الدوكات الذهبية البندقية في الوثائق والحجج الشرعية في مصر في العصر العثماني، نتيجة لتمتعها بعيار مرتفع ووزن ثابت، لذا ظهرت باسمها في معظم المكاتبات المتعلقة بالنقد وسُددت بها الجمارك داخل الموانئ المصرية.

- تؤكد أوضاع رسم الدوج واقفاً أمام القديس مرقص على الدوكات الذهبية البندقية، المتداولة والمعاصرة للعصر العثماني، عن تراجع مكان الكنيسة أمام السلطة المدنية، بعد أن كان الدوج في الدوكات المعاصرة للعصر المملوكي، يُمثل السلطة الدنيوية، يُرسم راكعاً أمام القديس مرقص الذي يُمثل السلطة الدينية.

- أصبحت رسوم الأشخاص على الدوكات الذهبية البندقية، المتداولة في العصر العثماني، أكثر قُرباً من الطبيعة، مع مراعاة لقواعد النسب التشريحية والمقاييس الجسمانية، وكان ذلك من انعكاس فن عصر النهضة في أوربا عامة وإيطاليا خاصة.

- حافظت الدوكات الذهبية البندقية على طرازها بشكل عام منذ العصر المملوكي وطوال العصر العثماني، ولم يحدث تغيير يُذكر، إلا في بعض التفصيلات مثل ملامح السحن، وأشكال أغطية الرأس، وشكل راية القديس مرقص، أصبحت في العصر العثماني ذات أبعاد اصطلاحية أكثر منها طبيعية، وكذا تحول الشكل البيضاوي المحيط بالسيد المسيح – في العصر المملوكي- إلى شكل لوزي "ماندورلا" Mandorela، في العصر العثماني.

- ظهر من الصور الشخصية للأدواج الذين حكموا البندقية في فترة البحث، والتي وضحت رؤيتها من شبكة المعلومات "الإنترنيت"، ومقارنتها بصور الأدواج المنقوشة على الدوكات الذهبية البندقية، المتداولة في العصر العثماني، أن الفنان أغفل نقش هذه الصور بشكل قريب من الطبيعة وإنما نقشها بأسلوب اصطلاحي، رمز للدوج بقبعة يلبسها على رأسه، ويرتدي عباءة التتويج أثناء تسلمه العلم، ولم يهتم البتة بتفاصيل ملامح الوجه الحقيقية.



الوجـه



الظهـر

(لوحة 1) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " الفيز موتشنجو " "Alvis Mocenigo"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33437
الوزن: 3.44 جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 2) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " الفيز موتشنجو " Alvis Mocenigo"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33438
الوزن: 3.45جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 3) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " الفيز موتشنجو " Alvis Mocenigo"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33455
الوزن: 3.46جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 4) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج "الفيز موتشنجو "Alvis Mocenigo"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33461
الوزن: 3.47جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 5) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " مارينو جرمانى " Marino Germani"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33458
الوزن: 3.40جم، القطر: 20 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 6) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج "جيوفاني كورنر" "Giovanni Corner"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33441
الوزن: 3.44جم، القطر: 22 مم، (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 7) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " فرانشيسكو لوردان " "Francesco Loreda"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33382
الوزن: 3.51جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 8) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " فرانشيسكو لوردان"Francesco Loredan"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33394
الوزن: 3.26جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهر

(لوحة 9) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " باولو رينير " "Paolo Renier"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33413
الوزن: 3.44جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 10) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج "باولو رينير" "Paolo Renier"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33444
الوزن: 3.45جم، القطر: 20 مم (لم يسبق نشرها).

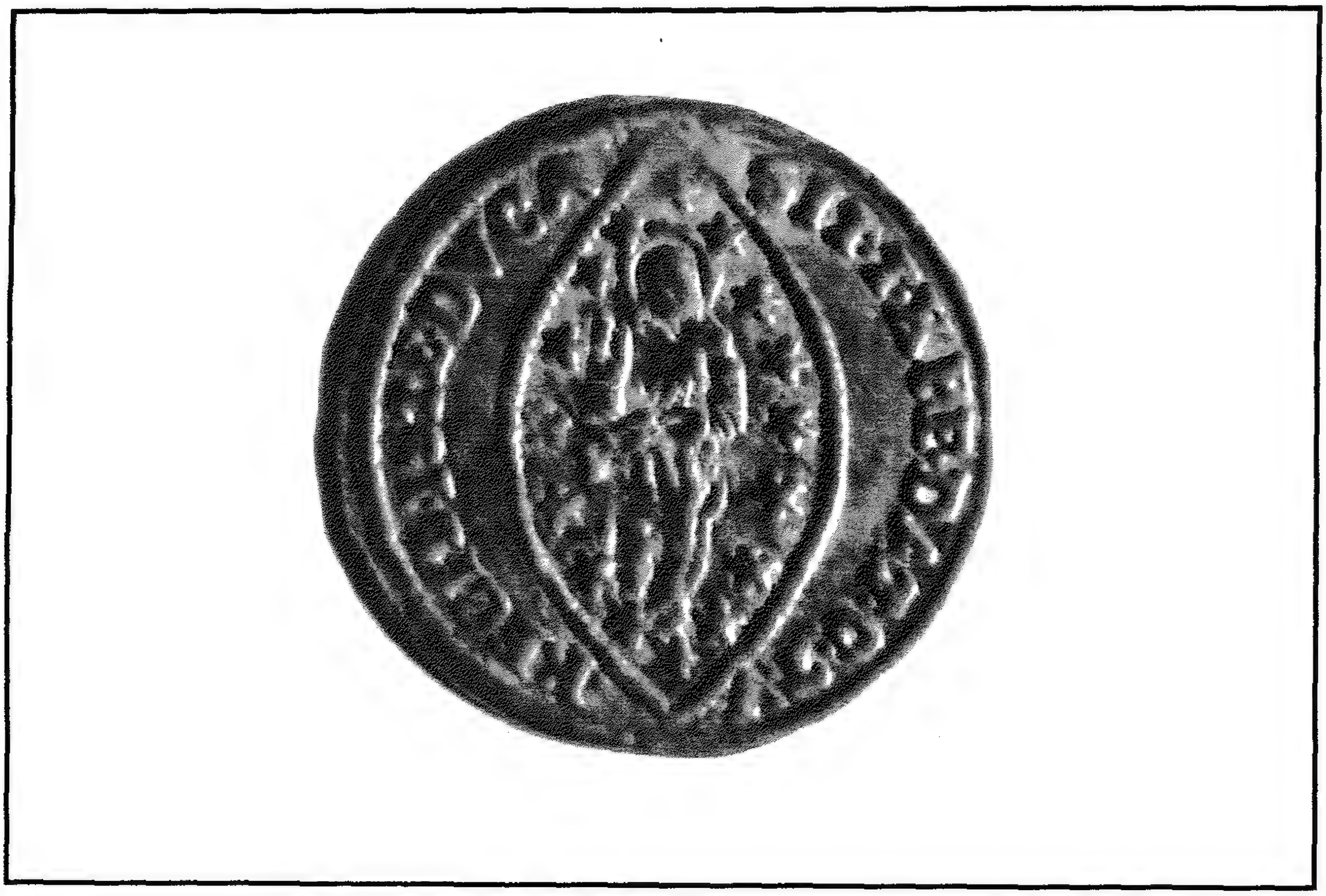


الوجـه



الظهـر

(لوحة 11) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج "باولو رينير" "Paolo Renier"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33377
الوزن: 3.46جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهر

(لوحة 12) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج "باولو رينير "Paolo Renier"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33379
الوزن: 3.38جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 13) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " لودفيكو مانين " "Lodovico Manin"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33405
الوزن: 3.37جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 14) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " لودفيكو مانين " Lodovico Manin "
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33409
الوزن: 3.37جم، القطر: 20 مم (لم يسبق نشرها).



الوجـه



الظهـر

(لوحة 15) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " لودفيكو مانين " "Lodovico Manin"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33442
الوزن: 3.49جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).

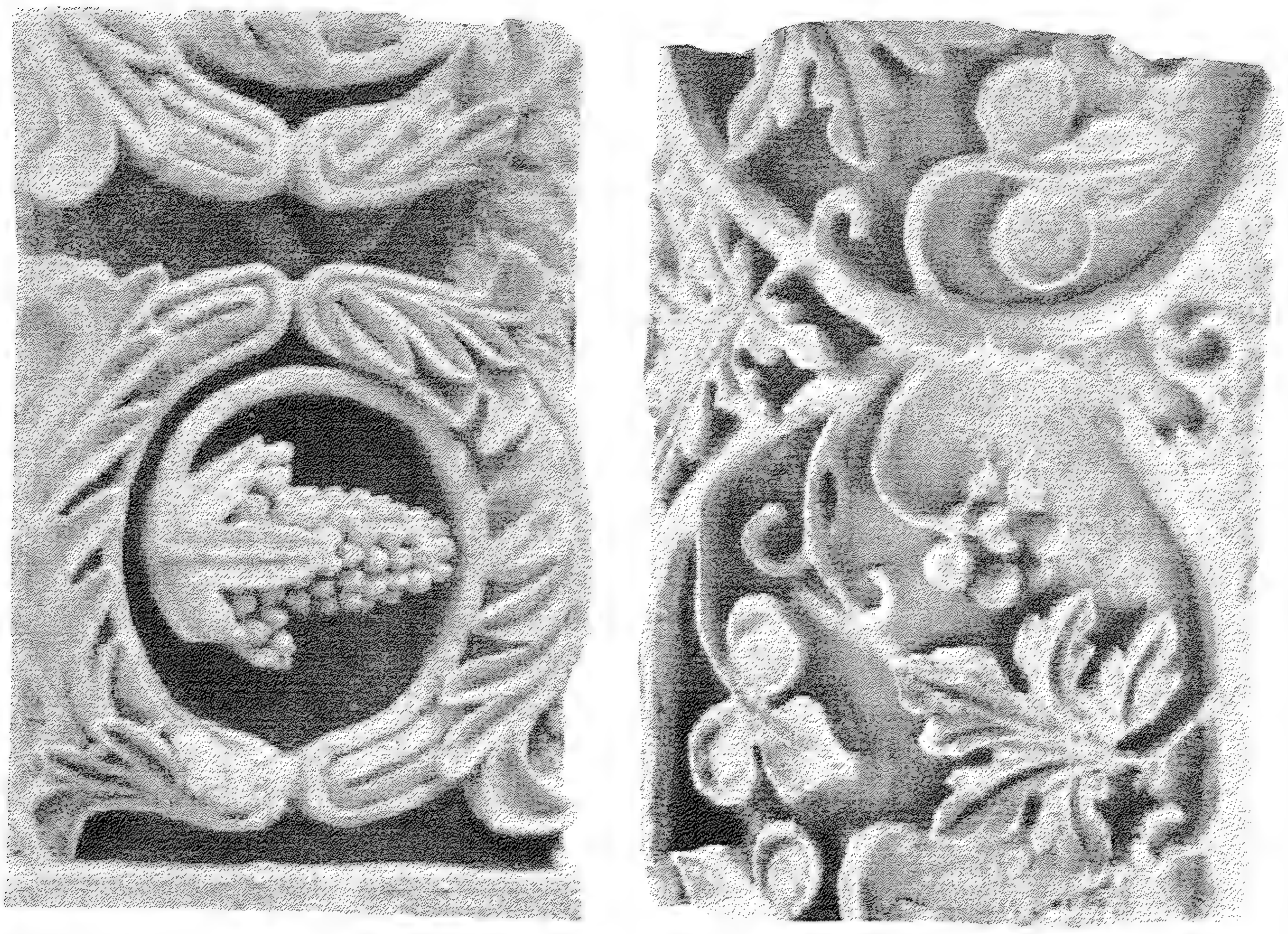


الوجـه

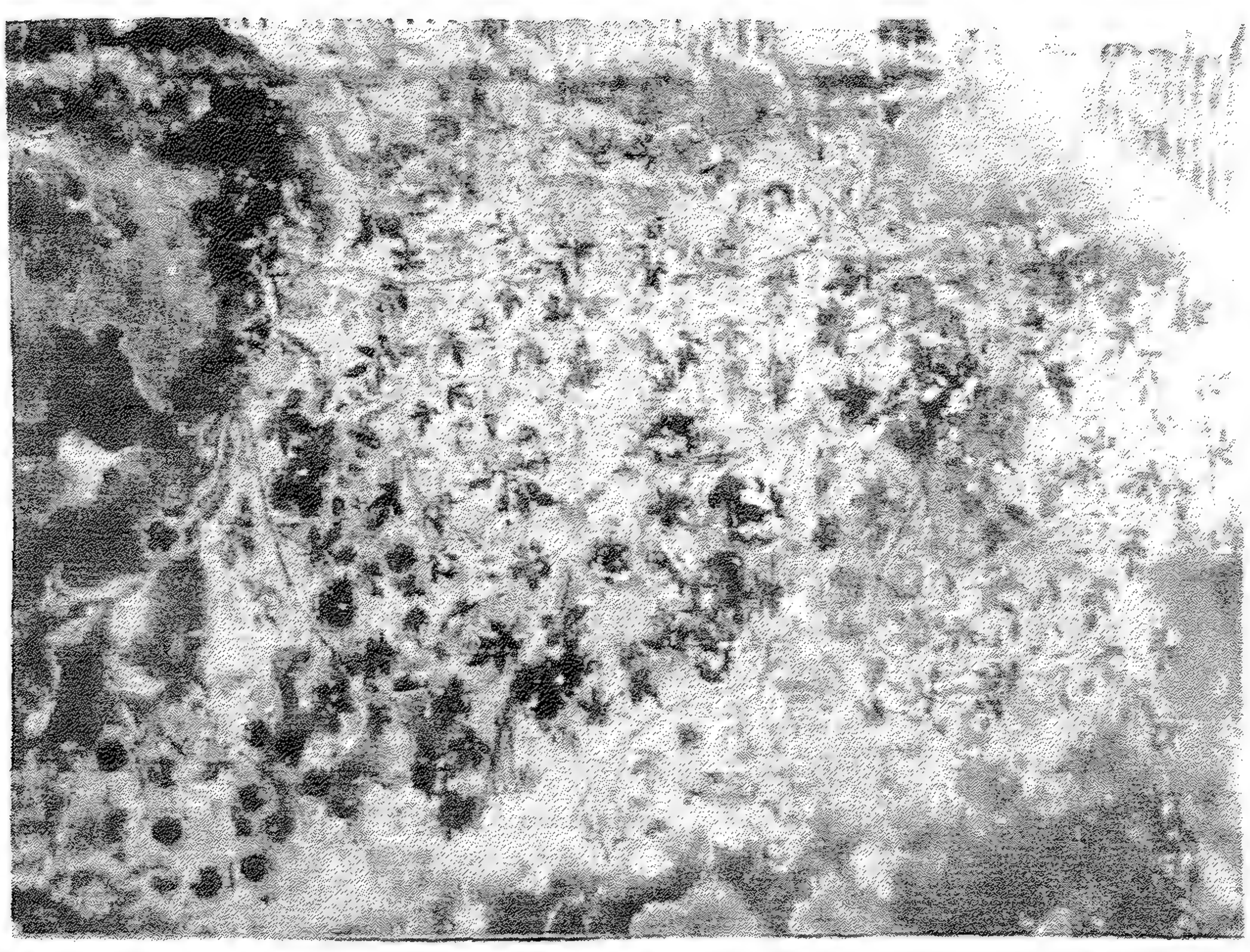


الظهـر

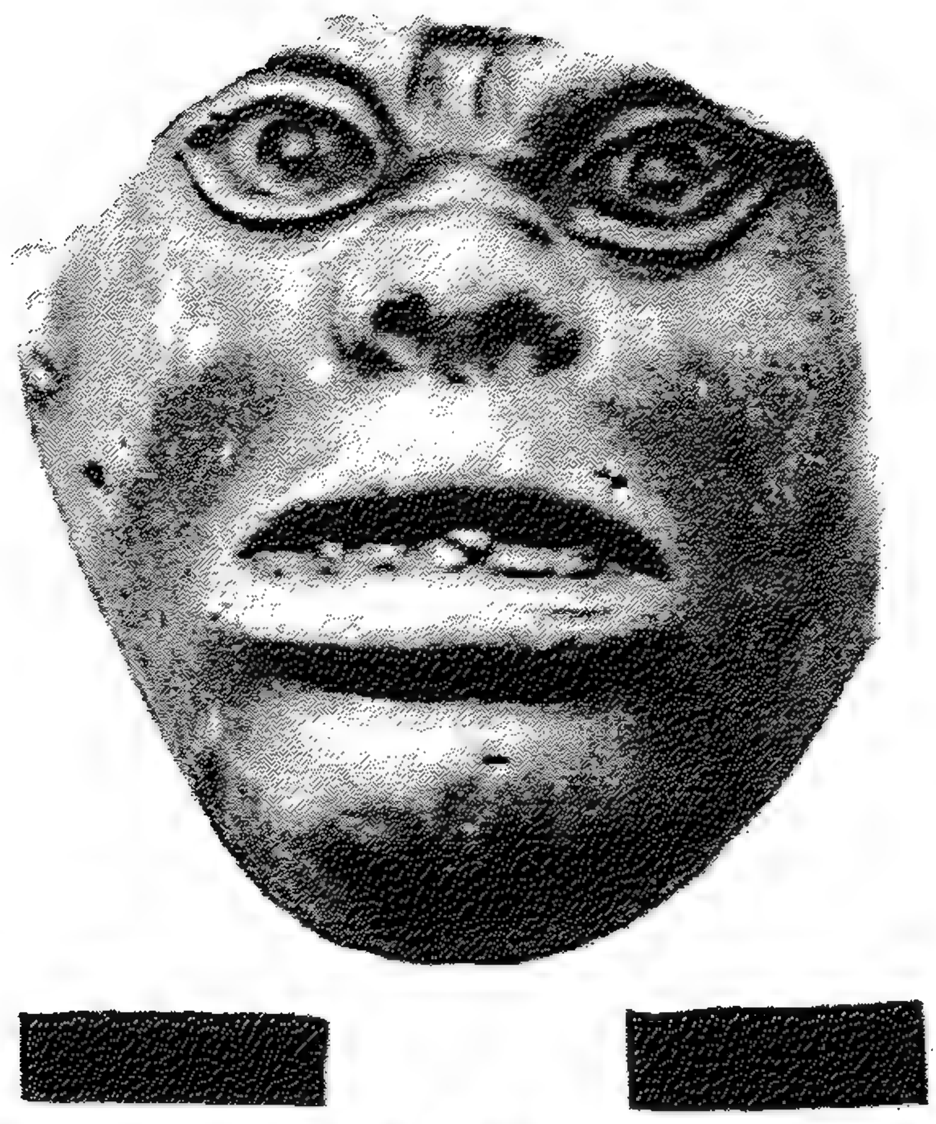
(لوحة 16) دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوج " لودفيكو مانين " "Lodovico Manin"
محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم السجل: 33465
الوزن: 3.47جم، القطر: 21 مم (لم يسبق نشرها).



Pl. XXVI Grape Motive, Khirbet Et-Tannur



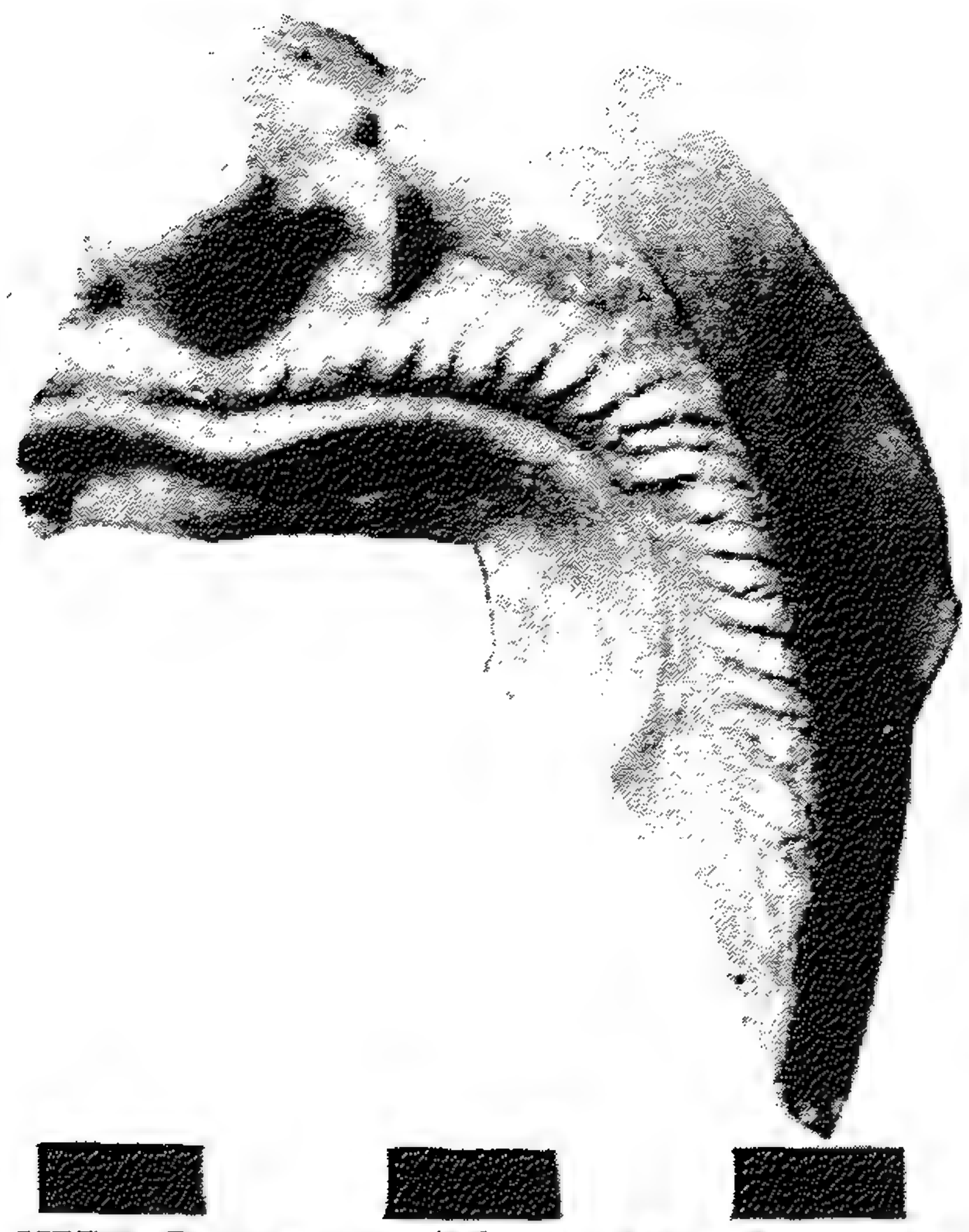
Pl. XXVIII Fresco in Siq El-Barid, Petra



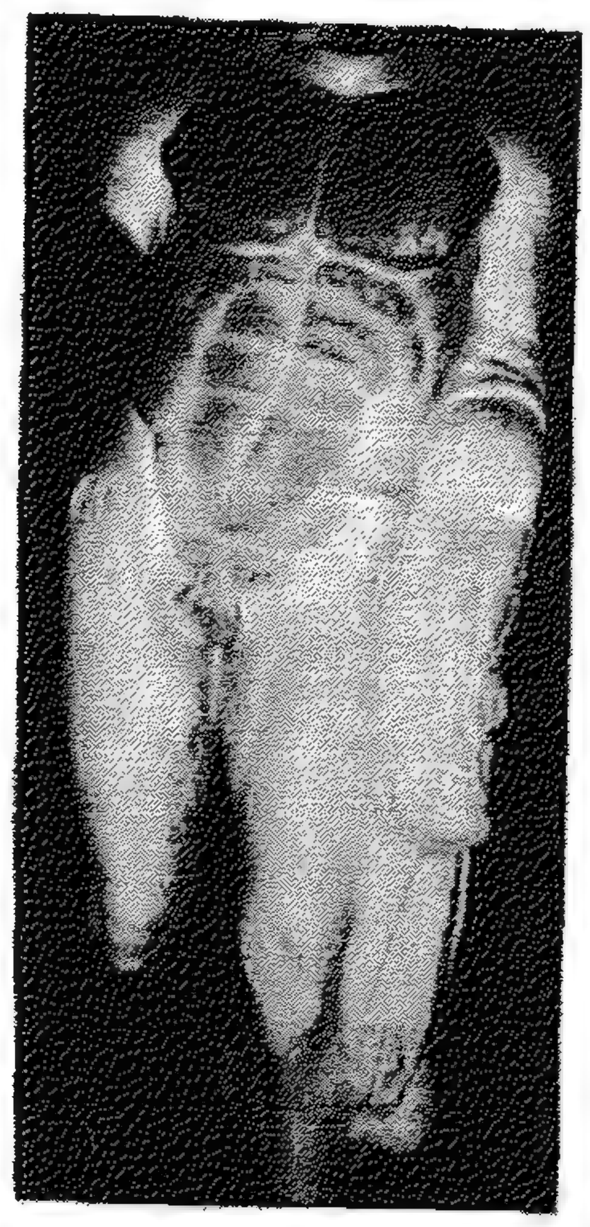
Pl. XX Terracotta Mask of a monkey, Petra



Pl. XXI Terracotta Mask of a monkey, Petra



Pl. XXII Terracotta Mask of tragic manner, Petra



Pl. XXIV Statues of Hercules, the Theatre of Petra



Pl. XXIII Terracotta Mask of tragic manner, Petra



Pl. XXV Statue of Hercules, the Theatre of Petra



Pl. XVI Mask with Dolphins at Sabra



Pl. XVII Terracotta Mask of Dionysus. Petra



Pl. XVIII Terracotta Mask of Dionysus, Negev



Pl. XIX Terracotta Mask of Isis, Petra



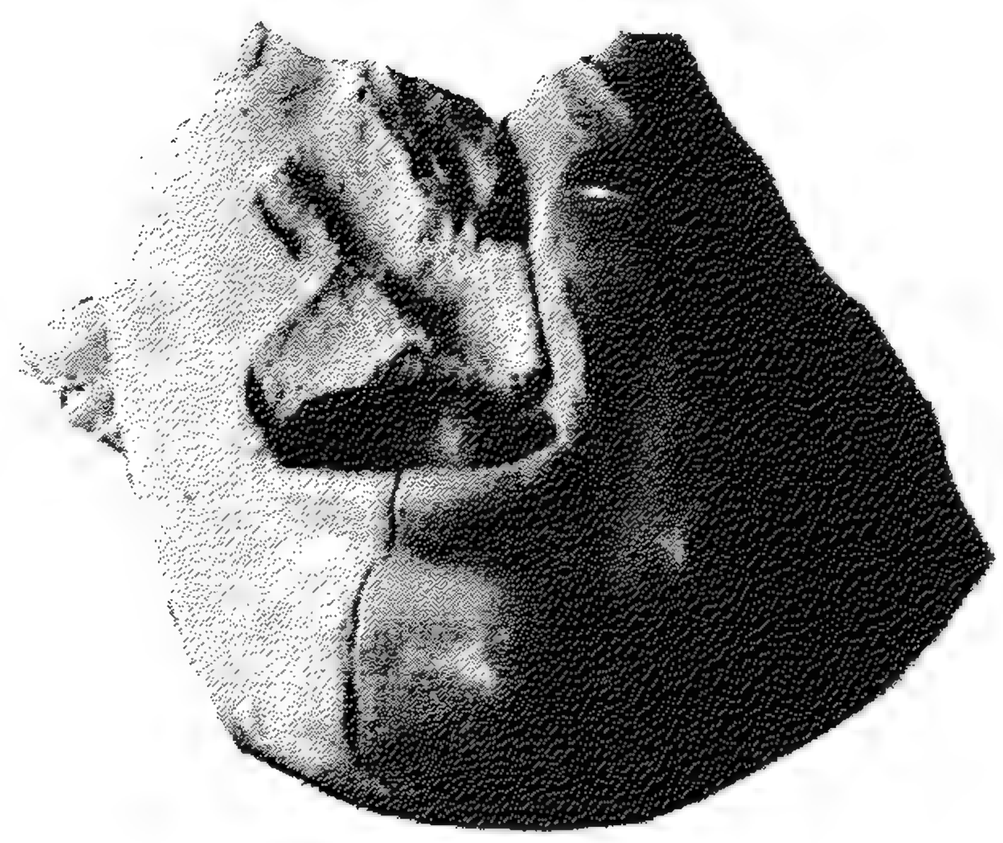
Pl. XI Stone Mask, The Great Temple of Petra



Pl. XII Stone Mask, The Great Temple of Petra



Pl. XIII Stone Mask, The Great Temple of Petra



Pl. XIV Stone Mask, The Great Temple of Petra



Pl. XV Stone Mask, The Great Temple of Petra



Pl. IX The Theatre at Sabra



Pl. X Melpomene holds a Tragic Mask



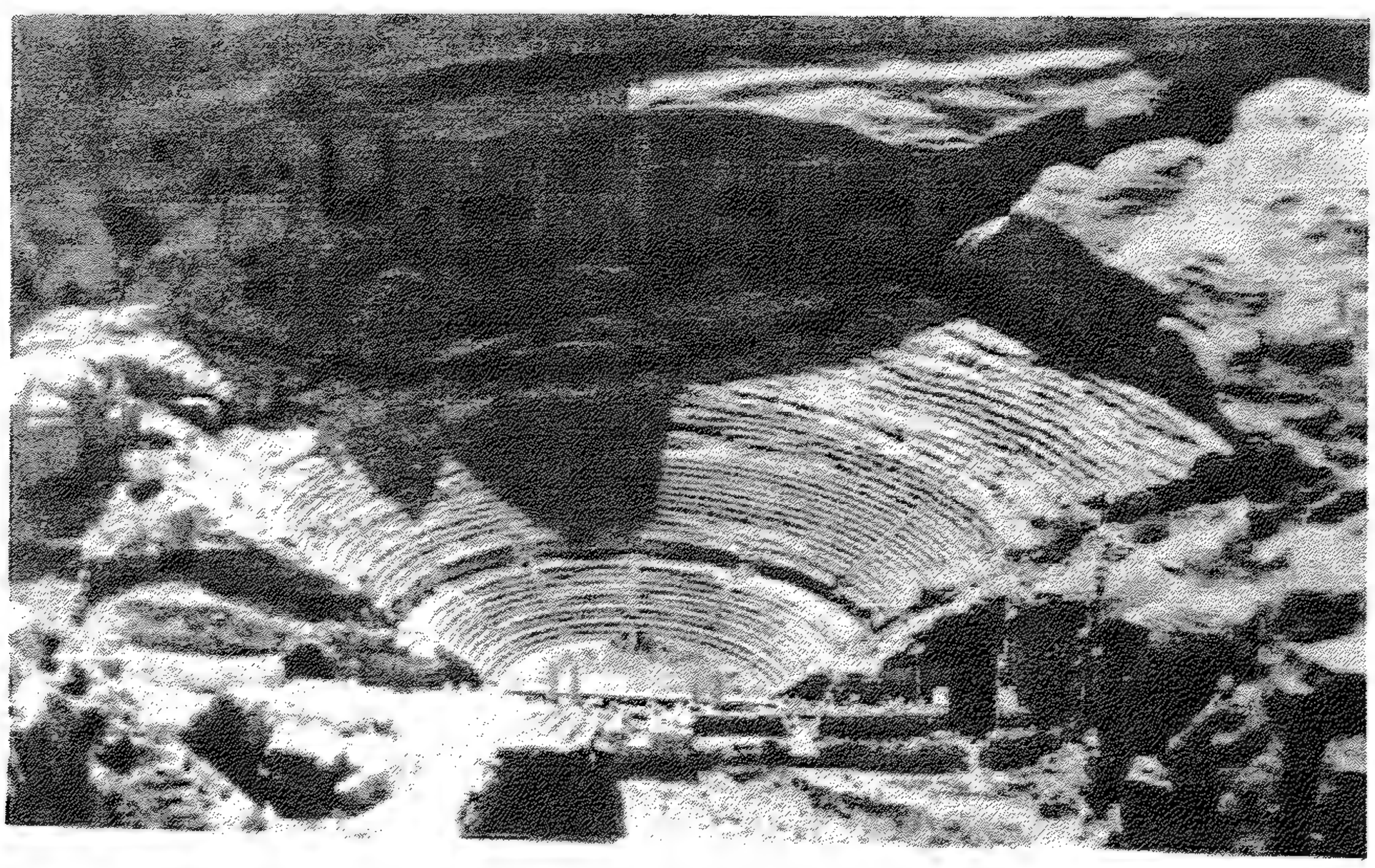
Pl. V Head of Dionysus, Terracotta Figurine



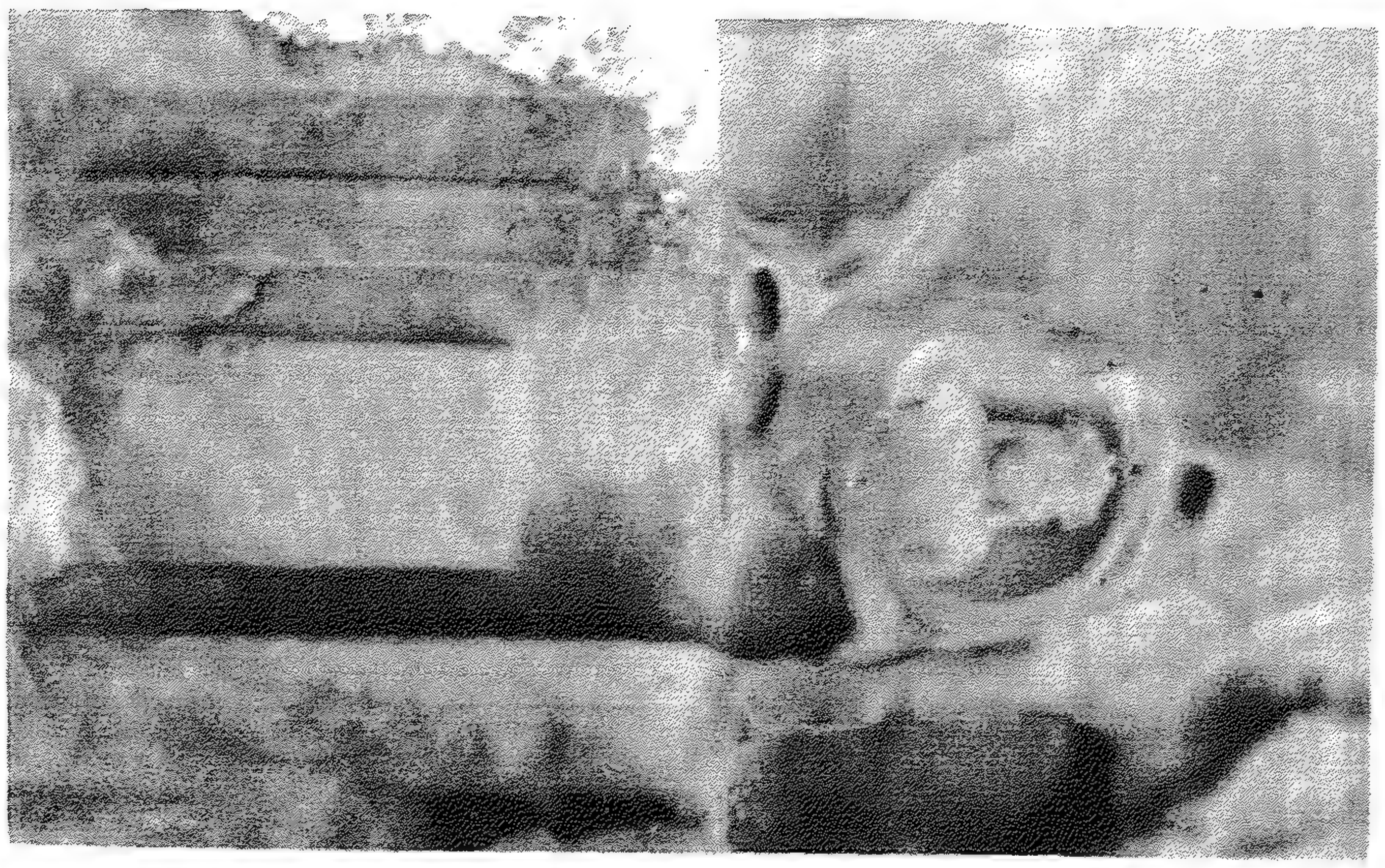
Pl. VI Head of Dionysus, Terracotta Figurine



Pl. VII Head of Dionysus, Terracotta Figurine



Pl. VIII The Theatre of Petra



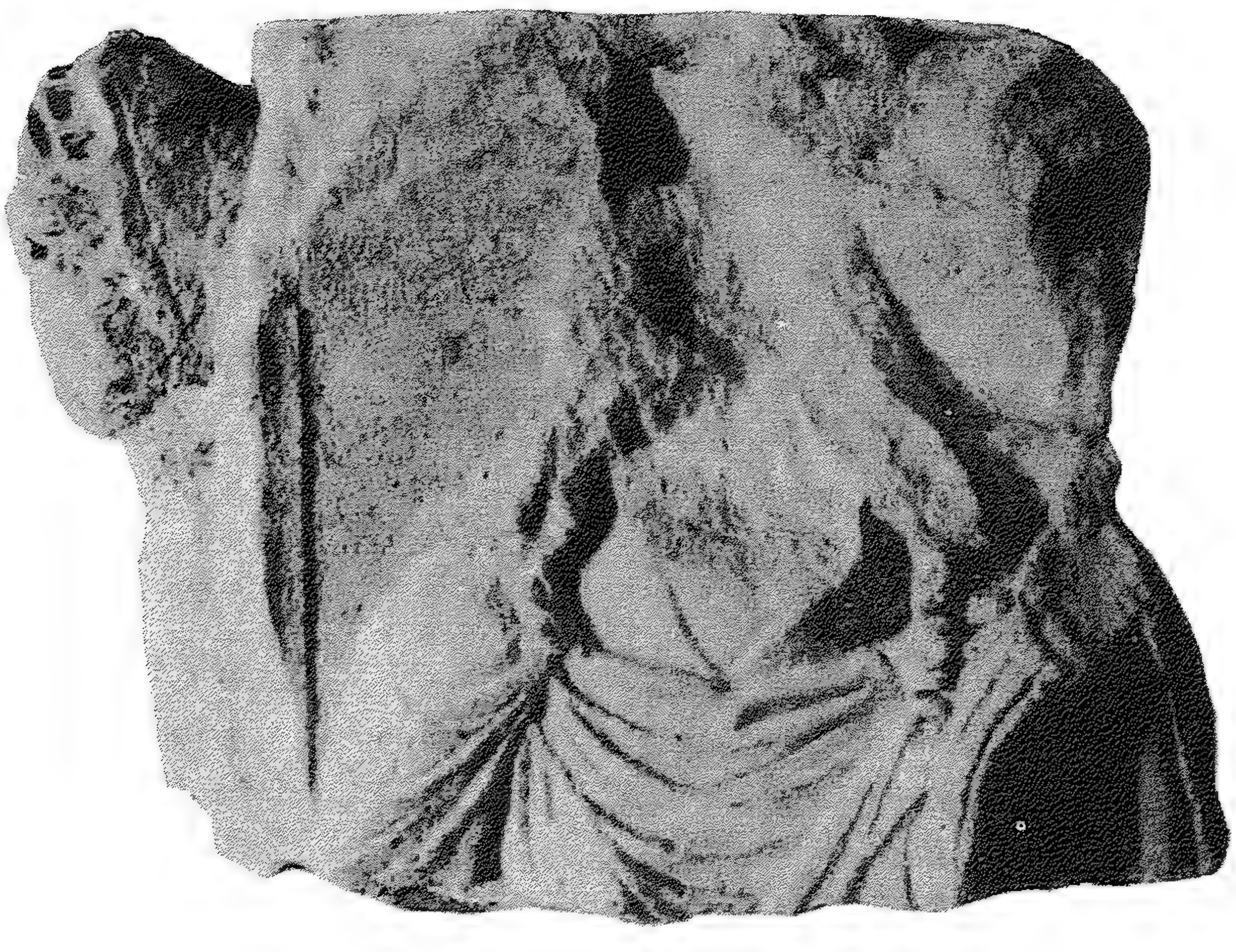
Pl. IV Rock-relief of Dushara-Dionysus at Petra



Pl. III Zeus-Haddad of Tannur



Pl. I Dionysus at Petra



Pl. II Dionysus of Tannur

Dionysus was given a special position in the ceremonial rites by the Nabataeans for their dead.

Conclusion:

As is shown by the archaeological research done in Nabataean art, the god Dionysus is quite certain to have been among the deities worshiped by the Nabataeans. The representation of Dionysus has been observed in the Nabataean pantheon by the archaeological finds of his representations, accompaniments and attributes. The importance of Dionysus to the Nabataeans shows the dominance of Greek and Roman influences on Nabataean mythology and art. Although the god brought his native character from his homeland, his character expressed later through his embodiment in the Nabataean supreme male god, Dhushara, gave him a special position in the Nabataean pantheon, and made his being equated with Dhushara obvious. This equality of stature was mentioned by Herodotus when he wrote about the Arabs: "They deem no other to be gods save Dionysus and Heavenly Aphrodite...they call Dionysus Orotalt, and Aphrodite Alilat"[44].

Theatres, theatrical masks, and the attributes of the god, which can be seen in many forms of Nabataean art, are evidence of the peculiar rank given to Dionysus. Although Dhushara was represented many times as an idol, he appeared later with his anthropomorphic representation in a manner very similar to Dionysus. Dhushara's anthropomorphic representation includes his figure in a niche on the way to the High Place at Petra, and once on the coin of Bostra. Dionysus was one of the few Greek deities who was represented more than one time in the works of terracotta figurines. In addition, Dionysus was perhaps the only god whose representation was carved in the niches of Petra in an anthropomorphic image. The dignity accorded to Dionysus in the Nabataean pantheon surpassed that of other Greek deities. The cult of Dionysus relating to nature worship is readily observable in the Nabataean pantheon. The role of the god afforded by the Nabataeans may have played a large role in their drinking ceremonies, which took place in Nabataean daily life and rituals. The Nabataeans perceived Dionysus to have a powerful connection with the underworld, which may have played a role in Nabataean beliefs.

(44) Herodotus. Histories III, 8.

is one of these animals, which was represented in the sculpture of the Temple of Tannur. This animal crowned the head of the goddess of the temple(37). As is mentioned above, a representation of the dolphin appeared on a relief next to the theatrical mask found at Sabra (Pl. XVI). Dolphins are associated with the sea, and also were associated with the legend of Dionysus, who is said to have turned the Tyrrhenian pirates, who had abducted him, into dolphins. Other animals were also considered sacred in ancient Greece relative to Dionysus, such as the panther(38), the ram, the lion, the serpent and the goat. Goats, ibexes, and rams were depicted in large number in the terracotta figurines found at Petra(39). They were made to be used either in religious ceremonies in Nabataean temples or to be offered as sacrifice to the gods in place of living animals. In Greek mythology Dionysus was turned into a black goat by Zeus to hide him from Hera. In addition, the goat was worshipped as a symbol for the fertility of humans and their flocks(40).

Architectural friezes, which were consistent with the rites of the Dionysus cult, are seen adorning building facades at Nabataean sites. Friezes, which included the grape leaf, Acanthus, vine, and grape motifs, were emphasized in the architecture of Petra, Khirbet et-Tannur, Khirbet edh-Dharih, and Khirbet Brak(41). A good example of these friezes is one from Khirbet et-Tannur (Pl. XXVI), which represents an attractive and very well preserved cluster of grapes surrounded by vine leaves(42). In addition, flowering vines were painted to adorn a natural scene of birds, a flute player and an archer (Pl. XXVII) in a fresco at Siq el-Bared near Petra(43).

One of the functions attributed to Dionysus and one which could not be ignored, especially by the Nabataeans, was that Dionysus was one of the few gods who was believed to be able to bring a dead person out of the underworld. He is said to have done this with his mother Semele when he went to the underworld to find her. It is obvious that the Nabataeans paid much attention to their dead, which fact is evidenced by the magnificent rock facades carved at Petra and (Al-Higr) Mada'en Saleh. It is very likely that the god

(37) Some archaeologists states that Glueck made a mistake by identifying the fish-goddess as a Dolphin-goddess

(38) Youthful Dionysus standing on a plinth holding down a cup towards a panther is found in Jerash, J. H. Iliffe "Imperial Art in Trans-Jordan". QDAP XI (1945): 1-26, pl. (38.1502).

(39) El-Khouri 2002, Pls. 288-307. Some of the ibexes found in Petra are dated to the late Roman and early = Byzantine periods. The ibexes are usually the companions of South Arabian gods.

(40) Hall,J. Illustrated Dictionary of Symbols in Eastern and Western Art. John Murray Ltd. London. 1994, p.26.

(41) Glueck 1965, Pls. 187a, 105a,b, 114c, 174c, Pl. 178c, Pl. 178d; McKenzie 1988.

(42) Glueck 1965, Pl. 30a,b.

(43) Glueck 1965, 6, 291, pls. 203, 204; Mckenzie 1990, pl. 115.

their representations (Pls. XVII-XXIII)[(32)]. Dionysus (Pl. XVII, XVIII) and Isis (Pl. XIX) were the only deities that were represented. The other masks are in a fragmentary state; among them is a unique mask of a monkey (Pl. XX), a mask of *Medusa* (Pl. XXI), and two masks in the tragic style (Pl. XXII, XXIII).

Rituals:

Practioners of the cult of Dionysus performed ritual celebrations, which included intoxication, orgies, and human and animal sacrifices. Strabo, the geographer[(33)], mentioned a special rite involving the drinking of wine by the Nabataeans. He wrote: "They prepare common meals together in groups of thirteen persons; and they have two girl-singers for each banquet. The king holds many drinking-bouts in magnificent style, but no one drinks more than eleven cupfuls, each time using a different golden cup." This particular rite could have been a special rite for religious purposes, related most probably to the wine god Dionysus. Other evidence, which can strengthen this hypothesis, was the appearance in large numbers of *Triclinia* in Petra and Beida, where the rites of drinking wine may have taken place. From the description of the wine-drinking rites mentioned by Strabo, it seems that Dionysus was accepted and worshipped by the Nabataeans as the god who discovered the methods of culturing the vine and extracting and fermenting its juice. It is possible that a kind of communion took place in the *Triclinia*, which has been suggested before[(34)]. The appearance of many pieces of terracotta figurines, in the shape of two singers playing on a string musical instrument and a flute player sitting in the middle is good evidence for kinds of ritual celebrations, which have been mentioned by Strabo as well[(35)].

Dionysus Accompaniments, Attributes:

More evidence by which the cult of Dionysus can be assured are the finding of accompaniments, attributes and symbols of the god. In the main theatre of Petra, two statues of the Greek hero Hercules have been recovered (Pls. XXIV-XXV)[(36)]. Since Hercules was the companion of Dionysus, the discovery of these statues reveals a Hellenistic influence not only in the style of carving these statues, but also Greek and Roman influence of the theatrical arts. Moreover, there were a number of animals that were associated with Dionysus and his cult. Some of the representations of these animals consist of a large number found at Nabataean archaeological sites. The dolphin

(32) El-Khouri 2002, Pls. 137-143.

(33) Strabo, The Geography of Strabo, XVI 4. 26, with an English Translation by Horace Leonard Jones. William Heinemann LTD. London.

(34) Glueck 1965, p. 163; Healey 2001, p. 166-167.

(35) El-Khouri 2002, p. 15-16.

(36) Weber, T. & Wenning, R. Petra Antike Felsstadt zwischen arabischer Tradition und Griechischer Norm. Verlag Philipp von Zabern, Mainz.1997, Abb. 132a,b; Hammond 1965, Pl. XLI.

Theatrical masks were numerous, they varied in their representations, and they were depicted on rock facades, stone and stucco reliefs and in terracotta figurines as well. Theatrical masks were also found dedicated on stone reliefs at Oboda and Hauran(24). A number of rock facades representing various kinds of masks are shown at both Petra and Al Higr(25). Some masks represented deities, and others represented faces of either tragedy or comedy characters. The presence of Nabataean theatrical masks, and in particular the masks of Dionysus(26), demonstrates the special position of the god. The Nabataeans may have believed that Dionysus was responsible for immortality and life after death. From a mythological point of view, the masks of the god could have been made to serve the belief that the god and the wearer became united. However, the masks that represented the face of death were made to show a desire to identify the dead with the deity, and could be an indication of having reached immortality(27).

As for stone masks, a tragedy mask was held by *Melpomene* (Pl. X)(28), the tragedy sponsor and follower of Dionysus, which was found south of the Temple of Qasr El-Bint at Petra during the 1967 British excavations at the site(29). This relief was one of the best-preserved reliefs at Petra. It demonstrates clearly the influence of Greek and Roman theatre on the Nabataeans.

Theatrical masks were also found in the Great Temple of Petra during the recent excavations at the temple. A number of stone masks were recovered, which apparently were used in adorning the temple facades after the building had been transformed into a theatre in the 2nd century A.D(30). These masks represented four females and one male (Pls. XI-XV); they are all in a fragmentary state. In another stone relief which was found at Sabra, south of Petra, and which perhaps belonged to that theatre, a mask represented in the tragic manner was next to numbers of dolphins (Pl. XVI)(31). Theatrical masks that were produced as terracotta figurines varied in

(24) Glueck 1965, p.242, 243, Pls. 5, 6, 7.

(25) McKenzie 1990, Plates 3d, 4b, 7d, 12d, 16c, 135, 136d.

(26) See the article of Ilife, J. H. "Imperial Art in Transjordan". QDAP, XI (1945): 1-26, pls I-IX:, No. 44: (38.1502) for similar examples of theatrical masks and a figurine of youthful Dionysus standing on a plinth found in Jerash.

(27) Glueck 1965, p. 242.

(28) McKenzie 1990, Pl. 62b.

(29) Lindner, M. "Beschreibung der antiken Stadt". In Petra und das Königreich der = Nabatäer. Delp.GmbH, Bad Windsheim. 1997, Abb. 43.

(30) Joukowsky, M. and Schluntz, E. "1994 Archaeological Excavations and Survey of the Southern Temple at Petra, Jordan". ADAJ XXXIX. 1995, Figs. 19-22; Joukowsky, M. Petra Great Temple. Vol. I. Brown University Excavations 1993-1997. E. A. Johnson Company, East Providence, Rhode Island. 1998, Pl. 24, Figs. 5.53, 5.54, 5.55, 5.56, 5.57, 6.74, 6.75, 6.76, 6.77, 6.78)

(31) Glueck 1965, Pl. 5.

wreath[15]. The presence of such a rock-carved relief, along with the idol beneath it, leads to the conclusion that Dhushara is represented in his anthropomorphic shape similarly to that of Dionysus. The similarity between Dionysus and the anthropomorphic Dhushara, with his long flowing hair, is obvious when viewing a coin from Bostra of the emperor Commodus as Caesar[16]. This can explain, therefore, that the transformation of Dhushara's image from a rectangular idol into an anthropomorphic shape came, most probably, through his comparison with Dionysus.

Among the terracotta figurines, the head of Dionysus is represented on three figurines, all in fragmentary states (Pls. V, VI, VII)[17]. These figurines are recognized by the wreath of ivy and vine leaves surmounting the head of the god. The first figurine (Pl. V) was found during the British excavations at Petra from 1958-1964[18]. It was probably part of a complete figure of the god. One of the other figurines (Pl. VII) was found at Oboda and was crowned with two vine clusters or pinecones[19]. Other deities represented in the terracotta figurines were the mother goddesses: Al-'Uzza, Isis, Harpocrates, Aphrodite, Anadyomene, and Nike[20]. However, and unlike many Greek and Roman deities, Dionysus was one of the few gods depicted in terracotta figurines. This fact demonstrates the importance of this god in Nabataean thoughts and beliefs, as well as in the Nabataean pantheon.

Theatre and Masks:

Dionysus was also considered the protector of the theatre. Theatrical plays and masks were related to his cult. All who took part in theatrical plays during the festival were regarded as sacred servants of Dionysus. Interest in the theatre seems to have been intensely held by the Nabataeans in Petra. There were two theatres in the region of Petra, one in the middle of the city (Pl. VIII)[21] and the other in Sabra, south of Petra (Pl. IX)[22]. The cult of Dionysus, with its association with the theatre, can be demonstrated through the number of theatrical masks found in different Nabataean sites, particularly at Petra[23].

(15) Zayadine 1997, Abb. 3.

(16)Bowersock, G. The Cult and Representation of Dushares in Roman Arabia. In Zayadine, Petra and the Caravan Cities. Department of Antiquities. Amman. 1990, P.31, Pl. I.

(17) El-Khouri, Pls. 106-108

(18) Parr, P. "A Commentary on the Terracotta Figurines From the British Excavations at Petra". In Fawzi Zayadine, Petra and the Caravan Cities. Department of Antiquities, Amman.1990, Pl. II, 2.

(19) Negev, A. "The Late Hellenistic and Early Roman Pottery of Nabatean Oboda, Final Report". QEDEM 22.1986, No. 1077.

(20) El-Khouri, Pls. 1-39, 101-195, 66, 68.

(21) Hammond. P. "The Excavation of the Main Theatre at Petra 1961-62". ADAJ VIII-IX. 1964, p. 81-5; The Excavation of The Main Theatre at Petra, 1961-1962. London.1965.

(22) Lindner 1997, 27, Abb. 12

(23) El-Khouri 2002, pls. 139, 143

However, as is demonstrated by Nabataean inscriptions, the Nabataean supreme god is Dhushara and is compared with Dionysus by Nelson Glueck and other researchers(11). The comparison of Dionysus to the supreme Nabataean god, Dhushara, has already been discussed in previous research, and by some historians, such as Herodotus and Hesychios(12).

The relationship of Zeus-Hadad or Qaws at the Temple of Tannur and the fertility goddess Atargatis of the same temple can be compared to the relationship between Dionysus and Demeter in ancient Greek works. Furthermore, symbols of fertility associated with the god at the Temple of Tannur, "Zeus-Hadad" or "Qaws", have a similarity to those of Dionysus. The bull that flanked the god was the primary sacrificial animal of agricultural people. It was associated in the Roman world with Jupiter and Dionysus, and was considered by the Sumerians as a sacred fertilizing power. The roar of the bull represented Ba'al (Bel), the thunder god, who was comparable to Dionysus. The thunderbolt, on the other hand, which was held by the god at the Temple of Tannur and symbolized the power and the authority of the god, cannot be other than a fertility symbol, by which rain is caused.

Zayadine, in his article about Nabataean gods, attributed many characteristics to Dhushara by relying on archaeological evidence. He clearly demonstrated that this god was the supreme god in the Nabataean pantheon, whose duties were superior to those of other gods(13). Zayadine described Dhushara as the god of wine, the god of fertility, supreme god, and the son of the mother goddess, and was the god who was anointed with blood. The similarities between both gods, Dionysus and Dhushara, is demonstrated by the fact that Dionysus is the only god represented in an anthropomorphic image on the rock-carved reliefs at Petra and is interpreted as a female figure by Hammond(14), since the characters of the god are not very well defined. The god is seen in a round relief on the way to the high place (el-Madhbah), carved over a rectangular idol (Pl. IV), crowned by a vine

= this subject, see J. Starcky, the review article of Glueck's Deities and Dolphins, Revue Biblique, 75 (1968): 206-235, for Qaws or Qos, p. 226. and Zayadine, F. "The Nabataean Gods and their Sanctuaries" in F. Zayadine; F. Larché and J. Dentzer-Feydy Le Qasr Al-Bint de Petra. L'architecture, le Décor, la Chronologie et les dieux. Éditions Recherche sur les Civilizations. 2003. Paris. P. 118.

(11) Glueck 1965, p.86, 416; Zayadine, F. "The Nabataean Gods and their Sanctuaries" = 2003: 119.

(12) Herodotus. Historien III, 8. Kröner. Stutgart. 1971; Glueck 1965, p.86, 416; Zayadine, F. "Die Götter der Nabatäer". In Manfred Lindner, Petra und das Königreich der Nabatäer. Delp.GmbH, Bad Windsheim. 1997, p.116; Hammond, P. "The Medallion and Block Relief at Petra". BASOR, 192. 1968, p.16-21; Healey, J. The Religion of the Nabataeans. Brill, Leiden. 2001: 100-102.

(13) Zayadine 1997.

(14) Hammond 1968.

hand, as a symbol of the wealth giver[5]. The style of this relief differs from that of the relief at Petra in that it follows the style of Nabataean art of Khirbet et-Tannur and was produced later than the relief at Petra[6].

The Nabataean fertility cult is represented through many archaeological finds, such as sculptural works and terracotta figurines. The sculptures of Khirbet et-Tannur clearly depicted several different deities, almost all having the same function relative to the cults of fertility and vegetation. On the other hand, terracotta figurines produced in the form of the enthroned mother goddess, who was believed to have had a close relationship with fertility, comprised the largest number of all figurine types[7]. In these figurines, the mother goddess was represented nude, sometimes displaying her breasts, and holding a pomegranate in her hand. These kinds of figurines were also familiar in the Orient, prior to the coming of the Nabataeans[8].

Most of the Greek theatre plays were written to be performed at the feast of Dionysus, which was called *Dionyssia,* and which took place in the spring season. A type of spring festival was also known to the Arabs in ancient times as one in which they celebrated the coming of the fruitful season[9]. This festival could have been associated with a particular god, which in the Nabataean world was most probably a sculpted goddess as shown at the Temple of Tannur, and evident from terracotta figurines as well. The Nabataean goddess, comparable to the fertility goddesses Atargatis and Demeter, is doubtless Al-'Uzza. Al-'Uzza, the supreme female Nabataean deity, is also comparable to a number of other supreme goddesses, such as Isis and Aphrodite. This conclusion means that Al-'Uzza had more than one character, and that it indicates her importance to the Nabataeans.

This interpretation of the goddess Al-'Uzza supports the consideration that Dhushara could in the same way be comparable to several other deities. It appears that this god "borrowed" particular traits from a variety of gods, among them Dionysus. This conclusion is supported by the relief of the god at the Temple of Tannur. The god is described as the supreme Nabataean male deity and is called "Zeus-Hadad" by Nelson Glueck (Pl. III) and mentioned in the Nabataean inscriptions as (the Edomite god) Qaws[10].

(5) Glueck, N. 1965, Pl. 53b, 410.
(6) McKenzie 1988, p.86-92.
(7) El-Khouri, L. The Nabataean Terracotta Figurines. British Archaeological Reports. 2002: 9-11, Pls. 1-32.
(8) Amr, Abd el-Jalil. A Study of the Clay Figurines and Zoomorphic Vessels of Trans-Jordan During the Iron Age. Thesis = submitted to the University of London for the degree of Doctor of Philosophy. 1980: 110-128.
(9) Glueck 1965, p.416.
(10) As a matter of fact the main god of Tannur, who is mentioned in the Nabataean inscription is Qaws. He is a storm god and can be identified with Zeus-Hadad. For =

Ba'al, and compared to the Hebrew god Yahweh[(2)]. The gods of supreme importance included Dionysus, Dhushara, Ba'al and Yahweh, arising out of some common functions attributed to them. Therefore, the main inquiry of this paper is: How did Dionysus appear in the Nabataean pantheon, and how did the Nabataeans equate him with their supreme god Dhushara.

Stone Reliefs of Dionysus:

The cult of Dionysus, which was associated with the fertility goddess Demeter, was associated in ancient Greece with nature, fertility and vegetation as well. The images of Dionysus often were represented in Greek art in the form of a young man whose head was adorned with a wreath of vine and ivy leaves.

One of the best representations of Dionysus produced by the Nabataeans was found at Petra, at the Temple of Qasr el-Bint, during the British excavations of 1967. The head of the god was carved in a limestone relief, employing a Hellenistic style. The Hellenistic art style in this relief is apparent from the natural manner of representing expressive emotional features. The young god in this relief is shown in the typical manner of wearing a wreath of ivy and vine, while holding a *thyrsus* (Pl. I), which appears on the right side of his head[(3)].

This sculptural relief was not the only representation of Dionysus by the Nabataeans; however, it was the best and the closest in shape and form to the god's images in Hellenistic art. Dionysus was one of the few Greek gods represented on the sculptural reliefs of the Temple of Tannur (Pl. II)[(4)] and it is understandable that the image of Dionysus was part of the pantheon of the Temple of Tannur because that temple has had a close association with the cults of fertility and vegetation, and it might be dedicated to the fertility goddess Atargatis, the consort of the Greek goddess Demeter. Since the face of the god was completely damaged in this relief, he was recognized through the full horn (cornucopia) he was carrying in his left

= gods: Dionysus and Ourania whom they venerate under the names of Orotalt and Alilat. For Starcky, Orotalt is Ruda, the evening star, equivalent to Hermes-Mercury. As for Dionysus, he thinks he is equivalent to Dhushara. He quotes Isodore of Charax who notes :"Dusares is Dionysus for the Nabataeans".

(2) Wellhausen, J. Reste Arabischen Heidentums. Reimer, Berlin.1897, p.50-51

(3) Wright, G. "Some Aspects Concerning the Architecture and Sculpture. Recent Discoveries in The Sanctuary of Qasr Bint = Far'un". ADAJ XII-XIII, 1967 - 68, p. 20-29, Pl. XVI B; McKenzie, J. "The Development of Nabataean Sculptures at Petra and Khirbet Tannur". PEQ 120, 1988, Fig. 11 b; The Architecture of Petra. Oxford: OUP. 1990, Pl. 62a. The relief of Dionysus which was found in 1967 has an excellent parallel which is now in the Archaeological Museum of Philadelphia, Penn. And was discovered in Italy and is dated to the 1st century A.D.

(4) Glueck, N. Deities and Dolphins. Farrer, Straus and Giroux. New York. 1965, p. 288.

Age, Vol. 15, Part 2, 5 – 21 (2005)

Dionysus and Its Representations by the Nabataeans

Dr. Lamia El-Khouri

Abstract:

Nabataean art, such as the stone reliefs, sculpture, and terracotta figurines found at Nabataean sites, include representation of many imported deities, with their native characteristics, brought from their Greek and Roman homelands. Even though these deities were depicted in different types of Nabataean art, they were not mentioned by their original names in Nabataean inscriptions. The inscriptions that mentioned Nabatean deities are neither numerous nor reliable enough to give a clear indication and absolute interpretation of the Nabatean pantheon. Since the written information about this theme is rare, this paper will discuss the representation of the god Dionysus in his different forms in Nabataean art, and whether this representation influenced the thoughts and beliefs of the Nabataeans.

Discussion:

Dionysus was one of the Greek gods .whose image appeared among a great number of archaeological finds at Nabataean sites, and particularly in the Nabataean capital of Petra. A Dionysus cult was widespread in the Classical Ages in the East. His image, carved in reliefs or sculptures, painted or in mosaic, appeared in many places in Jordan, Palestine, Lebanon, Syria and Egypt•. Although Dionysus was not mentioned in Nabataean inscriptions, this god has been observed in the Nabataean pantheon through his representation, his associates, and attributes. Dionysus, son of Zeus and Semele, was thought of as the god of wine, vine, joy, mystic ecstasy, and fertility. He was identified with the Roman Bacchus(1). The Greeks and Romans called the Nabataean supreme god, Dhushara, the Arabian Dionysus or Bacchus. Dionysus has also been equated with the Syrian god

• For Dionysus images in the Orient see LIMC III 1, P. 514-531 and LIMC III 2 Pls. in pages 407-418. For more information about Dionysus cult see Jeanmaire, H. *Dionysus, Histoire du Cult de Bacchus*. Bibliothéque Historique. Payot, Paris (1990).

(1) Starcky, J. "Quelques aspects de la religion des Natataéens". *Studies in The History and Archaeology of Jordan*, I. Bath: Pitman Press. 1982: 195. Starcky is quoting Herodote Hist. III, 8 who states that the Arabs in Eastern Delta ... deem but two =

Age, Vol. 15, Part 2, 1 – 21 Eng., 1 - 119 Arb. (2005)

Contents:

English Section

القسـم العربـي

Consultants

Ages

P.O. Box 10720 Riyadh 11443 , Tel 4647531 – 4658523 , Fax 4657939 .
Email : marspub1@zajil.net

Web Site : http://alosour.netfirms.com
E-mail : al_Osour@hotmail.com

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE :

- Saudi Arabia	S.R. 100
- All Arab Countries	U.S. $ 35
- All European Countries	U.S. $ 40
- U.S.A. & Canada	U.S. $ 45
- Australia & South Asia	U.S. $ 50

All MSS should be addressed to :
- Mars Publishing House,
P.O. Box : 10720, Riyadh 11443,
Saudi Arabia.
The Arabic Publishing & Distribution House Lts.
49 Goldhawk Road
London W12 8 QP
England

Ages

A Semi - annual Journal of Historical, Archaeological and Civilizational Studies

VOLUME 15
PART 2
July 2005
JUMADA' I 1426

Published by : Mars Publishing House London